دكتور رمضان عبد التواب



الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

فصول في
فقه العربية

تأليف
الدكتور رمضان عبد التواب
العميد السابق لكلية الآداب
جامعة عين شمس

الطبعة السادسة
١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

مكتبة الخانجى

للطباعة والنشر والتوزيع

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

رقم الإيداع

٩٩/١٣٠٠٩

الترقيم الدولى

I.S.B.N. 977 - 5046/57 - 2

الشركة الدولية للطباعة

مدينة السادس من أكتوبر - المنطقة الصناعية الثانية

☎ : ٠١١ - ٣٣٨٢٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

صدر هذا االكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٧٣ م ، فتلقفه القراء والمتخصصون ، فى شتى أنحاء الوطن العربى ، بيد الرضا والقبول ، ونفدت تلك الطبعة ، فى أقل مما قدر لها من الوقت ، وحالت ظروف انشغالى ببعض الأعمال العلمية الأخرى ، دون التفكير فى إعادة طبعه من جديد .

غير أن اشتداد الطلب على الكتاب ، جعلنى أسمح للناشرين بتيسير الانتفاع به ، عن طريق التصوير (بالأوفست) ، فصورته مكتبة دار التراث مرة فى عام ١٩٧٧ ، كما صورته مكتبة الخانجى مرة أخرى فى عام ١٩٧٩ م .

ونفدت مصوراته هذه وتلك بسرعة ، وطلب منى المرحوم الحاج نجيب الخانجى ، قبل أن يتوفاه الله إلى رحمته بشهور ، أن أعدّ له طبعة جديدة من الكتاب ، ليتولى هو إخراجه ونشره على نفقته ، فلبيت رغبته الكريمة . وهذه الطبعة الجديدة مهداة إلى روحه الطاهرة ، رحمه الله رحمة واسعة .

وتمتاز هذه الطبعة ، بزيادات مهمة فى كل فصل من فصول الكتاب ، وإفادة جمة من المصادر الجديدة ،التى ظهرت بعد صدور الطبعة الأولى ، وإعادة النظر فى كثير من قضاياه ، فى ضوء تلك المصادر . وقد أضفت إلى الكتاب فصلا جديدا ، عن مشكلة « تعليم العربية » فى الباب الخامس ، الخاص « بقضايا اللغة ومشكلات العربية » .

كما أن فيها إضافات أخرى ، هنا وهناك ، عن الموطن الأصلى

للساميين ، ومعرفة العرب القدامى باللغات السامية ، والاستشهاد بالحديث الشريف ، وبعض المعاجم العربية ، وظاهرة العلاقة بين اللفظ والمعنى وغير ذلك .

وإنه لمما يثلج الصدر حقا ، أن هذا الكتاب ، بما تضمنه من آراء ونظريات فى اللغة ، كان ذا صدى كبير فى المؤلفات اللغوية ، والرسائل العلمية فى الوطن العربى ، فى السنوات الماضية . وإنى لأرجو أن تنال هذه الطبعة من الرضا والقبول ، ما نالته أختها من قبل ، والله الموفق .

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب .

د . رمضان عبد التواب

مقدمة الطبعة الأولى

عنى اللغويون والنحويون ، منذ أواخر القرن الأول الهجرى ، بدراسة الفصحى ، وهى اللغة الأدبية المشتركة ، بين مختلف القبائل فى الجزيرة العربية ، تلك اللغة التى سجل بها الشعراء خواطرهم ، ومظاهر الحياة من حولهم ، كما استخدمها الخطباء فى محافلهم وأسواقهم الأدبية ، ثم توَّجها القرآن الكريم ، فأنزله الله تعالى ، بأعلى ما تصبو إليه هذه اللغة من مستوى . ومنذ ذلك الحين ، ارتبطت هذه اللغة بالقرآن الكريم ، واجتهد النحاة واللغويون فى دراستها ، وتحديد معالمها ، من نواحى الأصوات ، والصيغ والأبنية ، والدلالة ، وتركيب الجملة ، ووظيفة الكلمة فى داخل هذه الجملة .

ليس معنى هذا كله أن الناس كانوا فى الجاهلية ، لا يتحدثون فيما بينهم إلا بهذه اللغة ؛ فقد كانت هناك لهجات كثيرة ، لم ترق إلى هذا المستوى الأدبى ، ولم يحفل بها الشعراء والخطباء . وقد روى لنا اللغويون العرب ، مقتطفات مبتورة من هذه اللهجات ، فحدثونا عن فحفحة هذيل ، وعنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وتلتلة بهراء ، كما ذكروا لنا طرفا من خصائص لهجة بلحارث بن كعب وطيىء وغيرهما .

غير أن الهدف الأساسى عند هؤلاء اللغويين ، كان هو محاولة رسم معالم اللغةالأدبية ، لغة القرآن الكريم والشعر والخطابة ، وغير ذلك من الفنون الأدبية ، وهى تلك اللغة التى اصطلحنا على تسميتها بالفصحى .

ومن القواعد المقررة عند علماء اللغة ، أنه يستحيل على مجموعة بشرية تعيش فى مساحة أرضية شاسعة ، أن تصطنع فى حديثها اليومى ،

لغة موحدة تخلو من اختلاف صوتى ، أو دلالى ، أو اختلاف فى البنية أو التراكيب ، إن هذه قضية ليست فى حاجة إلى برهنة ؛ فاللغات التى تعيش بيننا الآن ، تعانى من هذه الظاهرة ، ولا يمكن تجنبها فى أية لغة من اللغات مع الأسف الشديد ، وإذا أردت مثالا على هذا ، فأمامك لغة الحديث فى مصر ، تختلف من منطقة إلى منطقة ، ومن محافظة إلى أخرى ، وإنكار ذلك ضرب من العبث .

الازدواج اللغوى إذن ، ظاهرة موجودة فى جميع اللغات منذ القديم ، ولا سبيل إلى إنكارها ، غير أن انتشار تعليم اللغة الأدبية ، مما يخفف من حدة هذا الازدواج عند الشعوب ، التى ترتفع فيها نسبة التعليم إلى درجة كبيرة ، ومع ذلك يظل هذا الازدواج موجودا ، غاية ما هنالك أنه يحدث نوع من التقارب ، بين لغة الحديث واللغة الأدبية ، بحدوث التفاعل بينهما ، فتتأثر كل واحدة منهما بالأخرى ، وعندئذ تقوم قيامة المحافظين المتشددين الغيورين على اللغة الأدبية ، العارفين بخصائصها ، فيعيبون هذا التأثير العامى ، فى كتابات الكتاب وشعر الشعراء ، ويحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم ، وأنصار الشكل الحديث ، ويكون الانتصار فى النهاية للشكل الحديث ــ تلك هى حياة اللغات جميعا ، وعن هذا الطريق تتولد لغة من لغة ، وتموت لغة وتحيا أخرى .

أما إذا انخفضت نسبة تعليم اللغة الأدبية ، عند أمة من الأمم ، فإن الهوة تتسع بينها وبين لغة الحديث اليومى ، اتساعا يباعد بينها فى النواحى الصوتية والدلالية ، وغير ذلك مما أشرنا إليه من قبل . وهذا هو الحال فى اللغة العربية الأدبية وعامياتها فى البلاد العربية ، شأن كل أمة ترتفع فيها نسبة الأمية ، إلى هذا الحد الذى وصلت إليه الشعوب العربية .

من كل هذا نرى أن الازدواج اللغوى قائم لا مفر منه ، وكان من الممكن أن يترك للتفاعل أثره ، بين العربية الفصحى وعامياتها المختلفة ، فتتولد من هذا التفاعل لغة أدبية جديدة ، تتفاعل مع العاميات مرة

أخرى ، لتنشأ لغة أدبية جديدة مرة أخرى . . . إلى ما شاء الله ، غير أن ذلك يمكن أن يحدث فى أية لغة من اللغات – وهو يحدث بالفعل – فيما عدا العربية التى كان يحدث فيها مثل ذلك بالطبع ، إلى أن ارتبطت بالقرآن الكريم ، منذ أربعة عشر قرنا ، ودُوِّن بها التراث العربى الضخم ، الذى كان محوره هو القرآن الكريم ، فى كثير من مظاهره .

هذا هو السر الذى يجعلنا لا نقيس العربية الفصحى ، بما يحدث فى اللغات الحية المعاصرة ، فإن أقصى عمر هذه اللغات فى شكلها الحاضر ، لا يتعدى قرنين من الزمان ، فهى دائمة التطور والتغير ، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة ، تأخذ منها وتعطى ، ولا تجد فى ذلك حرجا ؛ لأنها لم ترتبط فى فترة من فترات حياتها بكتاب مقدس ، كما هو الحال فى العربية .

هذه مقدمة ، أردت بها أن أبين عدة أمور ، منها أن الدرس اللغوى ، عند اللغويين القدماء ، ارتبط فى أذهانهم بقدسية العربية ، وارتفاع شأنها على ما عداها من اللغات واللهجات ، ومن هنا انصرفوا عن الدرس المقارن للعربية ، فى إطار فصيلتها السامية من جانب ، ولهجاتها المحلية من جانب آخر ؛ ولذا نرى براعتهم الفائقة فى تسجيل الظواهر اللغوية فى العربية ، بمقدار ما نرى أوهامهم الكثيرة ، فى البحث عن أسرار هذه الظواهر وتعليلها .

كما أن منهج القدماء ، اضطرب بين الغض من شأن اللهجات العربية القديمة ، والخلط بينها وبين الفصحى ، فى متن اللغة وقواعدها فى كثير من الأحيان ، مما أدى إلى كثرة الشذوذ ، والالتجاء إلى التأويل ، وتحكيم المنطق العقلى فى كثير من الظواهر اللغوية ، التى تخضع كل واحدة منها ، لمنطق لغوى خاص .

ومن العجيب أن نرى جمهرة شواهد اللغة عندهم ، تعتمد على الشعر بمعانيه وأخيلته ، وموازينه وضروراته ، ولا شك أن هناك قدراً

مشتركا فى اللغة ، بين البناء النثرى ، والبناء الشعرى فى العربية ، غير أن الاعتقاد فى التطابق بين هذين الجنسين فيها ، كان أساسا لاعتماد اللغويين على الشعر فى غالب الأحيان ، لاستنباط قواعد الكلام العربى ، ودلالات ألفاظه ، وتصنيف صيغه وأوزان مفرداته .

كما كانوا يرون فى العربية أمرا سحريًّا ، جعلهم يربطون بين الصوت ومدلوله اللغوى ، ربطا حتميا ، مع أنه فى واقع الأمر ليس إلا رمزا اصطلاحيا لما يدل عليه ، وبلغ من إعجابهم بالعربية ، أن ادعوا عروبة ما فيها من ألفاظ ، اقترضها العرب من لغات الأمم المجاورين لهم ، شأنهم فى ذلك شأن سائر الأمم ، التى تحيا لغاتهم ، بهذا التفاعل اللغوى بينهم وبين جيرانهم .

ورغم عنايتهم الشديدة بالصوت اللغوى ، وكشفهم الحجب عن كثير من خصائصه ومكوناته ، فقد وقعوا فى وهم الخلط ، بين النطق والكتابة فى بعض الأحيان ، وأسسوا بعض قواعدهم على هذا الوهم ، ولم يفطنوا إلى الازدواج فى وظيفة بعض الرموز الكتابية ، وظنوا الحركة عرضا للحرف ، وغفلوا عن التطور التاريخى للخط العربى ، وغير ذلك من الأمور ، التى زعزعت كثيرا من أسس الدرس اللغوى عند العرب .

وهذا الكتاب محاولة متواضعة ، للكشف عن هذه المشكلات جميعها ، وتقليب وجهات النظر القديمة والحديثة فيها ، والبحث عن الأسس التى تقوم عليها ، فى ضوء المناهج اللغوية الحديثة ، والإفادة من الدرس اللغوى المقارن ، كلما أمكن ذلك .

فإن أك أصبت ، فالخير أردت ، والله تعالى أسأل أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به العربية وعشاقها . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د . رمضان عبد التواب

تمهيد

١- بين فقه اللغة وعلم اللغة

تطلق كلمة « فقه اللغة » عندنا الآن على العلم الذى يحاول الكشف عن أسرار اللغة ، والوقوف على القوانين التى تسير عليها فى حياتها ، ومعرفة سر تطورها ، ودراسة ظواهرها المختلفة ،دراسة تاريخية من جانب ، ووصفية من جانب آخر .

وهو بهذا المعنى يضم كل الدراسات اللغوية ، التى تبحث فى نشأة اللغة الإنسانية ،واحتكاك اللغات المختلفة بعضها ببعض ، ونشأة اللغة الفصحى واللهجات ، وكذلك تلك التى تبحث فى أصوات اللغة ، ودلالة الألفاظ وبنيتها ، من النواحى التاريخية المقارنة ،والنواحى الوصفية ، وكذلك فى العلاقات النحوية بين مفرداتها ، كما تبحث أخيرا فى أساليبها ، واختلاف هذه الأساليب ، باختلاف فنونها من شعر ونثر ، وغير ذلك .

وهذا هو ما يطلق عليه فى الغرب اسم Philology ، وإن كانت هذه الكلمة : Philologie قد تحددت عند الألمان ،بدراسة النصوص اللغوية ، دراسة تاريخية مقارنة[1] ،لمحاولة فهمها ، والاستعانة بذلك فى دراسة الفروع اللغوية الأخرى ، التى يبحث فيها علم آخر عندهم هو « علم اللغة » Sprachwissenschaft .

ويرى « ماريو باى » Mario Pei « أن موضوع فقه اللغة Philology لا يختص بدراسة اللغات فقط ،ولكن يجمع إلى ذلك ،

---

(١) انظر أيضا : دور الكلمة فى اللغة ، ص ٤ هامش المترجم .

دراسات تشمل الثقافة والتاريخ ، والنتاج الأدبى للغات موضوع الدراسة . أما علم اللغة Linguistics فيركز على اللغة نفسها ، ولكن مع إشارات عابرة أحيانا ، إلى قيم ثقافية وتاريخية[٢] » .

وكل علم من هذين العلمين ، لا ينفصل فى الواقع عن الآخر ، انفصالا حادا ، ولا يمكن لأحدهما أن يستغنى عن الآخر مطلقا . وفى هذه المسألة يقول « لومل » Lommel فى رسالة له بعنوان : Wie studiert man Sprachwissenschaft ? « كيف يدرس علم اللغة ؟ » : « إن علم اللغة من أهم الوسائل المساعدة للدراسات الفيلولوجية من جانب ، ومن جانب آخر فإنه علم قائم بذاته ، له وظيفة معينة ، وطرق وميادين معروفة ، ولا يستغنى علم اللغة عن الفيلولوجيا ، لأن أهم مصادره هى النصوص اللغوية . والعلاقة وثيقة بين العلمين ، إلى درجة أن الاستعمال الشائع للكلمتين ، لا يكاد يفرق بينهما » .

وقد ظهرت كلمة « فقه اللغة » فى العالم العربى الحديث ، فى الجامعة المصرية ، وبخاصة عندما استقدم جماعة من المستشرقين ، ليعاونوا فى التدريس[٣] ، كما « ذكر السنيور جويدى Guidi فى محاضرته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ م ، أن كلمة Philologie تصعب ترجمتها بالعربية ، وأن لها فى اللغات الغربية معنى خاصا ، لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب ؛ فمنهم من يرى أن هذا العلم ، مجرد درس لقواعد الصرف والنحو ، ونقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يرى أنه ليس درس اللغة فقط ، ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها ، وإذا صح ذلك ، فمن الممكن أن يدخل فى دائرة الفيلولوجى ، علم اللغة وفنونها المختلفة ، كتاريخ اللغة ، ومقابلة اللغات ، والنحو ، والصرف ، والعروض ، وعلوم البلاغة ، وعلم الأدب فى معناه الأوسع ؛ فيدخل تاريخ

---

(٢) أسس علم اللغة ٣٥

(٣) مقدمة لدراسة فقه اللغة ، للدكتور محمد أحمد أبو الفرج ١٢

الأدب ، وتاريخ العلوم من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينه فى المجاميع والمجلات ، وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة ، وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية ، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل إلى معرفة كنه هذه الحياة العقلية ، إلا بدرس أحوال المركز ، الذى نشأت فيه تلك الآثار الأدبية(٤) » .

وقد تخصص « فقه اللغة » فى الجامعات العربية ، بدراسة « فقه اللغة العربية » ، وإن اختلفت مناهجه فيها ، بين الدراسة التقليدية القديمة ، ومحاولات لتطبيق المناهج الحديثة فى الدرس اللغوى .

أما « علم اللغة » Linguistics ويطلق عليه أحيانا اسم : « علم اللغة العام » General Linguistics فقد دخل بعض الجامعات العربية حديثا ، وتعالج فيه عادة قضايا اللغة ، مجردة عن الارتباط بأية لغة من اللغات(٥) ؛ فاللغة التى يبحث فيها هذا العلم ، ليست هى اللغة العربية ، أو الإنجليزية ، أو الألمانية ، وإنما هى « اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها » كما يقول دى سوسير(٦) ، هى اللغة التى تظهر وتتحقق فى أشكال لغات كثيرة ، ولهجات متعددة ، وصور مختلفة من صور الكلام الإنسانى ، فمع أن اللغة العربية تختلف عن الإنجليزية ، وهذه تختلف عن الألمانية ، فإن هناك أصولا وخصائص جوهرية ، تجمع بين هذه اللغات من جانب ، كما تجمع بينها وبين سائر اللغات ، وصور الكلام الإنسانى ، من جانب آخر ، وهو أن كلا منها لغة ، أو نظام اجتماعى معين تتكلمه جماعة معينة ، بعد أن تتلقاه عن المجتمع ، وتحقق به وظائف معينة ، وينتقل من

---

(٤) النثر الفنى فى القرن الرابع ، للدكتور زكى مبارك ٣٧/٢

(٥) فى المكتبة العربية كتابان ، لواحد من كبار علماء اللغة فى مصر ، هو الدكتور على عبد الواحد وافى ، أحدهما بعنوان : « فقه اللغة » ، والآخر عنوانه : « علم اللغة » . والكتابان يعالجان مسائل اللغة عموما ، غير أن الأول منهما ، يتعلق بما يتصل باللغة العربية بالذات ، تعلقا كبيرا .

(٦) انظر : علم اللغة ، رأى ومنهج ، للدكتور محمود السعران ٥١

جيل إلى جيل ، فيمر بأطوار من التطور ، متأثرا فى ذلك بسائر النظم الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والدينية ، وغير ذلك .

وهكذا نرى أن « علم اللغة » يستقى مادته من النظر فى اللغات على اختلافها ، وهو يحاول أن يصل إلى فهم الحقائق والخصائص ، التى تجمع اللغات الإنسانية كلها ، فى إطار واحد .



٢ – جهود علماء العربية فى فقه اللغة

اسم « فقه اللغة » قديم عند العرب ، وإن لم يكن شاملا لكل فروعه ، التى نهتم بها الآن ، فى « فقه اللغة العربية » . ولدينا بهذا الاسم كتاب لأبى منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) ، المسمّى : « فقه اللغة وسر العربية » . وفى تسمية هذا الكتاب بهذا الاسم ، شىء من التجوز فى الواقع ؛ إذ ليس فيه من مسائل فقه اللغة ، التى تحدثنا عنها فيما مضى ، سوى باب : « سر العربية » فى آخره ، وما عداه عبارة عن معجم للغة العربية ، رتبه على حسب الموضوعات ، تماما كما فعل من قبله أبو عبيد القاسم بن سلام (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) فى كتابه : « الغريب المصنف فى اللغة » وكما فعل فى عصره ابن سيدة الأندلسى (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) فى كتابه الضخم : « المخصص فى اللغة » . وسنعود لذلك بالتفصيل ، عند حديثنا عن « المعاجم العربية » فيما بعد .

ولدينا كتاب آخر اسمه : « الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها » ، لأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) ، ضمنه كثيرا من مسائل فقه اللغة العربية ، مثل نشأة اللغة ، وخصائص اللسان العربى ، واختلاف لغات العرب ، ولغات العامة من العرب ، والقياس والاشتقاق فى اللغة العربية ، وآثار الإسلام فى اللغة العربية (وهذا الموضوع ألف فيه أبو حاتم الرازى كتابه : الزينة فى الكلمات الإسلامية) ، والمترادف ، وحروف الهجاء العربية ، وحروف المعنى ، وأسماء الأشخاص ومأخذها ، وغير ذلك . وقد ألف فى الموضوع الأخير عبد الملك بن قريب الأصمعى (المتوفى سنة ٢١٦ هـ) كتاب : اشتقاق

الأسماء ، وهو يحاول فى هذا الكتاب ، أن يعثر لكل اسم عربى ، من أسماء الأشخاص أو القبائل ، على مأخذ يشتق منه من مواد اللغة العربية . وقد تابعه على ذلك مجموعة من العلماء ، كابن دريد الأزدى (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) فى كتابه : الاشتقاق ، وأبى القاسم الزجاجى (المتوفى سنة ٣٣٧ هـ) فى كتابه : اشتقاق أسماء الله .

ولابن فارس كتاب آخر اسمه : « مقاييس اللغة » ، وهو معجم لألفاظ اللغة العربية ، مرتب على الحروف الهجائية ، إلى حدٍّ ما ، غير أن فيه فكرتين جديدتين على حركة التأليف فى المعاجم فى عصره ، وتعدّان فى الواقع من صميم « فقه اللغة » ، وهما فكرتا : « الأصول » و « النحت » ؛ فهو يحاول بالفكرة الأولى أن يدرج مفردات المادة اللغوية الواحدة ، تحت أصل أو أصلين ؛ مثل قوله : « الظاء والفاء والراء : أصلان صحيحان ، يدل أحدهما على القهر والفوز والغلبة ، والآخر على قوة فى الشيء ، ولعل الأصلين يتقاربان فى القياس ، فالأول : الظَّفَر ، وهو الفوز بالشيء .. والأصل الآخر : الظُّفْر ، ظفر الإنسان ... إلخ[1] » .

أما فكرة النحت ، فخلاصتها أن ابن فارس جمع ما زاد على الثلاثى ، من كل مادة ، تحت أبواب معينة ، وحاول تفسير بعضها بما يسمى النحت ، مثل قوله : « بُحْتُر ، وهو القصير المجتمع الخَلق ، فهذا منحوت من كلمتين : الباء والتاء والراء ، وهو من بَتَرته فَبُتِرَ ، كأنه حُرِمَ الطول فَبُتِر خَلْقُه . والكلمة الثانية : الحاء والتاء والراء ، وهو من حَتَرْتُ وأَحْتَرْتُ ، وذلك ألّا تُفْضِل على أحد ؛ يقال : أحتر على نفسه وعياله ، أى ضَيَّق عليهم ؛ فقد صار هذا المعنى فى القصير ؛ لأنه لم يُعْطَ ما أعطيه الطويل[2] » .

ويذهب ابن فارس إلى هذه النظرية كذلك ، فى كتابه :

---

(١) مقاييس اللغة ٣/٤٦٥

(٢) مقاييس اللغة ١/٣٢٩

« الصاحبى فى فقه اللغة » ؛ فيقول : « هذا مذهبنا فى أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف ، فأكثرها منحوت ؛ مثل قول العرب للرجل الشديد : ضِبَطْر ، من ضبط وضبر ، وفى قولهم : صَهْصَلِق ، أنه من : صهل وصلق ، وفى الصِّلْدِم أنه من : الصَّلْد والصَّدم[٣] » .

ولا تقتصر جهود علماء العربية فى فقه اللغة ، على ما ألفه الثعالبى وابن فارس ، فهناك أبو الفتح عثمان بن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) ، الذى ألف كتابه : « الخصائص » ، وضمنه كثيرا من البحوث اللغوية القيمة ، كبحثه فى أصل اللغة ، ومقاييس العربية ، وتعليل اللغة ، والقياس ، والاشتقاق ، وغير ذلك .

وهناك بعض البحوث ، التى ضمنها ابن سيدة الأندلسى كتابه : « المخصص » ، الذى أشرنا إليه من قبل ، كالبحوث التى تناول بها الترادف ، والاشتراك ، والتعريب ، والاشتقاق ، والتذكير والتأنيث ، والمقصور والممدود ، وغير ذلك .

وهناك أيضا تلك البحوث القيمة ، التى أودعها جلال الدين السيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ) كتابه : « المزهر فى علوم اللغة وأنواعها » ، وهو كتاب ضخم فى مجلدين ، ملىء بالبحوث اللغوية المختلفة ؛ مثل البحث فى نشأة اللغات ، والمصنوع ، والفصيح والحوشى والغريب ، والمستعمل والمهمل ، وتوافق اللغات ، وتداخلها ، والمولّد والمعرّب ، والاشتقاق ، والترادف والاشتراك والتضاد ، والإبدال ، والقلب ، والنحت ، وغير ذلك . وهو دائرة معارف واسعة ، اعتمد فيها على الكثير من المؤلفات اللغوية المتخصصة ، والتى فقد معظمها ، وبقى منها تلك الاقتباسات ، التى أدخلها السيوطى فى كتابه : المزهر .

* * *

---

(٣) الصاحبى ٢٧١

هذا ، وللمحدثين من العرب جهود مشكورة ، فى التأليف فى موضوعات فقه اللغة العربية ، وعلم اللغة العام ، والترجمة فيهما من اللغات الأجنبية المختلفة ، وهذه قائمة بأهم المصادر العربية فى الدرس اللغوى ، مرتبة على حسب أسماء أصحابها :

الدكتور إبراهيم أنيس :

١ – الأصوات اللغوية .
٢ – فى اللهجات العربية .
٣ – دلالة الألفاظ .
٤ – من أسرار اللغة .
٥ – مستقبل اللغة العربية المشتركة .
٦ – طرق تنمية الألفاظ فى اللغة .
٧ – اللغة بين القومية والعالمية .

الدكتور إبراهيم السامرائى :

٨ – دراسات فى اللغة .
٩ – الفعل ، زمانه وأبنيته .
١٠ – التطور اللغوى التاريخى .
١١ – التوزيع اللغوى الجغرافى .
١٢ – العربية بين أمسها وحاضرها .
١٣ – مقدمة فى تاريخ العربية .
١٤ – مباحث لغوية .

أحمد حسين شرف الدين :

١٥ – اللغة العربية فى عصور ما قبل الإسلام .
١٦ – لهجات اليمن قديما وحديثا .

الدكتور أحمد محمد الضبيب :

١٧ – دراسات فى لهجات شرقى الجزيرة العربية ، لجونستون (ترجمة) .

الدكتور أحمد علم الدين الجندى :

١٨ – اللهجات العربية فى التراث .

الدكتور أحمد عيسى :

١٩– التهذيب فى أصول التعريب .

الدكتور أحمد مختار عمر :

٢٠ – من قضايا اللغة والنحو .

٢١ – دراسة الصوت اللغوى .

الدكتور أحمد نصيف الجنابى :

٢٢ – الدراسات اللغوية والنحوية فى مصر ، حتى القرن الرابع الهجرى .

الدكتور إسرائيل ولفنسون :

٢٣ – تاريخ اللغات السامية .

الشيخ أمين الخولى :

٢٤ – مشكلات حياتنا اللغوية .

الأب أنستاس مارى الكرملى :

٢٥ – نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها .

أنيس فريحة :

٢٦ – اللهجات وأسلوب دراستها .

برجشتراسر :

٢٧ – التطور النحوى للغة العربية .

الدكتور تمام حسان :

٢٨ – مناهج البحث فى اللغة .

٢٩ – اللغة بين المعيارية والوصفية .

٣٠ – اللغة العربية ، معناها ومبناها .

جرجي زيدان :

٣١ – الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية .

٣٢ – اللغة العربية كائن حى .

٣٣ – العرب قبل الإسلام .

الدكتور جواد على :

٣٤ – تاريخ العرب قبل الإسلام (الجزء اللغوى) .

الدكتور حسن ظاظا :

٣٥ – اللسان والإنسان .

٣٦ – الساميون ولغاتهم .

٣٧ – كلام العرب .

الدكتور حسن عون :

٣٨ – اللغة والنحو .

الدكتور حسين نصار :

٣٩ – المعجم العربى ، نشأته وتطوره .

حفنى ناصف :

٤٠ – مميزات لغات العرب .

٤١ – تاريخ الأدب ، أو حياة اللغة العربية .

الدكتور خليل يحيى نامى :

٤٢ – دراسات فى اللغة العربية .

الدكتور داود عبده :

٤٣ – أبحاث فى اللغة العربية .

الدكتور ربحى كمال :

٤٤ – التضاد فى ضوء اللغات السامية .

الدكتور رمضان عبد التواب :

٤٥ – لحن العامة والتطور اللغوى .

٤٦ – التذكير والتأنيث فى اللغة .

٤٧ – فصول فى فقه العربية .

٤٨ – التطور اللغوى وقوانينه .

٤٩ – اللغة العبرية ، قواعد ونصوص ومقارنات باللغات السامية .

٥٠ – نصوص من اللغات السامية ، مع الشرح والتحليل والمقارنة .

٥١ – اللغات السامية ، لنولدكه (ترجمة) .

٥٢ – فقه اللغات السامية ، لبروكلمان (ترجمة) .

٥٣ – العربية ، ليوهان فك (ترجمة) .

الدكتور السيد يعقوب بكر :

٥٤ – دراسات فى فقه اللغة العربية .

٥٥ – دراسات مقارنة فى المعجم العربى .

الدكتور صبحى الصالح :

٥٦ – دراسات فى فقه اللغة .

الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) :

٥٧ – لغتنا والحياة .

الدكتور عبده الراجحى :

٥٨ – اللهجات العربية فى القراءات القرآنية .

عبد الحميد الدواخلى :

٥٩ – العرب فى سوريا قبل الإسلام ، لرينيه ديسّو (ترجمة) .

الدكتور عبد الرحمن أيوب :

٦٠ – محاضرات فى اللغة .

٦١ – العربية ولهجاتها .

٦٢ – اللغة والتطور .

٦٣ – أصوات اللغة .

٦٤ – دراسات نقدية فى النحو العربى .

الدكتور عبد السميع محمد أحمد :

٦٥ – المعاجم العربية .

الدكتور عبد الصبور شاهين :

٦٦ – دراسات لغوية .

٦٧ – فى التطور اللغوى .

٦٨ – المنهج الصوتى للبنية العربية .

٦٩ – العربية الفصحى ، لهنرى فليش (ترجمة) .

عبد الله أمين :

٧٠ – الاشتقاق .

الدكتور عبد الله درويش :

٧١ – المعاجم العربية ، مع اعتناء خاص بكتاب العين .

عبد الله العلايلى :

٧٢ – مقدمة لدرس لغة العرب .

الدكتور عبد المجيد عابدين :

٧٣ – المدخل إلى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامية .

٧٤ – من أصول اللهجات العربية فى السودان .

عبد الوهاب حمودة :

٧٥ – القراءات واللهجات .

الدكتور عدنان الخطيب :

٧٦ – المعجم العربى بين الماضى والحاضر .

على عبد الواحد وافى :

٧٧ – علم اللغة .

٧٨ – فقه اللغة .

٧٩ – نشأة اللغة عند الإنسان والطفل .

الدكتور على القاسمى :

٨٠ - علم اللغة وصناعة المعجم .

الدكتور فؤاد حسنين على :

٨١ - التاريخ العربى القديم ، لهومل وآخرين (ترجمة) .

غالب فاضل المطلبى :

٨٢ - لهجة تميم وأثرها فى العربية الموحدة .

الدكتور كمال بشر :

٨٣ - قضايا لغوية .

٨٤ - دراسات فى علم اللغة .

٨٥ - علم اللغة العام (الأصوات) .

الدكتور محمد أحمد أبو الفرج :

٨٦ - مقدمة لدراسة فقه اللغة .

محمد الأنطاكى :

٨٧ - الوجيز فى فقه اللغة .

محمد حسين آل ياسين :

٨٨ - الأضداد فى اللغة .

محمد الخضر حسين :

٨٩ - دراسات فى العربية وتاريخها .

الدكتور محمد خلف الله أحمد :

٩٠ - معالم التطور الحديث فى اللغة العربية .

الدكتور محمد عونى عبد الرءوف :

٩١ - القافية والأصوات اللغوية .

محمد المبارك :

٩٢ - فقه اللغة وخصائص العربية .

الدكتور محمود حجازى :

٩٣ - علم اللغة العربية .

٩٤ - مدخل إلى علم اللغة .

٩٥ – اللغة العربية عبر القرون .

الدكتور محمود السعران :

٩٦ – علم اللغة ، مقدمة للقارىء العربى .

الأب مرمرجى الدومنكى :

٩٧ – المعجمية العربية فى ضوء الثنائية الألسنية السامية .

الدكتور مصطفى جواد :

٩٨ – المباحث اللغوية فى العراق .

الدكتورة نجاة الكوفى :

٩٩ – بناء الجملة بين منطق اللغة والنحو .

الدكتور هاشم الطعان :

١٠٠ – مساهمة العرب فى دراسة اللغات السامية .

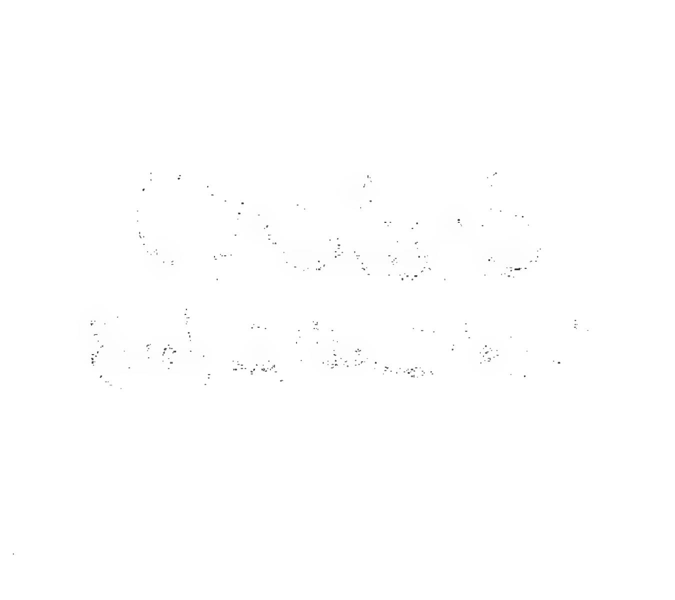
١٠١ – الأدب الجاهلى بين لهجات القبائل واللغة الموحدة .

١٠٢ – تأثر العربية باللغات اليمنية القديمة .

★ ★ ★

الباب الأول

فى أولية اللغة العربية



الفصل الأول

اللغة العربية واللغات السامية

اللغة العربية فرع من فصيلة كبيرة ، يطلق عليها فصيلة « اللغات السامية » . وأول من أطلق عليها هذا الاسم ، هو المستشرق « شلوتسر » Schlözer أخذاً من جدول تقسيم الشعوب ، الموجود فى التوراة[1] ، ذلك الجدول الذى يرجع كل الشعوب ، التى عمرت الأرض ، بعد طوفان نوح ، إلى أولاده الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث .

وهذه التسمية مختصرة ومناسبة ، كما هو الواجب فى التسميات الاصطلاحية . إلا أن العلم الحديث ، يفهم منها الآن ، شيئا يختلف إلى حدٍّ ما ، عما فهمه منها مؤلف جدول الشعوب فى التوراة ؛ لأنه بنى تقسيمه على اعتبارات سياسية ، وحدود جغرافية فحسب ؛ ولذلك جعل العيلاميين واللوديين ، من أبناء سام ؛ لأنهما كانا من رعايا الدولة الآشورية ، على الرغم من أنه لا توجد بين هذين الشعبين قرابة من ناحية ، كما أنه ليس بينهما وبين الآشوريين قرابة من ناحية أخرى . كما جعل الفينيقيين من أبناء حام ؛ بسبب صلاتهم السياسية بالمصريين ، على الرغم من أنهم أقرب الشعوب إلى العبريين[2] .

وتنقسم اللغات السامية عموما إلى : شرقية وغربية ، كما تنقسم السامية الغربية إلى : غربية شمالية ، وغربية جنوبية .

أما السامية الشرقية ، فهى الأكادية بفرعيها : البابلية والآشورية .

---

(١) الإصحاح العاشر من سفر التكوين .

(٢) انظر : اللغات السامية ، لنولدكه ص ٨

وقد وصلت إلينا فى نقوش مختلفة ، مكتوبة بالخط المسمارى ، على الطين المجفف . ومن أهم هذه النقوش : النقش الذى دُوِّن به قانون : « حمورابى » ، وهو من أقدم الشرائع الأرضية .

وموطن هذه اللغة ، هو بلاد ما بين النهرين ، دجلة والفرات فى العراق ، « واللغة الأُكادية ، اسم جامع أطلقه البابليون ، فى جنوب أرض الرافدين ، على لغتهم البابلية ،ولغة إخوانهم الآشوريين ، فى شمال أرض الرافدين .وهى كذلك فى اصطلاح العلماء المحدثين ، يطلقونها على اللهجات البابلية والآشورية المختلفة . و (أكّاد) فى الأصل : اسم المدينة التى بناها (سرجون) فى الجزء الشمالى من أرض بابل ، حوالى سنة ٢٣٥٠ ق م ؛ لتكون عاصمة لدولته ، وهى أول دولة سامية ، شهدتها أرض الرافدين[٣] » .

وقد ماتت هذه اللغة منذ قديم الزمان ، ولم يبق لنا منها إلا النقوش ، التى عرفنا منها تاريخ هذا الشعب الأُكادى ، الذى كان على جانب كبير من الحضارة والمدنية ؛ فقبل مائة وأربعين عاما تقريبا ، لم نكن نعرف شيئا عن اللغة الأُكادية ، بفرعيها : البابلية والآشورية ، حقا كنا نعرف بعض الشيء عن بابل وآشور ، من خلال قصص كتاب « العهد القديم » ، غير أننا لم نكن نملك وثائق ، بلغة هاتين المملكتين الكبيرتين . وكان أول من بدأ الحفر فى بلاد الرافدين ، هو « بُوتّا » Botta قنصل فرنسا فى الموصل ، عام ١٨٤٢ م .وقد أدت حفرياته فى قرية : « خرسباد » بالقرب من الموصل ، إلى اكتشاف أجزاء قصر « سرجون الثانى » ، أحد ملوك آشور فى القرن الثامن قبل الميلاد . وكان ذلك فى مارس سنة ١٨٤٣ م .

وقد توالت الاكتشافات بعد ذلك ، وشارك فيها كثير من علماء الآثار الفرنسيين والإنجليز والأمريكان ، مثل : « باروت » Parot و « لايارد » Layardو « مالون » Mallown . وكانت حصيلة هذه

(٣) دراسات فى فقه اللغة العربية ، للسيد يعقوب بكر ٦

الحفريات ، مجموعة ضخمة من النقوش ، المكتوبة على لوحات من الطين المجفف المحروق . وكما حدث فى اكتشاف اللغة الهيروغليفية ،أن عثر على « حجر رشيد » المدون بثلاث لغات ، إحداها اليونانية ، التى كانت معروفة للعلماء – حدث هنا كذلك أن عثر على لوحة عليها ثلاث لغات ، كانت إحداها هى اللغة الفارسية القديمة . ويرجع الفضل فى حل رموز هذه النقوش ، إلى العالم الإنجليزى « رولنسون » Rawlinson فى عام ١٨٤٧ م [٤] .

وأما السامية الغربية الشمالية ، فتنقسم إلى اللغتين : الكنعانية والآرامية . أما الأولى فتنقسم إلى الكنعانية الشمالية ، والكنعانية الجنوبية . والأولى تمثلها « اللغة الأوجاريتية » ، وهى لهجة كنعانية قديمة ، كانت تتكلم فى « أوجاريت » ، وهى مدينة كانت تقع على بعد ١٢ كيلو متراً ، فى شمال اللاذقية ، على الساحل السورى . وقد تم اكتشافها فى عام ١٩٢٩ م ، وكان اكتشافها بطريق الصدفة المحضة ؛ ففى مارس سنة ١٩٢٨ م ، كان أحد الفلاحين يحرث أرضه بسلام فى « مينة البيضة » على الساحل الشمالى لسوريا ، عندما عاق محراثه فجأة عن الحرث ، كتلة ضخمة من الحجر ، وما إن رفعها حتى ظهر مدخل تحت الأرض ، فى نهايته مقبرة مقبوة السقف ، وجد بها الفلاح فخّاراً من الطين المحروق ، وزهريات صغيرة لم تصب بسوء . وقد بلغ خبر هذا الحادث ، إلى إدارة الآثار الفرنسية فى بيروت ، فعاين علماؤها المقبرة ، ورجحوا أنها ليست وحدها فى المنطقة ، وإنما تكون جزءا من جبانة كبيرة ، وإذا كانت هناك جبانة ، فمعنى هذا أنها تابعة لمدينة ما ، لا تبعد كثيرا عن هذه الجبانة .

وكان بالقرب من المنطقة ، تل مرتفع على بعد حوالى كيلو متراً واحداً ، يسمى : « راس شمرا » ، بسبب نبات السَّمَار البرِّىّ ، الذى ينمو كثيرا فى هذه المنطقة . وقد عثر الناس هناك من قبل ، على أشياء

---

(٤) انظر : S. Moscati, Die altsemitischen Kulturen 24 .

أثرية ، كالأطباق والخناجر ، حتى شاع بين سكان المنطقة ، أنه كانت هناك مدينة كبيرة ، يقضى المرء فى الطواف حول سورها أياما عديدة .

وبدأ الحفر فى ذلك التلّ بسرعة ، فى عام ١٩٢٩ م فَعُرِّيت مقبرة « مينة البيضة » تماما ، ووجدت بالقرب منها مقابر أخرى ، وظهرت تحت التلّ مدينة قديمة ، تلك هى « أوجاريت » التى كانت بتاريخها ، الذى يبعد عنّا بآلاف السنين ، مركزا لدولة عظيمة ذات حضارة مزدهرة ، وعثر فيها على مئات النقوش ، التى استطاع العلماء قراءتها بسهولة ، لمشابهتها لنقوش اللغة الأكادية ؛ إذ كتبت بالخط المسمارى ، الذى كتبت به النقوش الأكادية ، غير أنه هنا يسير على النظام الأبجدى ، بعكسه فى الأكادية ، التى كان يسير فيها على النظام المقطعى[٥] .

وأما الكنعانية الجنوبية ، فتشمل اللغة العبرية . وأهم نص كتب بها ، هو كتاب : « العهد القديم » ، ويشمل : التوراة ، وهى أسفار موسى الخمسة (التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية) ، وكتب الأنبياء ، والمكتوبات كمزامير داود ، وأمثال سليمان ، وغيرها .

وأقدم مصادرنا فى اللغة العبرية ، هى : « قصيدة دَبُورَة[٦] » ، التى ترجع إلى عصر الفتح ، أى الألف الثانية قبل ميلاد المسيح . وعصر ازدهار الأدب ، الذى وصل إلينا عن الأنبياء ، وأخبار الأيام ، هو عصر الملوك المتأخر . ولدينا من هذا العصر مصدر نقشى كذلك ، وهى اللوحة التذكارية ، التى وجدت فى مدخل نفق « قنال السلوان » ، بالقرب من بيت المقدس ، وهى عبارة عن ستة أسطر ، تتحدث عن انتهاء حفر تلك القنال ، ويرجع تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد .

وكان السبى البابلى ، وتخريب بيت المقدس ، على يد « بُخْتَنَصَّر »

---

(٥) انظر : S.Moscati, Die altsemitischen Kulturen 81 - 83.

(٦) انظر : الإصحاح الخامس من سفر القضاة .

سنة ٥٨٦ ق م ، تجربة قاسية للغة العبرية كذلك . حقا إن المنفيين فى بابل ، لم يتخلوا عن لغتهم هناك ، بل إنهم أصبحوا فى ضائقتهم الدينية ، أشد تمسكا بها أكثر من ذى قبل ؛ ولذلك كتبت فى فترة السبى أيضا ، بعض روائع الأدب العبرى ، ولاسيما « رؤيا إشعيا[٧] » . وعندما رجع العبريون من منفاهم فى بابل سنة ٥٣٨ ق م ، وجدوا اللغة العبرية ، وهى لا تزال ناضرة فى فلسطين ، فظلت لغة الشعب زمنا ليس بالقصير ، ولكن القرن الرابع والقرون التى تلته ، حملت إليها عوامل التحلل والفساد . وساعد على ذلك ، انتشار عادة الزواج من غير اليهوديات ، اللواتى يجهلن اللسان العبرى .

وقد أدى انتشار اللغة الآرامية على الألسنة ، إلى تقلص ظل العبرية ، فاضطر رجال الدين إلى ترجمة ما يحتاجون إليه من أدعية « العهد القديم » إلى الآرامية ، وظلت هذه الترجمة مدة طويلة شفوية ، تلقى عقب قراءة النص فى العبرية ، ثم دونت وسميت « التَّرْجُوم » .

ومع ابتداء العصر الهلينى ، انتهت حياة اللغة العبرية ؛ إذ لم يستطع ذلك العدد الضخم من اليهود ، الذين رحل معظمهم حينذاك ناحية الغرب ، أن يحتفظ بلغته الأصلية ، فى وسط يتكلم الإغريقية . كذلك كان الحال مع بنى جلدتهم ، الذين ظلوا فى موطنهم الأصلى ؛ إذ وجدوا أنفسهم حينذاك ، وجها لوجه أمام تلك اللغة الشعبية ، التى اكتسحت كل صدر آسيا ، وهى الآرامية ، فكان من السهولة أن يتعاملوا بهذه اللغة ، بدلا من لغتهم الأصلية ؛ لأن كل واحدة من اللغتين ، قريبة من الأخرى قربا شديدا .

وقد ظلت العبرية بعد ذلك لعدة قرون ، لغة الدين والمدرسة ، وكتب بها الكثير من النصوص ، حتى بعد موتها على ألسنة الناس بزمن

---

(٧) الإصحاح الأربعون وما بعده من سفر : إشعيا .

طويل . وتتوقف خصائص هذه اللغة الأدبية ، على مدى إلمام المؤلف بالأدب العبرى القديم ؛ فكتاب « ابن سيرة » المكتوب فى حوالى سنة ٢٠٠ ق م ، ألّف بلغة عبرية خالصة ، وجيدة للغاية ، على حين أن الكتب التى تكاد تكون معاصرة له ، أو كتبت بعده بقليل ، يظهر فيها تأثر العبرية الشديد بالآرامية ، مثل كتاب : « إستير » وكتاب : « الجامعة » وبعض مزامير داود .

وكان هذا التأثر بالآرامية ، ينمو يوما بعد يوم ، فالجدل القانونى والشعائرى بين مدارس الفقه اليهودى ، فى القرن الأول الميلادى ، والمحفوظ فى « التلمود » البابلى والفلسطينى ، كتب بالعبرية ، غير أن جمهرة مفرداته مستعارة من الآرامية .

وكان زوال ملك اليهود السياسى ، وتدمير بيت المقدس ، وحرق الهيكل عام ٧٠ م ، على أيدى الرومان ، من أعظم الحوادث التى أثرت فى تاريخ اليهود الدينى واللغوى ، وغيرت مجراه ؛ فقد أدّى تشتتهم فى بلاد العالم ، إلى تأثرهم بلغات تلك البلاد ، وكان أكثرها أثرا فى لغتهم ، هى اللغة العربية ، بعد الفتح الإسلامى ، وقد بلغ هذا التأثر درجة ، جعلت اليهود ينظمون قواعد نحوهم ، على غرار قواعد النحو العربى ، كما اتخذ شعراؤهم من أوزان الشعر العربى ، قوالب يصبون فيها أشعارهم . وتسمى العبرية فى هذه الفترة بالعبرية « الوسيطة » ، وهى بالطبع غير عبرية العصر الحديث ، التى تأثرت تأثرا كبيرا باللغات الأوربية ، وغيرها فى كثير من المفردات والأساليب .

ومن لهجات الكنعانية الجنوبية كذلك ، ما يسمى « بخطابات تل العمارنة » ، وهى خطابات وجدت فى منطقة « تل العمارنة » ، وترجع إلى حوالى عام ١٤٢٥ - ١٣٥٠ ق م ، أرسل بها أمراء سوريا وفلسطين ، إلى فراعنة مصر فى ذلك الوقت ، باللغة الآشورية ، وبها تعليقات بالكنعانية .

كما يعد من الكنعانية الجنوبية أيضا : « اللغة المؤابية » ، ويمثلها النقش المعروف بنقش : « ميشع » ملك مؤاب ، وهو عبارة عن نُصُب ، عثر عليه فى عام ١٨٦٨ م فى « ديبان » بأرض مؤاب القديمة . ويحكى هذا النقش حروب الملك « ميشع » مع ملك إسرائيل ، المسمَّى : « عُمْرِى » ، كما يعدّد مآثره على مملكته . ويرجع تاريخ هذا النقش باتفاق معظم الآراء إلى سنة ٨٤٢ ق م . وهو الآن محفوظ فى متحف « اللُّوفْر » بباريس .

ومن الكنعانية الجنوبية كذلك : « اللغة الفينيقية » ، التى وصلت إلينا فى عدة نقوش ، من بينها نقوش ملوك بيبلوس (جبيل الحالية) مثل نقش : « شَافَطْ بَعْلْ (من القرن الثالث عشر قبل الميلاد) وأَخِيرَامْ (حوالى ١١٠٠ ق م) وأَخِيميلكْ (حوالى ١٠٠٠ ق م) . وأهم نقش دُوِّن بهذه اللغة ، هو نقش الملك « كِلَمُو » (حوالى ٩٠٠ ق م) أحد أمراء « سَمْأَل » . وقد اكتشف فى « تل زنجيرلى » بسوريا ، وهو الآن محفوظ فى متحف برلين الشرقية .

وقد نشر الفينيقيون لغتهم ، عن طريق مستعمراتهم ، فى أهم بلاد شاطىء البحر المتوسط ، غير أنها لم تربح أرضا ثابتة فى الواقع ، إلا فى شمالى إفريقية ، فى نواحى « قرطاجنة » ، وتسمى هناك : « اللغة البونية » . ونحن لا نعرف هذه اللغة ، إلا من مسرحية شعرية فكاهية للشاعر الرومانى « بْلَوْت » Plautus (حوالى ٢٠ بيتا فى الفصل الخامس ، باللهجة البونية ، مع ترجمة باللاتينية ، فى بعض الأحيان) .

أما القسم الثانى ، من أقسام السامية الغربية الشمالية ، وهو : « اللغة الآرامية » فمن نقوشها القديمة : نقش « تل حلف » على نهر الخابور (حوالى ٩٠٠ — ٨٥٠ ق م) ونقش الملك « بَنَمُو الأول » (حوالى ٨٠٠ — ٧٥٠ م) ونقش الملك « بَنَمُو الثانى » وابنه « بَرْرَكَبْ

(حوالى ٧٥٠ — ٧٠٠ ق م) . وقد تلا هذه الفترة القديمة ، فترة أخرى ، عرفت فيها اللغة الآرامية « بآرامية الدولة » ؛ فقد أدخل الأخمينيون من الفــــرس ، وعلى الأخص. الملك « دَارْيُـــوِسْ الأول » (٥٢١ — ٤٨٥ ق م) اللغة الآرامية ، لكتابة الدواوين فى دولة الفرس ، كما يظهر من نقش : « بيهستون » ، الذى اكتشف فى إيران ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ويعد من « آرامية الدولة » كذلك ، تلك الأجزاء المكتوبة بالآرامية ، من كتاب : « العهد القديم » (سفر دانيال ٢/٤ — ٧/٢٨ وسفر عزرا ٤/٨ — ٦/١٨ ؛ ٧/١٢ — ٢٦ وسفر إرميا ١٠/١١ وكلمتان فى سفر التكوين ٣١/٤٧) والتى سميت خطأ « بالكلدانية » متابعة لما ورد فى سفر دانيال (٢/٤) من قوله : « فكلم الكلدانيون الملك بالآرامية » .

وقد كتب باللغة الآرامية كذلك : « أوراق البردى » التى عثر عليها فى « جزيرة الفيلة » بأسوان (حوالى مائة بردية ، ترجع إلى سنة ٤٩٥ — ٤٠٠ ق م) .

وقد دُوِّن بهذه اللغة كذلك ما يسمى : « بالترجوم » ، وهو — كما ذكرنا من قبل — عبارة عن ترجمة « العهد القديم » من العبرية إلى الآرامية ؛ إذ إنه عندما اندثرت اللغة العبرية ، ولم يعد الشعب يفهمها ، جرت العادة عند تلاوة « العهد القديم » بصوت عال فى المعابد اليهودية ، أن تتبع كل آية منه فى الحال ، بترجمة لها فى اللغة الآرامية . وقد ظلت تلك الترجمة شفوية لمدة طويلة ، ولم تدوّن إلا بعد أن أصبحت عادة ودستورا مقدسا ، بسبب قدمها . وأقدم ترجوم دُوِّن ، هو ترجوم « أُنْكِلُوس » Onkelos ، ولم يتم قبل القرن الخامس الميلادى .

وكان السامريون يتكلمون بالآرامية كذلك ، وهم طائفة من اليهود ،

لا يؤمنون إلا بالتوراة فقط (وهى أسفار موسى الخمسة) ، وقد ترجموها إلى لغتهم ، غير أنها ترجمة رديئة تتمسك بحرفية النص العبرى ، ولا تخجل من حشو النص بكلمات عبرية غريبة جدا عن الآرامية .

وقد كتبت بالآرامية كذلك ، تلك النقوش النبطية ، والتدمرية ، ونقوش صحراء سيناء ، التى ترجع إلى الفترة من القرن الأول قبل الميلاد ، إلى القرن الرابع الميلادى .

ومن لهجات الآرامية كذلك ، ما يسمى : « باللغة المنداعية » ، وهى لهجة طائفة « العارفين » المسيحية ، التى لا تزال توجد فى جنوبى العراق إلى اليوم . وهى لهجة آرامية خالصة ، لم تتصل كلماتها ، وتراكيبها ، بالعبرية أو بغيرها من اللغات الأخرى .

وأهم لهجات الآرامية هى : « السريانية » . وقد سمى الآراميون أنفسهم بالسريان ، بعد اعتناقهم الدين المسيحى ؛ لأن الاسم الشعبى القديم ، صار عيبا يدل على الكفر ، تماما كالاسم : « هلينى » عند اليونان .

وتنقسم السريانية ، تبعا لانقسام الكنيسة المسيحية ، إلى سريانية شرقية ، وهى سريانية المسيحيين التابعين لتعاليم « نسطوريوس » ، ويسمون بالنسطوريين ، وسريانية غربية ، وهى سريانية المسيحيين التابعين لتعاليم « يعقوب البردعى » ويسمون باليعاقبة .

وقد تسبب الفتح العربى ، فى استئصال شأفة الآرامية ، من البلاد التى كانت تتكلمها ، ولم يفلت من ذلك القدر المحتوم ، إلا بعض الجهات الجبلية النائية ، مثل قرية : « المعلولة » بالقرب من دمشق ، و « طور عابدين » بالعراق ، وغيرهما من الأماكن التى لا تزال تتكلم

الآرامية الحديثة ، الممتزجة بالكثير من التعبيرات العربية والتركية والكردية ، وغيرها .

ونصل الآن إلى القسم الغربى الجنوبى ، من اللغات السامية ، ويضم لغتين هما : العربية والحبشية . أما الحبشية ، فهى لغة ذلك الشعب السامى ، الذى خرج من جنوبى الجزيرة العربية ، إلى البلاد المقابلة لهم ، وهى الحبشة ، واستعمروها واختلطوا بأهلها القدامى من الحاميين ، اختلاطا شديدا .

ونحن لا نعرف متى هاجرت هذه الأقوام السامية إلى هناك ، ويرجح أن ذلك تم على فترات ، قبل ميلاد المسيح ، بوقت طويل . وتسمى لغتهم : « الجعزية » نسبة إلى اسم الشعب القديم ، كما تسمى باسم أخذه الأحباش أنفسهم ، من اللغة الإغريقية ، وهو : « الإثيوبية » . وأقدم نصوص هذه اللغة ، التى بين أيدينا ، يرجع إلى سنة ٣٥٠ م .

ولم يقدر للغة الجعزية أن تعمر طويلا ، فما إن حل القرن الثانى عشر الميلادى ، حتى دبّت الفتن السياسية بين الشعب الجعزى ، وتفرقت بذلك لغته إلى لهجات ، أبرزها « اللهجة الأمهرية » ، وهى لهجة يغلب عليها العنصر الحامى غلبة شديدة . ويظهر هذا التأثير الحامى ، أقوى ما يكون ، فى بناء الجملة ، الذى تغيرت فيه تقريبا ، كل قوانين اللغة السامية الأصلية . وكذلك الضمائر – التى لا يبدو فيها بين اللغات السامية المختلفة ، إلا القليل من الاختلاف – توجد كلها هنا فى أبنية ثانوية . وفى الاسم اندثر البناء القديم ، للمؤنث والجمع ، إلا فى بقايا متجمدة من الصيغ . وأما المفردات ، فإن نصفها على الأقل مستعار من الحاميين ، أما النصف الثانى السامى الخالص ، فقد بعد كثيرا عن أصله ؛ بسبب التغييرات التى طرأت عليه .

أما العربية ، فتنقسم إلى قسمين هما : « العربية الجنوبية » و « العربية الشمالية » . أما الأولى فتعرف عند اللغويين العرب « باللغة الحميرية » . وموطنها اليمن وجنوبى الجزيرة العربية ، وتنقسم إلى لهجتين هما : السبئية والمعينية . وقد وصلت إلينا منهما الكثير من النقوش ، التى تتراوح مدتها من القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، والقرن السادس الميلادى .

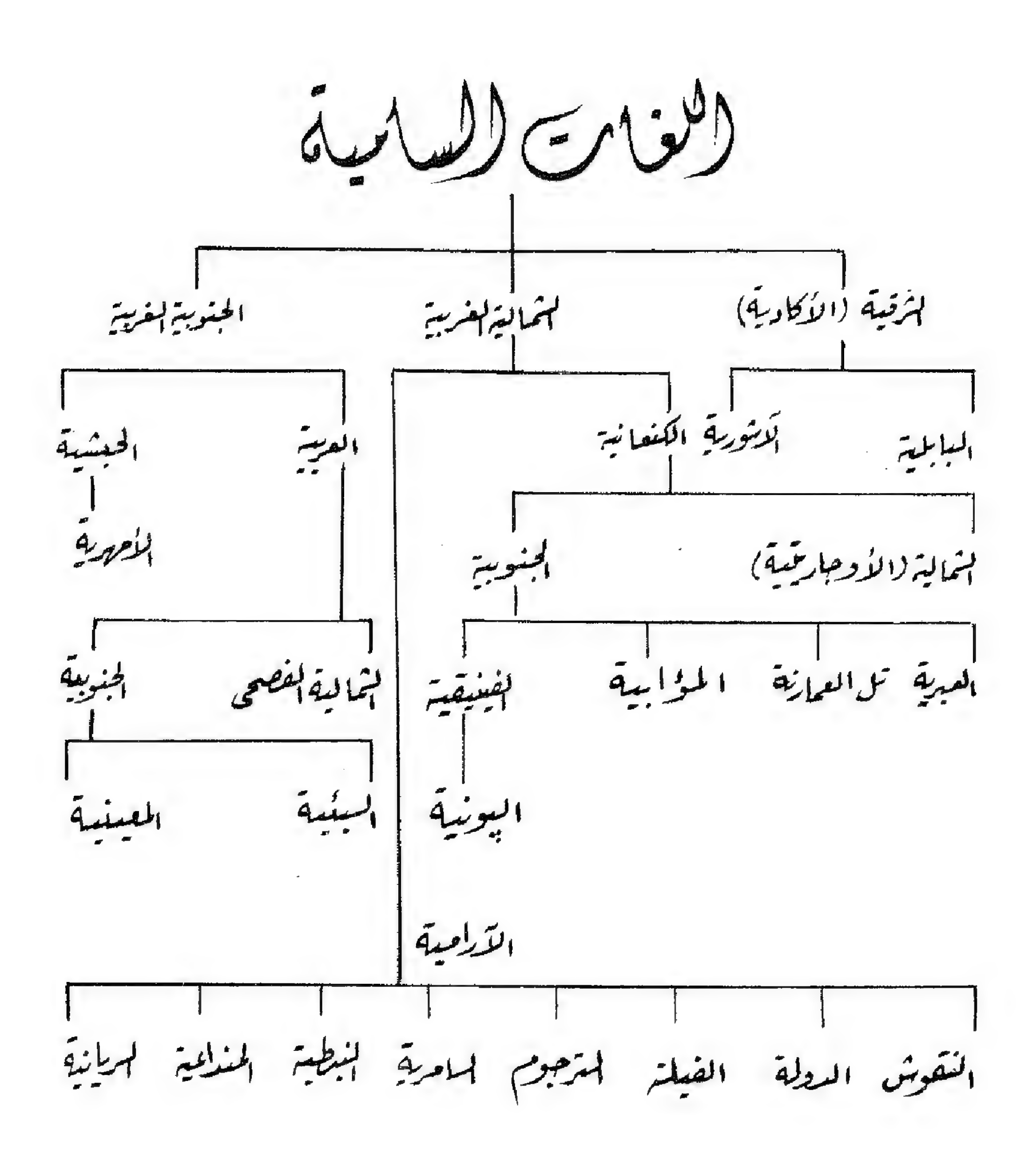
أما العربية الشمالية ، فهى لغة وسط الجزيرة العربية وشماليها ، وهى التى تسمى فى عرفنا باللغة العربية الفصحى . وقد كتب لهذه اللغة الخلود ، بسبب نزول القرآن الكريم بها ، فانتشرت لذلك انتشاراً واسعاً ، كما لم تنتشر أى لغة أخرى من لغات العالم ، فهى لكل المسلمين اللغة الوحيدة ، الجائزة فى العبادة ؛ ولهذا السبب تفوقت العربية الشمالية ، تفوقا كبيرا ، على كثير من اللغات ، التى كان يتكلمها المسلمون .

وكان إلى جانب هذه العربية الفصحى ، لهجات عربية مختلفة بالجزيرة العربية ، غير أن معرفتنا بها غير كبيرة ، بسبب عزوف اللغويين العرب عنها ، وعدم اهتمامهم بدراستها(٨) .

---

(٨) انظر تفصيلا أكثر فى : اللغات السامية لنولدكه ، وفقه اللغات السامية لبروكلمان .

وفيما يلي تخطيط عام ، يبين علاقة اللغات السامية ، بعضها ببعض :



نماذج من خطوط اللغات السامية وأبجدياتها :

الأوجاريتية	الحبشية	العربية الجنوبية	العربية	السريانية	العبرية	اللاتينية
𐎀 ('a) 𐎛 ('i) 𐎜 ('u)	አ	𐩱	ء	ܐ	א	'
𐎁	በ	𐩨	ب	ܒ	ב	b
𐎂	ገ	𐩴		ܓ	ג	g
			ج			ǧ
𐎄	ደ	𐩵	د	ܕ	ד	d
𐎏		𐩹	ذ			ḏ
𐎅	ሀ	𐩠	ه	ܗ	ה	h
𐎆	ወ	𐩥	و	ܘ	ו	w
𐎇	ዘ	𐩸	ز	ܙ	ז	z
𐎈	ሐ	𐩢	ح	ܚ	ח	ḥ
𐎃	ኀ	𐩭	خ			ḫ
𐎉	ጠ	𐩷	ط	ܛ	ט	ṭ
𐎑		𐩼				ṯ̣
			ظ			ḏ̣
𐎊	የ	𐩺	ى	ܝ	י	y
𐎋	ከ	𐩫	ك	ܟ	כ	k
𐎍	ለ	𐩡	ل	ܠ	ל	l
𐎎	መ	𐩣	م	ܡ	מ	m
𐎐	ነ	𐩬	ن	ܢ	נ	n
𐎒	ሰ	𐩯	س	ܣ	ס	s
𐎓	ዐ	𐩲	ع	ܥ	ע	ʿ
𐎙		𐩶	غ			ġ
𐎔				ܦ	פ	p
	ፈ	𐩰	ف			f
𐎕	ጸ	𐩮	ص	ܨ	צ	ṣ
	ፀ	𐩳	ض			ḍ
𐎖	ቀ	𐩤	ق	ܩ	ק	q
𐎗	ረ	𐩧	ر	ܪ	ר	r
𐎝		𐩦			שׂ	ś
𐎌	ሠ	𐩪	ش	ܫ	שׁ	š
𐎚	ተ	𐩩	ت	ܬ	ת	t
𐎘		𐩻	ث			ṯ

الموطن الأصلى للساميين :

تعدّدت آراء العلماء ونظرياتهم ، حول الموطن الأصلى للساميين القدماء ، وتَفَرَّع بهم البحث العلمى إلى عدة مذاهب ؛ أهمها :

١ - **المذهب الإفريقى** :وصاحبه هو المستشرق : « تيودور نولدكه » ، الذى يقول : « والقرابة الكائنة بين اللغتين : السامية والحامية ، تدعو إلى الاعتقاد بأن الموطن الأصلى للساميين ، كان فى إفريقيا ؛ لأنه من النادر أنْ يظن أنّ الحاميين ، كان لهم موطن أصلى ، غير القارة السوداء[٩] » . وقد بنى « نولدكه » رأيه هذا على التشابه الخِلْقى بين الحاميين والساميين ، وعلى الأخص سكان جنوبى الجزيرة العربية ، وقال : « إن عضلة الساق فى الأقوام السامية هزيلة ، تماما كما هو الحال فى سكان إفريقيا الأصليين ، كما يشترك الشعبان فى مشابهة شعر الرأس للصوف ، وكذلك فى بروز الفكّين[١٠] » . غير أنه يعود فيذكر أن نظريته تلك ، ليست إلا فرضا قابلا للنقض ؛ إذ يقول : « ويجب مع ذلك أن يؤخذ فى الاعتبار أن كلا من الساميين والحاميين ، قد اختلطا بشعوب أجنبية اختلاطا كبيرا ، قلّل من أوجه الشبه بينهما . وبالطبع لم أذكر كل هذا ، على أنه نظريّة ثابتة ، ولكن على أنه فرض محتمل[١١] » .

ولم يسلم هذا المذهب من النقد ؛ إذ « كيف اختفت من إفريقية إذن ، جميع اللغات السامية ، بحيث لا تعود إلى الظهور ، إلا فى المستعمرات الفينيقية على الساحل ، لا سيما المستعمرة البونية فى قرطاجنة بتونس ، ثم مع الفتح العربى ، فى القرن السابع الميلادى[١٢] » ، وهذه حجة مقنعة ، لا تجد من يردها .

---

(٩) اللغات السامية ٢١

(١٠) اللغات السامية ٢١

(١١) اللغات السامية ٢٢

(١٢) الساميون ولغاتهم ١٣

٢ - **المذهب الأرميني** : وقد ذهب إلى هذا المذهب ، المستشرق الفرنسى : « رينان » وغيره . وهم يذهبون إلى أن الساميين « قد وفدوا من أماكن معينة ، من شعوب أرمينية . وهذا الرأى مستمدّ من سفر التكوين (١٠/٢٢ - ٢٤ ؛ ١١/١٢) الذى يعزو كثيرا من هذه الشعوب ، إلى (أرفكشاد) ، وهى تقع على حدود أرمينيا وكردستان[١٣] » .

ويبدو أن السر فى اعتناق هذا المذهب كذلك ، ما تذكره التوراة (سفر التكوين ٨/٤) من أن سفينة نوح ، رست فى مكان قريب من أرفكشاد . « والخلل فى هذه الفكرة ، يأتى من أنه لو سلمنا بها جَدَلًا ، وبدون مناقشة ؛ فإنه يترتب على ذلك أن تكون مرتفعات كردستان ، مهداً للإنسانية كلها ، لا للساميين وحدهم ؛ فقد نزل من السفينة فى هذا المكان المفترض : نوح وأبناؤه الثلاثة : سام وحام ويافث[١٤] » .

هذا إلى أن مؤلف سفر التكوين ، لم يستند إلى أدلّة علمية يقينية ، بل كان يأخذ بقول الرواة القصاصين ، ورأيهم فى المكان الذى رست فيه سفينة نوح ، « وهو رأى خيالى تماما ، هذا إلى أنه يتعارض تماما مع رأى آخر ، فى سفر التكوين (١١/١) يرجع إلى مصادر أخرى ، ويذكر أن كل الشعوب ، ومن بينها الساميون أيضا ، قد انحدروا أصلا من بابل[١٥] » .

٣ - **المذهب البابلى** : وممن ذهب إلى ذلك من المستشرقين : « إجناتسيو جويدى » و « فريتس هومل » وغيرهما ؛ فقد حاول « جويدى » فى بحث له نشره فى روما ، سنة ١٨٧٨/١٨٧٩ م ، أن يبرهن على أن « الوطن الأصلى للساميين ، يقع أسفل الفرات ، وهو يريد

---

(١٣) اللغات السامية ٢٢
(١٤) الساميون ولغاتهم ٩
(١٥) اللغات السامية ٢٣

أن يثبت أن المفاهيم الجغرافية والنباتية والحيوانية ، التى عُبِّر عنها فى كل لغة من اللغات السامية ، بكلمات موحّدة قديمة ، هذه المفاهيم لا تشير إلا إلى الظروف الطبيعية ، لتلك المنطقة[١٦] » .

ويعتمد هذا المذهب ، على دراسة مفردات اللغات السامية ؛ فقد لاحظ « جويدى » مثلا ، أن كلمة (نهر) توجد بلفظها هذا على وجه التقريب ، فى جميع اللغات السامية ، على حين تختلف الكلمة ، التى تدل على الجبل فى هذه اللغات ؛ فهى فى العربية : (جَبَلٌ) وفى العبرية : (هَرْ) ، وفى الآرامية : (طُورَا) ، وفى الأكادية : (شَدُ) .

وبعد أن قارن هذا المستشرق ، كثيرا من أسماء المعادن والنباتات والحيوان والتقلبات الجوية ، والتغيرات الجيولوجية ، أثبت أن قدراً كبيرا منها ، يشبه ما فى اللغة الأكادية . واستخلص من ذلك ، أن سهول العراق ، هى الموطن الأصلى للساميين .

ومع أن « جويدى » قد عالج المسألة برزانة وفطنة ، فإننا لا نستطيع أن نتقبل نتائجه بسهولة ؛ إذ توجد لدينا بعض المفردات ، التى يشترك فيها الساميون الشماليون والجنوبيون ، وهى مع ذلك لا يجوز أن تكون قد نشأت فى منطقة الفرات[١٧] .

٤ - **المذهب العربى** : ومن أنصاره : « شْبِرِنْجَرْ » و « دِى غُويَهْ » و « كَايْتَانِى » و « مُوسْكَاتِى » وغيرهم . ويذهب هؤلاء جميعا ، إلى أن جزيرة العرب ، هى المهد الأول للساميين . ويستدلون على ذلك بأدلة ، تكاد تكون قاطعة . ومن أهم هذه الأدلة ما يلى :

(أ) يذكر لنا التاريخ ، أن الساميين الذين عاشوا فى غير جزيرة العرب ، إنما ذهبوا إليها مغيرين ، أو مهاجرين ؛ فقد « لوحظ فى العصور

---

(١٦) اللغات السامية ٢٥

(١٧) انظر : اللغات السامية ٢٥

التاريخية ، كيف أن بلاد الحضارة ، فيما بين النهرين وسوريا ، كانت تكتسحها دائماً وأبداً ، موجات من القبائل البدوية ، القادمة من الصحراء العربية ، حتى غمرت أخيراً إحدى هذه الموجات القوية ، وهى المسماة بالموجة العربية ، كل صدر آسيا ، وشمالى إفريقيا[١٨]» .

وتحركات الساميين منذ القدم واحدة ، و « كل الدلائل ، تشير إلى أنهم خرجوا من الجزيرة العربية ، إلى ما جاورها من البلاد ، وبعبارة أخرى : من الصحراء القاحلة ، إلى أرض الحضارة المحيطة بها ؛ ولذلك جاز لنا أن نبحث فى الجزيرة العربية وصحرائها ، عن الموطن الأصلى للشعوب السامية[١٩]» .

(ب) منذ فجر التاريخ ، كانت كل المواطن المقترحة الأخرى ، مسكونة بشعوب غير سامية ، ما عدا جزيرة العرب ، فلم يذكر التاريخ مثلا ، أن الأكاديين كانوا السكان الأصليين لبلاد الرافدين ، بل يذكر أنهم أجانب وفدوا عليها ، وأخضعوا سكانها الأصليين المعروفين بالسومريين ؛ وقد كتب أحد ملوك الساميين الأول فى العراق ، وهو الملك « سرجون الأول » (حوالى سنة ٢٦٠٠ ق م) ، فى أحد النقوش « ما يفهم منه صراحة ، أنه هو وعشيرته ، قد نزحوا إلى العراق ، من شرقى جزيرة العرب[٢٠]» .

(جـ) عثر المنقبون على بعض النقوش ، المدونة باللغة السومرية ، تفيد أن بلادهم كانت دائما فى خطر ، من إغارة قبائل تسمى : « أريبو » تأتيهم من الجهات الغربية ، أو الجنوبية الغربية .

(د) دلت الحوادث التاريخية السياسية ، ولا تزال تدل ، على أن سكان الصحارى والجبال المجدبة ، يطمحون دائما إلى التحضّر وسكنى المدن ، والإقامة بالبلاد الخصبة ، المجاورة

---

(١٨) فقه اللغات السامية ١٢

(١٩) انظر : S. Moscati , Die altsemitischen Kulturen 14

(٢٠) الساميون ولغاتهم ١٠

للأنهار ، حيث يقيمون ويتخذون الزراعة مهنة لهم . وهذا هو ما يدعوهم إلى الغارات ، ومهاجمة الممالك المجاورة لهم . وليس هناك مثل واحد واضح ، يذكر لنا عكس هذه القضية ، وهو هجرة الحضريين إلى البادية والصحراء .

فهجرة الساميين من الجزيرة العربية إذن ، مما « يتفق تماما ، مع القوانين الاجتماعية ، والاقتصادية ؛ فظروف الحياة القاسية فى الصحراء ، هى التى تجعل البدو القاطنين فيها ، يتطلعون إلى الحياة المستقرة ، فى البلاد المجاورة المتحضرة ... ويحدث ذلك أمام أعيننا اليوم ، كما حدث فى الماضى ؛ لأن الحياة فى الصحراء ، لم تتغير اليوم تَغَيُّراً جوهريا ، عما كانت عليه قبل خمسة آلاف سنة[٢١]» .

(هـ)جميع سكان بلاد العرب اللذين لم يختلطوا بغيرهم من الأجناس البشرية ، لهم مميزات الجنس السامى الخِلْقية والخُلقية ، ولغتهم على ما يرى المحققون من علماء الساميات ، من أمثال : بروكلمان ، ورايت ، ونولدكه ،أقرب اللغات إلى السامية الأم .

لكل هذه الأدلة ، تسيطر فى العصر الحاضر ، تلك النظرية التى تقول بأن شبه الجزيرة العربية ، هى الموطن الأصلى للساميين ، ومنها انطلقوا عبر التاريخ ، إلى بلاد الرافدين ، وسوريا ، وفلسطين ، والحبشة ، وشمالى إفريقيا ، ومصر ، وكوّنوا الدول والممالك التى عرفناها من قبل .

★ ★ ★

اللغويون العرب واللغات السامية :

لم يكن جميع القدامى من اللغويين العرب ، على جهل باللغات السامية ، بل كان بعضهم يعرف العلاقة بين العربية وبعض هذه اللغات ،

---

(٢١) انظر : S. Moscati , Die altsemitischen Kulturen 14

وإن لم تثمر هذه المعرفة عندهم ، فى الدرس اللغوى ، ومقارنة العربية باللغات السامية .

فقد عثرت على نص خطير فى كتاب « العين » للخليل بن أحمد الفراهيدى (المتوفى سنة ١٧٥ هـ) يقول : « وكنعان بن سام بن نوح ، ينسب إليه الكنعانيون ، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية[٢٢] » .

كما عرف أبو عبيد القاسم بن سلام (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) اللغة السريانية ، وأداة التعريف فيها ، وهى الفتحة الطويلة فى أواخر كلماتها ؛ قال أبو حاتم الرازى : « قال أبو عبيد القاسم بن سلام : للعرب فى كلامها علامات ، لا يشركهم فيها أحد من الأمم نعلمه ؛ منها : إدخال الألف واللام فى أول الاسم ، وإلزامهم إياه الإعراب فى كل وجه ، فى الرفع والنصب والخفض ، كما أدخلوا فى (الطُّور) ، وحذفوا الألف التى فى الآخر ، فألزموه الإعراب فى كل وجه ، وهو بالسريانية : (طُورَا) على حال واحد ، فى الرفع والنصب والخفض . وكذلك : (اليَمّ) ، هو بالسريانية : (يَمَّا) ، فأدخلت العرب فيه الألف واللام ، وصرفته فى جميع الإعراب ، على ما وصفت[٢٣] » .

وكذلك أدرك ابن حزم الأندلسى (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) علاقة القربى بين العربية والعبرية والسريانية ؛ فقال : « إن الذى وقفنا عليه ، وعلمناه يقينا ، أن السريانية والعبرانية والعربية ، التى هى لغة مضر وربيعة لا لغة حمير ، واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها ، فحدث فيها جرس ، كالذى يحدث من الأندلسى ، إذا رام نغمة أهل القيروان ، ومن القيروانى إذا رام لغة الأندلس ، ومن الخراسانى إذا رام نغمتها . ونحن نجد مَنْ سمع لغة أهل (فَحْص البَلُّوط) وهى على ليلة واحدة من قرطبة ، كاد يقول : إنها لغة أخرى ، غير لغة أهل قرطبة . وهكذا فى كثير من البلاد ، فإنه بمجاورة أهل

---

(٢٢) العين للخليل بن أحمد ١/٢٣٢

(٢٣) الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية ١/٧٧

البلدة لأمة أخرى ، تتبدّل لغتها تبدُّلًا لا يخفى على من تأمله . ونحن نجد العامة قد بدّلت الألفاظ فى اللغة العربية تبديلا ، وهو فى البعد عن أصل تلك الكلمة ، كلغة أخرى ولا فرق ؛ فنجدهم يقولون فى (العِنَب) : (العِينَب) ، وفى (السَّوْط) : (اسْطَوْط) ، وفى (ثلاثة دنانير) : (ثلثدًّا) . وإذا تَعَرَّب البربرى ، فأراد أن يقول : (الشجرة) قال : (السجرة) ، وإذا تعرّب الجِلِّيقى ، أبدل من العين والحاء : هاء ؛ فيقول : (مهمّدا) ، إذا أراد أن يقول : (محمّدا) ، ومثل هذا كثير . فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية ، أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا ، من تبديل ألفاظ الناس ، على طول الأزمان ، واختلاف البلدان ، ومجاورة الأمم ، وأنها لغة واحدة فى الأصل[٢٤]» .

كما يقول الإمام السهيلى (٥٨١ هـ) ، فى العلاقة بين العربية والسريانية : « وكثيرا ما يقع الاتفاق بين السريانىّ والعربى ، أو يقاربه فى اللفظ[٢٥] » .

وكذلك عرف أبو حيان الأندلسى (المتوفى سنة ٧٥٤ هـ) اللغة الحبشية ، وأدرك العلاقة بينها وبين العربية ، وألّف فيها تأليفا مستقلا . وقد أشار إلى ذلك فى تفسيره الكبير ، المسمى « بالبحر المحيط » ؛ فقال : « وأما قولهم : هندى وهندكى فى معنى واحد ، وهو المنسوب إلى الهند . . . فخرّجه أصحابنا ، على أن الكاف ليست زائدة ؛ لأنه لم تثبت زيادتها فى موضع من المواضع ، فيحمل هذا عليه ، وإنما هو من باب : سبط وسبطر . والذى أخرِّجه عليه ، أن من تكلم بهذا من العرب – إن كان تكلم به – فإنما سرى إليه من لغة الحبش ؛ لقرب العرب من الحبش ، ودخول كثير من لغة بعضهم ، فى لغة بعض . والحبشة إذا نسبت ، ألحقت آخر ما تنسب إليه ، كافا مكسورة ، مشوبة بعدها ياء ؛ يقولون فى النسب إلى الفُرْس : الفرسكى ، وربما أبدلت تاء

---

(٢٤) الإحكام فى أصول الأحكام ، لابن حزم ١/٣٠

(٢٥) التعريف والإعلام ١١

مكسورة ؛ قالوا فى النسب إلى جَبْر : جَبْرَتى . وقد تكلمت على كيفية نسبة الحبش ، فى كتابنا المُتَرْجِم عن هذه اللغة ، المسمى : بجلاء الغبش عن لسان الحبش . وكثيرا ما تتوافق اللغتان : لغة العرب ، ولغة الحبش ، فى ألفاظ ، وفى قواعد من التراكيب نحوية ، كحروف المضارعة ، وتاء التأنيث ، وهمزة التعدية[٢٦] » .

* * *

خصائص اللغات السامية ومميزاتها :

أهم ما يميز فصيلة اللغات السامية ، عن غيرها من فصائل اللغات الأخرى ، أنها تعتمد اعتمادا كبيرا على الأصوات الصامتة (Consonants) ، لا على الأصوات المتحركة (Vowels) أو بمعنى آخر : يرتبط المعنى الرئيسى للكلمة ، فى ذهن الساميين ، بالأصوات الصامتة فيها ، أما الأصوات المتحركة ، فهى لا تعبر فى الكلمة ، إلا عن تحوير هذا المعنى وتعديله ، ويكفى أن تنظر إلى كلمات مثل : كَتَبَ ، وكُتِبَ ، وكَتْبٌ ، وكُتُبٌ ، وكَتَّبَ ... إلخ ؛ لتدرك أن المعنى الأصلى فيها ، مرتبط بالكاف والتاء والباء .

وفى عدد كبير جدا من الكلمات ، يحمل المعنى ثلاثة أصوات صامتة فيها ، ويدخل عليها إضافات فى أولها أو وسطها ، لتحوير هذا المعنى وتعديله ؛ مثل : كَاتَبَ ، وأَكْتَبَ ، وانْكَتَبَ ، واكْتَتَبَ ، واسْتَكْتَبَ ، ومَكْتَبٌ ، ومكْتُوبٌ ، وكَاتِبٌ .. إلخ .

ولهذا السبب ، يمتاز الفعل فى اللغات السامية ، بسلسلة من الأوزان المزيدة ، التى تعبر عن معان مشتقة من المعنى الأساسى ، وتصاغ بتغيير الجذر تغييرات ثابتة ؛ للتعبير عن شدة الفعل أو تكراره ، وعن السببية ، وعن المطاوعة ، والمشاركة فى الفعل ، والبناء للمجهول ، وغير ذلك[٢٧] .

---

(٢٦) انظر : البحر المحيط ١٦٢/٤ – ١٦٣

(٢٧) انظر فى تفصيل ذلك : أبنية الفعل فى اللغات السامية ، للدكتور رمضان عبد التواب .

هذا ، وتغلب على اللغات السامية الأصوات الحلقية ، كالعين ، والحاء ، والهاء ، والأصوات المفخمة ، كالصاد ، والطاء[٢٨] .

كما أنها فى الصيغ الفعلية ، لا تهتم بالأزمنة الثلاثة وفروعها ، وهى : الماضى ، والحاضر والمستقبل ، بقدر ما تهتم فى هذه الصيغ ، بالحدث المنتهى والحدث الذى لم ينته بَعْدُ ؛ ولذلك نجد فى العربية صيغتين للفعل ، وهما : الماضى للحدث المنتهى ، والمضارع للذى لم ينته ؛ ولذلك يصلح للحال والاستقبال ، وهناك أدوات تجعله للمستقبل خالصا ؛ مثل السين ، أو سوف ، أو لن ، وأدوات أخرى تجعله للماضى ، مثل : لم .

هذا ، ولا تعرف اللغات السامية تركيب الكلمات « أسماء وأفعالا ؛ وذلك مثل : describe (de + scribe) « وَصَفَ » فى الإنجليزية = beschreiben (be + schreiben) فى اللغة الألمانية ، وكذلك : circumstance (circum + stance) « حالة » فى اللغة الإنجليزية = Umstand (Um + Stand) فى اللغة الألمانية . وإن كان المضاف والمضاف إليه ، فى اللغات السامية ، يرتبطان بعضهما ببعض ، ارتباطا وثيقا ، يكاد يحيلهما فى بعض الأحيان كلمة واحدة[٢٩] » ؛ ولذلك نراها فى فروعها الحديثة ، توثق أحيانا بين أجزاء التراكيب الإضافية ، بحيث تصير كلمة واحدة ؛ مثال ذلك فى العربية الحديثة : (مَاوَرْد) و(رِسْمَال) وأصلهما : ماءُ وَرْدٍ ، ورأسُ مَالٍ ، وغير ذلك[٣٠] . ومثل ذلك فى القديم قول العرب : « حَبَقُرّ » للبَرَد (= حَبُّ + قُرٍّ) .

★ ★ ★

أهمية الدراسات السامية للعربية :

لا شك أن هناك فوائد كثيرة ، تعود على الدرس اللغوى ، من معرفة

---

(٢٨) انظر فى تفصيل ذلك : اللغة العبرية ، للدكتور رمضان عبد التواب ١٢٠ – ١٣٣

(٢٩) دراسات فى فقه اللغة العربية ، للدكتور السيد يعقوب بكر ١٢

(٣٠) انظر : فقه اللغات السامية ١٤ – ١٥ واللغات السامية لنولدكه ص ١٠

الدارس باللغات السامية ؛ فإنه فضلا عما تفيده هذه المعرفة ، بتاريخ الشعوب السامية ، وحضاراتها ، ودياناتها ، وعاداتها ، وتقاليدها — تؤدى مقارنة هذه اللغات باللغة العربية ، إلى استنتاج أحكام لغوية ، لم نكن نصل إليها ، لو اقتصرت دراستنا على العربية فحسب . ونفسر بهذا الأمر سِرَّ تقدّم المستشرقين ، فى دراستهم للغة العربية ، ووصولهم فيها إلى أحكام لم يسبقوا إليها ؛ لأنهم لا يدرسون العربية ، فى داخل العربية وحدها ، بل يدرسونها فى إطار اللغات السامية . وفيما يلى بعض الأمثلة ، التى تبين لنا قيمة هذه الدراسات بالنسبة للعربية :

١ — قال الله تعالى : « فادْعُ لنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لنا مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ ، مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وفُومِها وعَدَسِها وبَصَلِها » . وقرأ ابن مسعود : « وثومها وعدسها » ، وروى ذلك عن ابن عباس أيضا . فهل أصل الكلمة فى العربية بالثاء أم بالفاء ؟ إن فى معرفتنا باللغات السامية الإجابة على ذلك ؛ فإن الشين العبرية ، التى تقابل تاء فى الآرامية ، تقابل ثاء فى العربية ، وتلك قاعدة مطردة ، فى مقارنات أصوات اللغات السامية[٣١] ؛ فمثلا : كلمة : (شُورْ) sōr فى العبرية ، تقابل : (تَوْرَا) tawrā فى الآرامية ، وتقابل كلمة : (ثَوْر) فى العربية . وكذلك كلمة : (شُومْ) šūm فى العبرية ، هى : (تَوْمَا) tawmā فى الآرامية ، و (ثُوم) فى العربية .

ومعنى هذا أن أصل هذه الكلمة فى العربية بالثاء ، وأما الفاء فهى تطوّر عنها . وقد جاءت كلمات كثيرة فى العربية ، وقد تعاقبت فيها الثاء والفاء ، مثل : اللِّثام ، واللِّفام ، وجَدَث وجَدَف للقبر ، وحثالة وحفالة للردىء من كل شىء[٣٢] . وفى لهجة « القَطِيف » المعاصرة ، فى شرقى الجزيرة العربية ، يبدل الناس فى كلامهم ، الثاء فاء ؛ فيقولون مثلا : « يوم الفَلافَة » فى : يوم الثلاثاء ، و« عِنَب الفَعْلَب » فى : عنب الثعلب ، و « الفار » فى : الثأر ، وغير ذلك .

---

(٣١) انظر : أصوات اللغات السامية ، فى كتابنا : اللغة العبرية ١٢٢ — ١٢٧

(٣٢) انظر فى سبب هذه المعاقبة : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٦

وإذا طبقنا القاعدة السابقة ، على الفعل : (ثاب) بمعنى : رجع ، نعرف أن الفعل الآخر : (تاب) بمعنى : رجع عن الذنب ، ليس أصيلا فى العربية ، وإنما هو مستعار من الآرامية ، من النصوص الدينية ، التى استعمل فيها هذا الفعل بكثرة ، فى هذا المعنى الخاص ، فالفعل فى العبرية : (شَابْ) šāḇ ، والآرامية (تَابْ) tāḇ بمعنى : (رجع) مطلقا ، كالفعل : (ثَابَ) فى العربية .

٢ — كلمة : « ليس » فى العربية ، يعدّها النحاة العرب ، فعلا جامداً لا يتصرف ، من أخوات : « كان » . غير أننا إذا نظرنا إلى ما يقابلها ، فى اللغات السامية الأخرى ، عرفنا أنها مركبة من (لا) وكلمة : (أَيْسَ) ، التى لا وجود لها الآن فى اللغة العربية ، إلا فى بعض التعبيرات القديمة ؛ كقول العرب : « ائتنى به من حيث أَيْسَ ولَيْسَ » ومعناه : من حيث هو ولا هو ، وكذلك فى قولهم : « الأَيْس واللَّيْس » ، بمعنى : الوجود والعدم . وهذه الكلمة تقابل فى العبرية : (يِشْ) yēš بمعنى : يوجد ، ونفيها : (أَلْ يِشْ) ắl yēš = ليس . وكذلك فى الآشورية : (إِشُو) išu ونفيها : (لَشُّو) laššu ، وهكذا[٣٣] .

٣ — يرى النحويون العرب ، أن الأفعال المعتلة العين أو اللام ؛ مثل : قال وباع ، وتلا ، وقضى ، وما إلى ذلك ، أصلها : قَوَلَ ، وبَيَعَ ، وتَلَوَ ، وقَضَىَ . غير أنهم يعودون فيؤكدون أن هذا الأصل ، لم يستخدم فى العربية فى يوم ما . ولكن معرفتنا بالحبشية ، من بين اللغات السامية ، تقودناإلى الإيمان بأن هذا الأصل ، مرحلة أقدم مما وصل إلينا فى العربية ؛ ففى الحبشة يقولون : (بَيَنَ) بمعنى : تحقق ، و (دَيَنَ) بمعنى : دان ، و (رَمَيَ) بمعنى : رمى ، و (تَلَوَ) بمعنى : تلا ، وهكذا[٣٤] .

---

(٣٣) انظر فى تفصيل ذلك : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٧٣

(٣٤) انظر لطريقة تطور هذه الأفعال فى العربية : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٧٤ ومقالتنا : الركام اللغوى للظواهر المندثرة فى اللغة ٥٨ — ٥٩

٤ — واعتقادهم أن الهمزة فى كلمة مثل : (اطمأنّ) أصلية ، يكذبه أن المادة فى العبرية : (طَمَنْ) ṭāman ليس فيها الهمز . والتعليل العلمى لوجود الهمز فيها فى العربية ، أن الكلمة أصلها : (اطمانّ) ، على وزن : احمارّ واصفارّ ، ثم استخدمت الكلمة فى الشعر بكثرة ، فاضطر الشاعر إلى التخلّص من التقاء الساكنين — على قول النحاة — بإقحام همزة ، كما قال كثير عزّة :

وأنت ابن ليلى خير قومك مشهدا إذا مااحمأرت بالعبيط العوامل

وسنعالج هذه الظاهرة ، بالتفصيل فيما بعد .

٥ — يرى النحاة أن كلمة : (اسم) ثلاثية الأصل ، وأن همزة الوصل فيها ، بدل من لام الكلمة المحذوفة ، والأصل : (سَمَوٌ) فيما يرى البصريون ، أو بدل من فاء الكلمة المحذوفة ، والأصل : (وَسْمٌ) فيما يرى الكوفيون . غير أن مقارنة اللغات السامية ، تدل على أن هذه الكلمة ، مع كلمات أخرى كثيرة ؛ مثل : « يد » و « دم » ذات أصل ثنائى ، فهذه الكلمة فى العبرية : (شِمْ) šēm وفى الآرامية : (شْمَا) šmā والألف الأخيرة فيها أداة التعريف ،وفى الحبشية : (سِمْ) sem وفى الأكادية : (شُمُ) šumu .

٦ — بل إن دراسة اللغات السامية ، قد تفسر لنا ظواهر فى العامية العربية ، كظاهرة ضياع صيغة المبنى للمجهول فى العامية ، وهى صيغة : « فُعِلَ » و « يُفْعَلُ » ؛ إذ نابت عنها فى العامية : (انْفَعَل) مثل : انكتب ، وانفهم ، وينفلق ، وينعمل ، بدلا من : كُتِبَ ، وفُهِمَ ، ويُفْلَقُ ، ويُعْمَلُ ، أو صيغة : (اتْفَعَل) ؛ مثل : اتقتل ، واترمى ، بدلا من : قُتِلَ ، ورُمِيَ ؛ ففى اللغة العبرية توجد الصيغة الأولى ، وهى هناك على وزن : (نِفْعَلْ) مثل : نِقْتَل ، بمعنى : قُتِلَ ، وفى الآرامية توجد الصيغة الثانية ، وهى هناك على وزن : (اتْفِعِلْ) مثل : اتْقْتِلْ ، بمعنى : قُتِلَ .

وهناك أمثلة أخرى ، لا حصر لها ، تؤكد الفائدة التى تعود على الدراسات العربية ، من بحثها بحثا جديدا ، فى ضوء اللغات السامية .

★ ★ ★

الفصل الثانى

النقوش العربية الشمالية

إننا حين نبحث عن نصوص ، موغلة فى القدم ، للغة العربية ، فإننا لا نكاد نعثر على شيء ذى قيمة . وأقدم ما بين أيدينا من نصوص عربية ، هى تلك الآثار التى نسميها بالأدب الجاهلى ، وهى لا تكاد تتجاوز قرنين من الزمان قبل الإسلام .

أما العربية التى كانت مستعملة قبل ذلك ، فلا نكاد نعرف عنها شيئا ، وكنا نودّ أن نعثر على نصوص ، ترجع إلى ما قبل المسيحية مثلا ، لنقارن بينها وبين الأدب الجاهلى ، ونعرف شيئا عن خصائص اللغة فى ذلك الحين ، ولكننا للأسف لم نعثر على شيء .

وأما تلك النقوش ، التى عُثر عليها فى شمالى الجزيرة العربية ، وحاول بعض المستشرقين قراءتها ، واستخراج بعض المعلومات منها ، وسموها باللغة العربية القديمة ، فسنعرض لها هنا بشيء من الإجمال ، ثم نرى فيها رأينا . وزمن هذه النقوش يتراوح بين القرن الخامس قبل الميلاد والرابع الميلادى .

وأقدم هذه النقوش ، هو ما اشتهر بين العلماء ، باسم النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية[1] ، نسبة إلى قبائل ثمود ولحيان ، وهى قبائل عربية قديمة ، استوطنت شمالى الجزيرة العربية . وقد عثر على الكتابات الثمودية ، فى أعالى الحجاز ، وتَيْمَاء ، ومدائن صالح (الحِجْر) ، والعُلا (وهى دَدَان القديمة) ، وشرقى الأردن ، وشبه جزيرة سيناء ، وغيرها .

---

(١) انظر بعض هذه النقوش ، فى كتاب : تاريخ اللغات السامية ، لإسرائيل ولفنسون ١٧٨ — ١٨٧ . وانظر كذلك : اللغة العربية فى عصور ما قبل الإسلام ، لأحمد حسين شرف الدين ٥٧ — ٦٧

أما النقوش الصفوية ، فإنها اكتشفت فى المنطقة الواقعة بين جبل الدروز ، وتلال أرض الصفاة . وقد اعتاد المستشرقون أن ينسبوا هذه الكتابات للصفاة ؛ اختصاراً فى التعبير ، مع أنها اكتشفت فى المنطقة القريبة منها .

وقد ساح فى منطقة الصفاة ، مستشرقون كثيرون ، فجلبوا منها كتابات كثيرة ، وحلّوا نظام الأبجدية لهذه الكتابات ، ومع ذلك ظلت هذه النقوش ، غامضة المعنى ، حتى ذهب إلى هناك ، المستشرق الألمانى « إنّو ليتمان » Enno Littmann وجمع من منطقة الصفاة ، أكثر من ١٤٠٠ نقش ورجع إلى بلاده ، حيث درسها درسا عميقا ، استطاع به أن يحلّ حلا واضحاً ، حروف الأبجدية الصفوية ، وألف فى لغة النقوش الصفوية كتابا سنة ١٩٠١ م .

وخطوط النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية ، تشبه خطوط اللغة السبئية والمعينية ، أو بعبارة أخرى : خطوط اللغة العربية الجنوبية القديمة ، التى كانت تسمى عند اللغويين العرب باللغة الحميرية ، وتكتب من الشمال إلى اليمين فى الغالب ، وهى خالية من رموز الحركات وحروف المد واللين ؛ فكلمة : (أنا) مثلا ، تكتب هكذا : (أن) وكلمة :(زيد) تكتب : (زد) . . إلى غير ذلك . والحال هكذا فى الخط السبئى والمعينى ، المسمّى بخط المسند ، كما هو ظاهر فى النقوش التى اكتشفها المستشرقون فى العصر الحديث[٢] .

وكان ذلك أمرا معروفا لدى القدماء كذلك ؛ فهذا هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ) ، يقول وهو يتحدث عن لوحة كتبت بخط المسند ، وورد فيها كلمتان هما : « علهان » و « نهفان » من أسماء الملوك : « كذلك يكتبون ، بحذف الألف إذا وقعت

---

(٢) انظر بعض نقوش العربية الجنوبية فى كتاب : « فى تاريخ اليمن » ، لمطهر على الإيريانى القاهرة ١٩٧٣ م .

فى وسط الحروف ، وقفاهم المسلمون فى كتابة المصاحف ،فطرحوا ألف : الرحمن ، وألف : الإنسان ، وألف : السموات . وكذلك : (علهن) منقوص من : (علهان) و (نهفن) منقوص من : (نهفان) و (همدن) من : (همدان) و (بنين) من : (بنيان) . وهذا ما تؤديه أحرف الكتاب فأما اللفظ فعلى التمام ، وكذلك يحذفون الواو الساكنة من وسط الحروف ؛ مثل : مبعوث ، والياء الساكنة ؛ مثل : شمليل ، والألف الساكنة ؛ مثل : هلال ، وبلال ، وأميال[٣] » .

وفيما يلى صورة أحد النقوش الصفوية[٤] ، وهو نقش عثر عليه فى منطقة الصفاة ، بين غدير الدرب والشبكة :

ويلاحظ أن سطور النقش ، مرتبة من أسفل إلى أعلى ، من اليمين إلى الشمال ، ثم من الشمال إلى اليمين ، ثم من اليمين إلى الشمال . وعبارته :

« لولى بن عذ بن عذ بن غث وحل هدر ووجد سفر خله فباسم ظلل فـ . . . » .

ومعناه ، كما قرأه المستشرقون : لولى بن عوذ بن عوذ بن غوث ، لقد حل فى هذه الدار ، ووجد نقش خاله ، فأقام بين وسم و . . . » .

وقد لاحظ « ليتمان » أن الخطوط الصفوية ، مركبة من ثمانية وعشرين حرفا ، كما هى فى العربية ، وخلص من هذا إلى أن كاتبيها كانوا من العرب ،

(٣) الإكليل للهمدانى ١٦/١٠

(٤) عن كتاب : « العرب فى سوريا قبل الإسلام » لرينيه ديسو ٩٧

ليس بينهم وبين قبائل العرب فى الجزيرة فروق كبيرة ، وقد وجد فى كتاباتهم ألفاظ تدل على حياتهم الصحراوية ؛ ففيها ذكر للغنائم والغزو[٥] .

وإذا كان هذا النقش قريبا إلى اللغة العربية ، فهناك الكثير من النقوش الثمودية ، واللحيانية ، والصفوية ، قد امتلأت بالكلمات الآرامية والنبطية والعبرية . ونقشنا هذا ، قد استعمل أداة التعريف ، التى تستعملها العبرية ، فى كلمة : (هدر) . وهذه النقوش جميعها لها طابع واحد ، هو أنها مكتوبة بخط يشبه الخط السبئى والمعينى ، مما جعل بعض المستشرقين ، يرى أن أصحابها عرب من جنوبى الجزيرة ، استوطنوا شماليها ، وجلبوا معهم هذا الخط هناك .

ومن الثابت عند نولدكه[٦] أن « هذه النقوش تمثل لهجة عربية » ، ويدل على ذلك عنده ، ما فيها من الأصوات الأسنانية ، والتفريق الذى لا نراه إلا فى العربية ، بين صوتى العين والغين ، وكذلك بين صوتى الحاء والخاء .

ويرى الدكتور عبد الرحمن الأنصارى ، أن ما يسمى بالخط الثمودى ، ليس إلا مخربشات من خطوط البادية ، قلد فيها أصحابها خط المسند ، فيقول : « أطلق العلماء على بعض المخربشات ، الموجودة فى منطقة العلا ومدائن صالح ، والمنتشرة فى معظم أنحاء الجزيرة : اسم الخط الثمودى ، ولكن الذى أعتقده ، أنه إنما هو خط البادية . ماذا أقصد بخط البادية ؟ أقصد أن هذه القبائل المتموجة فى الجزيرة العربية ، كانت تذهب إلى ديدان والحجر ، وترى هذه الخطوط الجميلة ،ثم تحاول تقليدها عندما تعود إلى مضاربها . وهذا ما كنا نشاهده ، منذ زمن ليس بالقصير ؛ يأتى أحد أبناء البادية ، ومعه ابنه ، إلى الحاضرة ، فيترك ابنه فى أحد الكتاتيب ، لمدة

---

(٥) انظر : تاريخ اللغات السامية ، لإسرائيل ولفنسون ١٨٣

(٦) اللغات السامية ٧١

أسبوع أو أسبوعين ، ريثما يبيع ما لديه ، ويشترى ما يريد ، ثم يأخذ ابنه معه إلى البادية ، وقد علقت بذهنه صور بعض الحروف ، أو بعض الكلمات ، ثم يطلب الأب من ابنه ، كتابة رسالة إلى عمه فى مكان آخر ، أو إلى التاجر الذى اشترى منه بعض السلع ، وهكذا يحاول الابن تقليد ما علق بذهنه ، من حروف وكلمات . فالكلمات الثمودية فى اعتقادى ، هى من هذا النوع ، نوع كتابات البادية ، ولذا لا نجد فيها معلومات تاريخية قيمة ، إنما هى عبارة عن : فلان بن فلان نزل فى هذا المكان ، أو : فلان بن فلان اشترى جَمَلًا من فلان ؛ كتابات لا يمكن أن تعطى حقائق تاريخية واضحة ، ذات حوادث ، أو ذات طابع حضارى[٧] » .وقد عانى المستشرقون فى قراءتها كثيرا « وغاية ما وقفوا عليه ، بعد هذا العناء ، قراءة بعض الأعلام ، ومنها أسماء الأشخاص أو الآلهة أو الأماكن ، فى معرض الدعاء أو الوقف أو نحو ذلك ، وقلما قرءوا نقشا فيه فائدة تاريخية صريحة[٨] » .

وقد عثر المنقبون من المستشرقين على أربعة نقوش ، قديمة جاهلية قريبة إلى العربية ، من حيث المادة اللغوية والأسلوب ، أكثر من قرب النقوش الثمودية والصفوية إليها . ومن الغريب فى الأمر أنها كشفت فى منطقة ، غير بعيدة من منطقة الصفاة ، ومع ذلك فإن التأثير الآرامى فيها ، أقل مما فى النقوش ، التى تحدثنا عنها من قبل .

وتمتاز تلك النقوش الأربعة ، بأنها كتبت – على عكس النقوش السابقة – بالخط النبطى المتأخر ، الذى يشبه الخط الكوفى ، والحروف فيها مرتبط بعضها ببعض ؛ وذلك أمر لا نعرفه فى الخط النبطى القديم ، ولذلك يرى بعض الباحثين فى هذه النقوش ، من الناحية الشكلية ، حلقة اتصال بين الخط النبطى القديم ، والخط العربى فى أول عهد الإسلام .

---

(٧) من محاضرة بعنوان : « لمحات عن القبائل البائدة فى الجزيرة العربية » منشورة فى كتاب : « محاضرات فى التاريخ والآثار » ص ٩٠

(٨) العرب قبل الإسلام ، لجرجى زيدان ٢٥٠

والنقوش الأربعة هى : نقشٍ النِّمارة ، ونقش زَبَد ، ونقش حَرَّان ، ونقش أمِّ الجِمَال[٩] .

والأول هو أقدمها ؛ إذ دُوِّن فى عام ٣٢٨ بعد الميلاد . والنمارة هى قصر صغير ، كان للروم فى الجهة الشرقية من جبل الدروز ، وبه سميت البلد الموجود بها . وقد ورد اسمها فى شعر النابغة الذبيانى ، فى قوله :

وما رأيتك إلا نظرةً عَرَضَت
يومَ النمارة والمأمورُ مأمورُ[١٠]

وقد اكتشف هذا النقش ، فى مدافن امرىء القيس بن عمرو[١١] ، ملك العرب ، الذى كان يملك الحيرة ، ويمتد نفوذه حتى بادية الشام ، وهو غير امرىء القيس الشاعر الجاهلى المشهور ، وقد اكتشف هذا النقش « رينيه ديسو[١٢] » René Dussaud وفيما يلى صورة النقش :

---

(٩) انظر فى وصف هذه النقوش الأربعة وقراءاتها ومصادرها ونشراتها المختلفة :

Repertoire Chronologique d Epigraphie Arabe, Tome I, 1 - 5 .

وانظر فى النقوش الثلاثة الأولى كذلك : تاريخ اللغات السامية ، لإسرائيل ولفنسون ١٨٩ — ١٩٤ وفقه اللغة لعلى عبد الواحد وافى ٩٩ — ١٠٣ وتاريخ الأدب لحفنى ناصف ٥٩ — ٦٠

(١٠) ديوان النابغة ق ٤٦/٢ ص ٢٠٣

(١١) هو امرؤ القيس بن عمرو بن عدى ، وكان يسمى بامرىء القيس البدء ، وهو أول من تنصر من ملوك الحيرة من آل لخم . انظر تاريخ الطبرى ٥٣/٢ والعرب قبل الإسلام ٢٢٦

(١٢) انظر كذلك : التاريخ العربى القديم ٤٩

وقراءته كما يلى :

١ — تى نفس مرالقيس برعمرو ملك العرب كله ذو أسرالتج .

٢ — وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجا .

٣ — بزجى فى جبح نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .

٤ — الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ — عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .

وترجمته على النحو التالى :

١ — هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ، ملك العرب كلهم ، الذى حاز التاج .

٢ — وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم ، وهزم مذحجا اليوم ، وجاء

٣ — بغنائم فى مجتمع نجران مدينة شمّر ، وملك معدًّا ، وأنزل بنيه

٤ — الشعوب ، ووكله الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ — اليوم هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول ، فليسعد الذين ولدهم .

أما نقش « زَبَد » ، فهو مكتوب بثلاث لغات : باليونانية والسريانية والعربية ، ويرجع تاريخ كتابته إلى عام ٥١٢ — ٥١٣ بعد الميلاد . و « زبد » مكان خرب فى المنطقة الواقعة بين قنسرين ونهر الفرات . وفيما يلى صورة القسم العربى من هذا النقش ، وهو لا يشتمل على أكثر من أسماء الرجال ، الذين اجتهدوا فى بناء الكنيسة ، التى وضعت فيها الكتابة :

وقراءته غير مؤكدة ، بسبب الكسر الذى فى أوله ، وغموض بعض كلماته . وفيما يلى أرجح القراءات :

١ – (بنصـ)ـر الإله سرجو بر أمت منفو وهليا بر مر القيس .

٢ – وسرجو بر سعدو وسترو وشريحو بتميمى .

والكلمة الأخيرة فى هذا النقش ، وهى كلمة : (بتميمى) مكتوبة بحروف سريانية .

أما نقش « حَرّان » فكتب باللغتين : اليونانية والعربية ، فى سنة ٥٦٨ ميلادية ، أى قبل مولد النبى محمد ﷺ بثلاث سنوات ، وقد اكتشف فى المنطقة التى تقع شمالى جبل الدروز . وهو منقوش على حجر ، فوق باب إحدى الكنائس هناك . وفيما يلى صورته :

وقراءة النص العربى فيه على النحو التالى :

١ – أنا شر حيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول .

٢ – سنت ٤٦٣ بعد مفسد

٣ – خيبر

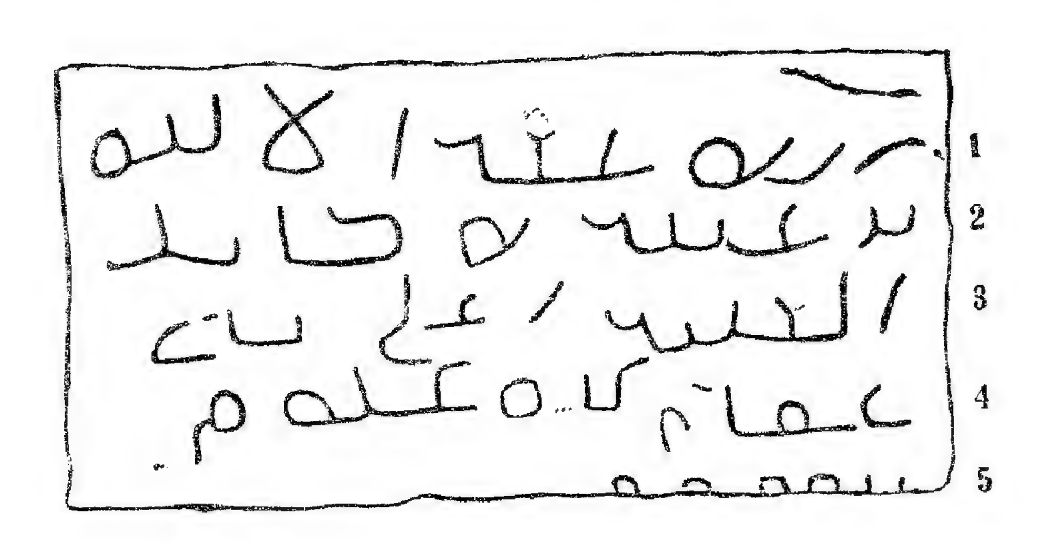
٤ – بعام

ومعناه : « أنا شراحيل بن ظالم ، بنيت هذه الكنيسة ، سنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعام » وكان المستشرق « إنّو ليتمان » هو الذى حل رموز الكلمات : (مفسد خيبر بعام) فى هذه الكتابة ؛ إذ كانت قبل ذلك مبهمة ، ويقول ليتمان : إن مفسد خيبر إنما يشير إلى غزوة أحد أمراء بنى غسان لخيبر[١٣] .

---

(١٣) انظر : تاريخ اللغات السامية ، لإسرائيل ولفنسون ١٩٢

أما النقش الرابع ، فقد وجد فى قرية : « أم الجمال » وهى قرية عربية مسيحية كبيرة ، فى الجنوب من « بُصْرَى » بالقرب من « عَمَّان » . وقد اكتشفه المستشرق « إنّو ليتمان » فى عام ١٩٠٥ م ، وظل يدرسه مع غيره من العلماء ، ثم نشر نتيجة دراسته تلك فى : « مجلة الساميات »[١٤] ، فى عام ١٩٢٩ م . وهذه هى صورته :



ويرى « ليتمان » أن هذا النقش ، يرجع إلى أوائل القرن السادس الميلادى . ويلاحظ أن السطر الأخير منه مكسور . وفيما يلى قراءة « ليتمان » للنقش :

١ — الله غفرا لأليه

٢ — بن عبيدة كاتب

٣ — الخبير أعلى بنى

٤ — عمرى صلو عليه من

٥ — يقرؤه

ويذهب إلى أن معناه : « يارب اغفر لأليه بن عبيدة ، الكاتب الخبير ، أشرف بنى عمرو ، ادع له أيها القارىء » .

---

(١٤) انظر : . Littmann,Vorislam. - arab. Inschrift, Zeitschrift für Semitistik VII 203

ونحن وإن كنا نتفق مع « ليتمان » فى قراءة الأجزاء الأولى ، من هذا النقش فإننا لا نوافقه على قراءة الجملة الأخيرة منه ، وهى : (صلو عليه من يقرؤه) ، ولعلها تقرأ هكذا : (كله علو من يتفقده) ، ويكون المعنى : « أنه أعلى بنى عمرو كلهم كعلو من يتفقده بزيارة قبره » !

* * *

والآن ، وقد قضينا وقتا ليس بالقصير مع هذه النقوش ، التى عثر عليها فى شمالى الجزيرة العربية ، واصطلح المستشرقون على تسميتها بالنقوش العربية القديمة ، وسموا كل نقش باسم المكان ، الذى عثر عليه فيه ، نرى هذه النقوش مزيجا من اللغة العربية ، كما نعرفها ، ومن لغات أخرى كانت شائعة ، فى بلاد الشام والعراق ، فى ذلك الحين ، كالآرامية مثلا .

ويقول إسرائيل ولفنسون : « لا شك أن أصحاب النقوش الثمودية والصفوية ، من العرب ، أو هم أقوام لهم اتصال متين بلغة العرب ، ولكن العناصر الأعجمية الكثيرة البارزة فيها ، شوّهتها وحرّفتها كثيرا ، إلى أن محت منها شيئا غير قليل من الروح العربية ، والأسلوب العربى ، حتى إن اللغة العربية تضاءلت ، أمام الحضارات الأخرى ، البارزة فى تلك النقوش[١٥] » .

كما يقول عن نقش النمارة إنه : « آرامى أكثر منه عربيا ، فالاصطلاح : (تى نفس) يذكرنا بنقوش النبط ، وأهل تدمر ، التى تعبر عن معنى القبر ، بكلمة : (نفشو) ، ثم يقول : « على أننا نعتقد أن كاتب هذا النقش ، كان عالما باللغة العربية فى بلاد الحجاز ؛ إذ نقش فى كتابته جملة عربية فصيحة ، صحيحة الذوق فى الأسلوب العربى ، وهى جملة : فلم يبلغ ملك مبلغه[١٦] » .

وقد صدق « ولفنسون » ؛ فإننا نجد فى هذه النقوش ، على سبيل المثال ، أنها تستخدم أداة التعريف ، لا كما تستخدمها اللغة العربية ، ولكن

---

(١٥) تاريخ اللغات السامية ١٨٨

(١٦) تاريخ اللغات السامية ١٩٣

كما تستخدمها اللغة العبرية ، فنحن نعرف أنها فى العبرية « الهاء والنون » ، التى تقابل فى العربية « الألف واللام » ، غير أنها تطورت فيما بعد فى اللغة العبرية ، فأدغمت النون فيما عدا حروف الحلق والراء ؛ لأنها لا تقبل الإدغام فيها ؛ ولذلك يشدد الحرف الأول من الكلمة ، عوضا من النون ، فإذا كان حرف حلق أو راء أطيلت حركة الهاء . وقد تطورت كذلك فى العربية ، فأدغمت اللام فيما يسمى بالحروف الشمسية ، وهى : (ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن) ، وإن كانت العربية تختلف عن العبرية ، فى أن أثر هذا التطور ، لم يظهر فى الأولى إلا فى النطق ، ولم يظهر فى الخط ، بخلاف العبرية .

فالنصوص التى عثر عليها فى شمالى الجزيرة العربية – كما رأينا – كانت تستخدم أداة التعريف ، كما تستخدمها اللغة العبرية ، فى بعض الأحيان .

كذلك وجدناها تشتمل على ظاهرة شائعة فى الآرامية ، فهى تستخدم كلمة : « بر » ، وهى فى الآرامية بمعنى كلمة : « ابن » فى اللغة العربية .

وأخيرا ، فإننا نجد فى هذه النقوش ، بعض الكلمات التى لا تعرفها اللغة العربية ؛ فمثلا كلمة : « مرطول » بمعنى الكنيسة ، لا وجود لها فى المعاجم العربية .

ومن كل هذا يظهر لنا أن هذه النقوش ، ليست عربية خالصة ، والذى دعا هؤلاء المستشرقين ، إلى نسبة هذه النقوش ، إلى اللغة العربية ، هو أنهم وجدوا فيها بعض خصائص العربية ؛ مثل بعض الأصوات التى شاعت فى العربية ، ولم تشع فى غيرها من اللغات السامية الأخرى ، كالأصوات الأسنانية (ث ذ ظ) والضاد ، والتفريق بين صوتى العين والغين ، وصوتى الحاء والخاء .

كذلك وجدنا فى هذه النقوش ، ظاهرة لم تشع فى غير العربية ،

إلا فى الأكادية ، وهى ظاهرة الإعراب ، وقد وجد المستشرقون فى أواخر بعض كلمات هذه النقوش ، رموزا للحركات الطويلة ؛ مثل : « وهرب مذحجو » فى نقش النمارة ، و « أعلى بنى عمرى » فى نقش أم الجمال ، فاستنبطوا أنها حركات إعراب .

كما يوجد بهذه النقوش كذلك ، صيغة (أفعل التفضيل) ، التى هى من خصائص اللغة العربية ، أما غيرها من اللغات السامية ، فيستخدم الوصف الأصلى ، مع زيادة كلمة : (من) أو (على) ، كما فى اللغة العبرية مثلا : טוב ממנו. = أحسن منه .

تلك هى أهم ما استنبطه المستشرقون ، من أوجه شبه ، بين هذه النقوش واللغة العربية . وإذا سلمنا معهم جدلا ، بأنها نصوص عربية ، وأن الذين كتبوها ، قد كتبوها بلغة العرب ، فإننا نسائل أنفسنا : هل هى واضحة ، بحيث تلقى ضوءا كافيا على اللغة العربية ، نعرف منه شيئا عن طفولتها ؟

نقول نحن إنها غير كافية ؛ لأسباب أهمها أنها مزيج من ظواهر عربية ، وأخرى غير عربية ، وثانيا لأن مادة هذه النقوش ضحلة ؛ لأنها عبارة عن لوحات على حجارة ، وضعت فوق المقابر ، وفوق بعض الأبنية ، التى شيدت قبل الإسلام ، كالكنائس مثلا . ولكى تعلم مقدار ما فى هذه المادة من ضآلة ، تصور نفسك وقد ذهبت إلى إحدى (القرافات) ، وأخذت تجمع النقوش ، من على شواهد القبور ، فإنك سترى المادة اللغوية ، قدراً ضئيلا لا يكاد يتجاوز صفحة .

وقد سبقنا إلى هذه الملاحظة أستاذنا « شبيتالر » A.Spitaler فقال فى مقال له عن العربية : « إنه على الرغم من وجود النقوش المتعددة ، فإن قراءتها فى كثير من الأحوال غير مؤكدة ، ونتائجها عديمة الجدوى ؛ لأن مادتها اللغوية ، على جانب كبير من الضآلة[١٧] » .

---

(١٧) انظر : A. Spitaler, Arabisch, 117

كما يقول أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس : « وحين نسلم جدلا أن لغة هذه النقوش ، تمثل مرحلة من مراحل اللغة العربية ، يجب أن نعترف أن نصوصها ضحلة ، لا تقنع الباحث ، لتلقى ضوءاً كاشفا على حال اللغة العربية ، فى تلك العهود ، فهى فى مجموعها لا تكاد تعادل سفرا صغيرا ، من أسفار العهد القديم ، هذا إلى أن كثيرا من كلماتها ، عبارة عن أعلام لأشخاص ، ولا تكاد تجدى مثل هذه الأعلام فى البحث اللغوى ، وفوق هذا وذاك تعرض هذه النقوش لأمور متشابهة ، كتسجيل تاريخ كنيسة أو قبر ، مما جعل كثيرا من عباراتها وألفاظها يتكرر ، ويجعل نصوصها قليلة القدر ، لا تكفى فى بحث لغوى جدّى[١٨] » .

فهذه النقوش غير كافية إذن ، لمعرفة طفولة اللغة العربية ، فإذا قورنت هذه النقوش بالنقوش الأكادية ، أو بالنصوص العبرية القديمة مثلا ، وجدنا أنها كالقطرة فى البحر ، ونحن حين نريد أن نحكم حكما نطمئن إليه ، لابد أن تكون أمامنا نصوص كثيرة متنوعة .

وأخيرا ، هل معنى هذا أن العربية القديمة ، وقفت مكتوفة اليدين ، أمام تلك اللغات الأخرى ، أو التراجم الكثيرة المعروفة ، عن العبرية وغير العبرية ، ولم يكتب بها أصحابها فى القديم شيئا ؟ وهل معنى ذلك أن الأمية كانت شائعة فى جزيرة العرب ، بحيث لا نجد رجلا يكتب ، ولو نصا دينيا ؟ شيء عجيب جدًّا !!

إننا نعرف الشيء الكثير ، عن جاليات مسيحية ، وأخرى يهودية ، كانت تعيش فى جزيرة العرب ، ونعرف أن المسيحيين كانوا يتعبدون بالإنجيل ، واليهود يتعبدون بالتوراة ، ونعرف أن اللغة الفطرية ، لهذه الجاليات ، كانت العربية . فَلِمَ لم يكتبوا نصوصا دينية باللغة العربية ؟ هل دَوَّنوا شيئا لم نعثر عليه حتى الآن ؟

---

(١٨) فى اللهجات العربية ٣٥

يقول إسرائيل ولفنسون عن هذا الموضوع : « ومن حيث إننا لم نعثر إلى الآن على نقوش ، فى مراكز بلاد الحجاز الأصلية ، مثل : الطائف ومكة ويثرب ، فإننا أمام أمرين : إما أن نحتمل أن العرب لم يتركوا آثاراً منقوشة ، قبل ظهور الإسلام ، وإما أن أوان كشف هذه الآثار لم يئن بعد . أما الأمر الأول فغير محتمل ، حسب رأينا ؛ إذ لا يعقل أن العرب فى مكة ويثرب ، لم يكونوا يستعملون الكتابة ، فى عصر ظهور الإسلام ، ولدينا روايات تاريخية يقينية ، عن وجود كتّاب ، كانوا قد مارسوا فن الكتابة فى ذلك العهد ؛ لذلك يحتمل أن تكون هناك بعض نقوش ، على الأحجار والصخور ، أو كتابات على الرقّ لم تكشف بعد . والمستقبل كفيل بحل أحد هذين الاحتمالين[١٩] » .

والآن ، نضرب صفحا عن هذه النقوش ، فى استنباط شيء منها ، عن طفولة اللغة العربية ، ونقنع ببحث تلك اللغة ، التى وردت لها نصوص صحيحة ، وهى ما تسمى فى اصطلاحنا « بالأدب الجاهلى » وهى نصوص لا تكاد تجاوز – كما سبق أن قلنا – قرنين من الزمان ، قبل الإسلام .

★ ★ ★

(١٩) تاريخ اللغات السامية ١٩٤

الفصل الثالث
مشكلة توثيق النصوص

ذكرنا فى الفصل السابق ، أن أقدم نصوص العربية ، التى يمكن الاعتماد عليها فى الدرس اللغوى ، هى النصوص المعروفة بالأدب الجاهلى ، غير أن هذه النصوص لم تسلم من الطعن فيها ، والشك فى صحتها .

وأول ما يقابلنا هنا ، هو قضية الشك فى الشعر الجاهلى ، ولسنا بصدد تفصيل القول فى هذه القضية ، وإنما نشير إلى أهم أعلامها ، متحدثين عن آرائهم بإيجاز :

وقد كان المستشرق « مَرْجُلْيُوث » Margoliouth من أوائل من شك فى صحة الشعر الجاهلى ، فى مقال له نشر فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية JRAS فى عدد يولية سنة ١٩٢٥ م ، وعنوانه : « أصول الشعر العربى » صفحة ٤١٧ – ٤٤٩ ، انتهى فيه إلى أن ما يسمى بالشعر الجاهلى ، لم يقله شعراء جاهليون حقا ، وإنما نظمه بعض المزيفين فى العصور الإسلامية ، ونحلوه الجاهليين .

وقد رد على هذا الرأى بعض المستشرقين ، من أمثال : « لَيَالْ » Lyall فى مقدمة تحقيقه لشرح ابن الأنبارى للمفضليات[1] ، كما تحدث عن قضية صحة الشعر الجاهلى مرة أخرى ، فى مقدمة تحقيقه لديوان عبيد ابن الأبرص .

وتناول هذا الموضوع من العرب : الدكتور طه حسين ، فأفاض فيه

---

(١) انظر المفضليات بشرح ابن الأنبارى ٢/١٦ من المقدمة .

فى كتابه المشهور : « فى الشعر الجاهلى » ؛ إذ شك فى هذا الشعر ، وانتهى إلى « أن الكثرة المطلقة ، مما نسميه أدبا جاهليا ، ليست من الجاهلية فى شيء ، وإنما هى منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية ، تمثل حياة المسلمين ، وميولهم ، وأهواءهم ، أكثر مما تمثل حياة الجاهليين [٢] » .

كما يذهب إلى أن مرآة الحياة الجاهلية ، يجب أن تلتمس فى القرآن ، لا فى الأدب الجاهلى ؛ فيقول : « ذلك أنى لا أنكر الحياة الجاهلية ، وإنما أنكر أن يمثلها هذا الأدب ، الذى يسمونه الأدب الجاهلى ، فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية ، فلست أسلك إليها طريق امرىء القيس ، والنابغة ، والأعشى ، وزهير ، وقس بن ساعدة ، وأكثم ابن صيفى ، لأنى لا أثق بما ينسب إليهم ، وإنما أسلك إليها طريقا أخرى ، وأدرسها فى نص ، لا سبيل إلى الشك فى صحته ، أدرسها فى القرآن ، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلى ، ونص القرآن ثابت ، لا سبيل إلى الشك فيه[٣] » .

وقد أثار هذا الكتاب فى أيامه ، موجة شديدة من السخط ، على الدكتور طه حسين ، لا لأنه شك فى الشعر الجاهلى ، وأنكره فحسب ، بل لأنه تشكك فى أخبار القرآن الكريم ، فى كتابه هذا ، حيث يقول : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن ، لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن إثبات هذه القصة ، التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة . . . ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة ، نوعا من الحيلة ؛ لإثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية ، والقرآن والتوراة ، من جهة أخرى[٤] » .

---

(٢) فى الأدب الجاهلى ٧١
(٣) فى الأدب الجاهلى ٧٧
(٤) فى الشعر الجاهلى ٢٦

وقد تزعم حملة النقد التى وجهت إليه ، المرحوم مصطفى صادق الرافعى ، فى عدة مقالات عنيفة ، جمعها بعد ذلك مع غيرها فى كتاب سماه : « تحت راية القرآن » ، كما أُلِّفت كتب أخرى للرد على الدكتور طه حسين ، منها : « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » للسيد محمد الخضر حسين ، و « الشهاب الراصد » للأستاذ محمد لطفى جمعة ، و « نقد كتاب فى الشعر الجاهلى » للأستاذ محمد فريد وجدى ، و « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى » للأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، و « محاضرات فى بيان الأخطاء العلمية التاريخية ، التى اشتمل عليها كتاب فى الشعر الجاهلى » للأستاذ الشيخ محمد الخضرى .

وقد كان لهذه الحملات كلها ، أثر فى رجوع الدكتور طه حسين ، عن بعض آرائه ، وعلى الأخص تلك التى كانت تتعرض لأخبار القرآن الكريم ، بالتشكيك والطعن ، وصدرت للكتاب طبعة أخرى بعنوان : « فى الأدب الجاهلى » ، هى التى لا تزال متداولة إلى اليوم . وقد كتب الدكتور طه حسين فى مقدمتها : « هذا كتاب السنة الماضية ، حذف منه فصل ، وأثبت مكانه فصل ، وأضيفت إليه فصول ، وغير عنوانه بعض التغيير » .

وقد عرض الدكتور ناصر الدين الأسد ، لهذه القضية(٥) ، فلخص الآراء السابقة ، وعرض لرأى المستشرقين ، من المتشككين والمعارضين ؛ كما تناول رأى الدكتور طه حسين بالتحليل والمناقشة ، وعقد فصلاً عن الرواة وتوثيقهم ، وتضعيفهم ، دافع فيه عن هؤلاء الرواة ، وحاول أن يثبت أن الأخبار ، التى وصلت إلينا عنهم ، والتى ترميهم بالكذب والوضع ، مزيّفة ، سببها الخصومات ، والمنافسات ، والعصبيات ، التى كانت تدور بين علماء العصور الإسلامية الأولى ، ثم يقول(٦) : « ومع

(٥) فى كتابه القيم : مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ٣٥٢ - ٤٧٨

(٦) مصادر الشعر الجاهلى ٤٦٥

ذلك ، فنحن لا نذهب – ولا يصح لأحد أن يذهب – إلى أن جميع ما فى تضاعيف الكتب العربية ، من شعر منسوب إلى الجاهلية ، صحيح مبرأ من الوضع والنحل . . . وقد قادنا البحث إلى أن هذا الشعر ، المنسوب إلى الجاهلية ، على ثلاثة ضروب :

١ – فضرب موضوع منحول ، إما على وجه اليقين القاطع ، وإما على وجه الترجيح الغالب ، وأكثر شعر هذا الضرب ، ما وضعه القصاص ليحلوا به قصصهم ، أو يكسبوه فى نفوس السامعين والقارئين شيئا من الثقة ، وما وضعه هؤلاء القصاص على لسان آدم وغيره من الأنبياء ، أو على لسان بعض العرب البائدة ، وما وضعه بعض الرواة ، ليثبتوا به نسبا ، أو يدلوا به على أن لبعض العرب قُدمة وسابقة .

٢ – وضرب صحيح لا سبيل إلى الشك فيه ، أو الطعن عليه ، وذلك هو الذى أجمع العلماء الرواة على إثباته ، بعد أن تدارسوا هذا الشعر ، وفحصوه ومحصوه .

٣ – وضرب هو المختلف عليه ، الذى قال عنه ابن سلام : « وقد اختلف العلماء فى بعض الشعر ، كما اختلفت فى بعض الأشياء » ، وهو يعنى بهذا الضرب : الشعر الذى ينسب لأكثر من شاعر ، فى بعض الأحيان ، ويرى أن هذا الضرب قليل ، وأن الخلاف فى نسبته إلى أكثر من شاعر جاهلى ، لم يخرجه عن نطاق الشعر الجاهلى ، فجاهلية هذا الشعر إذن ، ثابتة لا شك فيها ، عند هؤلاء الرواة العلماء ، وإن كانوا قد اختلفوا فى الشعر الجاهلى نفسه » .

وهكذا نرى أن الشك فى بعض الشعر ، الذى يروى من العصر الجاهلى ، لا يصح أن يقودنا إلى إنكار الشعر الجاهلى ، الذى وصل إلينا

بعامة ، فإن أكثر هذا الشعر مقطوع بصحته ، وهو لهذا يصلح عندنا لاستنباط القوانين اللغوية ، التى تحكم لغة العرب فى الجاهلية ، تلك القوانين التى كتب لها الخلود ، حتى عصرنا الحاضر ، بعد أن نزل القرآن الكريم بهذه اللغة ، لغة العرب فى الجاهلية .



الباب الثاني

في العربية الفصحى واللهجات



تمهيـــد

ذهب بعض العلماء ، إلى أن اللهجات لا وجود لها ، بمعنى أنه لا توجد حدود فاصلة واضحة ، بين لهجة وأخرى ، أو بينها وبين اللغة المشتركة ، التى تنتمى إليها تلك اللهجة . ويقول « جاستون بارى » أحد الذين يذهبون هذا المذهب : « ليس هناك أى حد حقيقى ، يفصل بين فرنسى الشمال ، وفرنسى الجنوب ، فصور التكلم الشعبى عندنا ، تمتد على أرض الوطن ، من طرف إلى آخر ، كأنها بساط نضحت ألوانه المتنوعة ، فى كل نقطة منه ، بعضها على بعض ، وأصبحت درجات ، لا يكاد يتميز بعضها من بعض[1] » .

وهذا أيضا هو الرأى ، الذى تنادى به « نظرية الأمواج » ليوهان شمت ، التى تقرر « أن كل ظاهرة لغوية ، تمتد على سطح القطر امتداد الأمواج ، وأن كل موجة فى تقدمها التدريجى غير المحسوس ، ليس لها حد معين » . ويستند « شمت » فى نظريته ، على دراسة اللغات الهندوأوربية ، حيث الخطوط التى تفصل بين كل خاصية لغوية وأخرى ، لا تنطبق على الخطوط التى تفصل بين خاصتين لغويتين أخريين ، وذلك كما هو الحال فى اللغات الرومانية[2] .

غير أن بعض العلماء ، دافع عن إمكان التقسيم اللهجى للغات . ويقول « أنطوان مييه » أحد المدافعين عن تلك القضية : « من حقناأن نتكلم عن وجود لهجات ، كلما رأينا عددا من الخطوط ، التى تفصل بين الخصائص ، ينطبق بعضها على بعض ، ولو بشكل تقريبى ، فهناك لهجة محددة فى كل منطقة ، يلاحظ فيها وجود خصائص مشتركة . وحتى عندما لا يمكن رسم خطوط دقيقة ، للفصل بين منطقتين متجاورتين ، فإنه يبقى أن كلا منهما ، تتميز فى مجموعها ببعض السمات العامة ، التى

---

(١) اللغة لفندريس ٣١٢

(٢) اللغة لفندريس ٣١٢

لا توجد فى الأخرى ، فالبروفنسالية والفرنسية ليستا فى حقيقة الأمر ، إلا لهجتين من لغة واحدة ، وإذا لم يكن فى وسعنا أن نرسم على الخريطة خطا محددا ، يبين أين تنتهى الفرنسية وتبدأ البروفنسالية ؛ فإن كلا من اللهجتين فى مجموعهما ، قد اشتملت على خصائص عديدة واضحة ، إلى حد يجعلنا فى مأمن من الخلط بينهما[٣] » .

فالتقسيم اللهجى ، يرجع إلى إحساس حقيقى ، لدى سكان الإقليم الواحد ، إحساس بأنهم يتكلمون بصورة ما ، ليست هى الصورة التى يسير عليها سكان الإقليم المجاور . وعلى هذا الأساس ، عَرَّف بعض العلماء اللهجة ، بأنها : « مجموعة من الصفات اللغوية ، تنتمى إلى بيئة خاصة ، ويشترك فى هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة[٤] » .

أما العلاقة بين اللهجة واللغة ، فهى علاقة الخاص بالعام ؛ لأن « بيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع وأشمل ، تضم عدة لهجات ، لكل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعا فى مجموعة من الظواهر اللغوية ، التى تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض ، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث ، فهماً يتوقف على قدر الرابطة ، التى تربط بين هذه اللغات ، وتلك البيئة الشاملة ، التى تتألف من عدة لهجات ، هى التى اصطلح على تسميتها باللغة ، فاللغة تشتمل عادة على عدّة لهجات ، لكل منها ما يميزها ، وجميع هذه اللهجات تشترك فى مجموعة من الصفات اللغوية ، والعادات الكلامية ، التى تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات[٥] » .

ومع ذلك ، فإن « الخط الفاصل بين اللغة واللهجة ، يصعب فى غالب الأحيان تتبعه ورسمه . والتفاهم المشترك ، لا يعرض إلا جزءاً من الإجابة ؛ إذ إنه من المشاهد أن الاتصال بين أبناء مجموعتين ، يتكلمون

---

(٣) اللغة لفندريس ٣١٢
(٤) فى اللهجات العربية ١٦
(٥) فى اللهجات العربية ١٦

لغتين مشتركتين رسميتين ، ذواتى أصل واحد ؛ مثل : الإيطالية والأسبانية ، قد يكون أسهل منه ، بين أبناء لهجتين تنتسبان إلى لغة رسمية واحدة[٦] » .

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن كل لغة ، كانت يوماً ما لهجة من لهجات كثيرة للغة من اللغات ، ثم حدثت عوامل كثيرة ، أدت إلى موت اللغة الأم أو اندثارها ، وانتشار كل بنت من بناتها فى بقعة من الأرض ، مكونة لغة لها خصائصها ومميزاتها ، التى تنفرد بها عن أخواتها . وقد حدث ذلك فى اللغات السامية المختلفة ، وكلها كانت فى الأصل لهجات للأم التى ماتت ، واندثرت من قديم الزمان . وهذه هى اللاتينية ، تعدّ أُمًّا للهجات الرومانية المختلفة ، التى أصبحت بعد اندثار اللاتينية ، لغات لها كيانها وخصائصها ، وهى : الإيطالية والفرنسية والأسبانية ، وكل واحدة من هذه اللغات ، شملت مساحات واسعة من الأرض ، فانقسمت بدورها إلى لهجات ، تماما كما حدث للغات السامية ، ومنها العربية التى انقسمت كذلك إلى لهجات مختلفة ، فى الماضى والحاضر .

ولم تكن العلاقة بين اللغة واللهجة واضحة ، فى أذهان اللغويين العرب ؛ ولذلك نجد بعضهم يخلط بينهما خلطا فاحشا ، ويعد اللهجات العربية لغات مختلفة ، وكلها حجة[٧] ، ومع ذلك فإنهم لم يرووا لنا من هذه اللهجات ، إلا مقتطفات مبتورة . وقد تنبه المحدثون من اللغويين ، إلى أهمية دراسة اللهجات العربية القديمة ، لما يأتى :

١ – البحث فى اللهجات العربية الحديثة ، يتبين منه أنها ترجع فى كثير من الحالات ، إلى اللهجات العربية القديمة ، أكثر من رجوعها إلى اللغة الفصحى .

٢ – تفيد دراسة اللهجات القديمة ، فى الإجابة على السؤال العويص التالى : هل العربية الفصحى ولغة الشعر ، عبارة عن حصيلة لهجات

---

(٦) انظر : أسس علم اللغة ، لماريوباى ٢١١

(٧) انظر مثلا : الخصائص ٢/١٠

عدة ، أم أنها لهجة قبيلة معينة ، سادت واتخذها الشعراء قالبا ، ينظمون فيه أشعارهم ؟

٣ – تفيد دراسة اللهجات ، فى معرفة مصادر القراءات القرآنية المختلفة ، التى رويت لنا بلا عزو إلى لهجة معينة .

غير أن هناك صعوبات كثيرة ، تصادف دارس اللهجات العربية القديمة . وأهم هذه الصعوبات :

١ – أن هذه الدراسة تتطلب تصفح جميع المؤلفات العربية ؛ لأن اهتمام العرب بالمسائل اللغوية ، لم يقتصر على اللغويين والنحويين ؛ فإننا نجد هذا الاهتمام عند الجغرافيين والمؤرخين ، بل عند الفلاسفة والأطباء والرياضيين ، بمناسبة وغير مناسبة ؛ ولذلك فإننا كثيرا ما نعثر على ملاحظات مهمة ، عن اللهجات العربية ، فى غير كتب اللغويين كذلك .

٢ – عدم ذكر اللغويين للقبائل التى تنتمى إليها اللهجات ، واكتفاؤهم بعبارة : « وهى لغة » مثلا ، كقول الفراء : « والعربُ تقول : مهيل ومهيول ، ومكيل ومكيول . قال الشاعر :

وناهَــزُوا البَيْــعَ من تِرْعِيَّــةٍ رَهِــقٍ
متــأرِّب عضَّه السُّلطــانُ مديــون[٨] »

فلغة التصحيح فى مثل : مهيول ومكيول ومديون ، غير معزوّة هنا إلى قبيلة من القبائل ، وهى تنسب فى كثير من المصادر إلى تميم[٩] .

وكذلك الحال فى اختلاف اللغويين ، فى تعيين القبيلة صاحبة اللهجة المذكورة ؛ فلا بد من محاولة لعزو اللهجات المجهولة ، والتوفيق بين

---

(٨) معانى القرآن ١٩٨/٣ وفى فعلت وأفعلت لأبى حاتم ١٦٤ : « ويجوز مبيوع على الأصل » .
(٩) انظر مثلا : شرح التصريف الملوكى ٣٥٣

أوجه الخلاف السائدة بين اللغويين العرب ، فى نسبة لهجة من اللهجات إلى قبائل عدة .

٣ – اصطلاحات اللغويين العرب ، غير واضحة تماما ؛ فإن كلمة : « لغة » تعبر فى بعض الأحيان عندهم ، عن لهجة قبيلة من القبائل ، كما تعبر فى أحيان أخرى عن عيوب النطق « اللثغة » .

٤ – عدّهم لغة قريش أفصح اللغات ، جعلهم يخلعون على اللهجات الأخرى أوصافا ؛ مثل : لغة فصيحة ، أو قبيحة ، أو رديئة ، أو ضعيفة ، أو شاذة ، وغير ذلك .

٥ – التصحيف والتحريف ، اللذان ابتليت بهما الكتابة العربية ، طمسا كثيراً من المعالم الصحيحة ، لبعض اللهجات العربية ، التى رويت لنا[١٠] .

* * *

(١٠) انظر : H.Kofler, Reste altarabischer Dialekte, WZKM 47,61

الفصل الأول

ظروف تكون اللغة الفصحى وخصائصها

يشوب العلاقة بين العربية الفصحى ، ولهجاتها القديمة ، غموض واختلاط ، عند جمهرة الدارسين للعربية ، من المستشرقين وغيرهم ؛ وذلك بسبب اهتمام اللغويين العرب القدماء ، اهتماما بالغا بدراسة الفصحى ، لغة القرآن الكريم ، وإهمالهم الدرس الكامل للهجات العربية القديمة ، أو ذكرهم لروايات مبتورة ، عن بعض خصائص هذه اللهجة أو تلك ؛ ليفسروا بها قراءة قرآنية ، أو شذوذا فى ظاهرة من الظواهر اللغوية فى شعر أو نثر .

ولذلك نرى أن « كل ما يقال عن العلاقة بين اللهجات العربية القديمة ، والعربية الفصحى ، فروض أو تخمينات ؛ بسبب نقص معلوماتنا عن تلك اللهجات ؛ فيرى نولدكه Nöldeke أن الفروق صغيرة ، بين اللهجات العربية الشائعة فى جزء كبير من الجزيرة العربية (الحجاز ونجد ومنطقة الفرات) ، وأن الفصحى تعتمد على هذه اللهجات على سواء . ويرى جويدى Guidi أن العربية الفصحى خليط من لهجات نجد والمناطق المجاورة ، ولا تمثل لهجة بعينها من هذه اللهجات . أما نللينو Nallino الذى يربط ظهور العربية الفصحى بمملكة كندة ؛ فإنه كان يرى أن عاميات قبائل معدّ ، توحّدت وكونت العربية الفصحى . ويرى فيشر Fischer كذلك أن العربية الفصحى ، تمثل لهجة معينة ، غير أنه لم يعينها . ويماثله تقريبا رأى هارتمان Hartmann أما فوللرز Vollers فقد خرج علينا بنظريته التى يرى فيها أن العربية الفصحى ، تعتمد على لغة البدو ، فى نجد واليمامة ، غير

أن الشعراء غيّروها كثيرا ، على حين تتكلم باقى الجزيرة لغة مختلفة تماما ، تعد سلفاً للعاميات الحضرية الحديثة ، كما يدعى بروكلمان Brockelmann ومثله فتسشتاين Wetzsteinوغيرهما من قبل ، أن العربية الفصحى بصورتها التى نعرفها ، لم تكن لغة كلام أبدا ، غير أنه لم يناقش علاقتها باللهجات . أما لاندبرج Landberg فيرى أنها كانت لغة عصر غير محدد ، وأن قوالبها النحوية يغلب أن تكون من صنع الشعراء . ويقارنها مارسيه Marçais بلغة هومير المصنوعة !

وهناك اتفاق جوهرى بين علماء العرب ، على عكس هذا الرأى تماما ، فالعربية الفصحى عندهم هى لغة البدو ؛ فالعربى البدوى هو الحكم الفصل فى العربية الصحيحة ، وهو لا يخطىء فى التحدث بها عندهم ، ولا يطاوعه لسانه – إن أراد – على الخطأ[1] » .

وقد وصلت إلينا اللغة العربية ، فى صورة أدبية حينا ، وصورة شعبية حينا آخر ؛ أما الصورة الأولى ، فإنها تتمثل فيما نسميه بالأدب الجاهلى ، أو الآثار الأدبية الجاهلية ، من الأشعار والخطب والأمثال والحكم ، وهو ما نسميه باللغة العربية الفصحى . أما الصورة الثانية ، فلم تصل إلينا منها أعمال متكاملة ، وإنما نلحظها فيما روى لنا فى بطون كتب اللغة والنحو والأدب ، متناثرا عن لهجات القبائل العربية الخاصة بها .

وحينما ندرس نصوص الصورة الأولى ، نجدها تمثل – إلى حد كبير – لغة موحّدة منسجمة ، لا تكاد تتضمن شيئا ، عن تلك الروايات المنسوبة إلى لهجات العرب . هذه اللغة التى اصطنعها الشاعر والأديب ، هى بمثابة اللغة المشتركة ، التى انتظمت جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ؛ فقد كان يتخذها الشاعر وسيلة للتعبير عما يجول فى خاطره ، كما كان يتخذها الخطيب للتأثير فى سامعيه ، سواء أكان

(١) انظر : Ch.Rabin, Ancient West-Arabian 17-18

الشاعر أو الخطيب من قريش ، أو تميم ، أو غيرها من قبائل العرب ؛ فإن « خاصية اللغة المشتركة الأساسية ، أنها لغة وسطى ، تقوم بين لغات أولئك الذين يتكلمونها جميعا[٢] » .

وقد نشأت هذه اللغة المشتركة ، ونمت وازدهرت قبل مجيء الإسلام ، ويرى الدكتور أنيس أن « أقدم ما نستطيع تصوره فى شأن شبه الجزيرة العربية ، هو أن نتخيلها وقد انتظمتها لهجات محلية كثيرة ، انعزل بعضها عن بعض ، واستقل كل منها بصفات خاصة ، ثم كانت تلك الظروف ، التى هيّأت لبيئة معينة ، فى شبه الجزيرة ، فرصة ظهور لهجتها ثم ازدهارها ، والتغلب على اللهجات الأخرى[٣] » . وهذا يعنى أنه قد جدّت عوامل مختلفة ، حملت أهل هذه اللهجات على التقارب والاختلاط ، فأدى ذلك إلى نشأة اللغة المشتركة ، التى يتفاهم بها الناس جميعا ، وإن انتموا إلى قبائل مختلفة .

وفى كل بلاد العالم ، لا بد للغة المشتركة ، من مكان متميز تنشأ فيه ، وأسباب وظروف معينة تساعد على تكونها وازدهارها ، وحياتها بجانب اللهجات الأخرى . فما هى يا ترى تلك الأسباب ، التى ساعدت على نشأة اللغة المشتركة ، فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ؟ وفى أى مكان من تلك الجزيرة ، تكونت هذه اللغة المشتركة ؟

لقد نشأت هذه اللغة العربية المشتركة ، فى مكة أم القرى ، وبلد الله الحرام ؛ لظروف دينية ، وسياسية ، واقتصادية .

أما الظروف الدينية ؛ فذلك لأن بيئة مكة ، كانت منذ عهود سحيقة قبل الإسلام ، بيئة مقدسة ، يفد إليها العرب من كل فج ليحجوا إليها ، ويؤدى هذا بالطبع إلى اجتماع فريق كبير من العرب ، فى هذه البقعة المباركة ، ويختلطون بأهلها ، ويختلط أهلها بهم . ومن هذا

---

(٢) اللغة لفندريس ٣٤١

(٣) مستقبل اللغة العربية ٧

الاختلاط ينشأ ما يسمى باللغة المشتركة . وليس الأمر اصطلاحا شعوريا بين القبائل ، على اختيار لغة معينة ، كلغة قريش مثلا ، لغة مشتركة ، وإنما ذلك أمر لا شعورى ، كما يحدث للريفى ، الذى يَحْضُر إلى القاهرة ، ويعيش فيها مدة مثلا ، فإنه سرعان ما يتأثر باللهجة القاهرية قهرا عنه ، ودون شعور منه .

هذه القبائل لم تفد إلى مكة ، للحج والعبادة فقط ، وإنما ليشهدوا كذلك تلك الأسواق ، التى تقام حول مكة للبيع والشراء ، وكانت تعقد فى تلك الأسواق ، ندوات أدبية للخطباء والشعراء ، ويسمع فيها عيون الشعر وجيد القول ، كما كانت الحال فى سوق عكاظ المشهورة ، التى كانت تدوم فيها الندوات ، ما يقرب من الشهرين . وفى هذه الأسواق ، كان أهل مكة يختلطون بالوافدين ، فيسمعون منهم ، كما يسمع منهم هؤلاء ، وهناك نبتت البذرة الأولى للغة المشتركة ، بين هؤلاء القبائل جميعا ، ونمت وازدهرت بتوالى وفود القبائل إلى هذه الأسواق . وقد حملت هذه الوفود ، تلك اللغة المشتركة ، إلى مواطن قبائلها ، فانتشرت بين أنحاء الجزيرة العربية ، ولكنها لم تنتشر – على ما نرجح – إلا بين الخاصة فقط ، من أبناء القبائل المختلفة ، وهم أولئك الشعراء والخطباء .

وقد ازدادت هذه اللغة نموًّا وازدهاراً ، بنزول القرآن الكريم بها . ولسنا نوافق القائلين بأن نزول القرآن ، هو الذى وحّد العربية ، وأوجد اللغة المشتركة ؛ لأن هذه اللغة نمت وازدهرت – كما قلنا – قبل نزول القرآن الكريم بها ؛ ولذا تخيّرها القرآن ونزل بها ؛ ليفهمه جميع الناس فى شتى القبائل العربية . هذا هو العامل الدينى .

وهناك عامل آخر اقتصادى ، له أهميته فى تكوين اللغة المشتركة ؛ فإن أهل مكة كانوا تجاراً ، ينتقلون بتجارتهم فى أماكن مختلفة ، ويرتحلون بها إلى اليمن فى الشتاء ، وإلى الشام فى الصيف ، ولا يستقرون فى مكان ،

إلا بمقدار الزمن ، الذى يحدده لهم البيع والشراء . هذا النشاط التجارى الضخم قد أتاح لهم الغنى والثراء ، ومن ملك المال واحتضن الدين ، فقد تحقق له سلطان سياسى قوى ، وكان أكثر حضارة ، وأقوى نفوذا من غيره .

ولهذا كله ، كانت اللهجة القرشية ، من أقوى اللهجات أثرا ، فى تكوين اللغة العربية الفصحى . وتتميز تلك العربية الفصحى المشتركة ، بصفات معينة ، شأنها فى ذلك شأن كل لغة مشتركة [٤] .

فالصفة الأولى ، هى أنها فوق مستوى العامة ، بمعنى أن العامة لا يصطنعونها فى خطابهم ، وأنهم إذا سمعوا متكلما بها ، رفعوه فوق مستوى ثقافتهم ، فاللغة المشتركة العربية ، التى وردت بها الآثار الأدبية ، والتى نظم بها الشعراء ، وخطب بها الخطباء ، لم تكن فى متناول جميع العرب ، بل كانت فى مستوى أرقى وأسمى ، مما يمكن أن يتناوله العامة ؛ فإنه حتى ذلك الإعراب ، الذى هو أهم مميزات اللغة الفصحى ، لم تكن كل العرب تقدر عليه ؛ فقد عثرت على نص خطير فى كتاب : « نثر الدرر » للوزير أبى سعد الآبى [٥] ، يقول :

« قال أبو العيناء : ما رأيت مثل الأصمعى قط ، أنشد بيتا من الشعر ، فاختلس الإعراب ، ثم قال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كلام العرب الدرج ، وحدثنى عبد الله بن سَوَّار ، أن أباه قال : العرب تجتاز بالإعراب اجتيازاً ، وحدثنى عيسى بن عمر ، أن ابن أبى إسحاق قال : العرب ترفرف على الإعراب ، ولا تتفيهق فيه ، وسمعت يونس يقول : العرب تشامُّ الإعراب ولا تحققه ، وسمعت الخَشْخاش بن الحُبَاب يقول : العرب تقع بالإعراب ، وكأنها لم تُرِد ، وسمعت أبا الخطَّاب يقول : إعراب العرب الخطف والحذف . قال : فتعجب كل من حضر منه » .

---

(٤) انظر كذلك : مستقبل اللغة العربية ٩

(٥) مخطوطة كوبر يللى ٧٦٥/٧ وانظر هذا النص مختصرا فى ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ، للزمخشرى — مخطوطة دمشق رقم ٣٢٦٣ ص ٤٥ —

وإذا اتخذنا القرآن الكريم نموذجا للغة المشتركة[٦] ، وبحثنا فى المستوى القرآنى أمام العرب ، وجدناهم ينظرون إلى القرآن الكريم ، وإلى أسلوبه نظرة أسمى حتى من آثارهم الأدبية الأخرى ؛ ذلك لأنه تحدّاهم وأعجزهم ، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، وإننا نرى هذا واضحا فى كلام العلماء القدماء ، حين بحثوا إعجاز القرآن ، ووصل ببعضهم القول إلى حد أن أكد لنا ، أن إعجازه لا يدركه إلا من أتقن الشعر والخطابة والكتابة ، وجميع الأساليب اللغوية المعروفة ؛ فالباقلانى (أبو بكر محمد بن الطيب ، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) مثلا ، يرى فى كتابه « إعجاز القرآن » أنه يستحيل على الأعجمى أو العامى ، أن يدرك إعجاز القرآن ؛ لأنه لم تُتح له من الثقافة اللغوية أى قدر ، بل يستحيل على متوسطى الناس أن يدركوا إعجاز القرآن . ويرى الباقلانى – بحق – أن المتناهى فى إدراك علم الشعر وحده ، أو الخطابة وحدها ، أو الكتابة كذلك ، لا يدرك إعجاز القرآن إدراكا تاما ، فيقول :

« وقد علمنا تفاوت الناس فى إدراكه ، ومعرفة وجه دلالته ؛ لأن الأعجمى لا يعلم أنه معجز ، إلا بأن يعلم عجز العرب عنه ، وهو يحتاج فى معرفة ذلك إلى أمور ، لا يحتاج إليها من كان هناك من أهل صنعة الفصاحة ، فإذا عرف عجز أهل الصنعة ، حل محلهم ، وجرى مجراهم فى توجه الحجة عليه . وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ، ما يعرفه العالى فى هذه الصنعة ، فربما حل فى ذلك محل الأعجمى ، فى أن لا تتوجه الحجة ، حتى يعرف عجز المتناهى فى الصنعة عنه . وكذلك لا يعرف المتناهى فى معرفة الشعر وحده ، أو الغاية فى معرفة الخطب أو الرسائل وحدهما – من غور هذا الشأن – ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ، ووجوه الكلام ، وطرق البراعة ،

---

(٦) لا يمثل القرآن الكريم لغة قريش وحدها ، كما يتردد أحيانا فى بعض الكتب والروايات ، وإنما يمثل اللغة المشتركة بين العرب جميعا ، لغة الأدب من شعر وخطابة وكتابة . انظر : مستقبل اللغة العربية ٩

فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها ، دون تحققه لعجز البارع فى هذه العلوم كلها ، عنه . فأما من كان متناهيا فى معرفة وجوه الخطاب ، وطرق البلاغة ، والفنون التى يمكن فيها إظهار الفصاحة ، فهو متى سمع القرآن ، عرف إعجازه[٧] » .

نحن لا نغالى إذن ، حين نقول إن أسلوب القرآن الكريم ، وهو يمثل قمة اللغة العربية المشتركة — كان فوق مستوى العامة من العرب ، كما كان فى بعض الأحيان فوق مستوى الخاصة . ويروى الباقلانى وغيره ، قصصاً وحوادث ، توضح بجلاء ، كيف كان ينظر فصحاء العرب ، إلى عظمة أسلوب القرآن ؛ ففى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن عمر بن الخطاب قرأ قول الله تعالى : « وفاكهة وأبًّا » وقال : « فما الأبّ ؟ » ثم قال : « ما كُلِّفنا ، أو ما أمرنا بذلك » .

تلك هى الصفة الأولى ، من صفات اللغة المشتركة ، وقد رأينا آثارها فيما نسميه بالعربية الفصحى . أما الصفة الثانية ، فهى أن اللغة المشتركة ، لا تنتمى صفاتها أو عناصرها إلى بيئة محلية بعينها ، بمعنى أن الخطيب باللغة المشتركة ، لا يكاد السامع يكشف عن بيئته المحلية ، ومعنى هذا أن اللغة المشتركة ، ليست لغة قبيلة بعينها ، أو بعبارة أخرى : أن اللغة المشتركة ، لا تتضمن شيئا من خصائص اللهجات المحلية ؛ فهى لغة منسجمة موحدة ، لا يمكن أن تنتمى إلى بيئة خاصة ، من بيئات الجزيرة العربية ، فلا يحق لنا أن نقول مثلا ، إن اللغة المشتركة هى لغة قريش ، أو تميم ، أو غيرها من قبائل العرب ، بل هى مزيج من كل هذا ، تكوَّنت له شخصيته وكيانه ، وأصبح مستقلا عن اللهجات ، وإن التمس هذا المزيج فى نشأته ، بعض صفات هذه اللهجات ، بعد هضمه .

ولنضرب مثالا لتوضيح ذلك ؛ فنقول : تجمع الروايات القديمة ، على أن البيئة الحجازية (قريش وما جاورها) تسهّل الهمز ، والبيئة البدوية

---

(٧) إعجاز القرآن للباقلانى ٢٥ —٢٦

(تميم وما جاورها) تحقق الهمز . وقد أخذت اللغة العربية المشتركة ، تحقيق الهمز من تميم ، وأصبح الخطيب والكاتب والشاعر ، يحاول تحقيق الهمز فى كلامه ، عندما يصطنع اللغة العربية المشتركة ؛ فقد رُوِىَ عن أبى زيد الأنصارى (المتوفى سنة ٢١٤ هـ) النص التالى : « قال أبو زيد : أهل الحجاز وهذيل ، وأهل مكة والمدينة لا ينبرون ، وقف عليها عيسى بن عمر ، فقال : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب النبر ، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا . قال : وقال أبو عمر الهذلى : قد توضيت ، فلم يهمز وحوّلها ياء ، وكذلك ما أشبه هذا من باب الهمز[٨] » .

والنبر هو الهمز ؛ قال ابن منظور : « والنبر همز الحرف . ولم تكن قريش تهمز فى كلامها ، ولما حج المهدى قدَّمَ الكسائىَّ يصلى بالمدينة ، فهمز فأنكر أهل المدينة عليه ، وقالوا : تنبر فى مسجد رسول الله ﷺ بالقرآن ؟![٩] » .

كما قال الفراء : « وقوله : (تأكل منسأته) ، همزها عاصم والأعمش ، ولم يهمزها أهل الحجاز ولا الحسن ، ولعلهم أرادوا لغة قريش ، فإنهم يتركون الهمز[١٠] » .

و « قال ابن عبد البر فى التمهيد : قول من قال : نزل القرآن بلغة قريش ، معناه عندى : فى الأغلب ؛ لأن لغة غير قريش موجودة فى جميع القرآن ، من تحقيق الهمز ونحوها . وقريش لا تهمز[١١] » .

وقال صاحب كتاب : المبانى فى نظم المعانى : « فأما الهمز ، فإن من العرب من يستعمله وهم تميم ومن يوافقها فى ذلك ، ومنهم من يقل استعمالهم له ، وهم هذيل وأهل الحجاز[١٢] » .

---

(٨) انظر مقدمة لسان العرب ، لابن منظور ١/١٤

(٩) لسان العرب (نبر) ٧/٤٠ وانظر الخبر فى كلام عن الهمز كذلك ، فى غريب الحديث لابن قتيبة ٢/٦٣٣.

(١٠) معانى القرآن ٢/٣٥٦

(١١) انظر : البرهان للزركشى ١/٢٨٤

(١٢) مقدمتان فى علوم القرآن ٢٢٦

وهذا كله معناه أن لهجة الحجازيين الأصلية ، تسهيل الهمز . أما قول عيسى بن عمر الثقفى – فيما تقدَّم : « فإذا اضطُرُّوا نبروا » ، فيمكن أن يكون معناه أن الحجازيين ، إذا اصطنعوا اللغة المشتركة ، حققوا الهمز ، كما يمكن أن يكون عيسى بن عمر ، قد قصد بذلك الهمزة التى توجد فى أول الكلمة .

وخلاصة ذلك أن اللغة العربية المشتركة ، لم تكن لغة قريش وحدها ، بدليل وجود الهمز فيها ، وقريش لا تهمز ، كما وردت إلينا الروايات المختلفة بذلك ، وإنما هى لغة موحّدة[١٣] ، اعتمدت فى نشأتها على بعض الصفات الطيبة ، فى اللهجات العربية المختلفة ، سواء فى ذلك لهجة قريش أو غيرها .

حقا يمكن القول بأن لهجة قريش ، أسهمت فى تكوين العربية الفصحى بعناصر كثيرة ، فلا مبالغة إذن ، فى إطلاق عبارة : « لغة قريش » على اللغة العربية الفصحى . وهذا – فيما يبدو – ما كان يقصده « فندريس » بقوله : « تقوم اللغات المشتركة دائما ، على أساس لغة موجودة ، حيث تتخذ هذه اللغة الموجودة ، لغة مشتركة من جانب أفراد مختلفى التكلم[١٤] » .

ويؤيد الدكتور إبراهيم أنيس هذه القضية ، بما نعرف من أن اللغة المشتركة بين العرب ، قد خلت من الصفات المحلية ؛ فيقول : « إن شعر الشعراء من ربيعة ، لا يعرف ما اشتهر عن لهجتها من الكشكشة ، وشعر الشعراء من تميم لا يعرف العنعنة ، بل حين نتتبع صفات لهجة هذيل ، فى ديوان الهذليين ، لا نكاد نعثر على شىء ، اللهم إلا تلك الإشارات السريعة ، التى نراها فى كلام بعض شراح الديوان ، وكلها لا تخلو من التكلف أو التعسف ، أو ربما كان من صنع الرواة فى العصور المتأخرة ،

---

(١٣) هذه اللغة الموحدة ، هى لغة الشعر فى الأعم الأغلب ؛ ولذلك يقول نولدكه : « فالشعر الذى ازدهر فى القرن السادس الميلادى ، فى كل وسط الجزيرة العربية وشماليها ، حتى أسفل الفرات وما وراء ذلك – هذا الشعر يستخدم لغة موحدة » . انظر : اللغات السامية ٧٤

(١٤) اللغة لفندريس ٣٢٨

حين أغرموا بتعدد الروايات ، والمجىء بكل غريب ؛ رغبة فى التعالم ، وحبًّا فى التظاهر فى مجالس العلم . فكل بيت من أبيات ديوان الهذليين ، زعم الشراح المتأخرون ، أن به صفة من لهجة هذيل ، رويت له رواية أخرى ، لا تكاد تختلف عن النهج المألوف فى اللغة المشتركة ؛ ففى البيت :

شَرِبْنَ بماءِ البَحْرِ ثم تَرَفَّعَتْ
مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نئيجُ

يروى :

تَرَوَّتْ بماءِ البَحْرِ ثم تَنَصَّبَتْ
على حَبَشِيَّاتٍ لَهُنَّ نَئِيجُ

وفى البيت :

بأسْفَلِ ذاتِ الدَّبْرِ أُفْرِدِ جَحْشُها
فقد وَلِهَتْ يَوْمَيْنِ فَهْيَ خَلُوجُ

يروى :

بأسْفَلِ ذاتِ الدَّبْرِ أُفْرِدِ خِشْفُها
فقد وَلِهَتْ يَوْمَيْنِ فَهْيَ خَلُوجُ

فليس فى ديوان الهذليين ، تلك الصفات التى اشتهرت عن لهجة هذيل ، من فحفحة واستنطاء ، ونحو ذلك[٥] » .

ولا يزال هذا الموضوع فى حاجة إلى دراسة مستفيضة ، تقفنا على مدى صحة ما يزعمه هؤلاء الشراح !

نعم ، قد يقال لنا : إن هناك كثيرا من الشواهد الشعرية ، تملأ كتب النحو واللغة ، وتتضمن شذوذا لغويا أو نحويا ، ينسب إلى لهجات القبائل العربية المختلفة ! هذه حقيقة لا تنكر ، وقد أُلِّف فى شرح هذه الشواهد ، الكثير من الكتب ؛ مثل « شرح أبيات سيبويه » لابن السيرافى (المتوفى سنة

---

(٥) مستقبل اللغة العربية ١٢ وانظر : فى اللهجات العربية ٣٦ -٤٧

٣٨٥ هـ) و « شرح شواهد كتاب سيبويه » ، المسمى :« تحصيل عين الذهب ، من معدن جوهر الأدب ، فى علم مجازات العرب » للأعلم الشنتمرى (المتوفى سنة ٤٧٦ هـ) ، ومثل : « شرح شواهد شروح الألفية » المسمى : « شرح الشواهد الكبرى » للعينى (المتوفى سنة ٨٥٥ هـ) ، و « شرح شواهد المغنى » للسيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ) ، و « شرح أبيات مغنى اللبيب » لعبد القادر البغدادى (المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ) ، وغير ذلك .

ونحب أن نقف عند هذه الشواهد وقفة قصيرة ؛ فنقول : إما أن نحسن الظن بروايتها ، وإما أن نسيء الظن ، فإذا حسن ظننا بها ، وجب علينا أن نفسرها بأحد التفسيرات الآتية :

الأول : أننا نعدّ هذه الشواهد ، بقايا تسربت إلينا ، مما نسميه بالأدب الشعبى للعرب القدماء (أدب القبيلة) ، فإننا نفترض أن العرب قبل الإسلام ، كان لهم أدبان : هذا الأدب الذى نعرفه ، وأدب آخر شعبى ، يعرض لفكاهاتهم ، ودعاباتهم ، وقصصهم ، وأمورهم العادية ، ويتضمن خصائص لهجة التخاطب فى كل قبيلة . ولكن هذا الأدب لم يُرْوَ لنا ، فاندثر وباد مع الزمن ؛ لأن الرواة دائما وفى كل عصر ، ينظرون إلى الأدب الشعبى نظرة احتقار ، فهو عندهم أدب منحطّ ، لا يستحق الرواية ، والعناية به فى نظرهم ؛ وذلك كالأزجال فى أدبنا المصرى ، تلك الأزجال التى كانت تمثل بحق ، أدبنا الشعبى فى مصر منذ قرون ، ولكن إهمال الرواة لها جعلها تندثر ، ولا تكاد تعثر منها الآن إلا على القليل ، الذى أفلت من الضياع ، بتدوينه على أيدى العرب ، أو المستشرقين !

ولكن على الرغم من إهمال رواة اللغة الأقدمين ، لهذا النوع من الأدب ، تسرّب إلينا بعضه – كما قلنا – وهو هذه الشواهد الشاذة ؛ كقول الشاعر :

تَزَوَّدَ مِنَّا بينَ أُذْناهُ طَعْنَةً
دَعَتْهُ إلى هَابِى التُّرابِ عَقيمِ[١٦]

وكقول الآخر :

إنَّ أباهَا وأبا أباهَا
قَدْ بَلَغا فى المجدِ غايتاهَا[١٧]

والثانى : نذهب إلى القول بأن الشعر القديم ، كان ينظم باللغة المشتركة ، ولكنه كان ينتقل فى جميع أنحاء الجزيرة العربية ، على ألسنة الناس ، حتى العامة منهم ، فانحرف بعضه على ألسنة هؤلاء .

وقد فطن إلى هذا ابن هشام المصرى (المتوفى سنة ٧٦١ هـ) فقال : « كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكلٌّ يتكلم على مقتضى سجيته التى فُطر عليها ؛ ومن هاهنا كثرت الروايات فى بعض الأبيات[١٨] » .

أما إذا ساء ظننا برواية هذه الشواهد ، فيمكن أن نتصور أن النحاة هم الذين وضعوا هذه الأبيات ، أو هم الذين غيروا موضع الشاهد منها ؛ ليضعوا القواعد ، حسبما شاء لهم الهوى ، فيمكننا على هذا الأساس أن نحكم بأن أصل البيت السابق :

تَزَوَّد مِنَّا بين **أُذْنَيْهِ** طعنةً
دَعَتْهُ إلى هابِى التُّرابِ عَقِيم

كما قال أبو حاتم السجستانى ، عن القصيدة التى منها بيتا الرجز السابقين : إن أباها .. إلخ : « سألت عن هذه الأبيات أبا عبيدة ، فقال : انقط عليهن ! هذا من صنعة المفضل[١٩] » .

وعندنا الكثير من أمثال هذا النحو ؛ فقد جاء فى كتاب « النوادر فى اللغة » ، لأبى زيد الأنصارى (المتوفى سنة ٢١٤هـ) قوله : « وهذا شيء

---

(١٦) انظر : الدرر اللوامع ، للشنقيطى ١٤/١
(١٧) انظر : شرح شواهد المغنى ، للسيوطى ٤٧
(١٨) المزهر للسيوطى ٢٦١/١ وانظر الاقتراح ٣٠
(١٩) شرح شواهد المغنى ٤٧ والنوادر لأبى زيد ١٦٤

يصنعه النحويون ، ليعرفوك كيف مجراه ، متى وقع فى شعر . وأنشد سيبويه لعبد الرحمن بن حسان :

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللَّهُ يشكُرهـا
والشرُّ بالشرِّ عند اللـهِ مِثْـلانِ

أراد : فالله يشكرها ، فحذف الفاء لما اضطر . وأخبرنا أبو العباس عن المازنى عن الأصمعى ، أنه أنشدهم : مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ فالرحمنُ يشكُرُه . قال : فسألته عن الرواية الأولى ، فذكر أن النحويين صنعوها ، ولهذا نظائر ليس هذا موضع شرحها[٢٠] » .

كما يقول السيوطى : « وقد وضع المولدون أشعاراً ، ودسوها على الأئمة ، فاحتجوا بها ظنا أنها للعرب . وذكر (الشيخ عز الدين بن عبد السلام) أن فى كتاب سيبويه منها خمسين بيتا[٢١] ، وأن منها قول القائل :

أعرفُ منها الجِيدَ والعَيْنَانَا
ومَنْخِرَيْنِ أشْبَهَا ظَبْيَانَا

ومن الأسباب الحاملة على ذلك ، نصرة رأى ذهب إليه ، وتوجيه كلمة صدرت منه[٢٢] » .

كما يمكن أن نسيء الظن ، بهذه الشواهد كذلك ، فنقول : إنه قد وقع فيها تحريف أو تصحيف ، كما اعترف بذلك كثير من علماء اللغة . والتحريف تغيير فى شكل الحروف المتشابهة الرسم ، كالدال والراء ،والدال واللام ، والنون والزاى ، والميم والقاف . أما التصحيف فهو تغيير نقط الحروف المماثلة فى الشكل ، كالباء والتاء والثاء ، والجيم والحاء والخاء ،

---

(٢٠) النوادر فى اللغة ٣١ وانظر شيئا من هذا أيضا فى : الشعر والشعراء ٩٨/١
(٢١) هى أكثر من ذلك بكثير . وانظر مقالتنا : « أسطورة الأبيات الخمسين فى كتاب سيبويه » فى مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٢/٤٩ (سنة ١٩٧٤ م) .
(٢٢) الاقتراح فى أصول النحو ٢١

والدال والذال ، والسين والشين ، والصاد والضاد ، والطاء والظاء . ومن العلماء من يجعل كلمة « التصحيف » مرادفة فى المعنى لكلمة : « التحريف » .

وقد يكون التصحيف أو التحريف ، ناتجا عن خطأ فى السماع ، لا عن خطأ فى القراءة ؛ فقد جاء فى كتاب « الأضداد » ، لأبى الطيب اللغوى (المتوفى سنة ٣٥١ هـ) قوله : « وحكى يقال : بَرَّدْت الماء ، من البَرْد ، أى جعلته بارداً ، وبَرَّدْته : سخنته . قال : وأنشدنا بعضهم :

شَكَتِ البَـــرْدَ فى الميـــــاهِ فَقُلْنَـــــا
بَرِّدِيـــــهِ تُوَافِقِيـــــهِ سَخِينَـــــا

قال قطرب : معنى بَرِّديه فى هذا البيت : سخنيه . وقال أبو حاتم : هذا خطأ ، إنما هو : بل رديه ، من الورود ، ولكنه أدغم اللام فى الراء ، كما يقرأ : كلا بل ران على قلوبهم . قال أبو الطيب : وهذا الصحيح ، وبه يستقيم معنى البيت[٢٣] » .

ومن أمثلة التحريف فى الشواهد اللغوية ، ما وقع فيه أبو نصر الجوهرى[٢٤] ، حين استشهد على أن « اللجز » مقلوب « اللزج » ببيت ابن مُقْبل :

يَعْلُونَ بالمَرْدَقُوشِ الـــوَرْدِ ضَاحِيَـــةً
على سَعَابِــيبِ ماءِ الضَّالَـــةِ اللَّجِـــزِ

ونسى أن هذا البيت من قصيدة نونية ، فى ديوان ابن مقبل[٢٥] ، وصحة الروىّ : « الضالة اللجن » . وقد تعقبه فى ذلك ابن برى ، فى حواشيه على الصحاح[٢٦] . كما قال عنه الصغانى : « وأما أبو نصر

---

(٢٣) الأضداد لأبى الطيب ١/٨٦

(٢٤) الصحاح (لجز) ٢/٨٩١

(٢٥) ديوان ابن مقبل ق ٢٣/٣٩ ص ٣٠٧ والمردقوش : الريحان . والورد : الأحمر . وضاحية : رءوسا بارزة للشمس . وسعابيب : خيوط . والضالة : الآس . واللجن : ماله قوام ، يعنى : يخلطن ماء المردقوش بماء الآس ، ويعلون به المشط ، ليسرحن به رءوسهن .

(٢٦) انظر : لسان العرب (لجز) ٧/٢٧١

إسماعيل بن حماد الجوهرى ، الذى تخرّ له جباه أهل الفضل ، وحُكم له بحيازة السبق والفضل ، فإنه قال فى تركيب (س ع ب) : قال ابن مقبل :

يَعْلُونَ بالمَرْدَقُوشِ الـوَرْدِ ضَاحِيَـةً
على سَعَابِيـبِ مَاءِ الضَّالَـةِ اللَّجِـزِ

ثم قال : أراد اللزج فقلبه ، وذكر فى فصل اللام من باب الزاى : اللجز قلب اللزج ، وأنشد البيت ، فلو كان هذا المقبل ، اطلع على ديوان شعر ابن مقبل ، لعلم أنه ليست له قصيدة زائية ، وأنها نونية ؛ فقد أخطأ فى اللغة ، حيث قال : اللجز اللزج ، وفى الإنشاد حيث جعل القافية النونية زائية[٢٧] » .

ومن العجيب أن الجوهرى ، يروى هذا البيت ، عن كتاب : « القلب والإبدال » لابن السكيت ، مع أن فى هذا الكتاب الأخير : « اللجن » على الصواب[٢٨] .

وقد ألف فى موضوع التصحيف والتحريف فى العربية ، بعض علمائنا ؛ مثل : حمزة بن الحسن الإصفهانى (المتوفى حوالى سنة ٣٦٠ هـ) فى كتابه : « التنبيه على حدوث التصحيف » ، الذى نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين ، ببغداد سنة ١٩٦٧ م ، ومثل أبى أحمد العسكرى (المتوفى سنة ٣٨٢ هـ) فى كتابه : « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » ، الذى نشره عبد العزيز أحمد ، بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م ؛ فقد روى هذان المؤلفان ، الكثير من تصحيفات العلماء وتحريفاتهم ، ونسبا ذلك للكثير منهم ، حتى الخليل وسيبويه .

* * *

اتضح لنا الآن ، أن اللغة العربية المشتركة ، تتصف بأنها لغة فوق مستوى العامة من العرب ، وأنها لغة الآثار الأدبية ، وأنها لغة منسجمة

---

(٢٧) العباب للصغانى (حرف الهمزة) ٣٥ - ٣٦

(٢٨) انظر : القلب والإبدال ، لابن السكيت ٣٩

موحّدة خالية من الخواص المحلّية ؛ ولذلك لا يصح مطلقا أن نقول عنها : إنها لغة سليقة لكل العرب ، وهذه هى الصفة الثالثة من صفات اللغة المشتركة ، وهى أنها ليست لغة سليقة ؛ لأن معنى السليقة ، هو أن تتكلم لغة من اللغات ، بغير شعور بمالها من خصائص .

ولعل أوضح الأدلة ، على أن اللغة العربية الفصحى ، لم تكن لغة سليقة لكل العرب ، تلك الروايات الكثيرة ، التى تشير كلها إلى وقوع اللحن من العرب ، قبل الإسلام وبعده ؛ يقول الدكتور إبراهيم أنيس : « إن صاحب اللغة الذى يتكلمها بالسليقة ، يستحيل عليه الخطأ ، فى ظواهر تلك اللغة ، دون أن يدرك أنه أخطأ ، فالإنجليزى لا يخطىء فى كلامه ، إلا إذا قسنا كلامه بمستوى لغوى آخر فوق كلام الناس . ونحن فى كلامنا بالعامية لا نخطىء ، فإذا زل اللسان فى لحظة ارتباك أو تلعثم ، رجعنا عن هذا الزلل فى لمح البصر ، وأدركنا أننا قد وقعنا فيه ، ولا يتصور وقوع الخطأ من صاحب السليقة اللغوية ، فى أى ظاهرة من ظواهر لغته : فى تركيب أصواتها ، أو فى ترتيب الكلمات بجملها ، أو فى صيغها ، أو فى طريقة النفى والإثبات ، أو فى طريقة الاستفهام والتعجب ، ونحو ذلك[٢٩] » .

وهذا اللحن الذى يدلنا على أن اللغة العربية المشتركة ، لم تكن لغة سليقة ، قد شاع عند العرب القدماء ، بل عند الخاصة منهم . ويمكننا أن نعدّ من اللحن كذلك ، ما يسمى لدى العروضيين بالإقواء . والإقواء فى رأى اللغويين المحدثين ، ليس فى الحقيقة من الخطأ فى الموسيقى ، كما يريد أصحاب العروض ، أن يحملونا على هذا الفهم ، بل هو فى الواقع خطأ نحوى . ولتوضيح ذلك نقول : إن الشاعر يلتزم حركة معينة فى روى القصيدة ، فهو يجعل حركة الروى متحدة دائما ، فى جميع أبيات القصيدة ، وهذا شىء لا يمكن أن يتجاهله شاعر ، وهب أذنا موسيقية ،

---

(٢٩) من أسرار اللغة ١٨٩

ولكنه يمكن أن يغفل عن الإعراب ؛ لأنه ليس سليقة له ، فإذا تصادف وجود كلمة فى آخر البيت ، يلزم رفعها لموقعها الإعرابى ، ولكن القافية مكسورة مثلا ، فإن الشاعر قد يغفل عن موقعها الإعرابى ، ولكنه لا يمكن أن يتجاهل أبداً موسيقى القصيدة ، وحركة الروى .

وعلى هذا ، فالإقواء لم يوجد كما يعرفه العروضيون ، وإنما وجد اللحن فى الكلام ؛ ففى قصيدة النابغة الذبيانى ، التى نظمها فى المتجردة ، زوجة النعمان بن المنذر ، والتى مطلعها :

مِن آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ أو مُغْتَدِ
عَجْلَانَ ذَا زادٍ وغَيْرَ مُزَوَّدِ

يقول فيها النابغة :

زَعَمَ البَوَارِحُ أنَّ رِحْلَتَنَا غَداً
وبِذَاكَ خَبَّرَنَا الغُرَابُ الأَسْوَد

ويزعم الرواة أن النابغة قال البيت ، بضم الدال من كلمة : (الأسود) ، ولكن المعقول أن يكون كسرها ؛ لينسجم الروى وموسيقى الأبيات ، ويكون بذلك قد أخطأ فى النحو . يقول ابن السكيت شارح ديوان النابغة : « قال ابن الأعرابى والأثرم : بلغنا أن النابغة كان أقوى فى قوله : من آل مية رائح أو مغتد ، فورد يثرب ، فأنشدها ، فقالوا له : أقويت ، فلم يعرف ما عابوا ، فألقوا على فم قينة لهم : وبذاك خبرنا الغراب الأسود ، ففطن فلم يعد وكذلك قوله : يكاد من اللطافة يعقد ، فقالوا لها : رَتِّليه ومدّيه ، فقالت : مغتدى ، ثم قالت : الغرابُ الأسودُ ، ففطن ، فقال النابغة : وردت يثرب ، وفى شعرى صنعة ، وصدرت عنها وأنا أشعر العرب[٣٠] » .

---

(٣٠) ديوان النابغة ٢٩ وانظر كذلك : الخصائص ٢٤٠/١ والزينة لأبى حاتم الرازى ١٢٢/١ وطبقات فحول الشعراء ٦٧ –٦٨ والموشح ٤٥ وما بعدها .

ويعجبنى هنا تعليق القزاز القيروانى ، على ذلك ؛ إذ يقول : « خفض ورفع أيضا . وهذا من أقبح العيوب ، ولا يجوز لمن كان مولدا هذا ؛ لأنه إنما جاء فى شعر العرب على الغلط ، وقلة المعرفة به ، وأنه يجاوز طبعه ولا يشعر به ؛ ألا ترى أن النابغة غُنِّى له به ، فلما سمع اختلاف الصوت بالخفض والرفع ، فطن له ، ورجع عنه[٣١] » .

وتحدثنا الرواة بأن الإقواء كثر فى شعر النابغة ، وبشر بن أبى خازم ، وغيرهما من الفحول[٣٢] ؛ قال ابن السكيت : « وقال الأثرم : حدثنا أبو عبيدة ، قال : حدثنا أبو عمرو بن العلاء ، قال : فحلان من العرب الشعراء ، كانا يقويان : النابغة ، وبشر بن أبى خازم ، فأما النابغة فمنذ دخل يثرب ، غُنِّى بشعره ، فلم يَعُدْ إلى الإقواء . وأما بشر ، فقال له سَوَادة أخوه : إنك تُقْوى ! فقال : وما الإقواء ؟ فأنشده :

أَلَـمْ تَرَ أَنَّ طُولَ الدَّهْـرِ يُبْلِـي
وَيُـنْسِي مِثْـلَ مَا نُسِيَتْ جُذَامُ

وكانـوا قَوْمَنَـا فَبَغَـوْا عَلَيْنَـا
فَسُقْنَاهُـمْ إِلَـى بَلَـدِ الشَّآمِ

فرفع البيت الأول ، وخفض الثانى . فلم يَعُدْ إليه[٣٣] » .

ويقول الفيروزابادى : « وأقوى الشعر : خالف قوافيه ، برفع بيت وجر آخر . وقلَّت قصيدة لهم بلا إقواء . أما الإقواء بالنصب فقليل[٣٤] » . وقد يكون الفيروزابادى مغاليا ، فى ادعائه قلة القصائد الخالية من الإقواء ، ولكنه على كل حال يعطينا فكرة كيف كان الخطأ النحوى ، يقع فى شعر الفحول !

---

(٣١) ما يجوز للشاعر فى الضرورة ، للقزاز القيروانى ٥٦

(٣٢) انظر : الشعر والشعراء ١/٩٥

(٣٣) ديوان النابغة الذبيانى ٢٩ ... ٣٠

(٣٤) القاموس المحيط (قوى) ٤/٣٨١ وفى القوافى للأخفش ٤٧ : « وقد سمعت مثل هذا من العرب كثيرا مالا يحصى . كل قصيدة ينشدونها ، إلا وفيها الإقواء ، ثم لا يستنكرونه ، وذلك لأنه لا يكسر الشعر ، وكل بيت منها شعر على حياله » . وانظر : الخصائص ١/٢٤٠

ولكن ما قيمة كل هذا بالنسبة لموضوعنا ؟ نقول : إن الإعراب صفة من صفات اللغة العربية المشتركة ، والذى يخطىء فى هذه اللغة ، وفى بعض خصائصها ، لا تكون له لغة سليقة .

وقد ظل هذا الإقواء شائعا فى عصر صدر الإسلام ، واستمر إلى نهاية العصر الذى احتجوا بنصوصه ، وينتهى بمنتصف القرن الثانى الهجرى ، وذلك عند الشاعر العباسى : « بشار بن برد » . وآخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم ، هو : « إبراهيم بن هرمة » — فهذا هو الفرزدق الشاعر العظيم ، كان يُقوى ويخطىء فى النحو . ومن ذلك قوله :

إلـيكَ أمِيـرَ المُؤْمنيـنَ رَمَتْ بنـا
هُمُومُ المُنَى والهَوْجَـلُ المُتَـعَسِّفُ

وعَضُّ زَمَانٍ يا ابنَ مَرْوَانَ لم يَدَعْ
مِنَ المالِ إلّا مُسْحَتـاً أو مُجَلَّـفُ[٣٥]

وقد سمعه « عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى » ، ينشد ذلك ، فقال له : على أى شىء ترفع : (أو مُجَلَّفُ) ؟! فقال له : على ما يَسُوءك ويَنُوءك !

كما أنكر عليه « ابن أبى إسحاق » كذلك قوله[٣٦] :

مستَقبلِيـنَ شَمـالَ الشّامِ تضرِبُنـا
بحَاصِبٍ كَنَدِيـفِ القُطْـنِ مَنْثُـورِ

عَلَـى عَمَائِمِنـا تُلْقَـى ، وَأرْحُلُنـا
عَلَـى زَوَاحِـفَ تُزْجَـى مُخُّهَـا رِيـرِ

قال ابن أبى إسحاق : أسأت ، إنما هى : (رِيرُ) ، وكذلك قياس النحو فى هذا الموضع ، فلما ألحوا على الفرزدق ، قال : « على زواحف نزجيها مَحَاسِيرِ » ، فترك الناس هذا ، ورجعوا إلى القول الأول . وكان ابن

---

(٣٥) ديوان الفرزدق ٥٥٦

(٣٦) ديوان الفرزدق ٢٦٢

أبى إسحاق يكثر الرّدّ على الفرزدق ، فقال فيه الفرزدق :

فَلَوْ كانَ عَبْدُ اللهِ مَوْلًى هَجَوْتُهُ
ولكِنَّ عَبْدَ اللهِ مَوْلَى مَوَالِيَا

فقال له ابن أبى إسحاق : وقد لحنت فى هذا أيضا . وصوابه : مَوْلَى مَوَالٍ(٣٧) .

ونخلص من هذا كله ، إلى أن اللغة العربية المشتركة ، ليست لغة سليقة لكل العرب ، بدليل وقوع اللحن ، حتى من خاصة العرب ، كما ذكرنا سابقا ، وضربنا على ذلك الأمثلة .

★★★

السليقة اللغوية ومصادر الاحتجاج :

يرى اللغويون العرب القدماء ، أن « السليقة » مرتبطة بالجنس والوراثة ، أى أنه لا يتصور أن يسيطر على اللغة العربية غير العربى ، كما أنه لا يمكن أن يتقنها إتقان العربى لها ، وهم بذلك كأنما قد تصوروا أن هناك أمرا سحريا ، هو سر السليقة ، ذلك هو الجنس ، فكأن الأمهات يرضعن السليقة فى ألبانهن ، وكأن تلك السليقة تتصل اتصالا وثيقا ، برمالهم وآثارهم وأطلالهم ودمنهم .

أما « السليقة » فى رأى المحدثين ، فهى « لا تعدو أن تكون مرحلة من مراحل إتقان اللغة ، عندها لا يكاد يشعر المتكلم بخصائص كلامه ، من حيث الأصوات ، وأبنية الألفاظ ، وتراكيب الجمل ، فهو يؤدى الكلام بصورة آلية ، دون أن يكون له أى اختيار فى هذه النواحى ، بل تصدر منه دون تكلف أو تعمد ، وإنما على حسب ما سمع فى صغره ، ممن حوله من الكبار ، وعلى نفس النهج الذى يسلكونه ، فالمرء يبدأ حياته مقلّداً للغة أبويه ، وتصادفه عقبات وعثرات فى هذا التقليد ، ويمرّ بمراحل كثيرة ، قبل أن يصل إلى تلك التى تسمى بمرحلة السليقة . أى أن اكتساب اللغة يبدأ

---

(٣٧) انظر : طبقات فحول الشعراء ١٦ - ١٧ والشعر والشعراء ١/٨٩

بالتقليد وكثرة المران ، ولا يقال للطفل فى أثناء تعلمه لغة أهله ، وقبل أن يسيطر عليها : إنه يتكلمها بالسليقة ؛ فلا وراثة فى السليقة اللغوية ، وإنما الأمر كله رهن بالاكتساب والتقليد والمران ، وعلى حسب ما تشكله البيئة ، فاللغة ملك من يتعلمها ، لا أثر فيها للوراثة أو الجنس ؛ فالطفل الذى يولد من أبوين مصريين ، ثم ينشأ بعيدا عنهما فى بيئة انجليزية ، يشب وينمو كالانجليز تماما من حيث اللغة ... وليس فى السليقة اللغوية ، لدى المحدثين ، شىء غامض أو أمر سحرى ، كما كان علماء العربية القدماء يظنون ، حين ربطوا بينها وبين البدواة حينا ، أو الجنس العربى حينا آخر ؛ إذ لم يتصوروا أن الأجنبى عن العربية ، يمكن أن يتقنها كأبناء العرب ، مهما بذل من جهد ، أو صرف من زمن[٣٨] » .

وقد فطن إلى مثل هذا من القدماء ، العلامة ابن خلدون ، فقال : « اعلم أن اللغات كلها ملكات ، شبيهة بالصناعة ؛ إذ هى ملكات فى اللسان ، للعبارة عن المعانى ، وجودتها وقصورها ، بحسب تمام الملكة أو نقصانها ... والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال ؛ لأن الفعل يقع أولا ، وتعود منه للذات صفة ، ثم تتكرر فتكون حالا ، ومعنى الحال أنه صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة ، أى صفة راسخة[٣٩] » .

ولأن القدماء قد ذهبوا إلى أن اللغة العربية ، تجرى فى دماء العرب ، فقد أخذوا اللغة عن العرب ، حتى عن الأطفال والمجانين والنساء[٤٠] ، ولكنهم – والحق يقال – شعروا بوجود مستويات مختلفة فى اللغة ، فتحدثوا عن الفصيح والأفصح والأقل فصاحة ، والردىء والمذموم ، والشاذ ، والحوشى والغريب ، والنادر . وكانت المعايير التى استندوا إليها فى ذلك

---

(٣٨) مستقبل اللغة العربية ١٣ – ١٤ ويقول فندريس (اللغة ٢٩٨) : « فالزنجى أو اليابانى الذى يربى فى فرنسا ، فى ظروف واحدة مع الأطفال الفرنسيين ، يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها . وهذه الحقيقة تكفى لجعل كل محاولة تعمل للتوحيد بين اللغة والجنس ، عبثا لا طائل وراءه » .

(٣٩) مقدمة ابن خلدون ٦٤٨

(٤٠) انظر : المزهر للسيوطى ١/١٤٠

غامضة ، فكثيرا ما تقابلنا فى المعاجم عبارات مثل : « وهى اللغة العليا » بلا علة واضحة لهذا الحكم !

وعندما بدأ قدامى اللغويين العرب ، فى تدوين اللغة ، مع غموض معاييرهم ، وجدناهم يقسمون تلك اللغة إلى أقسام : القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر ، ونثر العرب .

أما**القرآن الكريم** ؛ فقالوا : إن كل رواياته فصيحة ، حتى الشاذ منها ، ولو أنه لا يقاس عليها ، فهذا هو ابن جنى يقول : « غرضنا أن نرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذا ، وأنه ضارب فى صحة الرواية بجرانه ، آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه(٤١) » . كما يقول البغدادى : « كلامه — عز اسمه — أفصح كلام وأبلغه ، ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه(٤٢) » . ويقول الفراء : « والكتاب أعرب وأقوى فى الحجة من الشعر(٤٣) » .

وأما **الحديث** ؛ فيرفضون الأخذ به فى الاستشهاد على مسائل النحو ، محتجين بأنه قد سمحت الرواية فيه ، بمعناه لا بلفظه ، كما أن بعض رواته كانوا من المولدين .

وهذه حجة واهية بالطبع ، فإن رواة الأحاديث كانوا يعيشون ، فى حيز عصور الاحتجاج . وحتى لو سلمنا جدلا ، بأنهم رووا الأحاديث بالمعنى ، وصاغوها بعباراتهم ، فإنهم ممن يحتج بلغتهم .

ولعل السبب الحقيقى فى بعد النحويين الأوائل ، عن الاستشهاد بالحديث ، إيثارهم الابتعاد عن موطن تزل فيه الأقدام ، بعد شيوع الوضع فى الحديث ، فى العصور الإسلامية الأولى ، وكثرة اتهام بعض الناس لبعض ، بهذا الوضع .

---

(٤١) المحتسب ، لابن جنى ١/٣٢

(٤٢) خزانة الأدب ١/٤ وانظر الاقتراح ، للسيوطى ١٥

(٤٣) معانى القرآن ، للفراء ١/١٤

وليس معنى هذا ، أن المؤلفات النحوية الأولى ، تخلو من ذكر الحديث تماما ، فعند سيبويه[٤٤] ، والفراء[٤٥] ، وأبى على الفارسى[٤٦] ، مثلا ، بعض الأحاديث . غير أن أول من أكثر من الاستشهاد[٤٧] بالحديث ، كان هو النحوى الأندلسى : ابن خروف (المتوفى سنة ٦٠٩ هـ) ، وتابعه على ذلك ابن مالك ، صاحب الألفية (المتوفى سنة ٦٧٢ هـ) .

ومن أعلام المانعين من الاستشهاد به : ابن الضائع (المتوفى سنة ٦٨٠ هـ) ، وأبو حيان (المتوفى سنة ٧٥٤ هـ)[٤٨] . أما ابن مالك ، فقد أخذ مثلا قول الرسول ﷺ : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار » شاهداً على لغة : « أكلونى البراغيث » ، وهى اللغة التى تلحق الفعل ضمير تثنية أو جمع ، إذا كان الفاعل مثنى أو مجموعا . وقد عرفت هذه اللغة بذلك الاسم ؛ لأن سيبويه أول من مَثَّل لها فى كتابه ، فاختار هذا المثال ، فقال : « فى قول من قال : أكلونى البراغيث »[٤٩] ، كما قال : « ومن قال : أكلونى البراغيث ، قلت على حد قوله : مررت برجل أعورين أبواه »[٥٠] ، وإن كان قد ضرب لهذه الظاهرة أمثلة أخرى فى كتابه ، فقال : « واعلم أن من العرب من يقول : ضربونى قومك ، وضربانى أخواك ، فشبهوا

---

(٤٤) انظر : فهرس شواهد سيبويه ، للنفاخ ٥٧ — ٥٨ وفهارس كتاب سيبويه ، لعبد السلام هارون ٣٢/٥ وللشيخ عضيمة ٧٦٢

(٤٥) انظر : أبو زكريا الفراء ٢٤٢

(٤٦) انظر : أبو على الفارسى ٢٠٤

(٤٧) ذكر ذلك ابن الضائع فى شرح الجمل ؛ فقال : « وابن خروف يستشهد بالحديث كثيراً » . انظر : خزانة الأدب ١/٥ وعلى ذلك ، ليس ابن خروف أول من استشهد بالحديث ، كما ذكر يوهان فك (العربية ٢٣٥) ، بل كان أول من أكثر من الاستشهاد به .

(٤٨) انظر : خزانة الأدب ، للبغدادى ٩/١ والاقتراح ، للسيوطى ١٧ — ١٨

(٤٩) كتاب سيبويه ١ : ١٣/٥ ؛ ١ : ٦/٦

(٥٠) كتاب سيبويه ١ : ٦/٢٣٧

هذه بالتاء ، التى يظهرونها فى : قالت فلانة ، فكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة ، كما جعلوا للمؤنث ، وهى قليلة »[٥١] .

وقد حكيت هذه اللغة عن قبيلة « بلحارث بن كعب » ، كما حكاها البصريون عن قبيلة طيىء ، وبعض النحويين يحكونها عن قبيلة أزد شنوءة . والأصل فى اللغات السامية ، أن يعامل الفعل فيها معاملته فى لغة : « أكلونى البراغيث »[٥٢] . وقد بقى من هذا الأصل فى العربية ، أمثلة فى اللهجات المختلفة ، كما توجد منه بعض الأمثلة ، فى القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والأشعار .

فمما جاء منه فى القرآن الكريم ، قوله تعالى : « وأَسَرُّوا النَّجْوَى الذِينَ ظَلَمُوا »[٥٣] وقوله تعالى : « ثم عَمُوا وصَمُّوا كَثِيرٌ منهم »[٥٤] . ومما جاء فى الحديث الشريف ، قوله ﷺ : « يَعْتَزِلْنَ الحُيَّضُ المُصَلَّى » وقوله : « مَا اغْبَرَّتَا قَدَمَا عَبْدٍ فى سَبِيلِ اللهِ » . ومما جاء فى الشعر ، قول عمرو بن ملقط الطائى الجاهلى :

أُلْفِيَتَا عَيْنَاكَ عِنْدَ القَفَا
أَوْلَى فَأَوْلَى لَكَ ذَا وَاقِيَهْ[٥٥]

وقول أُحَيْحة بن الجُلاح :

يَلُومُونَنِي فى اشْتِرَاءِ النَّخِيلِ (م)
أَهْلِى فَكُلُّهُمُ يَعْذِلُ[٥٦]

---

(٥١) كتاب سيبويه ١ : ١١/٢٣٦

(٥٢) انظر : نصوص من اللغات السامية ٧ ؛ ٧٩ ؛ ١٢١

(٥٣) سورة الأنبياء ٣/٢١

(٥٤) سورة المائدة ٧١/٥

(٥٥) شرح شواهد المغنى ١١٣

(٥٦) شرح شواهد المغنى ٢٦٥

وقول مجنون ليلى :

وَلَـوْ أَحْدَقُـوا بِى الإنْسُ والجِنُّ كُلُّهُـمْ
لِكَـىْ يَمْنَعُـونى أَنْ أَجِيكِ لَجِــيتُ(٥٧)

وقول ابن قيس الرقيات :

تَوَلَّــى قِتَــالَ المارِقِيــــنَ بِنَــــفْسِهِ
وَقَــدْ أَسْلَمَــاهُ مُبْعَــدُ وحَمِيـــمُ(٥٨)

وهذه الظاهرة هي الشائعة فى كلامنا ، فى اللهجات العربية الحديثة ، كقولنا مثلا : « ظلمونى الناس » . وقد جعل الحريرى ذلك من لحن العامة(٥٩) ، ورد عليه الشهاب الخفاجى ، فقال : « وليس الأمر كما ذكره ؛ فإن هذه لغة قوم من العرب ، يجعلون الألف والواو حرفى علامة للتثنية والجمع ، والاسم الظاهر فاعلا ، وتعرف بين النحاة ، بلغة أكلونى البراغيث ؛ لأنه مثالها الذى اشتهر به ، وهى لغة طيىء ، كما قال الزمخشرى ، وقد وقع منها فى الآيات والأحاديث ، وكلام الفصحاء ، ما لا يحصى »(٦٠) .

وكما عُنِى ابن مالك بالاستشهاد بالحديث ، فقد عنى به كذلك الإمام الرضى ، وزاد عليه الاحتجاج بكلام أهل البيت ، رضى الله عنهم(٦١) .

ومن علماء العصور المتأخرة ، أمثال « الإمام الشاطبى » (المتوفى سنة ٧٩٠ هـ) من قسم الأحاديث إلى قسمين : قسم يظن أن العناية قد وُجِّهت إلى ألفاظه لغرض خاص ، كالأحاديث التى قصد بها بيان فصاحته

---

(٥٧) ديوان مجنون ليلى ق ٥٨/٤ ص ٧٤
(٥٨) ديوان ابن قيس الرقيات ق ٣٥/٢ ص ١٩٦ وشرح شواهد المغنى ٢٦٦
(٥٩) انظر : درة الغواص فى أوهام الخواص ٦٥
(٦٠) انظر : شرح درة الغواص ، للشهاب الخفاجى ١٥٢
(٦١) انظر : خزانة الأدب ٦/١

ﷺ ، ككتابه لهمدان ، وكتابه لوائل بن حُجْر ، والأمثال النبوية ، فهذا يصح الاستشهاد به فى العربية . وقسم يظن أن العناية وُجِّهت فيه إلى المعنى ، وقد رأى الشاطبى أنه لا يصح الاستشهاد به مطلقا(٦٢) .

هذا بالنسبة للقرآن والحديث . أما بالنسبة **للشعر** ، فقد قسم اللغويون الشعراء ، إلى أربع طبقات :

١ – طبقة الجاهليين : كزهير ، وطرفة ، وعمرو بن كلثوم .

٢ – طبقة المخضرمين : وهم الذين شهدوا الجاهلية وصدر الاسلام ، كالخنساء ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير .

٣ – طبقة الإسلاميين : كجرير ، والفرزدق ، والأخطل .

٤ – طبقة المولدين ، أو المحدثين : وهم يبدءون فى العصر العباسى ، ببشار بن برد ، وأبى نواس .

وقد أجمع علماء اللغة ، على أن شعراء الطبقتين الأوليين ، يحتج بشعرهم ، بغير نزاع . أما الطبقة الثالثة ، فمعظم اللغويين يرون صحة الأخذ بشعر هذه الطبقة ، غير أن بعضهم كان يأبى الاحتجاج به ، وأما الطبقة الرابعة ، فقد رفض اللغويون الاحتجاج بشىء من شعرها ، فيما عدا الزمخشرى الذى أجاز ذلك .

يقول البغدادى : « فالطبقتان الأوليان ، يستشهد بشعرهما إجماعا . وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها . وقد كان أبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن أبى إسحاق ، والحسن البصرى ، وعبد الله بن شبرمة ، يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم ... فى عدة أبيات ، أُخِذَت عليهم ظاهراً ، وكانوا يعدونهم من المولَّدين ؛ لأنهم كانوا فى عصرهم ، والمعاصرة حجاب »(٦٣) .

---

(٦٢) انظر : خزانة الأدب ٦/١

(٦٣) خزانة الأدب ٦/١

وقال ابن رشيق : « كل قديم من الشعراء ، فهو محدث فى زمانه ، بالإضافة إلى من كان قبله . وكان أبو عمرو يقول : لقد أحسن هذا المولدّ ، حتى لقد هممت أن آمر صبياننا برواية شعره – يعنى بذلك شعر جرير والفرزدق – فجعله مُوَلّدًا ، بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين ، وكان لا يعدّ الشعر إلا ما كان للمتقدّمين . قال الأصمعى : جلست إليه عشر حجج ، فما سمعته يحتج ببيت إسلامى »(٦٤) .

كما يقول ابن قتيبة : « كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم ، يعدّون محدثين . وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن ، حتى لقد هممت بروايته »(٦٥) .

وكان تلميذه الأصمعى ، لا يوثق كثيرا من شعراء هذه الطبقة ، كالكميت ، والطرماح ،(٦٦) وإن روى عن أستاذه أبى عمرو بن العلاء ، أن عمر بن أبى ربيعة حجة ، قال : « سمعت أبا عمرو بن العلاء ، يحتج فى النحو بشعره ، ويقول : هو حجة »(٦٧) .

وأما الطبقة الرابعة ، فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقا ، وقيل : يستشهد بكلام من يوثق به منهم ، واختاره الزمخشرى ، فاستشهد فى تفسير أوائل سورة البقرة ، فى « الكشاف » ببيت من شعر أبى تمام ، وقال : « وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة ، فهو من علماء العربية ، فأجعل ما يقوله بمنزله ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة ، فيقنعون بذلك ، لوثوقهم بروايته وإتقانه »(٦٨) .

واعترض عليه(٦٩) ، بأن قبول الرواية مبنى على الضبط والوثوق ،

---

(٦٤) انظر : العمدة لابن رشيق ١/٥٦

(٦٥) الشعر والشعراء ١/٦٣

(٦٦) فعلت وأفعلت ، لأبى حاتم ١٥٧ ؛ ١٧٢ وفحولة الشعراء ٣٩ – ٤٠.

(٦٧) فحولة الشعراء ٣٢

(٦٨) الكشاف ١/٢٢٠ فى تفسير قوله تعالى : « وإذا أظلم عليهم قاموا » . وانظر : الاقتراح ٢٦ – ٢٧

(٦٩) حاشية الشريف الجرجانى على الكشاف ١/٢٢١

واعتبار القول مبنى على معرفة أوضاع اللغة العربية ، والإحاطة بقوانينها . ومن البيِّن أن إتقان الرواية ، لا يستلزم إتقان الدراية .

وأجمع العلماء على أن « أول الشعراء المحدثين بشار بن برد ... ونقل ثعلب عن الأصمعى قال : ختم الشعر بإبراهيم بن هَرْمَة ، وهو آخر الحجج »[٧٠] .

ويتبين لنا من ذلك ، أنهم لم يقسموا الشعر على أساس القبائل ، بل ارتضوا كل ما نظم من شعر ، فى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية .

ولكنهم حين تعرّضوا **للنثر** ، رأيناهم يسلكون مسلكا مخالفا لذلك ، فهم يختلفون فى الفصيح منه ، وغير الفصيح ، ويضعون قوائم بأسماء القبائل ، التى يصح أخذ النثر عنها ؛ ففى القرن الرابع الهجرى ، نجد أبا نصر الفارابى (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) يضع قائمة بأسماء قبائل معينة . وقد جاء بعده من حذا حذوه ، أو نقل عنه ، حتى جاء ابن خلدون ، الذى سار على هديه فى ذلك .

يقول « الفارابى » ، فى أول كتابه ، المسمى : الألفاظ والحروف[٧١] : « كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا وإبانة عما فى النفس . والذين عنهم نقلت اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى ،

---

(٧٠) الاقتراح ٢٧ وانظر شرح شواهد الشافية ٤/٢٥

(٧١) عن الاقتراح ١٩ والمزهر ١/٢١١ والنص مختصر جدا ، فى كتاب « الحروف » لأبى نصر الفارابى ، الذى نشره : محسن مهدى ، فى بيروت سنة ١٩٦٩ . يقول الفارابى ، وهو يتحدث عن اللغويين العرب (ص ١٤٧) : « وكان الذى تولى ذلك من بين أمصارهم ، أهل الكوفة والبصرة ، من أرض العراق ، فتعلموا لغتهم والفصيح منها ، من سكان البرارى منهم ، دون أهل الحضر ، ثم من سكان البرارى من كان فى أوسط بلادهم ، ومن أشدهم توحشا وجفاء ، وأبعدهم إذعانا وانقيادا ، وهم : قيس ، وتميم ، وأسد ، وطيىء ، ثم هذيل ؛ فإن هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب ، والباقون فلم يؤخذ عنهم شىء ؛ لأنهم كانوا فى أطراف بلادهم ، مخالطين لغيرهم من الأمم ، مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم ، لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم ، من الحبشة والهند والفرس والسريانيين ، وأهل الشام ، وأهل مصر » .

من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب ، وفى الإعراب والتصريف . ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين . ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .

« وبالجملة ، فإنه لم يؤخذ عن حضرى قطّ ، ولا عن سكان البرارى ، ممن يسكن أطراف بلادهم ، التى تجاور سائر الأمم الذين حولهم ؛ فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام ؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة ، ولا من غسان ، ولا من إياد ؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون فى صلاتهم بغير العربية ، ولا من تغلب ولا النمر ؛ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من بكر ؛ لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس ؛ لأنهم كانوا سكان البحرين ، مخالطين للهند والفرس ، ولا من أزد عُمَان ؛ لمخالطتهم للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن أصلا ؛ لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولولادة الحبشة فيهم ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وسكان الطائف ؛ لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ؛ لأن الذين نقلوا اللغة ، صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب ، قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم . والذى نقل اللغة واللسان العربى عن هؤلاء ، وأثبتها فى كتاب ، وصيرّها عِلْماً وصناعة ، هم أهل الكوفة والبصرة فقط ، من بين أمصار العرب » .

كما يقول « ابن خلدون » فى مقدمة كتابه : « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، تحت فصل عنوانه : (فصل فى أن اللغة ملكة صناعية) : « ولهذا كانت لغة قريش ، أفصح اللغات وأصرحها ؛ لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف ، وهذيل ، وخزاعة ، وبنى كنانة ، وغطفان ، وبنى أسد ، وبنى تميم . وأما من بَعُد عنهم ، من ربيعة ، ولخم ، وجذام ، وغسان ، وإياد ، وقضاعة ، وعرب اليمن

المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم ، وعلى نسبة بعدهم من قريش ، كان الاحتجاج بلغاتهم فى الصحة والفساد ، عند أهل الصناعة العربية »[٧٢] .

وإننا حين نستعرض كل ذلك ، نستطيع أن نرى فيه أساسين ، أو عاملين ، كانا فى ذهن أصحاب هذه الروايات :

الأول : كلما قربت القبيلة من بيئة قريش ، كانت أقرب إلى الفصاحة ، وإلى الأخذ بكلامها .

الثانى : على قدر توغّل القبيلة فى البدواة ، تكون فصاحتها .

وعلى هذا الأساس ، نجد ابن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) يضع فصلا فى كتابه : « الخصائص » بعنوان : « باب فى ترك الأخذ عن أهل المدر ، كما أخذ عن أهل الوبر »[٧٣] . والمدر والوبر ، تقابلان : الحضر والبدو ؛ لأن المدر جمع مَدَرَة ، وهى : القرية . وهذا يعنى أن العلماء أخذوا يقسمون اللغة ، إلى لغة حضرية ، وأخرى بدوية ، ويعتنون بالثانية ، ويحتكمون إلى أهلها .

ومما يصدّق هذا ، ما رواه السيرافى من قوله : « حدثنا أبو بكر بن دريد ، قال : رأيت رجلا فى الوراقين بالبصرة ، يفضّل كتاب (المنطق) ليعقوب بن السكيت ، ويقدم الكوفيين ؛ فقيل للرياشى ، وكان قاعداً فى الوراقين ، ما قال ؛ فقال : إنما أخذنا اللغة عن حَرَشَة الضِباب ، وأَكَلَة اليَرابيع ، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد ، أصحاب الكواميخ ، وأَكَلَة الشَّوَارِيز ، أو كلام يشبه هذا »[٧٤] .

ويروى السيوطى عن الأندلسى فى شرح المفصل ، أن « الكوفيين

---

(٧٢) مقدمة ابن خلدون ٦٤٩

(٧٣) انظر : الخصائص ٢/٥

(٧٤) أخبار النحويين ٦٨ ونقله عنه ابن النديم فى الفهرست ٩٢ وانظر : الاقتراح ٨٤

لو سمعوا بيتاً واحداً ، فيه جواز شيء مخالف للأصول ، جعلوه أصلا ، وبَوَّبُوا عليه ، بخلاف البصريين » . كما يروى عنه كذلك أنه قال : « ومما افتخر به البصريون على الكوفيين ، أن قالوا : نحن نأخذ اللغة ، عن حَرَشَة الضِّباب ، وأَكَلَة اليَرَابيع ، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشَّوَاريز ، وباعة الكَوَامِخ »(٧٥) .

ومن العجيب أن هؤلاء البدو ، لم يكونوا فى ثقافة هؤلاء العلماء ، الذين يأخذون اللغة عنهم ، ولكن هؤلاء كانوا يعتقدون أن اللغة تجرى فى دمائهم ، ويجهلون أن اللغة أمر مكتسب ، يمكن أن يتقنها غير أهلها ، إذا مارسوها طويلا منذ المولد .

يقول نولدكه : « ويصلح كلّ بدو الجزيرة العربية ، باستثناء الأماكن المتطرفة منها ، لأن يُعَدُّوا أصحاب هذه اللغة العربية الصافية ، حتى بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، بمائتى عام . وإن أعلم علماء النحو ، ليجعل من أول شخص قادم من البادية بإبله ، ذلك البدوى الذى لم يتعلم ، والذى لا يحفظ عشرين آية كاملة من القرآن الكريم ، ولا يعرف شيئا عن مفاهيم النحو النظرية — ذلك البدوى ، يجعل منه النحاة حكما فاصلا ، فى هل يجوز أن يقال كذا أو كذا فى العربية »(٧٦) .

وأعجب من هذا ، أن هؤلاء اللغويين ، خلطوا فى جمعهم للنثر ، بين اللغة العربية الفصحى واللهجات ، خلطا عجيبا . ويقول « أبو حاتم السجستانى » عن « الكسائى » رأس مدرسة الكوفة فى النحو واللغة : « وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل ، إلا حكايات عن الأعراب مطروحة ؛ لأنه كان يلقنهم ما يريد »(٧٧) . كما يقول أبو زيد الأنصارى : « قدم علينا الكسائى البصرة ، فلقى عيسى والخليل وغيرهما ، وأخذ منهم نحواً كثيراً ، ثم

---

(٧٥) الاقتراح ٨٤

(٧٦) اللغات السامية ٧٦

(٧٧) مراتب النحويين ٧٤ ومعجم الأدباء ١٣ / ١٩٠

صار إلى بغداد ، فلقى أعراب الحُطَمَة ، فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن ، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كلّه »(٧٨) . وقال ابن درستويه : « كان الكسائى يسمع الشاذ ، الذى لا يجوز إلا فى الضرورة ، فيجعله أصلا ، فيقيس عليه ، واختلط بأعراب الأُبُلَّة ، فأفسد بذلك النحو »(٧٩) .

ومعلوم أن هذه الآراء كلها ، هى آراء البصريين ، الذين يختلفون عن الكوفيين فى منهج البحث ، والمقياس الذى يوضع أساسا للأخذ عن العرب ؛ فقد اختار البصريون قبائل معينة ، للأخذ عنها ، وتركوا ما عداها ، محتجين بفساد لغتها ، وكانوا يسمون لغات هذه القبائل ، باللغات الشاذة التى لا يعمل بها . أما الكوفيون ، فإنهم كانوا يوثقون كل العرب على السواء ، ويعدُّون كل ما جاء عنهم حجة ، فيعتدّون بأقوالهم ، ويؤسسون عليها نحوهم وقواعدهم .

والواقع أن كلا الفريقين مخطىء فى نظرته هذه ، إذا كان الهدف هو وضع قواعد للغة الفصحى ، أو بعبارة أخرى : للغة الأدبية المشتركة بين العرب جميعا ؛ فلم يكن الفرق بين اللغة المشتركة واللهجات ، واضحاً فى أذهان اللغويين ، فى هذه الحقبة من التاريخ ، وضوحاً تامًّا ؛ ولذلك سعى البصريون للأخذ عن قبائل معينة ، وهدفهم هو الوصول إلى تقعيد اللغة الأدبية المشتركة ، غير أنهم لم يفرقوا فيما أخذوه عن هذه القبائل ، بين تلك اللغة المشتركة ، ولهجات الخطاب . ومن هنا جاء الخلط والاضطراب ، ورأيناهم يؤولون كل مثال شذ عن قواعدهم . ولم يكن الكوفيون أقل منهم حظا فى الاضطراب والخلط ؛ لأنهم أخذوا اللغة عن كل العرب ، ولم يفرقوا كذلك بين اللغة المشتركة ، ولهجات الخطاب

★★★

---

(٧٨) معجم الأدباء ١٣/١٨٢ وإنباه الرواة ٢/٢٧٤

(٧٩) بغية الوعاة ٢/١٦٤

الفصل الثانى

لولا القرآن ما كانت عربية

نشأت الدراسات العربية بفروعها المختلفة ، متعلقة بالقرآن الكريم ، كتاب الله العزيز ، فكأن القرآن هو المحور ، الذى دارت حوله تلك الدراسات المختلفة ، سواء منها تلك الدراسات ، التى تتعلق تعلقا مباشرا بتفسير القرآن ، وتوضيح آياته ، وتبيين معناه ، واستنباط أحكام الشريعة منه ، أو تلك التى تخدم هذه الأغراض جميعها ، بالبحث فى دلالة اللفظ ، واشتقاق الصيغ ، وتركيب الجمل ، والأسلوب والصور الكلامية ، واختلافها باختلاف المقام ، حتى تلك الدراسات التى تتعلق بالرسم الإملائى ، والفلك ، والرياضة ، واستكناه أسرار الطبيعة . كل هذه الدراسات قامت أساسا ، لخدمة الدين الإسلامى ، ولغرض فهم القرآن الكريم ، مصدر التشريع الإسلامى ، ودستور المسلمين .

فقد « اتصل الدين باللغة ، اتصالا وثيقا فى العصور الإسلامية كلها ، وكان الباعث على اهتمام علماء اللغة ، بجمع الشواهد اللغوية ، وتقعيد اللغة ، باعثا دينيا ، هو ضبط نصوص القرآن الكريم ، وتعليم الطلاب لغة القرآن ، وجرت مناهج التعليم منذ أقدم العصور الإسلامية ، على المزج بين المعارف الدينية واللغوية ، فى الكتاتيب والمساجد والمجتمعات ، ثم فى المدارس المنظمة فيما بعد . ومن ثم كان اللغوى غالبا رجل دين ، ولا ترى عالما من علماء اللغة القدامى ، إلا كان مقرئا ، أو مفسرا ، أو محدِّثا ، أو متكلما ، أو فقيها »[1] .

---

(١) المدخل إلى دراسة النحو العربى ١٠٢

ولقد كان هذا الأمر واضحا ، فى نظر كثير من المستشرقين ؛ ففى رأى نولدكه مثلا « أن العربية ، لم تصر لغة عالمية حقا ، إلا بسبب القرآن والإسلام ؛ إذ تحت قيادة قريش ، فتح البدو سكان الصحراء ، نصف العالم لهم وللإيمان ؛ وبهذا صارت العربية لغة مقدسة كذلك »[٢] ، فأجهد العلماء أنفسهم فى دراستها ، واستكناه أسرارها ؛ ليقفوا على مواطن الإعجاز فى كتاب الله العزيز .

وقد عرفنا من قبل أن القرآن الكريم ، نزل بلغة فصحى ، تعلو عن مستوى العامة من العرب ؛ ولذلك أخذ الناس فى الصدر الأول للإسلام ، يسألون كبار الصحابة ، عن تفسير آياته ، وغريب ألفاظه . وتحدثنا الروايات الإسلامية ، بأن الصحابى المشهور « عبد الله بن عباس » ، كان يُسأل عن معنى ألفاظ معينة من القرآن الكريم ، فيفسرها للناس ، ويستشهد على تفسيرها بأبيات من الشعر العربى .

وقد جمعت هذه الأسئلة وإجاباتها ، فى كتاب مستقل ، باسم : « سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس » ، نشره الدكتور إبراهيم السامرائى ، ببغداد سنة ١٩٦٨ م ، كما ذكرها السيوطى ، فى النوع السادس والثلاثين ، من كتابه : « الإتقان فى علوم القرآن »[٣] .

ويبدأ الكتاب بالعبارات التالية : « بينا عبد الله بن عباس ، جالس بفناء الكعبة ، قد أسدل رجله فى حوض زمزم ؛ إذ الناس قد اكتنفوه من كل ناحية ، يسألونه عن تفسير القرآن ، وعن الحلال والحرام ، وإذا هو لا يتعايى بشىء يسألونه عنه ، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر : قم بنا إلى هذا الذى يجترىء على تفسير القرآن ، والفُتيا بما لا علم له به ، فقاما إليه فقالا ... نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله عز وجل ، فتفسره

---

(٢) اللغات السامية ٧٩

(٣) وانظر بعضها فى الكامل للمبرد ٣/٢٢٢ – ٢٢٨ وإيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنبارى ٧٦ – ٩٨

لنا ، وتأتينا بمصداقه من كلام العرب ؛ فإن الله عز وجل ، إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين . قال ابن عباس : سلانى عما بدا لكما ، تجدا علمه عندى حاضرا ، إن شاء الله تعالى . فقالا : يا ابن عباس ، أخبرنا عن قول الله عز وجل : (عن اليمين وعن الشمال عزين) ! قال : عزين : حَلَق الرفاق . قالا : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت عبيد بن الأبرص ، وهو يقول :

فجاءُوا يُهْرَعُونَ إليه حتى
يكونوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عِزِينَا ؟

قال نافع : يا ابن عباس ، أخبرنى عن قول الله عز وجل : (وابتغوا إليه الوسيلة) ! قال : الوسيلة : الحاجة . قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت عنترة العبسى ، وهو يقول :

إنَّ الرِّجالَ لهم إليكِ وَسِيلَةٌ
إنْ يأخُذُوكِ تَكَحَّلِى وتَخضَّبِى ؟

وهكذا يمضى نافع يسأل ، وابن عباس يفسر ، ويستشهد على تفسيره ببيت من الشعر ، على النحو الذى أسلفنا ، فى حوالى مائتين وخمسين موضعا من القرآن الكريم .

وبذلك يمكننا أن نعد تفسير ابن عباس للقرآن ، على هذا النحو ، نواة للمعاجم العربية ؛ فقد بدأت الدراسة فى هذا الميدان ، من ميادين اللغة ، بالبحث عن معانى الألفاظ الغريبة فى القرآن الكريم ؛ ولذلك نجد التآليف الأولى فى المعاجم ، كانت تحمل اسم : « غريب القرآن » . وأقدم مؤلف يحمل هذا الاسم ، هو لأبى سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكرى (المتوفى سنة ١٤١ هـ) ؛ يقول عنه ياقوت : « وصنف كتاب الغريب فى القرآن الكريم ، وذكر شواهد من الشعر »[٤] .

---

(٤) معجم الأدباء ١٠٨/١

وقد شعر العلماء ، منذ الصدر الأول للإسلام ، بحاجتهم إلى الشعر العربى ، للاستعانة به ، فى فتح مغاليق الألفاظ ، والأساليب الغريبة الموجودة فى القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة ، فأكبوا عليه يروونه ، ويحفظونه ، ويدرسون أساليبه ومعانيه ، وما يدور فيه من ذكر لأيام العرب ووقائعهم . ولولا هذا الباعث الدينى ، لاندثر الشعر الجاهلى ، ولم يصل إلينا منه شىء .

وهذا أبو حاتم الرازى يقول ، مصداقا لذلك : « ولولا ما بالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب ، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن ، وأحاديث رسول الله ﷺ ، والصحابة والتابعين ، والأئمة الماضين ، لبطل الشعر ، وانقرض ذكر الشعراء ، ولعفى الدهر على آثارهم ، ونسى الناس أيامهم »[٥] .

ويقول ابن عباس : « الشعر ديوان العرب ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن ، الذى أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه »[٦] ، كما يقول : « إذا سألتمونى عن غريب القرآن ، فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب »[٧] ، ويقول كذلك : « إذا قرأتم شيئا ، فلم تدروا ما تفسيره ، فالتمسوه فى الشعر ، فإنه ديوان العرب[٨] ، ويقول أيضا : « إذا أشكل عليكم الشىء من القرآن ، فارجعوا فيه إلى الشعر ، فإنه ديوان العرب »[٩] .

وهكذا نرى أن دراسة القرآن الكريم ، كانت من دواعى الاهتمام بالشعر ، كما كانت أحد الأسباب التى أسهمت فى نشأة المعاجم العربية .

---

(٥) الزينة ، للرازى ١١٦/١

(٦) إيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنبارى ١٠٠ والإتقان ، للسيوطى ١١٩/١

(٧) الإتقان ، للسيوطى ١١٩/١

(٨) أدب الإملاء والاستملاء ، للسمعانى ٧١

(٩) الفاضل ، للمبرد ١٠

أما إذا نظرنا إلى النحو العربى ، فإننا نجد أن الغيرة على القرآن الكريم ، وصونه من التحريف على ألسنة الأعاجم ، كانت السبب فى وضع قواعده . وتروى لنا الأخبار أن أبا الأسود الدؤلى ، كان أول من وضع النحو ، وأن السبب فى ذلك أنه سمع قارئا يقرأ : « أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِه » ، بكسر اللام من : « رسوله » ، فغضب لذلك ، وكان هذا حافزا له على وضع مبادىء النحو[١٠] .

ويقول ابن خلدون فى ذلك : « وخشى أهل العلوم منهم ، أن تفسد تلك الملكة رأسا ، ويطول العهد بها ، فينغلق القرآن والحديث على الفهوم ، فاستنبطوا من مجارى كلامهم ، قوانين لتلك الملكة مطردة ، شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام »[١١] ، كما يقول : « فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة والتدوين ، خشية الدروس ، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ؛ فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك ، وأملوا فيه الدواوين »[١٢] ، ويقول كذلك : « وإنما وقعت العناية بلسان مضر ، لما فسد بمخالطتهم الأعاجم ، حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب ، وصارت ملكته على غير الصورة التى كانت أولا ، فانقلب لغة أخرى ، وكان القرآن متنزّلا به ، والحديث النبوى منقولا بلغته ، وهما أصلا الدين والملة ، فخشى تناسيهما ، وانغلاق الأفهام عنهما ، بفقدان اللسان الذى تنزّلا به ، فاحتيج إلى تدوين أحكامه ، ووضع مقاييسه ، واستنباط قوانينه »[١٣] .

أما دراسة الأسلوب ، أو ما عرف عند العلماء فيما بعد ، بعلوم

---

(١٠) انظر فى هذا الخبر : مراتب النحويين ، لأبى الطيب ٨ وأخبار النحويين البصريين للسيراف ١٢ ونور القبس المختصر من المقتبس ، للمرزبانى ٤ والفهرست لابن النديم ٦٦ ونزهة الألباء ٣ وإنباه الرواة للقفطى ٥/١

(١١) المقدمة ، لابن خلدون ٦٣٩

(١٢) المقدمة ، لابن خلدون ٦٤١

(١٣) المقدمة ، لابن خلدون ٦٥١

البلاغة ، وهى علوم البيان والمعانى والبديع ، فتذكر المصادر العربية ، أن أبا عبيدة معمر بن المثنى ، كان من أوائل من ألّف فيها ، وغايته توضيح الأساليب القرآنية ؛ يقول ياقوت : « قال أبو عبيدة : أرسل إلىّ الفضل بن الربيع ، إلى البصرة ، فى الخروج إليه ، سنة ثمان وثمانين ومائة ، فقدمت إلى بغداد ، واستأذنت عليه ، فأذن لى فدخلت عليه ... ثم دخل رجل فى زىّ الكُتَّاب ، له هيئة ، فأجلسه إلى جانبى ، وقال له : أتعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا أبو عبيدة علّامة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل وقرّظه لفعله هذا ، وقال لى : إنى كنت إليك مشتاقا ، وقد سألت عن مسألة ، أفتأذن لى أن أعرّفك إياها ؟ فقلت : هات . قال : قال الله عز وجل : (طَلْعُها كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِين) ، وإنما يقع الوعد والإيعاد ، بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف ! فقلت : إنما كلّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أَيَقْتُلُنِى وَالْمَشْرَفِىُّ مُضَاجِعِى
وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

وهم لم يروا الغُول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغُول يَهُولُهم ، أُوعِدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا فى القرآن ، فى مثل هذا وأشباهه ، وما يحتاج إليه من علمه ، فلما رجعت إلى البصرة ، عملت كتابى الذى سميته : المجاز »[١٤] .

والرسم الإملائى لا شك قديم ، وسابق للوقت الذى أنزل فيه القرآن ، غير أن العناية بالقرآن الكريم ، وصيانته من اللحن ، هى التى دعت العلماء فى الصدر الأول ، إلى البحث عن طريقة ، تعصم من يتلو القرآن الكريم ، من الوقوع فى اللحن ، حين القراءة من المصحف ، بسبب خلوه من رموز الحركات . وتنسب الروايات الإسلامية ، إلى أبى الأسود الدؤلى ، أنه كان أول من فكر فى وضع رموز للحركات ، يضبط بها الرسم

---

(١٤) معجم الأدباء ١٥٨/١٩ وانظر كذلك : نور القبس ١١٥

القرآني ، الذى كان يخلو من هذه الرموز ؛ فيروى عن المبرد أنه قال : « لما وضع أبو الأسود الدؤلى النحو ، قال : ابغوا لى رجلا ، وليكن لَقِناً ، فَطُلب الرجل ، فلم يوجد إلا فى عبد القيس ، فقال أبو الأسود : إذا رأيتنى لفظت الحرف ، فضممت شفتىَّ ، فاجعل أمام الحرف نقطة ، فإذا ضممت شفتى بغنة ، فاجعل نقطتين ، فإذا رأيتنى قد كسرت شفتى ، فاجعل أسفل الحرف نقطة ، فإذا كسرت شفتى بغنّة ، فاجعل نقطتين ، فإذا رأيتنى قد فتحت شفتى ، فاجعل على الحرف نقطة ، فإذا فتحت شفتى بغنة ، فاجعل نقطتين »[١٥] .

وكانت نقط الشكل هذه ، تكتب بصبغ يخالف لون المداد ، الذى كتبت به الحروف ونقطها ، فكان ذلك يشق على الكاتب ؛ إذ كان يتحتم أن يكتب بقلمين ومدادين مختلفين ، حتى جاء الخليل بن أحمد ، فوضع الشكل الذى يكتب به حتى الآن ؛ يقول المبرد : « الشكل الذى فى الكتب من عمل الخليل ، وهو مأخوذ من صور الحروف ، فالضمة واو صغيرة الصورة فى أعلى الحرف ؛ لئلا تلتبس بالواو المكتوبة ، والكسرة ياء تحت الحرف ، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف »[١٦] .

ومع أن الخليل بن أحمد ، قد وضع هذا الشكل المريح ، فإن العلماء غَبَرُوا زماناً طويلا ، لا يجرءون على استخدامه فى ضبط النص القرآنى ، ويفضلون عليه النقط اتباعا للسلف ، ويسمون ضبط الخليل شكل الشعر ، وكل ذلك لصيانة القرآن الكريم ، عن أن يتعاوره المتعاورون بالتبديل والتغيير ؛ يقول أبو عمرو الدانى : « وترك استعمال شكل الشعر ، وهو الشكل الذى فى الكتب ، الذى اخترعه الخليل ، فى المصاحف الجامعة من الأمهات وغيرها ، أولى وأحقّ ، اقتداء بمن ابتدأ النقط من التابعين ، واتباعا للأئمة السالفين »[١٧] .

---

(١٥) المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٦ وإيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنبارى ٤٠ – ٤١

(١٦) المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٧

(١٧) المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٢٧

كل هذه العلوم وغيرها ، مما تفرع عنها ، قام أساساً لخدمة الدين الإسلامى ، ولغرض فهم القرآن الكريم ، فإذا كان القرآن يأمر بالصلاة والصيام والحج ، وهذه العبادات لها أوقات محددة ، تحكمها مسيرة الكواكب فى الفلك ، فلابد من متابعة الاهتمامات الفلكية ، التى ضرب فيها العرب بسهم وافر فى الجاهلية . وإذا كان الميراث ، وشرعيته فى الإسلام ، يقتضى معرفة بالحساب ، وإلماما بالمسائل الرياضية المختلفة ، فلا غرو إذا وجدنا هذا العلم ، ضمن العلوم ، التى اهتم بها علماء المسلمين .

وإذا كان القرآن الكريم ، يحض المسلمين على النظر فى الكون ، وآياته المتعدّدة ، فإن الاشتغال بالعلوم الطبيعية وما يتصل بها ، مما يزيد المسلم وعقيدته ثباتا ورسوخا ، حين يرى فى كل وقت ، آيات الله الباهرة ، تنطق بعظمة الخالق وقدرته . وصدق الله تعالى ، حيث يقول : « أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، ومَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ ، وأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُون » .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم ، كان محوراً لجميع الدراسات العربية ، التى قامت فى الأساس لخدمته ، ومن بينها الدراسات اللغوية ، ولولاه لاندثرت اللغة العربية الفصحى ، وأصبحت لغة أثرية ، تشبه اللاتينية ، أو السنسكريتية . وقد صدق العلامة ابن خلدون ، حين قال : « تختلف لغة العرب لعهدنا ، مع لغة مضر ، إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلنا ، حمل على ذلك الاستنباط والاستقراء ، وليس عندنا لهذا العهد ، ما يحملنا على مثل ذلك ، ويدعونا إليه »[١٨] .

★★★

---

(١٨) المقدمة ، لابن خلدون ٦١٥

الفصل الثالث
ألقاب اللهجات العربية

عرفنا فيما مضى أن اللغة العربية الفصحى ، ليست لغة قريش ، ولا لغة غيرها من القبائل العربية ، وإنما هي اختيار لا شعوري من لغة هؤلاء وهؤلاء ، حدث من احتكاك كثير من أفراد هذه القبائل ، في مواسم الحج والتجارة ، والأسواق الأدبية المختلفة ، فنتج عن هذا الاحتكاك الكبير بين القبائل ، ذلك الكيان اللغوى ، الذى عرفناه باسم اللغة الفصحى ، وهى اللغة المشتركة بين أدباء هذه القبائل جميعا ، ينظمون بها شعرهم ، ويعبرون بها عما يجيش فى صدورهم فى ساعات الجد ، كمواقف الخطابة مثلا .

ومع كل هذا ، يمكننا القول بأن لهجة قريش ، تضرب فى مميزات هذه اللغة الفصحى ، بسهم وافر ؛ إذ لم يُرْوَ لنا عن هذه اللهجة ، شيء يخالف ما نعرفه عن العربية الفصحى ، إلا القليل ، ومنه أنها لم تكن تهمز فى كلامها . وقد اختارت الفصحى ظاهرة الهمز ، من اللهجات النجدية كلهجة تميم وغيرها .

ولذلك لا نعجب ، حين نرى بعض اللغويين العرب ، يجعل العربية الفصحى مرادفة للهجة قريش ؛ فيقول ابن فارس مثلا : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم ، أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جل ثناؤه ، اختارهم من جميع العرب ، واصطفاهم واختار منهم نبى الرحمة محمدا ﷺ ، فجعل قريشا قُطّان حرمه ، وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب ، من حجاجها وغيرهم ، يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون

إلى قريش فى أمورهم ... وكانت قريش مع فصاحتها ، وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب ، تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات ، إلى نحائزهم وسلائقهم ، التى طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب »[١] .

كما يروى السيوطى عن الفراء أنه قال : « كانت العرب تحضر الموسم فى كل عام ، وتحج البيت فى الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات جميع العرب ، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغاتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ »[٢] .

وقد درج اللغويون العرب ، على تلقيب كثير من اللهجات العربية ، بلقب يدور فى مؤلفاتهم ، ويحاولون شرح تلك الألقاب ، فيغمض بعضهم ، ويختلفون فيما بينهم فى عزو هذا اللقب أو ذاك ، إلى هذه القبيلة أو تلك .

وأغلب الظن ، أن العرب لم تكن تعرف هذه الألقاب للهجاتها فى الجاهلية ، وأن المسئول عن تلقيب كل لهجة بلقب معين ، هو رجل من « جَرْم » لم تذكر المصادر اسمه ، وكان ذلك فى مجلس من مجالس معاوية ابن أبى سفيان . وأقدم أخبار هذا المجلس ، يرويه الجاحظ ؛ فيقول : « وقال معاوية يوما : من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن **لخلخانية الفرات** ، وتيامنوا عن **كسكسة بكر** ، ليست لهم **غمغمة قضاعة** ، ولا **طمطمانية حمير** . قال : من هم ؟ قال : قريش . قال : ممن أنت ؟ قال : من جرم . قال : اجلس[٣] » .

وتختلف المصادر بعد ذلك فى رواية الخبر ، من حيث عدد القبائل

---

(١) الصاحبى ٥٢ وعنه باختصار فى المزهر ٢١٠/١

(٢) الاقتراح ٨٣ والمزهر ٢٢١/١

(٣) البيان والتبيين ٢١٢/٣

التى ذكرت فيه ، والألقاب التى نسبت إليها ؛ فهذا ابن عبد ربه مثلا ، يروى عن الأصمعى أنه قال : « قال معاوية : أى الناس أفصح ؟ فقال رجل من السماط : يا أمير المؤمنين ، قوم ارتفعوا عن **رُتَّة العراق** ، وتياسروا عن **كسكسة بكر**[٤] ، وتيامنوا عن **شنشنة تغلب** ، ليست لهم **غمغمة قضاعة** ، ولا **طمطمانية حمير** . قال : من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين قريش . قال : صدقت ، فممن أنت ؟ قال : من جرم . قال الأصمعى : وجرم فصحى العرب[٥] » .

كما يروى الحريرى عن الأصمعى « أن معاوية قال ذات يوم لجلسائه : من أفصح الناس ؟ فقام رجل من السماط ، فقال : قوم تباعدوا عن **عنعنة تميم** ، **وتلتلة بهراء** ، **وكشكشة ربيعة** ، **وكسكسة بكر** ، وليس فيهم **غمغمة قضاعة** ، ولا **طمطمانية حمير** . فقال : من أولئك ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين[٦] » .

كما يقول أبو الحجاج البلوى : « ويروى أن معاوية قال يوما : أى الناس أفصح ؟ فقام رجل من السماط ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قوم ارتفعوا عن **فراتية العراق** ، وتياسروا عن **كسكسة بكر**[٧] ، وتيامنوا عن **عنعنة تميم** ، وليس فيهم **غمغمة قضاعة** ، ولا **طمطمانية حمير** . قال : من هم ؟ قال : قومك قريش[٨] » .

ومع اختلاف هذه الروايات السابقة ، فى عدد القبائل والألقاب ، ونسبة هذه الألقاب إلى القبائل ، فإنها تتفق جميعا فى أن قريشا هى القبيلة الفصحى ، وهى التى تباعدت عن الاتصاف بهذه الألقاب المذكورة ، فى تلك الروايات .

---

(٤) فى الأصل : « كشكشة بكر » وهو تصحيف .

(٥) العقد الفريد ٢/٤٧٥ ؛ ٣/٣٢٠

(٦) درة الغواص ١١٤ وعنها فى خزانة الأدب ٤/٥٩٦

(٧) فى الأصل : « كشكشة بكر » وهو تصحيف .

(٨) ألف باء للبلوى ٢/٤٣٢

ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا المبّرد ، الذى روى فى هذا الخبر ، أن جَرْماً – قبيلة الرجل المتحدث أمام معاوية – هى الفصحى ، ولم يرد فى روايته ذكر لقريش مطلقا ؛ فيقول : « وحدثنى من لا أحصى من أصحابنا عن الأصمعى ، عن شعبة ، عن قتادة ، قال : قال لى معاوية يوما : من أفصح الناس ؟ فقام رجل من السماط ، فقال : قوم تباعدوا عن **فراتية العراق** ، وتيامنوا عن **كشكشة تميم** ، وتياسروا عن **كسكسة بكر** ، ليس فيهم **غمغمة قضاعة** ، ولا **طمطمانية حمير** . فقال له معاوية : من أولئك ؟ فقال : قومى يا أمير المؤمنين ، فقال له معاوية : من أنت ؟ قال : أنا رجل من جرم . قال الأصمعى : وجرم من فصحاء الناس[٩] » .

ولكن من يدرى ؟ فلعلها رواية واحدة ، أصابها التحريف ، فى قوله : « **قومى** يا أمير المؤمنين » ، بدلا من : « **قومك** يا أمير المؤمنين » !

وقد روى ثعلب هذا الخبر ، ملخصا إياه مما دار فى مجلس معاوية – فيما يبدو – فقال : « ارتفعت قريش فى الفصاحة عن **عنعنة تميم** ، (**وتلتلة بهراء**) ، **وكشكشة ربيعة** ، **وكسكسة هوازن** ، **وتضجع قيس** ، **وعجرفية ضبة**[١٠] » .

ونلاحظ فى كلام ثعلب زيادة فى هذه الألقاب ، وخلافا فى نسبة بعضها إلى القبائل ، كما حدث فى الروايات السابقة تماما ، وكما هى عادة كثير من كتب اللغة والأدب ، فى عدّ هذه الألقاب وتفسيرها .

وقد جمعنا ما عثرنا عليه فى بطون الكتب اللغوية والأدبية ، ونسقناه وعرضناه على ما توصل إليه علم اللغة الحديث من نتائج ، كما عرضناه

---

(٩) الكامل للمبرد ٢٢٣/٢ وعنه فيما يبدو فى شرح المفصل لابن يعيش ٤٨/٩

(١٠) مجالس ثعلب ٨٠/١ وعنه فى سر صناعة الإعراب ٢٣٤/١ والخصائص ١١/٢ والمزهر ٢١١/١ وخزانة الأدب ٤٩٥/٤

على ما وصل إلى علمنا من خصائص اللهجات العربية الحديثة ، فى شتى البلاد العربية .

ونبادر هنا فنقول : إن نسبة هذا اللقب أو ذاك ، إلى قبيلة من القبائل ، فى أحد المراجع العربية ، ونسبته إلى قبيلة أخرى فى مرجع آخر ، لا تعنى بالضرورة أن هناك تعارضا بين المرجعين ، فى هذه النسبة ؛ إذ قد تنتشر الظاهرة اللغوية أحيانا ، بين مجموعة من القبائل ، فيروى كل لغوى ما بلغه منها ، تماما كما لو قلت الآن : إن ظاهرة الكشكشة ، موجودة فى بعض قرى محافظة الشرقية فى مصر ؛ لأننى سمعت ذلك بنفسى . وقال مؤلف آخر : إن هذه الظاهرة توجد فى جنوبى العراق والكويت ؛ لأنه سمع ذلك بنفسه هناك ، فلا تعارض بين قولى وقوله ، بل إن كل واحد منهما يكمل الآخر .

وفيما يلى نعالج هذه الألقاب ، مرتبين إياها ترتيبا هجائيا :

١ - **الاستنطاء** : روى هذا اللقب عن لهجة « سعد بن بكر ، وهذيل ، والأزد ، وقيس ، والأنصار[١١] » ، كما روى أنه « لغة أهل اليمن[١٢] » . وهو عبارة عن جعل العين الساكنة نونا ، إذا جاورت الطاء ، هكذا تقول المصادر ، غير أنها لم تمثل له إلا بمثال واحد ؛ وهو : « أنطى » بدلا من : « أعطى » .

ومن شواهده : القراءة القرآنية : « إنا أنطيناك الكوثر[١٣] » ، وحديث الدعاء : « لا مانع لما أنطيت ، ولا منطى لما منعت » ، وحديث : « اليد المنطية خير من اليد السفلى[١٤] » . ومنه قول الأعشى :

---

(١١) الاقتراح ٨٣ والمزهر ١/٢٢٢ وانظر مميزات لغات العرب ١٣

(١٢) النهاية لابن الأثير ٥/٧٦ والفائق للزمخشرى ١/٨ ولسان العرب (نطا) ٢٠/٢٠٦

(١٣) سورة الكوثر ١٠٨/١ وهى قراءة الحسن وطلحة بن مصرف . انظر تفسير القرطبى ٢٠/٢١٦

(١٤) النهاية لابن الأثير ٥/٧٦

جِيَــادُكَ فِى القَيْــظِ فِى نَعْمَــةٍ
تُصَانُ الجِــلاَلَ وَتُنْطَــى الشَّعِيَــرا[(١٥)]

وهذا الإبدال شائع فى كلمة : « أعطى » ، حتى اليوم فى العراق ، وقد سمعت ذلك من كثير من طلبتى العراقيين ، كما أنه « شائع فى لغة الأعراب بصحارى مصر[(١٦)] » .

« والتوزيع الجغرافى لمواطن النطق بالصيغة : (أنطى) قديما وحديثا ، يبين أنها كانت توجد على طرق القوافل ، من الجنوب إلى الشمال ، ومن ثم فإن احتمال انتقال هذه الصيغة من الجنوب ، أى من بلاد اليمن ، على طول طريق رحلتى الشتاء والصيف ، احتمال مقبول[(١٧)] »

والحقيقة أن « الاستنطاء » ليس ظاهرة عامة ، عند القبائل التى رُوى عنها ، فى كل عين ساكنة تجاور طاء ، كما تقول المصادر العربية ، وإنما هو خاص بكلمة : « أعطى » وحدها .

وتفسير هذه الظاهرة ، بأن العين قلبت نونا ، تفسير لا تؤيده الدراسات الصوتية الحديثة ؛ لأن العين تختلف اختلافا كبيرا ، من الناحية الصوتية ، عن النون . ومن المعروف أن الصوت لا يقلب إلى صوت آخر ، إلا إذا كان بين الصوتين نوع من القرابة الصوتية فى المخرج والصفة . وقد فطن إلى هذا اللغويون العرب أنفسهم ؛ يقول ابن جنى : « القلب فى الحروف ، إنما هو فيما تقارب منها ؛ وذلك : الدال والطاء والتاء ، والذال والظاء والثاء ، والهاء والهمزة ، والميم والنون ، وغير ذلك مما تدانت مخارجه فأما الحاء فبعيدة عن الثاء ، وبينهما تفاوت يمنع من قلب إحداهما إلى أختها[(١٨)] » .

---

(١٥) الإبدال لأبى الطيب ٣١٨/٢ وفى ديوانه ق ٤٩/١٢ ص ٩٩ : « وتعطى » !

(١٦) مميزات لغات العرب ١٣

(١٧) العربية ولهجاتها ٥١

(١٨) سر صناعة الإعراب ١٩٧/١

ولولا هذا البعد الصوتى ، لحدث الإبدال عند القبائل ، التى روى عنها الاستنطاء ، فى كلمات كثيرة ، وقعت فيها العين ساكنة قبل الطاء ؛ مثل « يَعْطب » و« مِعْطير » و« يَعْطس » و« يَعْطش » و« يَعْطل » و« يَعْطن » و« يَعْطو » ، وغير ذلك من الأمثلة .

ولكن المصادر العربية ، لم ترو لنا إلا كلمة : « أنطى » فى « أعطى » وهو ما نعرفه اليوم فى اللهجات الحديثة ، كما سبق أن عرفنا . فما السر الحقيقى إذن فى ورود هذه الكلمة عن بعض القبائل العربية ؟

إننا إذا رجعنا إلى اللغات السامية ، لنبحث فيها عن مقابلة كلمة : « أعطى » ، وجدنا فى العبرية נָתַן أى نون وتاء ونون . وفى السريانية فى المضارع ܢܬܠ مع إدغام النون الأولى فى التاء ، والنون الثانية فى لام الجر . ولعل ما حدث فى لغة هذه القبائل ، التى روى عنها الاستنطاء ، هو عملية نحت لما فى هاتين اللغتين واللغة العربية ، فأخذ فاء الفعل من العبرية والسريانية ، وبقيت عينه ولامه كما هما فى العربية . وقد حدث مثل ذلك فى كلمة : « يمامة » العربية ، فهى منحوتة من كلمة : ܝܘܢܐ السريانية ، وهى تبدأ بالياء ، وكلمة : « حمامة »فى العربية .

ويريد « رابين » أن يربط هذا الفعل : « أنطى » بالفعل הִטָּה فى العبرية ، فى عبارات مثل : הִטָּה יָדוֹ אֶל بمعنى مدّ يده إلى = أخذ ، أو يوجد علاقة بينه وبين الفعل العربى : « أمطى الظهر » ، بمعنى : أعطاه مطية ، وما يماثل ذلك فى الحبشية والأمهرية[١٩] .

ويفسر الدكتور إبراهيم السامرائى هذه الظاهرة ، تفسيراً عربيا خالصا ؛ فيقول : « وملاك الأمر فى هذه النون ، أنها لم تكن مقابلة للعين فى : أعطى ؛ وإنما جاءت من أن الفعل كان : (آتى) ، بمعنى : (أعطى) ، ثم ضعف الفعل فصار : (أتّى) بتشديد التاء . ومعلوم

---

(١٩) Ancient West Arabian, p. 32 وعنه بغير تصريح فى : العربية ولهجاتها ٥١

أن فك الإدغام فى العربية وفى غيرها من اللغات السامية ، يقتضى إبدال النون بأحد الحرفين المتجانسين ، كما نقول فى العربية : (جَنْدَلَ) ، وهى من : (جَدَّلَ) ، بتشديد الدال . وهذا كثير معروف[٢٠] » .

٢ - **التضجُّع** : يعزى هذا اللقب إلى قبيلة : « قيس » فى خبر الرجل الجرمى السابق ، فى رواية انفرد بها ثعلب ، ورواها عنه بعض من جاء بعده من اللغويين[٢١] ، ولم يفسره أو يشرح المراد به واحد منهم .

والتضجُّع فى اللغة : مصدر « تضجَّع فى الأمر ، إذا تَقَعَّدَ ولم يقم به[٢٢] » . ولعل المراد بتضجع قيس على هذا : تباطؤها أو تراخيها فى الكلام ، وتقعُّدها فيه ، كما يفهم من المعنى اللغوى لكلمة التضجّع[٢٣] .

وفى اللغة : الإضجاع فى الحركات ، بمعنى : الإمالة فيها[٢٤] ؛ وهو بهذا المعنى من اصطلاحات كتب النحو[٢٥] ، والقراءات[٢٦] . غير أن الإمالة لا تعزى فى كتب اللغة إلى « قيس » وحدها ؛ حتى يمكن تفسير « تضجع قيس » بإضجاع الحركات ، وإنما يشاركها فيه تميم وأسد ، وعامة أهل نجد[٢٧] .

---

(٢٠) دراسات فى اللغة للسامرائى ٢١٧ وانظر كذلك عنده الهامش رقم ٨ فى صفحة ٧٧

(٢١) مجالس ثعلب ١/٨٠ وعنه فى سر صناعة الإعراب ١/٢٣٤ والخصائص ٢/١١ والمزهر ١/٢١١ وخزانة الأدب ٤/٤٩٥

(٢٢) انظر : لسان العرب (ضجع) ١٠/٨٩

(٢٣) وانظر أيضا: Ch.Rabin,Ancient West Arabian 104,36 ويظن أنستاس الكرملى أن المراد بالتضجع ، هو كسر حرف المضارعة ، وهو ما يسمى كذلك بالتلتلة . انظر مقاله عن : « اللغات واللثغات » ص ٥٣٠

(٢٤) لسان العرب (ضجع) ١٠/٩٠ : « والإضجاع فى باب الحركات ، مثل الإمالة والخفض » . ولكن انظر : مفاتيح العلوم ٣٠/١٤

(٢٥) انظر شرح الأشمونى على الألفية ٤/٢٢٠ والإبدال والمعاقبة والنظائر للزجاجى ٢٧

(٢٦) انظر : النشر فى القراءات العشر ٢/٣٠ وإتحاف فضلاء البشر ٤٧

(٢٧) انظر مثلا : همع الهوامع للسيوطى ٢/٢٠٤

٣ - **التَّلتلة** : هذه الظاهرة عبارة عن كسر حرف المضارعة ؛ فيقال : أنا إِعلم ، ونحن نِعلم ، وأنت تِعلم ، وهو يِعلم ، وما إلى ذلك . وهى لقب لقبيلة : « بهراء » ، كما يذكر كثير من المصادر العربية[٢٨] . وعزاها صاحب لسان العرب ، إلى كثير من القبائل العربية ؛ فقال : وتِعلم ، بالكسر ، لغة قيس ، وتميم ، وأسد ، وربيعة ، وعامة العرب . وأما أهل الحجاز ، وقوم من أعجاز هوازن ، وأزد السراة ، وبعض هذيل ؛ فيقولون : تَعلم ، والقرآن عليها . وزعم الأخفش أن كل من ورد علينا من الأعراب ، لم يقل إلا تِعلم ، بالكسر[٢٩] » . ويقول الفراء : إن النون فى نستعين « مفتوحة فى لغة قريش ، وأسدٌ وغيرُهم يكسرها[٣٠] » .

وقد جاءت هذه الظاهرة ، فى رجز لحكيم بن مُعَيَّة الربعى ، وهو :

لَوْ قُلْتَ مَا فِى قَوْمِهَا لَمْ تِيثَمِ
يَفْضُلُها فِى حَسَبٍ ومِيسَمِ[٣١]

أى « لم تأثم » ، التى صارت بعد كسر حرف المضارعة : « تِئثم » ، وخففت الهمزة فصارت : « تيثم » ، كما فى البيت .

وقد روى ابن جنى بيتا عن أعرابى ، من بنى عُقيل ، كسر فيه الهمزة فى الفعل : « أخاف » ؛ فقال : وأنشدنى عُقيلىّ فصيح لنفسه :

فَقَوْمِــــى هُمْ تَمِيـــــمٌ يا مُمَــــارِى
وجُوثَـــةُ ما إِخَـــافُ لَهُـــمْ كِثَـــارَا

فكسر الهمزة من : إخاف[٣٢] .

---

(٢٨) مجالس ثعلب ٨١/١ وعنه فى الخصائص ١١/٢ وسر صناعة الإعراب ٢٣٥/١ ودرة الغواص ١١٤ وخزانة الأدب ٥٩٦/٤ ومميزات لغات العرب ٢١

(٢٩) لسان العرب (وقى) ٢٨٣/٢٠

(٣٠) الصاحبى لابن فارس (نشرة الشويمى) ٤٨ وفيه : « فى لغة قيس » وهو تحريف . والصواب ما فى نشرة السيد صقر ٢٨ والمزهر ٢٥٥/١ عن ابن فارس . وقد وقع رابين (Ancient,p.61) فى وهم آخر ، حين عطف « أسدا » على « قريش » فى هذا النص !

(٣١) خزانة الأدب ٣١١/٢ وتهذيب الألفاظ ٢٠٧

(٣٢) المنصف ٣٢٢/١

كما روى ابن الأنبارى بيتا للمرَّار ، كسر فيه التاء من « تعلم » ، فى قوله :

قَدْ تِعْلَمُ الخَيْلُ أيَّاماً تُطَاعِنُها
مِنْ أىِّ شِنْشِنَةٍ أنْتَ ابْنَ مَنْظُورِ

وقال بعده : « قال أبو بكر : قال أبى : أنشدنيه أبو جعفر : قد تِعْلَم ، بكسر التاء ، وقال : هى لغة بنى أسد ؛ يقولون : يِعلم وإِعلم ونِعلم . ومثله كثير(٣٣) » .

وهذه الظاهرة سامية قديمة ، توجد فى العبرية(٣٤) ، والسريانية(٣٥) ، والحبشية(٣٦) . والفتح فى أحرف المضارعة ، حادث فى رأيى ، فى العربية القديمة ؛ بدليل عدم وجوده فى اللغات السامية الأخرى ، وبدليل ما بقى من الكسر فى بعض اللهجات العربية القديمة .

وهناك دليل ثالث ، على أصالة الكسر فى حروف المضارعة ، وهو استمراره حتى الآن فى اللهجات العربية الحديثة كلها ؛ إذ نقول مثلا : « مين يقرا ومين يسمع » بكسر حرف المضارعة ، فى لغة التخاطب اليومية . ولم يبق فتح حرف المضارعة فى اللهجات الحديثة ، فيما أعلم ، إلا فى لهجة نجد ، إذا كانت فاء المضارع ساكنة ، مثل : يَرْمى ، ويَلْعب ، ويَرْكض . ولا يكسر حرف المضارعة ، فى هذه اللهجة ، إلا إذا كان ما بعده متحركاً ؛ مثل يِسُوق ، ويِسَابق ، ويِلاَكم ، ويِهَاوش ، وغير ذلك .

وقد بقيت بعض آثار هذا القديم ، فى العربية الفصحى نفسها ، فى بعض الأمثلة ؛ إذ يكسر فى الفصحى حرف المضارعة فى : « إِخال »

---

(٣٣) المفضليات ٢٠

(٣٤) انظر : Gesenius, Hebräische Grammatik, S.133

(٣٥) انظر : Brockelmann, Syrische Grammatik, S.85

(٣٦) انظر : Praetorius, Aethiopische Grammatik, S.48

بمعنى : « أظن » فى كثير من النصوص التى وصلت إلينا . ومن شواهده قول أبى ذؤيب الهذلى :

فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بعَيْشٍ ناصِبٍ
وإِخَالُ أَنِّى لاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ[٣٧]

وقول العباس بن مِرْداس :

قَدْ كَانَ قومُكَ يَحْسَبُونَكَ سَيِّداً
وإِخَالُ أَنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ[٣٨]

وقول زهير بن أبى سُلمى :

وَمَا أدْرِى وسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِى
أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ[٣٩]

وقول كعب بن زهير :

أَرْجُو وَآمَلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتُها
وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكِ تَنْوِيلُ[٤٠]

وهذا ما أسميه أنا : « الركام اللغوى للظواهر المندثرة فى اللغة[٤١] » . ومعناه أن الظاهرة اللغوية ، قبل أن تموت ، قد تبقى منها أمثلة ، تعين على معرفة الأصل .

٤ – **الرُّتَّة** : لم يرد هذا اللقب ، فى خبر الرجل الجرمى ، إلا فى رواية العقد الفريد ، وهو فيه منسوب إلى العراق .

والرُّتّة فى معاجم اللغة[٤٢] ، تطلق على أحد أمرين ؛ أحدهما عام ، وهو : « عجلة فى الكلام وقلّة أناة » . والثانى : عيب من عيوب النطق وأمراض الكلام ، وهو : « أن يقلب المتكلم اللام ياء » ، وهو أمر فردى

---

(٣٧) ديوان الهذليين ١/٨ والمنصف لابن جنى ١/٣٢٢

(٣٨) ديوانه ق ٣٨/٢ ص ١٠٨ ولسان العرب (عين) ١٧/١٨٦

(٣٩) ديوانه ٧٣ ولسان العرب (قوم) ١٥/٤٠٨

(٤٠) ديوانه ٩

خاص ، لا يمكن أن يكون عاما شائعا فى لهجة كاملة ، فهو ليس إلا لُثْغة من اللُّثَغ ، التى حدثنا عنها الجاحظ ، حين قال : « وأما اللُّثغة التى تقع فى اللام ، فإن من أهلها من يجعل اللام ياء ؛ بدل قوله : (اعتللتُ) : (اعتييت) ، وبدل : (جَمَل) : (جَمَىْ) وغير ذلك[٤٣] » .

فالمقصود بالرُّتّة إذن هو : العجلة والسرعة فى الكلام . وهو بهذا يطابق بعض ما رُوِى فى تفسير « اللخلخانية » ، بأنها تقصير الحركات ، وحذف الهمزة من عبارة : « ما شاء الله كان » ، التى تصير : « مشا الله كان » ، كما سيأتى هنا .

وقد مر فى حديث الرجل الجرمى ، فى بعض الروايات عبارة : « فراتية العراق » و« لخلخانية العراق » ، بدلا من : « رُتَّة العراق » . ولعل هذه الألقاب كلها تعنى شيئا واحدا .

٥ — **الشَّنشنة** : روت المصادر هذا اللقب منسوبا إلى لغة اليمن[٤٤] . ورواه ابن عبد ربه[٤٥] لقبيلة تغلب . وهو عبارة عن جعل الكاف شينا مطلقا ، فقد سمع بعض أهل اليمن فى عرفة يقول[٤٦] : « لَبَّيْشَ اللهم لَبَّيْش » أى : لَبَّيْكَ .

ولا يزال هذا النطق شائعا فى بعض الأمثلة ، فى عامية « حضرموت » ؛ إذ يقولون : « عَلِيشْ » بدلا من : « عليك[٤٧] » .

---

(٤١) راجع مقالتنا : الركام اللغوى للظواهر المندثرة فى اللغة ، بالمجلة العربية ٢/١ ص ٥٥ — ٦٠ وكتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٧٦

(٤٢) اللسان (رتت) ٣٣٨/٢

(٤٣) البيان والتبيين ٣٥/١ وانظر كذلك ١٢/١

(٤٤) الاقتراح ٨٤ والمزهر ٢٢٢/١

(٤٥) العقد الفريد ٤٧٥/٢ ؛ ٣٢٠/٣

(٤٦) مميزات لغات العرب ١٣

(٤٧) انظر : Rabin,Ancient,P.50

وتتفق هذه الظاهرة من بعض الوجوه ، مع ظاهرة « الكشكشة » . وسوف نتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد .

٦ – **الطمطمانية** : ينسب هذا اللقب إلى طيىء والأزد ، وإلى قبائل حمير فى جنوبى الجزيرة العربية . وهو عبارة عن إبدال لام التعريف « ميما » ، فيقال مثلا : « طاب امْهَوَاءُ وصفا امْجَوُّ » ، أى طاب الهواء وصفا الجو[٤٨] .

ويروون من شواهد هذه الظاهرة « ما جاء فى الآثار ، فيما رواه النمر ابن تولب أنه ﷺ ، نطق بهذه اللغة فى قوله : ليس من امْبِرِّ امْصِيَامُ فى امْسَفَر ، يريد : ليس من البر الصيام فى السفر[٤٩] » .

ومن شواهدها قول بُجَير بن عَنَمة الطائى ، أحد بنى بَوْلان :

ذَاكَ خَلِيلِـــــي وذُو يُعَاتِبنِـــــي
يَرْمِـي وَرَائى بِامْسَهْـــمِ وَامْسَلِمَــــهْ[٥٠]

وسمع الأخفش من يقول : « قام امْرَجُلُ ، يريد : الرَجل . قال أبو العباس (ثعلب) : هذه لغة للأزد مشهورة[٥١] » .

كما وردت فى كلام قاله ذو الكلاع الحميرى : « عليك امْرَأْىُ وعلينا امْفِعَالُ[٥٢] » أى عليك الرأى وعلينا الفعال .

---

(٤٨) محاضرات الأدباء ٦٣/١ والمزهر ٢٢٣/١ وفقه اللغة للثعالبى ١٧٣ ومميزات العرب ١٢ وقد أبهمت بعض المصادر فى تعريف الطمطمانية ، كالمبرد الذى قال (فى الكامل ٢٢١/١) : « والطمطمة : أن يكون الكلام مشبها لكلام العجم » ، ونقله عنه فى العقد الفريد ٤٧٦/٢ وخزانة الأدب ٥٩٦/٤ كما قال المبرد (فى الكامل ٢٢٥/٢) مرة أخرى : « وأما الطمطمانية ، ففيها يقول عنترة :

تبرى له حولُ النعـــــام كأنها حزق يمانية لأعجم طمطـــم » .

وانظر كذلك : العقد الفريد ٤٧٧/٢ والنهاية لابن الأثير ١٣٩/٣ وشرح المفصل لابن يعيش ٤٩/٩

(٤٩) درة الغواص ١١٤ ومغنى اللبيب ٤٨/١ والصاهل والشاحج ٤٨٥

(٥٠) لسان العرب (ذو وذوات) ٣٤٧/٢٠ ومغنى اللبيب ٤٨/١ والصاهل والشاحج ٤٨٥ وانظر شعرا آخر فيه لبعض شعراء اليمن ٤٨٦

(٥١) مجالس ثعلب ٥٨/١ وقال محققه : « المعروف أنها لغة لطيىء » !

(٥٢) شرح نهج البلاغة ٩٦/٣

وقد سمع ابن دريد هذه اللهجة فى عصره باليمن ؛ فقال : « وكُبَّار فى وزن فُعَّال . وهى لغة يمانية ، أهل اليمن يسمون الرجل الكبير كُبَّاراً . وذو كُبَّار رجل منهم . وسمعت رجلا يقول : أمْ شيخُ امْ كُبَّار ضرب رأسه بالعَصَوْ ، أى بالعصا[٥٣] » .

كما سمعها الهمدانى فى أماكن مختلفة من الجزيرة العربية ؛ فقال : « سَرْوُ حمير وجعدة ، ليسوا بفصحاء ، وفى كلامهم شيء من التحمير ، ويجرون فى كلامهم ويحذفون فيقولون : يا ابنَ مْعَمّ ، فى يا ابن العَمّ[٥٤] » .

وقال كذلك : « وبلد سفيان بن أرحب فصحاء ، إلا فى مثل : أمْ رَجُلُ ، وقَيِّد بعيراك ، ورأيت أخواك . ويشركهم فى إبدال الميم من اللام فى الرجل والبعير وما أشبهه : الأشعر وعَكّ ، وبعض أهل تهامة[٥٥] » .

وفى كل هذه الأمثلة السابقة ، تستوى أل الشمسية ، وأل القمرية ، فى إبدال لامها ميما . وقيل إن هذه اللغة مختصة بالأسماء التى لا تدغم لام التعريف فى أولها ، نحو غلام وكتاب ، بخلاف رجل وناس ولباس . قال ابن هشام النحوى : « وحكى لنا بعض طلبة اليمن ، أنه سمع فى بلادهم من يقول : خذ الرمح واركب امْفَرَس ، ولعل ذلك لغة لبعضهم لا لجميعهم ؛ ألا ترى إلى البيت : (يرمى ورائى بامسهم وامسلمه) ، وأنها فى الحديث : (ليس من امبر امصيام فى امسفر) دخلت على النوعين[٥٦] » .

والتفسير الصوتى لهذه الظاهرة ، هو أن اللام والميم من فصيلة واحدة ، وهى فصيلة الأصوات المتوسطة أو المائعة Liquida وهى

---

(٥٣) جمهرة اللغة ١/٢٧٤ وفى الاشتقاق لابن دريد ٥٤ : « وقوم من أهل اليمن يسمون العصا : عصو » .

(٥٤) صفة جزيرة العرب ١٣٤

(٥٥) صفة جزيرة العرب ١٣٥

(٥٦) مغنى اللبيب ١/٤٨

مجموعة : « اللام ، والميم ، والنون ، والراء » . وهذه الأصوات يبدل بعضها من بعض كثيرا فى اللغات السامية .

ولا تزال هذه الظاهرة شائعة فى بعض جهات اليمن ، كما أن منها كلمة فى اللهجة المصرية ، وهى كلمة : « البارحة » التى ينطقها المصريون : « امبارح » !

٧ - **العجرفية** : ورد هذا اللقب فى كلام ثعلب السابق : « ارتفعت قريش فى الفصاحة ، عن عنعنة تميم (وتلتلة بهراء) وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوزان ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة[٥٧] » . وقد نسبه ثعلب كما نرى لقبيلة « ضَبَّة » ، ولم يفسره أو يشرح المراد منه ، وكذلك سكت كل من نقل هذا النص عنه[٥٨] ، فلم يتحدثوا عنه بكلمة واحدة ، فيما عدا صاحب محاضرات الأدباء ، الذى عمم فى شرحه بقوله : « والعجرفية جفاء فى الكلام[٥٩] » .

٨ - **العجعجة** : ينسب هذا اللقب إلى « قضاعة » ؛ فقد حكى الأزهرى ، عن أبى زيد أنه قال : « والعجعجة فى قضاعة ، كالعنعنة فى تميم ، يحولون الياء جيما ؛ كقوله :

المُطْعِمُونَ اللَّحْمَ بالعَشِجِّ
وبالغَداةِ كِسَرَ البَرْنِجِّ
يَقْلَعُ بالوَدِّ وبالصِّيصِجِّ[٦٠]

أراد : بالعشىِّ ، والبرنىِّ ، وبالصيصىّ[٦٠] »

ولم يقيد أبو زيد فى هذا النص « الياء » بالتشديد ، وإن كانت الياءات فى الأبيات التى استشهد بها مشددة . وقد نص على تشديد الياء

---

(٥٧) مجالس ثعلب ٨٠/١

(٥٨) سر صناعة الإعراب ٢٢٤/١ والخصائص ١١/٢ والمزهر ٢١١/١ وخزانة الأدب ٤٩٥/٤

(٥٩) محاضرات الأدباء ٦٣/١

(٦٠) تهذيب اللغة ٦٨/١ وانظر : الإبدال لأبى الطيب ٢٥٧/١ وشرح المفصل لابن يعيش ٥٠/١٠

السيوطى ؛ فقال : « ومن ذلك : العجعجة فى لغة قضاعة ، يجعلون الياء المشددة ، جيما يقولون فى تميمىّ : تميمجّ[٦١] » .

غير أن الباحث فى كتب اللغة ، يعثر على أمثلة كثيرة ، أبدلت فيها الياء المخففة جيما ؛ يقول ثعلب : « أبدلت من الياء الجيم فى التشديد ؛ لقرب مخرجها ، ولا بأس أن تجىء فى الياء المخففة ؛ مثل : حجتى . وأنشد :

يارَبِّ إنْ كُنْتَ قَبِلْتَ حَجَّتج
فَلَا يَزَالُ شَاحِج يأتيكَ بِجْ[٦٢] »

وزاد الفراء على هذين البيتين قوله :
أَقْمَرُ نَهَّاتٌ يُنَزِّى وَفْرَتِجْ[٦٣]

يريد هذا الراجز : حجتى ، ويأتيك بى ، وينزى وفرتى . وكلها أمثلة لياء المتكلم ، وهى ليست ياء مشددة .

وقال أبو عمرو : « وهم يقلبون الياء الخفيفة أيضا إلى الجيم . قال الفراء : وذلك فى بنى دبير ، من بنى أسد خاصة[٦٤] » .

ونص البغدادى على أن « بعض بنى سعد ، يبدلون الياء شديدة كانت أو خفيفة ، جيما فى **الوقف**[٦٥] » .

ولعل عبارة : « فى الوقف » فى هذا النص الأخير ، مما يزيل الخلاف بين هذه الآراء ؛ فمن أنواع الوقف عند العرب : الوقف بالتضعيف ، أى تشديد آخر الكلمة عند الوقف عليها ؛ فيقال مثلا : « جاء

---

(٦١) المزهر ٢٢٢/١ والاقتراح ٨٣

(٦٢) مجالس ثعلب ١١٧/١ والشعر والشعراء ١٠١/١

(٦٣) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٩ والإبدال لأبى الطيب ٢٦٠/١ وشرح المفصل ٥٠/١٠ وشرح الملوكى ٣٣١ والنوادر لأبى زيد ١٦٤

(٦٤) الإبدال لأبى الطيب ٢٦٠/١

(٦٥) شرح شواهد الشافية ٢١٢/٤

خالدّ[٦٦] » . فلعل هذه الأمثلة السابقة ، لشاعر من هؤلاء الذين يقفون بالتضعيف ؛ فيقولون : « حجتىّ » و« بىّ » و« وفرتىّ » ، حتى يمكن الحديث عن قلب الياء جيما ؛ لأن ياء المتكلم ، وهى ياء المدّ فى الأمثلة السابقة وغيرها ، ليست صوتا صامتا ، كالذى فى مثل : « يقع » مثلا ؛ وإنما هى كسرة طويلة . وقد سبقنا إلى هذه الملاحظة ، أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس ؛ فقال : « ويظهر أن الياء فيما ساقوه من أمثلة ، لم تكن فى نطق القضاعيين ياء مد ، بل كانت صوتا ساكنا ، حتى يمكن أن نتصور قلبها إلى جيم[٦٧] » .

وهذا صحيح ؛ لأن الذى يقلب إلى الصوت الصامت ، هو صوت صامت مثله ، ولم نعهد ذلك فى حركة قصيرة كانت أو طويلة .

والذى يسهل إبدال الياء جيما ، هو اتحادهما فى المخرج ، وهو الغار أو سقف الحنك الصلب ، وكونهما مجهورين ، أى تهتز معهما الأوتار الصوتية . والفارق الوحيد بينهما ، هو أن الجيم من الأصوات التى تجمع فى نطقها بين الشدة والرخاوة ، أو بعبارة أخرى بين الانفجار والاحتكاك ، أما الياء فهى من الأصوات المتوسطة ، التى فيها بعض الرخاوة ، أو بمعنى آخر تنطق بشىء من الاحتكاك .

ولهذا السبب ، لا نعجب حين نرى الصوتين ، يتبادلان فى اللهجات العربية القديمة والحديثة ؛ فهذه هى : « العجعجة » عند قضاعة ، وهى إبدال الياء جيما . وهناك عكس هذه الظاهرة ، وهو إبدال الجيم ياء ؛ فقد روى أن بنى تميم يقولون فى : « الصهريج » ، وفى جمعه : « الصهاريج » ، وهو الذى يجتمع فيه الماء : « الصهرىّ والصهارىّ[٦٨] » . كما روى عن أبى عبيدة أنه قال : « يقال : لا أفعله جَدَا

---

(٦٦) انظر : شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ٤/٢١٠

(٦٧) فى اللهجات العربية ١٢٦

(٦٨) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٩ والإبدال لأبى الطيب ١/٢٦١

الدهر ، مفتوح الأول منقوص ، فى معنى : لا أفعل ذلك يَدَ الدهر[٦٩] » ، أى لآخر الدهر ، كما روى أبو زيد أن بعض بنى تميم قال : « شيرة » للشجرة[٧٠] . وعلى ذلك أنشدت أم الهيثم :

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيكُنَّ ظِلٌّ وَلَا جَنًى
فَأَبْعَدَكُنَّ اللهُ مِنْ شِيَرَاتِ[٧١]

تريد : « شجيرات » .

وهذه الظاهرة تشيع فى عصرنا الحاضر ، فى بعض قرى جنوبى العراق ، وبعض بلدان الخليج العربى ؛ إذ يقولون فى « مسجد » مثلا : « مَسْيِد » ، وفى : « دجاج » : « ديای » ، وغير ذلك .

وتنسب ظاهرة « العجعجة » كذلك إلى بعض بنى حنظلة ؛ فقد روى عن أبى عمرو بن العلاء ، أنه قال : « قلت لرجل من بنى حنظلة : ممن أنت ؟ فقال : فقيمجّ . قال : فقلت : من أيهم ؟ فقال : مُرِّجّ ؛ يريد : فقيمى ، ومُرِّىّ[٧٢] » .

كما تنسب هذه الظاهرة كذلك إلى : « بعض بنى سعد » ، كما رأينا فى نص البغدادى السابق . ويقول سيبويه كذلك : « وأما ناس من بنى سعد ، فإنهم يبدلون الجيم مكان الياء فى الوقف ؛ لأنها خفيّة فأبدلوا من موضعها أبين الحروف ، وذلك قولهم : هذا تميمجّ ، يريدون : تميمىّ ، وهذا علجّ ، يريدون : علىّ . وسمعت بعضهم يقول : عَرَبانجّ ، يريد : عَرَبَانىّ . وحدثنى من سمعهم يقولون :

خَالِي عُوَيْفٌ وَأَبُو عَلِجِّ
المُطْعِمَانِ اللحْمَ بالعَشِجِّ

---

(٦٩) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٩ ونسب فى الإبدال لأبى الطيب ٢٦١/١ إلى اللحيانى .

(٧٠) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٩ والإبدال لأبى الطيب ٢٦١/١

(٧١) الإبدال لأبى الطيب ٢٦١/١ وكان القياس أن تقول : « ولاينى » بدلا من : « ولاجنى » !

(٧٢) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٨ ولسان العرب (حرف الجيم) ٢٦/٣ والإبدال لأبى الطيب ٢٥٩/١ وشرح المفصل لابن يعيش ٥٠/١٠ وشرح الملوكى ٣٣٠

وبالغَــداةِ فِلَــقَ البَرْنِــجِّ

يريد : بالعشىّ والبرنىّ ، فزعم أنهم أنشدوه هكذا[٧٣] » .

وقد أبدل راجزهم : « هِمْيان بن قحافة السعدى » الياء المشددة جيما ، ثم اضطر إلى تخفيف الجيم فى قوله :

يُطِيرُ عَنْهَا الوَبَرَ الصُّهابِجَا[٧٤]

يريد : « الصهابىّ » .

وزعم الفراء أنها لغة لطيىء . وأنشد :

نِعِمَّـــا وَلَـــدَتْ رَضْوَى
لِزَبَّـــانَ بْنِ كِنْـــدِجِّ
وحَـــوْصَاءَ وَرَأْلاَنَ الَّـــ
ـــذَىْ دَلَّا عَلَـــى الحَـــجِّ

أراد ابن كِندىّ ، والَّلذَىْ ، يريد : الَّلذَيْن . دلا على الحَجّ ، أى على الحَىِّ ، أى بشرفهما نبَّها على حَيِّهما[٧٥] » .

كما وردت فى حديث لعبد الله بن مسعود ، فى قوله : « فلما وضعتُ رجلى على مُذَمَّر أبى جهل ، قال : أعْلِ عَنِّجْ[٧٦] » ، أى : أعْلِ عنى ، يعنى : تَنَجَّ عنى . و« قال سليمان بن المغيرة : عَنِّجْ حجازية ، يريد : عنى[٧٧] » .

ويقيد « حفنى ناصف » الياء التى تبدل جيما ، بوقوعها بعد العين ، فيقول : « تبدل الياء الواقعة بعد عين جيما ، فى لغة قضاعة ؛

---

(٧٣) كتاب سيبويه ٣٦١/١ وانظر : الصاهل والشاحج ٦٠٠ – ٦٠١ وشرح الملوكى ٣٣٠
(٧٤) انظر : جيمية هميان بن قحافة ص ٢٠٣
(٧٥) الإبدال لأبى الطيب ٢٥٨/١
(٧٦) النهاية لابن الأثير ٢٩٤/٣
(٧٧) فعلت وأفعلت لأبى حاتم ١٩٨

فيقولون : الراعِجْ خرج مَعِجْ ، أى : الراعى خرج معى[٧٨] » . ولست أدرى من أين نقله ؟ على أن هذا القيد ، ليس له ما يبرره من الناحية الصوتية ، اللهم إلا تبرير اللقب الذى وصفت به تلك الظاهرة : « العجعجة » !

٩ – **العنعنة** : يعزى هذا اللقب إلى تميم وقيس وأسد ، ومن جاورهم ، وإن اشتهر بإضافته إلى « تميم » ، من بين هذه القبائل جميعها[٧٩] .

ويختلف اللغويون العرب ، فى تحديد المراد بهذا اللقب ؛ فأما الفراء وثعلب ، فيجعلانه خاصا بالحرف أنّ (أو أنْ) المفتوح الهمزة . وينص الفراء على ذلك صراحة ، فيقول : « لغة قريش ومن جاورهم : أن ، وتميم وقيس وأسد ، ومن جاورهم ، يجعلون ألف أنّ ، **إذا كانت مفتوحة** عينا ؛ يقولون : أشهد عَنَّك رسول الله ، فإذا كسروا رجعوا إلى الألف[٨٠] » .

ويقولون الفراء كذلك : « كما جعلوا مكان الهمزة عينا فى قوله : لِعَنَّك قائم ، وأشهد عَنَّك رسول الله ، وهى لغة فى تميم وقيس كثيرة[٨١] » .

أما ثعلب ، فإنه وإن لم ينص على ذلك صراحة ، فإن أمثلته كلها تدور حول « أنَّ » المفتوحة الهمزة ؛ إذ يقول : فأما عنعنة تميم ، فإن تميما تقول فى موضع أنَّ : عَنَّ ، تقول : ظننت عن عبد الله قائم . قال (الأصمعى) : وسمعت ذا الرمة ينشد عبد الملك :

أعَنْ تَرَسَّمْتَ من خَرقاءَ مَنْزِلةً
ماءُ الصَّبابَةِ من عَيْنَيْكَ مَسْجُومُ

---

(٧٨) مميزات لغات العرب ١٠

(٧٩) لم يضفها إلى « قيس » سوى البلوى فى قوله : « وأراد بعن أن ، وهى لغة معروفة فى قيس ، وهى التى يقال لها عنعنة قيس ، على وجه الذم لها . وقرأ قارئهم : فعسى الله عن يأتى بالفتح ، يريد : أن يأتى بالفتح » (انظر : ألف باء للبلوى ١/٤٣٢)

(٨٠) تهذيب اللغة ١/١١١

(٨١) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٤

قال : وسمعت ابن هرمة ، ينشد هارون (الرشيد) ، وكان ابن هَرْمة رُبِّى فى ديار تميم :

أَعَـــنْ تَغَـــنَّت على سَاقٍ مُطَوَّقَـــةٌ
وَرْقاءُ تَدْعُـو هَدِيـلًا فَوْقَ أَعْـوَادِ[٨٢] »

ومن ذلك أيضا قول جران العَوْد :

فما أُبْـنَ حَتَّى قُلْـنَ يالَـيْتَ عَنَّنَـا
تُرَابٌ وعَـنَّ الأَرْضَ بالنَّـاسِ تُخْسَفُ[٨٣]

وبينما يحدّد الفراء وثعلب لهذه الظاهرة (أنّ) المفتوحة ، نجد السيوطى لا يخصصها بأن وحدها ، وإنما يشترط أن تكون الهمزة مبدوءا بها فحسب ؛ يقول : « ومن ذلك العنعنة ، وهى فى كثير من العرب ، فى لغة قيس وتميم ، تجعل الهمزة المبدوء بها عينا ، فيقولون فى إنك : عِنّك ، وفى أسلم : عَسْلم ، وفى أُذُن : عُذن[٨٤] » .

ومثل هذا الاضطراب فى الرواية « ليس له من سبب ، سوى أن استقراء الرواة لأمثلة هذه الظاهرة الصوتية كان ناقصا ، وأن الأمر فى كل رواية ، لا يعدو أن يكون حكماً خاصًّا ، مبنيا على مثال خاص ، سمعه الراوى دون استقراء لباقى الحالات ، فاشتراط البدء بالهمزة ، أو أن تكون فى (أن) مفتوحة ، ليس له ما يبرره من الناحية الصوتية[٨٥] »

وأغلب الظن أن تخصيصه بأن المفتوحة ، تبرير لهذا اللقب الذى وصفت به الظاهرة : « العنعنة » . والحقيقة أن هذا الإبدال عام فى كل

---

(٨٢) مجالس ثعلب ٨١/١ وعنه فى خزانة الأدب ٤٩٥/٤ وسر صناعة الإعراب ٢٣٤/١ والخصائص ١١/٢ وانظر : الصاحبى لابن فارس ٥٣ وفقه اللغة للثعالبى ١٧٣ ودرة الغواص ١١٤ ومحاضرات الأدباء ٦٣/١ وبيت ذى الرمة فى ديوانه ق ١/٧٥ ص ٥٦٧ وبيت ابن هرمة فى ديوانه ق ١/٣٥ ص ١٠٥

(٨٣) تهذيب اللغة ١١١/١ وديوانه ٢٢ فيه : (أننا) و (أن) .!

(٨٤) الاقتراح ٨٣ والمزهر ٢٢١/١ وتابعهما على ذلك حفنى ناصف فى مميزات لغات العرب ١١

(٨٥) فى اللهجات العربية ١١٠

همزة ، عند تميم ومن جاورهم ؛ والدليل على هذا قول الخليل بن أحمد الفراهيدى : « والخَبْعُ : الخَبْءُ ، فى لغة تميم ، يجعلون بدل الهمزة عينا[٨٦] » .

وقال ابن دريد : « وخبع الرجل فى المكان ، إذا دخل فيه ، وأحسب أن هذه العين همزة ؛ لأن بنى تميم يحققون الهمزة ، فيجعلونها عينا ، فيقولون : هذا خِبَاعُنَا ، يريدون : خباؤنا[٨٧] » . كما قال المبرد : « ويقال فى معنى أسِيف : عَسِيف أيضا[٨٨] » ، والأسيف هو : الأجير .

وإبدال الهمزة عينا هنا ، نوع من المبالغة فى تحقيق الهمز ، كما يستفاد من نص ابن دريد ، وذلك على طريقة نطق بعض أهالى صعيد مصر : « لَعْ » فى : « لأ » مثلا . وأهل النوبة والسودانيون ، يقع فى كلامهم هذا الإبدال كثيرا فى أيامنا هذه ؛ فقد سمعت بعضهم يقولون مثلا : « فلان سَعَل عليك » يعنى : « سأل »

وقد رويت لنا فى العربية القديمة ، أمثلة كثيرة ، لانقلاب الهمزة عينا ، وأغلب الظن أنها من عنعنة تميم كذلك ؛ مثل قولهم : « صَبَأْت على القوم ، وصَبَعْت عليهم ، وهو أن تدخل عليهم غيرهم » ، وقولهم : « انجأفت النخلة وانجعفت ، إذا انقلعت من أصلها » ، وقولهم : « الأُسن : قديم الشحم ، وبعضهم يقول : العُسن[٨٩] » ، وغير ذلك .

١٠ - **الغمغمة** : ينسب هذا اللقب إلى « قضاعة » ، وهو من الألقاب التى أبهم اللغويون العرب فى تحديدها ؛ فقالوا فى تعريفه كلاما عاما لا يفيدنا ؛ يقول المبرّد ، وهو يشرح كلام الرجل الجرمى السابق أمام معاوية : « والغمغمة أن تسمع الصوت ولا يتبين لك تقطيع

---

(٨٦) العين للخليل بن أحمد ١/ ١٤٠

(٨٧) جمهرة اللغة ١/ ٢٣٧ وانظر أمثلة أخرى فى جمهرة اللغة ٣/ ٧٦

(٨٨) الكامل للمبرد ١/ ٢٥

(٨٩) انظر : الإبدال لأبى الطيب ٢/ ٥٥٥ وما بعدها .

الحروف [٩٠] » . ويقول الحريرى وأما غمغمة قضاعة ، فصوت لا يفهم تقطيع حروفه [٩١] . ويقول ابن يعيش : « والغمغمة أن لا يتبين الكلام . وأصله أصوات الثيران عند الذعر ، وأصوات الأبطال عند القتال[٩٢] » .

وفى النفس شىء من هذا اللقب ، وأكاد أميل إلى أنه تحريف قديم لكلمة : « عجعجة قضاعة » ، وقع فيه الجاحظ ، ومن جاءوا بعده ، ممن رووا خبر الرجل الجرمى أمام معاوية ، وحاولوا تفسيره !

وقد قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، فى دورته الخامسة والأربعين (١٩٧٩ م) بناء على اقتراح منى فى « لجنة اللهجات » به ، حذف هذا اللقب من ألقاب اللهجات العربية . ونص القرار هو : « لعل الغمغمة المنسوبة لقضاعة ، هى عجعجة قضاعة عينها ، أصابها التحريف ، فى خبر الرجل الجرمى . وبناء على ذلك تحذف الغمغمة ، من ألقاب اللهجات ، بحيث لا ينسب لقضاعة إلا العجعجة[٩٣] » .

١١ – **الفحفحة** : ينسب هذا اللقب إلى قبيلة هذيل ، باتفاق جميع اللغويين ، وهم يقولون : إنه عبارة عن قلب الحاء عينا[٩٤] . وقد قرىء به فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى : « حَتَّى حِين[٩٥] » ؛ يقول ابن جنى : « روى عن عمر أنه سمع رجلًا يقرأ : (عتى حين) ، فقال : من أقرأك ؟ قال : ابن مسعود ، فكتب إليه : إن الله عز وجل أنزل هذا القرآن ، فجعله عربيا ، وأنزله بلغة قريش ، فأقرىء الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام[٩٦] » .

---

(٩٠) الكامل للمبرد ٢٢١/٢ وعنه فى العقد الفريد ٤٧٦/٢ وخزانة الأدب ٥٩٦/٤

(٩١) درة الغواص للحريرى ١١٥

(٩٢) شرح المفصل لابن يعيش ٤٩/٩

(٩٣) انظر : مجموعة المصطلحات – المجلد ٢١ (١٩٧٩ م) ص ١٤٢

(٩٤) الاقتراح ٨٣ والمزهر ٢٢٢/١ ومميزات لغات العرب ١١

(٩٥) سورة يوسف ٣٥/١٢

(٩٦) المحتسب ٣٤٣/١ وانظر : إيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنبارى ١٣

ويبدو من هذه الرواية ، إن صحت ، أن هذه الظاهرة لم تكن عامة فى كل « حاء » عند قبيلة هذيل[٩٧] ؛ إذ لم تقلب الحاء عينا فى كلمة : (حين) المجاورة لكلمة : (حتى) فى الآية القرآنية ، أى أن هذا الإبدال خاص بكلمة : (حتى) . ومما يقوى هذا الظن قول أبى عبيدة : « قوم يحولون حاء حتى ، فيجعلونها عينا ؛ كقولك : قم عتى آتيك[٩٨] » . وقال أبو الطيب اللغوى : « ويقال : اصبر حَتّى آتيك ، وعتّى آتيك[٩٩] » .

وهذا يذكّر بما يقابل كلمة : « حتى » فى العبرية والآرامية ؛ فهى فى الأولى עַד وفى الثانية ܥܕ أى : العين والدال ، أى أنه كما جهرت الحاء فى لغة هذيل ، فأصبحت عينا ، فإن هذا هو ما حدث فى هاتين اللغتين ، وزاد الأمر فيهما أن تماثلت التاء مع العين ، فجهرت هى الأخرى ، فصارت دالا .

ويرى « رابين[١٠٠] » أن (عتى) فى لغة هذيل ، منحوتة من : (حتى) العربية ، و(عد) أو (عدى) التى توجد فى السبئية كذلك .

١٢ — **الفراتية** : ورد هذا اللقب ، فى بعض روايات خبر الرجل الجرمى ، بدلا من : « رُتّة العراق » و« لخلخانية العراق » . ولم يتحدث عنه سوى ابن يعيش ، الذى قال : « والفراتية : لغة أهل الفرات ، الذى هو نهر أهل الكوفة . والفراتان : الفرات ودجيل[١٠١] » .

ولعل المقصود بهذا اللقب ، هو نفسه المقصود من : « الرُّتّة » و« اللخلخانية » من السرعة فى الكلام ، وما يترتب على ذلك من سقوط الحروف ، وتقصير الحركات !

---

(٩٧) لست أدرى من أين نقل حفنى ناصف (مميزات لغات العرب ١١) عن هذيل أنها كانت تقول : « اللعم الأعمر أعسن من اللعم الأبيض » بدلا من : اللحم الأحمر أحسن من اللحم الأبيض ؟!

(٩٨) القلب والإبدال ، لابن السكيت ٢٣

(٩٩) الإبدال لأبى الطيب ١/٢٩٥

(١٠٠) Ancient,p.40;p.85 .

(١٠١) شرح المفصل لابن يعيش ٩/٤٩ وعنه فى خزانة الأدب ٤/٥٩٦

١٣ - **القُطعة** : هذا اللقب يعزى إلى قبيلة طيىء ، وهو عبارة عن قطع اللفظ قبل تمامه ؛ قال الخليل بن أحمد الفراهيدى : « والقُطعة فى طيىء كالعنعنة فى تميم ، وهى أن يقول : يا أبا الحَكَا ، وهو يريد : يا أبا الحَكَم ، فيقطع كلامه عن إبانة بقية الكلمة[١٠٢] » .

فالقُطعة على هذا نوع من ترخيم اللفظ ، كما نقول نحن الآن فى مصر : « يَاوَلَ » فى : « يا ولد » ، و« سَلْخِى » فى : « مساء الخير » ، وهى « لغة كثير من البلاد المصرية الآن ، كالمحلة الكبرى وما حولها ، وجزيرة بنى نصر ، وأبيار ، وكثير من مديريتى البحيرة وبنى سويف ؛ يقولون : النهار طلا ، أى طلع ، والنور ظها ، أى ظهر ، وخمدت النا ، أى النار ، وهلمّ جَرًّا[١٠٣] » . ومما يُنْبَزْ به فى بنى سويف قولهم : « العَىّ والبَىّ والبَلَا لَحْمَر » ، والمراد : العيش والبيض والبلح الأحمر !

١٤ - **الكسكسة** : يعزى هذا اللقب إلى قبيلة : « بكر[١٠٤] » ، كما يعزى إلى : « هوازن[١٠٥] » وعن الفراء أنه فى لغة « ربيعة ومُضَر[١٠٦] » . وفى القاموس المحيط أن « الكسكسة لغة لتميم لا لبكر[١٠٧] » !

واختلف اللغويون فى تحديد المقصود بالكسكسة ، فذهب المبرد إلى أن قوما من بكر ، يبدلون من الكاف سينا ، ولكن أكثر القبيلة لا يجرون هذا الإبدال على الكاف ، وإنما يتبعون كاف المؤنثة فى الوقف سينا ؛ يقول المبرد : « وأما بكر فتختلف فى الكسكسة ، فقوم منهم يبدلون من الكاف

---

(١٠٢) العين للخليل بن أحمد ١/١٥٦

(١٠٣) مميزات لغات العرب ٢٩

(١٠٤) انظر : شرح المفصل ٩/٤٩ ودرة الغواص ١١٥ والنهاية لابن الأثير ٤/١٧٤ والكامل للمبرد ٢/٢٢٣ وخزانة الأدب ٤/٥٩٦ والعقد الفريد ٢/٤٧٧ ومحاضرات الأدباء ١/٦٣ وفقه اللغة للثعالبى ١٧٣

(١٠٥) الخصائص ٢/١٢ وسر صناعة الإعراب ١/٢٣٥ وخزانة الأدب ٤/٤٩٥ وألف باء للبلوى ٢/٤٣١

(١٠٦) الاقتراح ٨٣ والمزهر ١/٢٢١ والصاحبى ٥٣ ومميزات لغات العرب ٢٨

(١٠٧) تاج العروس (كسس) ٤/٢٣٤

سينا ... وهو أقلهم ، وقوم يبينون حركة كاف المؤنث فى الوقف بالسين ، فيزيدونها بعدها ؛ فيقولون : أعطيتكِسْ[١٠٨] » .

واقتصر بعض اللغويين على القول بأن « الكسكسة » هى إبدال كاف المخاطبة سينا[١٠٩] ، كما اقتصر بعضهم على القول بأنها زيادة سين ، على كاف المخاطبة فى الوقف[١١٠] .

والأصل فى هذا قول سيبويه : « واعلم أن ناسا من العرب ، يلحقون الكاف السين ، ليبينوا كسرة التأنيث ، وإنما ألحقوا السين ؛ لأنها قد تكون من حروف الزيادة فى استفعل ؛ وذلك : أعطيتكِسْ وأُكرِمُكِسْ ، فإذا وصلوا لم يجيئوا بها ، لأن الكسرة تبين[١١١] .

كما يزعم الفراء أن « الكسكسة » عبارة عن إلحاق كاف المذكر سينا ، فى لغة ربيعة ومضر ، فرقا بين خطابى المذكر والمؤنث عند الوقف[١١٢] !

ولارتباط هذا اللقب ، بلقب « الكشكشة » ، الذى يأتى عقب هذا ، ولخلط اللغويين أحدهما بالآخر ، نعالجهما علاجا واحدا ، بعد عرض آرائهم فى « الكشكشة » فيما يلى :

١٥ - **الكشكشة** : يُعزى هذا اللقب إلى « ربيعة ومضر[١١٣] » ،

---

(١٠٨) الكامل للمبرد ٢٢٣/٢ وخزانة الأدب ٥٩٦/٤ وانظر العقد الفريد ٤٧٧/٢ والنهاية لابن الأثير ١٧٦/٤ والصاحبى ٥٣ وألف باء للبلوى ٤٣١/٢

(١٠٩) انظر : النهاية لابن الأثير ١٧٤/٤ والإبدال لأبى الطيب ٢٠٧/٢ ومحاضرات الأدباء ٦٣/١

(١١٠) الخصائص ١٢/٢ وسر صناعة الإعراب ٢١٤/١ ؛ ٢٣٥/١ وخزانة الأدب ٤٩٥/٤ وشرح المفصل لابن يعيش ٤٩/٩ ودرة الغواص ١١٥ وفقه اللغة للثعالبى ١٧٣ ومجالس ثعلب ١١٦/١

(١١١) كتاب سيبويه ٢٩٥/٢

(١١٢) الاقتراح ٨٣ والمزهر ٢٢١/١ ومميزات لغات العرب ٢٨

(١١٣) انظر : الاقتراح ٨٣ والمزهر ٢٢١/١ والخصائص ١١/٢ وسر صناعة الإعراب ٢٣٥/١ وخزانة الأدب ٤٩٥/٤ ومادة (كشش) من اللسان ٢٣٣/٨ وتاج العروس ٣٤٥/٤ ودرة الغواص للحريرى ١١٥ وألف باء للبلوى ٤٣١/٢

كما يُعزى إلى « بكر[١١٤] » و« بنى عمرو بن تميم[١١٥] » و« ناس من أسد[١١٦] » .

وهذه الظاهرة عند اللغويين ، عبارة عن إبدال كاف المؤنثة فى الوقف شينا ، أو إلحاقها شينا . وقد ذكر سيبويه هذين المذهبين من مذاهب العرب فى الكشكشة ، فقال : « فأما ناس كثير من تميم ، وناس من أسد ، فإنهم يجعلون مكان الكاف للمؤنث الشين ، وذلك أنهم أرادوا البيان فى الوقف ؛ لأنها ساكنة فى الوقف ، فأرادوا أن يفصلوا بين المذكر والمؤنث ، وأرادوا التحقيق والتوكيد فى الفصل ؛ لأنهم إذا فصلوا بين المذكر والمؤنث بحرف ، كان أقوى من أن يفصلوا بحركة ... وذلك قولك : إنَّشِ ذاهبة ، ومالشِ ؛ يريد : إنكِ ومالكِ ... وقوم يلحقون الشين ، ليبينوا بها الكسرة فى الوقف ، كما أبدلوا مكانها للبيان ؛ وذلك قولهم : أعطيتكِشْ ، وأكرمُكِشْ ، فإذا وصلوا تركوها[١١٧] » .

ويفهم من هذا الكلام لسيبويه ، أن الكشكشة خاصة بكاف المؤنث فى الوقف ، وإن كانت أمثلته فى إبدالها شينا ؛ وهى : « إنَّشِ ذاهبة » و« مَالَشِ ذاهبة » لا تصلح فيما يبدو إلا للوصل .

وقد أورد اللغويون بعض الشواهد ، على إبدال كاف المؤنث شينا فى الوقف ؛ منها قول رؤبة :

تضحكُ مِنِّى أنْ رَأتْنِى أَحْتَرِشْ
وَلَوْ حَرَشْتِ لكَشَفْتِ عَنْ حِرِشْ

---

(١١٤) جمهرة اللغة ١/١٥٣ وألف باء للبلوى ٢/٤٣١

(١١٥) الكامل للمبرد ٢/٢٢٣ وخزانة الأدب ٤/٥٩٤ والعقد الفريد ٢/٤٧٧ وسيبويه ٢/٢٩٥ وفقه اللغة للثعالبى ١٧٢ والنهاية لابن الأثير ٤/١٧٦ والإبدال لأبى الطيب ٢/٢٣٠ وشرح شواهد الشافية ٤/٤١٩ وشرح المفصل لابن يعيش ٩/٤٨

(١١٦) سيبويه ٢/٢٩٥ ومادة (كشش) من اللسان ٨/٢٣٣ وتاج العروس ٤/٣٤٥ وشرح المفصل لابن يعيش ٩/٤٨ والصاحبى ٥٣ وخزانة الأدب ٤/٥٩٤

(١١٧) سيبويه ٢/٢٩٥

عَنْ وَاسِعٍ يَغْرَقُ فيه القَنْفَرِشْ[١١٨]

أى عن حِرِك ، فحوّل كاف المخاطبة شينا فى الوقف ؛ لأنها فى القافية .
وكذلك قول الراجز :

هَلْ لَكِ أنْ تَنْتَفِعَـــى وأَنْتَفِـــعَشْ
فَتُدْخِلِينَ اللَّذْ مَعِى فى اللَّذْمَعَشْ[١١٩]

كما أورد المبرد قولهم للمرأة : « جعل الله البركة فى دارِشْ » ، وقولهم : « وَيْحَكِ مَالَشْ[١٢٠] » . والمثال الأخير ، تظهر فيه كافان للمؤنث ، إحداهما فى : « ويحكِ » فى الوصل ، وقد بقيت كافا ، والأخرى فى : « مالكِ » فى الوقف ، وقد قلبت شينا . وقد ذكر المبرد ذلك صراحة ؛ فقال : « والتى يدرجونها يدعونها كافا ، والتى يقفون عليها يبدلونها شينا[١٢١] » .

غير أن هناك شواهد كثيرة على قلب كاف المؤنث شينا فى الوصل كذلك ؛ منها : قول مجنون ليلى :

فَعَيْنَاشِ عَيْنَاهَا وَجِيدُشِ جِيدُهَا وَلكِنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْشِ دَقِيقُ[١٢٢]

وقول الراجز :

يا دارُ حُيِّيتِ وَمَـنْ أَلْمَـــمَ بِشْ
عَهْدِى وَمَنْ يَحْلُلْ بِوَادِيشِ يَعِشْ[١٢٣]

---

(١١٨) شرح شواهد الشافية ٤١٩/٤ والإبدال والمعاقبة للزجاجى ١٠٥ والإبدال لأبى الطيب ٢٣٠/٢ وجمهرة اللغة ٥/١ ولسان العرب (كشش) ٢٣٣/٨ وتاج العروس (كشش) ٣٤٥/٤

(١١٩) العقد الفريد ٤٧٧/٢

(١٢٠) الكامل للمبرد ٢٢٣/٢ وخزانة الأدب ٥٩٥/٤ وفى درة الغواص ١١٥ : « ويحك مابش » .

(١٢١) الكامل للمبرد ٢٢٣/٢ وخزانة الأدب ٥٩٥/٤

(١٢٢) سر صناعة الإعراب ٢١٦/١ ودرة الغواص ١١٥ وجمهرة اللغة ٥/١ والإبدال لأبى الطيب ٢٣٠/٢ ومادة (كشش) من اللسان ٢٣٣/٨ وتاج العروس ٣٤٥/٤ وشرح المفصل لابن يعيش ٤٨/٩ وألف باء للبلوى ٤٣٢/٢ ومحاضرات الأدباء ٦٣/١ والبيت بلا كشكشة فى ديوانه ق ٩/١٩٨ ص ٢٠٧

(١٢٣) الإبدال لأبى الطيب ٢٣١/٢

وقول الشاعر :

فَعَيْنَاشِ عَيْنَاهَا وَجِيدُشِ جِيدُهَا　　　وَلَوْنُشِ إِلّا أَنَّها غَيْرُ عَاطِلِ[١٢٤]

ومن شواهد القلب فى الوصل : قراءة من قرأ : « قَدْ جَعَلَ رَبُّشِ تَحْتَشِ سَرِيًّا » ، لقوله تعالى : « قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا[١٢٥] » ، وكذلك قراءة من قرأ : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاشِ وطَهَّرَشِ » لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ[١٢٦] » .

كما رووا أن أعرابية نادت جارية ، فقالت : « تعالَيْ إلى مَوْلَاشِ يناديشِ[١٢٧] » . ومن كلامهم أيضا : « إذا أعياش جاراتُشِ ، فأقبلى على ذى بَيْتِشِ[١٢٨] » .

بل لقد رووا بعض الشواهد ، التى نرى فيها ظاهرة الكشكشة ، بقلب الكاف شينا ، فى غير كاف المؤنث ، مثل قول الراجز[١٢٩] :

عَلَيَّ فيما أَبْتَغِى أَبْغِيشِ
بَيْضَاءَ تُرْضِينِى وَلا تُرضِيشِ
وتَطَّبِى وُدَّ بَنِى أَبِيشِ
إذا دَنَوْتِ جَعَلَتْ تُنْئِيشِ
وإنْ نأيتِ جَعَلَتْ تُدْنِيشِ
وإنْ تَكَلَّمْتِ حَثَتْ فى فِيشِ
حَتَّى تَنِقِّى كَنَقِيقِ الدِّيشِ

أما إلحَاق كاف المؤنثة شينا ، فلم يوردوا له شواهد من الشعر ،

---

(١٢٤) الصاحبى لابن فارس ٥٤

(١٢٥) سورة مريم ٢٤/١٩ وانظر : فقه اللغة للثعالبى ١٧٢ وشرح المفصل ٤٨/٩

(١٢٦) سورة آل عمران ٤٢/٣ . وانظر : ألف باء للبلوى ٤٣١/٢

(١٢٧) تاج العروس (كشش) ٣٤٥/٤

(١٢٨) سر صناعة الإعراب ٢١٦/١ وألف باء للبلوى ٤٣٢/٢ وشرح المفصل ٤٨/٩

(١٢٩) مجالس ثعلب ١١٦/١ وخزانة الأدب ٥٩٤/٤ وسر صناعة الإعراب ٢١٦/١ ولسان العرب (كشش) ٢٣٣/٨ وألف باء للبلوى ٤٣٢/٢ وتاج العروس (كشش) ٣٤٥/٤

أو من النثر ، وإنما اكتفوا بالتمثيل لذلك بقولهم : « فيقولون : رأيتكِشْ ، وبكِشْ ، وعليكِشْ[١٣٠] » .

والآن ، وبعد أن انتهينا من سرد الروايات الخاصة بالكسكسة والكشكشة ، فى بطون كتب اللغة والأدب فى العربية ، نلاحظ ما يلى :

١ – تعزو الروايات التى بين أيدينا ، ظاهرتى الكسكسة والكشكشة ، أحيانا إلى قبيلة واحدة ، كنسبة الفراء « الكسكسة » إلى ربيعة ومضر ، والشائع هو نسبة « الكشكشة » إليهما ، كما أنه انفرد بتفسير الكسكسة عندئذ ، بأنها « إلحاق كاف المذكر سينا » ! ولم يقل أحد غيره بمثل ذلك – كما أن ابن دريد والبلوى ، ينفردان بنسبة « الكشكشة » إلى بكر ، والشائع هو نسبة « الكسكسة » إليها . ويبدو أن المسئول عن هذا الخلط ، هو قبول الكلمة للتصحيف ، فى السين والشين !

٢ – يبدو من مجموع الروايات ، أن ظاهرتى : « الكسكسة » و « الكشكشة » تنحصران فى أمرين : إلحاق الكاف المكسورة سينا (فى الكسكسة) وشينا (الكشكشة) أو إبدالها سينا أو شينا كذلك . والظاهر أن الأمر الأول تفسير من اللغويين لما سمعوه ، ولم يستطيعوا كتابته ؛ إذ إن هذه الكاف لم تلحق بسين أو شين ، كما ظنوا، وإنما تحولت إلى صوت من الأصوات المزدوجة ، المسماة باللاتينية : Affricata ؛ فقد « وصل العلماء فى مقارنتهم اللغة السنسكريتية ، باللغتين اليونانية واللاتينية ، إلى قانون سمَّوه : (قانون الأصوات الحنكية) ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولاحظوا أن أصوات أقصى الحنك ، كالكاف والجيم الخالية من التعطيش ، تميل بمخرجها إلى نظائرها من أصوات أمامية ، حين يليها صوتُ لينٍ أمامىّ كالكسرة ؛ لأن صوت

---

(١٣٠) انظر مثلا : الاقتراح ٨٣ والمزهر ١/٢٢١ وسر صناعة الإعراب ١/٢٣٥ وخزانة الأدب ٤/٤٩٥ والخصائص ٢/١١

اللين الأمامى فى مثل هذه الحالة ، يجتذب إلى الأمام قليلا ، أصوات أقصى الحنك ، فتقلب إلى نظائرها ،من أصوات وسط الحنك[١٣١] » .

وهذا معناه أن الكاف المكسورة ، تتحول فى هذه اللهجات إلى صوت مزدوج ، هو : « تْسْ » وهذه هى الكسكسة ، أو «تْشْ » وهذه هى الكشكشة . والصوت الأول يوجد فى الألمانية فى مثل : Leipzig « ليبتسج » . والثانى يوجد فى الإنجليزية ، فى مثل : children بمعنى : « أولاد » .

ويبدو أن ابن دريد ، قد أحسّ بهذا النطق ، وإن لم تتهيأ له الدقة فى وصفه ، حين قال : « وإذا اضطر الذى هذه لغته ، قال : جيدش وغلامش ، بين الجيم والشين ، إذا لم يتهيأ له أن يفرده[١٣٢] » ! كما يقول البلوى : « ومن العرب من يلفظ بهذه الكاف ، بين الجيم والشين ، وذلك من اللغات المرغوب عنها ، لما لم يتهيأ له أن يفرد الجيم ، ولا الشين[١٣٣] » .

وما تزال هذه الكسكسة ، بتلك الصورة ، حية فى مناطق نجد من الجزيرة العربية ؛ فقد سمعتهم يقولون مثلا : (تْسِيفْ حالك ؟) فى : (كيف حالك ؟) ، كما أن الكشكشة لا تزال مسموعة فى جنوبى العراق والكويت والبحرين ، وبعض قرى محافظة الشرقية فى مصر ؛ إذ تسمعهم هناك يقولون : (تْشَلْب) فى : (كلب) مثلا .

وهذه الازدواجية ، التى حدثت للكاف العربية فى هذه اللهجات ، حدثت للجيم السامية فى العربية الفصحى[١٣٤] ، أى أن الأصل فى صوت الجيم ، هو عدم التعطيش . وقد تطور صوت الجيم فى

---

(١٣١) فى اللهجات العربية ١٢٣ وانظر : التطور اللغوى وقوانينه ١٦٣ — ١٦٤

(١٣٢) جمهرة اللغة ١/٥

(١٣٣) ألف باء للبلوى ٢/٤٣٢

(١٣٤) انظر : اللغة العبرية ، للدكتور رمضان عبد التواب ١٢٧

الفصحى ، عن نطق يشبه نطق المصريين لهذا الصوت ، فنحن نعرف من مقارنة اللغات السامية ، « أن نطق هذا الحرف الأصلى ، كان كما هو الآن فى مصر ، وكما كان ويكون فى اللغات السامية الباقية ؛ فمثلا كلمة : (جمل) فى العبرية gāmāl وفى السريانية gamlā وفى الحبشية gamal . وتاريخ هذا النطق كما يأتى : فى الابتداء تغير نطق : gīm فصار : ğīm قبل حركة الكسرة فقط ، ثم لفظت عند أهل الحجاز : ğīm إذا وقعت قبل كل الحركات ، أى الفتحة والضمة والكسرة ، وكان هذا النطق للفصحى فى زمان النبى ﷺ ، فصار نطق القرآن الشريف[١٣٥] » .

٣ – يبدو أن ظاهرتى : « الكسكسة » و « الكشكشة » كانتا مقيدتين فى الأصل بكاف مكسورة ، حتى يمكن لقانون : (الأصوات الحنكية) أن يلعب دوره . أما تقييد القدماء ذلك بكاف المؤنثة ، فهو مبنى – فيما يظهر – على استقراء ناقص ، وعندما عثروا على مثال يعارض قواعدهم ، وهو : « الدِّيش » ، فى الرجز الذى سقناه من قبل ، لجئوا فى تفسيره إلى نظرية القياس ؛ فقالوا : « شبه كاف الديك ، لكسرتها ، بكاف ضمير المؤنث[١٣٦] » . ويبدو أن « ثعلبا » قد فطن إلى ذلك ، حين تحدث فى الكشكشة والكسكسة عن « الكاف المكسورة لاغير[١٣٧] » ، ولم يقيدها بكاف المؤنث كغيره من اللغويين .

٤ – تقييد اللغويين لظاهرتى : « الكسكسة » و « الكشكشة » بالوقف ، ليس له ما يبرره من الناحية الصوتية ، حتى وإن قالوا بأن « الكسرة الدالة على التأنيث تخفى فى الوقف ، فزادوا على هذه الكاف فى الوقف شينا ، حرصاً على البيان » ؛ لأن هذا الحرص على البيان ،

---

(١٣٥) من مقالة عن اللهجات ، للمستشرق إنو ليتمان ، بمجلة كلية الآداب/جامعة القاهرة ؛ المجلد العاشر سنة ١٩٤٨ م .

(١٣٦) سر صناعة الإعراب ٢١٦/١ وانظر : مادة (كشش) من اللسان ٢٣٤/٨ والتاج ٣٤٥/٤ وألف باء للبلوى ٤٣٢/٢

(١٣٧) مجالس ثعلب ١١٦/١ وخزانة الأدب ٥٩٤/٤

سيكون فى هذه الحالة قصداً للمتكلم ، وليس ضرورة صوتية تحتمها أعضاء النطق فى الوقف . والدليل على ذلك أيضا ، تلك الشواهد الكثيرة التى ساقها اللغويون ، لهذه الظاهرة فى حالة الوصل ، وإن تحايل بعضهم على ذلك بالعلة المشهورة ، وهى : إجراء الوصل مجرى الوقف .

٥ – بقى بعد هذا ، تفسير النصف الثانى ، من ظاهرتى : « الكسكسة » و « الكشكشة » بأنها إبدال الكاف سينا (فى الكسكسة) ، وشينا (فى الكشكشة) . ومن الممكن القول بأن اللغويين القدماء ، سمعوا الازدواجية فى الكاف ، ولم يستطيعوا كتابتها بالضبط ، فدلوا عليها مرة بالكاف والشين ، ومرة أخرى بالشين وحدها ، لولا أن هذه الظاهرة لا تزال موجودة فى بعض مناطق الجزيرة العربية ، كمنطقة عسير ، التى يقول أهلها مثلا : « أبوش » و « أُمّش » فى : « أبوك » و « أمّك » .

وما الظاهرة المعروفة (بشنشنة اليمن) التى سبق ذكرها هنا ، إلا شىء من هذا ؛ فقد قالوا عنها إنها عبارة عن جعل الكاف شينا .

وتفسير ذلك سهل ؛ فإن الملاحظ فى التطور اللغوى ، أن الأصوات المزدوجة ، تميل فى تطورها ، إلى أن تنحل إلى أحد الصوتين المكونين لها ؛ وهذا هو صوت الجيم ، وهو – كما عرفنا من قبل – من الأصوات المزدوجة فى الفصحى ، نراه وهو المكون من دال مخرجها من الغار ، يعقبها شين مجهورة ، ينحل فى اللهجات العامية ، إلى أحد هذين الصوتين ؛ فمثال تطوره إلى الدال : « دشيش » فى جشيش » ، و « دَشَع » فى : « جَشَع[١٣٨] ، ومثال تطوره إلى الشين المجهورة : النطق الشامى للجيم فى الوقت الحاضر . وقد ضاع الجهر فى بعض الكلمات ، وصارت الجيم شينا مهموسة ، كالشين القديمة ؛ مثل : « فَشَر » فى : « فجر[١٣٩] » و « اشْتَرَّتْ الدابة » فى : « اجترّت[١٤٠] ». وقد روى لنا هذا

(١٣٨) تهذيب الألفاظ العامية ٦٧

(١٣٩) أصول الكلمات العامية ٢٩

(١٤٠) لحن العوام للزبيدى ٣٠٣ وتهذيب الألفاظ العامية ٦٨

التطور الأخير ، عن قبيلة تميم التى تقول : « شَرٌّ ما يُشيئك إلى مُخَّةِ عُرقوب » بمعنى : « يجيئك » . ويقول زهير بن ذؤيب العدوىّ :

فَيَــالَ تَمِيــمٍ صَابِــرُوا قَدْ أُشِئْتُــمُ
إليـــه وكُونُـــوا كالمُحَرَّبَـــةِ الـــبُسْلِ

أى : قد أُجِئْتم[١٤١] . كما قال الراجز :

إذْ ذَاكَ إِذْ حَبْلُ الوِصَالِ مُدْمَشُ[١٤٢]

أى : مدمج .

وعلى ذلك ، يمكن القول بأن الكسكسة بإبدال الكاف سينا ، والكشكشة بإبدال الكاف شينا ، ليستا إلا تطوراً على هذا الطريق من الصوتين المزدوجين : تْسْ > س ؛ تْشْ > ش .

ولكانتينو رأى غريب فى تفسير « الكسكسة »و « الكشكشة » ، بمعنى إلحاق الكاف سينا أو شينا ؛ إذ يريد إرجاعهما إلى عجعجة قضاعة ؛ فيقول : « ويبدو أنه يجب ردّ إتباع كاف المخاطبة عند الوقف بشين ، عند مضر وربيعة ، وبسين عند بنى بكر ، إلى هذه الخاصية . ومن المحتمل أنه ينبغى تفسير ذلك ، بتخيل صيغة أولى لهذه الكاف ، أى (كِى) بكسرة طويلة ، ثم تصير إلى : (كِىْ) ثم إلى : (كِجْ) ، وأخيرا إلى : (كِشْ) أو (كِسْ) ، بانتقال الجيم من الجهر إلى الهمس . وقد خلط العرب هذه الظاهرة الغريبة ، بظاهرة أخرى هى إبدال كاف المخاطبة شينا أو سينا مكسورتين ، وأطلقوا على الظاهرتين اسم : الكشكشة والكسكسة[١٤٣]» .

هذا ، ومن الخطأ البيِّن ، خلط هذه الشين ، بالشين المقتطعة

---

(١٤١) انظر : الصحاح (شيأ) ٥٩/١ ومعانى القرآن للفراء ١٦٤/٢

(١٤٢) انظر : سر صناعة الإعراب ٢١٥/١ وألف باء للبلوى ٤٣٢/٢

(١٤٣) دروس فى علم أصوات العربية ١٤٠

من كلمة : (شيء) للدلالة على النفى ، فى اللهجات العاميَة الحديثة . وقد وقع فى هذا الأستاذ عز الدين التنوخى فى قوله : « ولا تزال العامة فى فلسطين ومصر يزيدون الشين بعد الكاف ، للمذكر والمؤنث معا ، فيقولون ماأعطيتكش ، بلغة أسد وتميم[١٤٤]» .

١٦ – **اللخلخانية** : هذا لقب لم يعرف القدماء معناه على وجه التحديد ، فأطلقوا معناه إطلاقا ، وقالوا : هو اللُّكنة فى الكلام والعجمة . والمسئول عن هذا التفسير ، فيما يبدو ، هو أبو عبيد القاسم بن سلام الهروى (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) ؛ فهو يقول : « سمعت محمد بن الحسن بإسناد له لا أحفظه ، عن رجل سماه أو كنّاه ـــ أحسبه أبا الرباب – قال : كنا بموضع كذا وكذا ، فأتانا رجل فيه لخلخانية . قال أبو عبيد : اللخلخانية العجمة ؛ يقال : رجل لخلخانى ، وامرأة لخلخانية ، إذا كانا لا يفصحان . قال البعيث بن بشر :

سَيَتْرُكُها إنْ سَلَّمَ اللّهُ جَارَهَا
بَنُو اللَّخْلَخَانِيَّاتِ وَهْىَ رُتُوعُ

أراد : بنى العجميات[١٤٥]» .

وقال ابن سيدة ، بعد أن ذكر تفسير أبى عُبيد : « والتَّختخة اللُّكنة ، ورجل تختخانىّ ، وهو نحو : اللخلخانى ، إلا أن اللخلخانى الحضرى المتجهور ، المتشبه بالأعراب فى كلامه[١٤٦]» .

وباللكنة فى الكلام والعجمة ، فسر ابن الأثير : « قوم ارتفعوا عن لخلخانية العراق » فى حديث معاوية السابق ، ثم قال : « وقيل هو منسوب إلى لخلخان ، وهى قبيلة ، وقيل : موضع[١٤٧]» .

---

(١٤٤) هامش الإبدال لأبى الطيب ٢/٢٣٠ وقد تردد حفنى ناصف فى قبول مثل هذا الرأى فى كتابه : مميزات لغات العرب ٢٨

(١٤٥) غريب الحديث لأبى عبيد ٤/٤٨٨ وانظر اللسان (لخخ) ٤/٢٠

(١٤٦) المخصص ٢/١٢٣

(١٤٧) النهاية فى غريب الحديث ٤/٢٤٤ وانظر اللسان (لخخ) ٤/٢٠

وقد مَرّ فى حديث الرجل الجرمى ، فى بعض الروايات ، عبارة : « رُتّة العراق » و « فراتية العراق » وقد مر تفسيرهما هنا .

وأول من وضع للخلخانية تفسيراً محددا ، هو أبو منصور الثعالبى (المتوفى سنة ٤٢٩هـ) فقال : « اللخلخانية تعرض فى لغات أعراب الشِّحْر وعُمان ، كقولهم : مَشَا الله كان ، يريدون : ما شاء الله كان[١٤٨] » .

ولا شك أن السبب فى تقصير الحركة هنا ، هو انتقال النبر إلى المقطع الثانى فى هذه الجملة ، والحركات الطويلة تعانى التقصير ، بسبب تحول النبر عنها ، كما هو مشاهد فى تطور اللغات[١٤٩] .

١٧ — **الوتم** : يعزى هذا اللقب إلى اليمن ، وهو عبارة عن قلب السين تاء[١٥٠] . وينشد الفراء شاهدا على ذلك ، قول علباء بن أرقم :

ياقَبَّـحَ اللَّـهُ بَنـِي السِّعْـلاَةِ
عَمْـرَو بْنَ يَرْبُـوعٍ شِرَارَ النَّـاتِ
لَيْسُو أَعِفَّـاءَ وَلا أَكْيَـاتِ

يريد بالنات : الناس ، وبالأكيات : الأكياس[١٥١] .

ولو صح ما روى عنهم ، ولم يكن الداعى إليه فى هذا الرجز ، هو ضرورة إقامة القافية على حرف واحد ، كان من السهل تفسير قلب السين تاء ؛ لأنهما من الناحية الصوتية ، متناظران فى الرخاوة والشدة ، أى أنهما يتفقان فى المخرج ، وهو الأسنان واللثة ، كما يتفقان فى الهمس ، وهو عدم اهتزاز الأوتار الصوتية ، ويتفقان أخيرا فى الترقيق ، والفرق الوحيد بينهما ،

---

(١٤٨) فقه اللغة للثعالبى ١٧٣ وعنه فى المزهر ١/ ٢٢٣ ومميزات لغات العرب ٢٨ وانظر كذلك : محاضرات الأدباء ٦٣/١

(١٤٩) انظر أمثلة لذلك فى : لحن العامة والتطور اللغوى ٥٦ والتطور اللغوى وقوانينه ١٦١ - ١٦٢

(١٥٠) الاقتراح ٨٤ والمزهر ٢٢٢/١

(١٥١) القلب والإبدال لابن السكيت ٤٢

هو أن السين رخوة احتكاكية ، والتاء شديدة انفجارية . والملاحظ أن الصوتين إذا تناظرا ، أمكن قلب أحدهما إلى الآخر بسهولة ، وأمامنا التناظر بين الحاء والعين ، فى الهمس والجهر ، وما أدى إليه من حدوث ظاهرة « الفحفحة » التى عرضنا لها من قبل .

١٨ – **الوكم** : يعزى هذا اللقب إلى ربيعة وقوم من كلب[١٥٢] ، وناس من بكر بن وائل ، وهو عبارة عن كسر الكاف ، من ضمير المخاطبين المتصل : (كُم) ، إذا سبق بكسرة ، أو ياء ؛ فيقولون : « بِكِمْ » فى : « بِكُمْ » ، و « عَلَيْكِم » فى : « عليكُم » .

وتعليل هذه الظاهرة ، يخضع لقانون المماثلة بين الأصوات المتجاورة ؛ إذ تأثرت ضمة الكاف بما قبلها من كسرة أو ياء ، فقلبت كسرة ، لتنسجم مع ما قبلها .

ولم يقف المبرد على سر هذه الظاهرة ، فخطّأها بشدة حين قال : « وناس من بكر بن وائل ، يجرون الكاف مجرى الهاء ؛ إذ كانت مهموسة مثلها ، وكانت علامة إضمار كالهاء . وذلك غلط منهم فاحش ؛ لأنها لم تشبهها فى الخفاء ، الذى من أجله جاز ذلك فى الهاء ، وإنما ينبغى أن يجرى الحرف مجرى غيره ، إذا أشبهه فى علته ؛ فيقولون : مررت بِكِم[١٥٣] » .

١٩ – **الوهم** يعزى هذا اللقب إلى بنى كلب كذلك[١٥٤] . وهو عبارة عن كسر الهاء من ضمير الغائبين المتصل : (هُمْ) مطلقا ؛ فيقولون : « مِنْهِم » و « عَنْهِم » و « بَيْنَهِم » فى : (منهُم) و « عَنْهُم » و (بينهُم) .

واللغة الفصحى ، تبقى الحركة الأصلية لهذا الضمير ، وهى

---

(١٥٢) الاقتراح ٨٣ وفى المزهر ٢٢٢/١ : « وهم قوم من كلب » !
(١٥٣) المقتضب ٢٦٩/١
(١٥٤) الاقتراح ٨٣ والمزهر ٢٢٢/١

الضم ، إلا إذا وقع بعد كسرة قصيرة أو طويلة أو ياء ؛ فتقول : « بصاحبِهِم » و « قاضيهِم » و « عليهِم » فى : (بصاحبهُم) و « قاضيهُم » و « عليهُم » ؛ بسبب قانون المماثلة بين الحركات ، تماما كما حدث فى : (كُم) فى ظاهرة : « الوكْم » السابقة ، عند ربيعة وكلب وبكر بن وائل .

ولا يحدث هذا فى الفصحى ، فى ضمير الغائبين المتصل : (هُم) فحسب ، بل يحدث كذلك فى ضمير الغائب المذكر : (ـهُ) ، وضمير الغائبات : (هُنَّ) ، وضميرُ المثنى للغائبين والغائبتين : (هُما) ؛ بشرط أن تسبق هذه الضمائر جميعها ، بكسرة طويلة أو قصيرة أو ياء[١٥٥] .

أما بنو كلب ، فإنهم يطردون الباب على وتيرة واحدة ، فى الضمير : (هُم) ، فيكسرون هاءه مطلقا ، سواء سبق بكسرة أو ياء ، أم لم يسبق بواحدة منهما ؛ فهم يجرون قانون المماثلة ، فيما سبق بكسرة أو ياء كما فى الفصحى ، ويجرون القياس على ذلك ، فيما لم يستوف هذا الشرط .

وخلاصة القول فى : « الوكْم » و « الوهم » ، أن الأصل فى ضميرى الخطاب والغيبة ، ضم الكاف والهاء ؛ فى مثل : « كتابكُمْ » و « كتابهُمْ » ، غير أن قبيلة كلب ، تجرى قانون المماثلة الصوتية فى : « كُم » ، فتقلب هذه الضمة كسرة إن سبقت بكسرة أو ياء ، وهذا هو : « الوكْم » . كما أن اللغة الفصحى ، تجرى هذه المماثلة بشرطها السابق فى : « هُم » . وتعمم قبيلة كلب هذه المماثلة هنا ، فيما لم يسبق بكسرة أو ياء ، عن طريق القياس ، وهذا هو : « الوهم » عندهم .

---

(١٥٥) يروى عن الحجازيين أنهم لا يستخدمون قانون المماثلة ، فى هذه الضمائر جميعها ، فيحتفظون لذلك بالضمة الأصلية فيها ، ويقرءون : فخسفنا بهو وبدارهو الأرض . انظر المقتضب للمبرد ٣٧/١

وأخيرا ، فهناك الكثير من الأخبار ، التى رويت لنا عن خصائص أخرى للهجات العربية ؛ كاستعمال : « ذو » بمعنى (الذى) لدى طيىء ، وتثنية الفعل وجمعه ، عندما يكون الفاعل مثنى أو مجموعا ، فى لغة بلحارث بن كعب ، وهى تلك التى عرفت بلغة : « أكلونى البراغيث » ، وقلب الميم باء والباء ميما عند قبيلة مازن ، وإلزام المثنى الألف ، عند بلحارث بن كعب وخثعم وزبيد وكنانة ، والوقف على المؤنث بالتاء لا بالهاء فى لغة طيىء واليمن ... وما إلى ذلك مما تفرق هنا وهناك فى بطون كتب اللغة والأدب ، غير أننا التزمنا هنا أن نعالج تلك اللهجات التى لقبت بألقاب مختلفة ، عند اللغويين العرب .



البَابُ الثالث
بين الشعر والنثر

الفصل الأول

خصائص الكلام بين الشعر والنثر

لن نتحدث هنا ، عن اللفظة الشعرية ، وانتقاء الشاعر للكلمات ذات الجرس الموسيقى ، الذى يناسب أغراضه المختلفة ، فليست تلك الصفة من خصائص الشعر وحده ، بقدر ما هى انسجام بين المعنى واللفظ المؤدى إليه ، ويستوى فى ذلك الشعر والنثر .

ولكن الذى يهمنا هنا ، هو أن الشعر ، بما فيه من قيود الوزن والقافية ، قد تمتنع فيه أشياء تجوز فى النثر ، كما قد تؤدى ضرورة الوزن فى بعض الأحيان ، إلى ابتداع نوع من الأسلوب ، الذى لم يألفه النثر ، بل ربما قادت تلك الضرورة ، إلى توليد الصيغ والألفاظ فى أحيان أخرى .

ولهذا السبب ينادى بعض الباحثين ، بضرورة الفصل بين لغتى الشعر والنثر ، فى وضع القواعد للغة من اللغات . ويرى أستاذنا « شبيتالر » A. Spitaler أنه « من أهم الواجبات ، فصل الشعر عن النثر ، عند التحدث عن بناء الجملة ، ووضع قواعد لنظامها ؛ لأنه ما دامت أية ظاهرة نحوية معينة ، لا تعرف إلا فى الشعر ، فإنها لا تصلح ظاهرة عامة ، تنطبق على النثر كذلك ، غير أن هناك صعوبة معينة ، وهى أن بعض التعبيرات الشعرية ، قد انتقلت إلى النثر كذلك ، ولا يمكن الفصل الحاد ، بين الشعر والنثر فى ذلك [1] » .

وهناك بداية لمحاولة طيبة ، فى الفصل بين لغة الشعر ولغة النثر ،

---

(١) انظر : A.Spitaler,Arabisch,S.126,2 .

فى كتاب : « بلوخ » Alfred Bloch المسمى : « الشعر واللغة فى العربية القديمة » Vers und Sprache im Altarabischen .

فمن أمثلة ما يختص به النثر العربى ، ولا يجوز فى الشعر ، أنه يكثر فى الأول توالى ثلاثة مقاطع قصيرة ، أو أكثر ، فى كلمة واحدة ، أو فى كلمات متتالية[٢] ؛ مثل قول سلمان الفارسى ، لأحد الأساقفة ، قبل إسلامه : « فأحببت أن أكون معك وأخدُمَك فى كنيستك ، فأتعلم منك ، وأصلى معك[٣] » ، فبعض المقاطع القصيرة المتتالية فى هذه العبارة ، بلغ فى بعض الأحيان ستة مقاطع فى : (سَتِكَ فَأَتَ) ، وهذا لا يمكن أن يحدث فى الشعر ؛ إذ لا يمكن أن تتوالى فيه أكثر من ثلاثة مقاطع قصيرة ، فى أى بحر من البحور بحالٍ من الأحوال ، كما أنه لا يجوز فيه توالى ثلاثة مقاطع قصيرة ، إلا فى البحور التى تقبل فيها التفعيلة ، (مستفعلن) تقصير المقطعين الأولين فيها ؛ أو بعبارة العروضيين العرب : إذا دخلها زحاف (الخَبْل) ، وهو اجتماع : (الخَبْن) و (الطَّى) ، أى حذف الثانى الساكن ، والرابع الساكن ، فتصير على : (مُتَعِلُنْ) ؛ وذلك يكون فى بحور الرجز والسريع والبسيط والمنسرح ، ومع ذلك فهو ليس شائعا فى الحقيقة ، إلا فى الرجز .

ويمكن أن نلمس آثار عدم تقبل الشعر ، لتوالى هذا العدد من المقاطع القصيرة ، فيما يلى :

١ — لا يرد فى الشعر العربى ، الصيغ الاسمية التالية ، مضافة إلى ضمير المخاطب : فَعِل ؛ مثل : « كَتِف » ، وفَعَل ؛ مثل : « قَلَم » ، وفِعَل ؛ مثل : « قِرَب » ، وفُعُل ؛ مثل : « فُرُش » ، وفُعَل ؛ مثل : « حُجَج » ؛ فلا يرد فى الشعر مثل : كَتِفك وقَلَمك وقِرَبك وفُرُشك وحُجَجك ، وما إلى ذلك وهو جائز فى النثر .

---

(٢) انظر : A.Bloch,Vers u.Sprache,S.7,15

(٣) سيرة ابن هشام ٢١٦/١

٢ – يكثر فى الشعر العربى ، تسكين لام : « مَلْك » بدلا من تحريكها ؛ فراراً من توالى ثلاثة مقاطع قصيرة . مثال ذلك قول عمرو بن كلثوم :

إذا ما المَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً
أَبَيْنَا أَنْ يُقِرَّ الخَسْفَ فِينَا[٤]

وقول الأعشى :

فَقَالَ لِلْمَلْكِ سَرِّحْ مِنْهُمُ مِائَةً
رِسْلًا مِنَ القَوْلِ مَخْفُوضًا وَمَا رَفَعَا[٥]

وقول أبى النجم :

مِنْ مَشْيِهِ فى شَعَرٍ يُذَيِّلُهْ
تَمَشِّىَ المَلْكِ عَلَيْهِ حُلَلُهْ[٦]

٣ – يقل ورود المفرد : « رَجُل » فى الشعر ؛ مثل قول طرفة :

أَنَا الرَّجُلُ الجَعْدُ الَّذِى تَعْرِفُونَهُ
خَشَاشٌ كَرَأْسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ[٧]

ويكثر بدلا منها فى الشعر كلمة : « مَرْء » ، النادرة الورود فى النثر ، كقول عمرو بن أحمر الباهلى :

أُرَجِّى شَبَاباً مُطْرَهِمًّا وَصِحَّةً
وَكَيْفَ رَجَاءُ الْمَرْءِ مَالَيْسَ لَاقِيَا[٨]

وقول الراعى النميرى :

وَلَا تُعْجِلُ المَرْءَ قَبْلَ الوُرُو ... كِ وَهْىَ بِرُكْبَتِهِ أَبْصَرُ[٩]

---

(٤) شرح القصائد السبع ٤٢٥
(٥) ديوانه ق ٦٧/١٣ ص ١١١ وشرح القصائد السبع ٤٢٥
(٦) شرح القصائد السبع ٤٢٥
(٧) شرح القصائد السبع ٢١٢
(٨) لسان العرب (طرهم) ٣٥٥/٥
(٩) الإبل للأصمعى ١١٤

٤ – لا يرد فى الشعر مثل : « ثلاثمائة » و « أربعمائة » وما أشبه ذلك ؛ لتوالى ثلاثة مقاطع قصيرة أو أكثر فيها ، ويستعيض عنها الشعراء بعبارات مثل : « ثلاث مئين » و « أربع مئين » . وقد فر النابغة الذبيانى من عبارة : « أربَعَ لَيال » المشتملة على ثلاثة مقاطع قصيرة ، وقال بدلا من ذلك :

بَاتَتْ ثَلَاثَ لَيَــــالٍ ثُمَّ وَاحِـــــدَةً
بِذِى المَجَـازِ تُرَاعِـى مَنْـــزِلًا زِيَمَـــا[١٠]

٥ – يستعمل فى الشعر كلمة : « حِجَّة » مع العدد ، فيقال مثلا : « عشرين حجّة » ، وهو تعبير نادر فى النثر ، ويفر بذلك الشاعر من توالى ثلاثة مقاطع قصيرة ، فى عبارة : « عشرينَ سَنَة » . مثال ذلك قول لبيد :

رَعَى خَرَزَاتِ المُـلْكِ عِشْرِيـنَ حِجَّـةً
وَعِشْرِيـنَ حَتَّـى فَادَ والشَّيْبُ شَامِـلُ[١١]

وقول زهير بن أبى سلمى :

وَقَـفْتُ بها مِنْ بَعْـدِ عشْرِيـنَ حِجَّـةً
فَلَأْياً عَرَفْتُ الـــدَّارَ بَعْـــدَ تَوَهُّـــمِ[١٢]

وقوله :

بَدَا لِىَ أَنِّـى عِشْتُ تِسْعِيـنَ حِجَّـــةً
تِباعـــاً وَعَشْراً عِشْتُهَـــا وَثَمَانِيَـــــا[١٣]

وقوله :

فَغَيَّـرَ عَنْـــهُ رُشْدَ عِشْرِيـــنَ حِجَّـــةً
مِنَ الدَّهْـرِ يَوْمٌ وَاحِـدٌ كَانَ غَاوِيَـــا[١٤]

---

(١٠) ديوانه ق ١٣/١٧ ص ١٠٩
(١١) ديوانه ق ٣٦/٥٠ ص ٢٦٦
(١٢) شرح القصائد السبع ٢٤١
(١٣) ديوان زهير ص ٢٨٦
(١٤) ديوان زهير ص ٢٨٩

وقول الخِرنق أخت طرفة :

عَدَدْنَا لَهُ خَمْساً وَعِشْرِيـنَ حِجَّـةً
فَلَمَّا تَوَفَّاهَا اسْتَوَى سَيِّداً ضَخْمَا[١٥]

٦ – الشعر العربى ، لا يقبل الفعل الماضى الثلاثى الصحيح ، وبعض الناقص المسند إلى الغائب ، إذا لم يأت بعده اسم مبدوء بهمزة الوصل ؛ فلا يرد فى الشعر مثل : « كَتَبَ سَعْد » و « لَقِىَ عَدُوًّا » و « قُتِلَ فى الحرب » و « قَتَلَهم » و « ضَرَبَ كَلْباً » وما إلى ذلك .

وقد فطن كثير من قدامى اللغويين العرب ، إلى اختلاف لغة الشعر ؛ عن لغة النثر ، فى بعض الأحيان [١٦]؛ وهذا هو أبو العلاء المعرى مثلا ، يقول : « لا يزاد فى المنظوم على جمع بين أربعة أحرف متحركة ، فأما النثر فيجمع الناطق فيه بين متحركات كثيرة ؛ لأنه يقدر أن يقول : ضَرَبَ وَفَعَلَ وَصَنَعَ ... إلى أن ينقضى النفس . وأكثر ماالجتمع فى كتاب الله عز وجل ، من الحروف المتحركة ثمانية ؛ وذلك فى موضعين من سورة يوسف ؛ أحدهما: قوله تعالى : (إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً) ، فبين واو كوكب ، وياء رأيت ، ثمانية أحرف كلهن متحرك . والموضع الآخر : قوله تعالى : (حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِىَ أو يَحْكُمَ اللَّهُ لِى) ، على قراءة من حرك الياء فى : لى و أبى . ومثل هذين الموضعين : (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ[١٧]) » .

ومع ذلك ، فإن هؤلاء اللغويين ، « لم يحاولوا مطلقا الفصل بين الشعر والنثر ، فى تقعيدهم القواعد ، بل خلطوا بينهما ، فأدى مثل هذا الخلط إلى اضطراب فى بعض أحكامهم ، فليس بينهم من اقتصر

(١٥) ديوان الخرنق ص ١٩

(١٦) انظر : أبو زكريا الفراء ، لأحمد مكى الأنصارى ٣٤٥

(١٧) الصاهل والشاحج ٤٧٢

على الاستشهاد بالنثر ، فى القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والخطب والرسائل ، وكتب السير ، وغير ذلك من نثر ، صحت نسبته إلى القدماء من الفصحاء ، بل نراهم فى غالب الأحيان يعتمدون على الشواهد الشعرية ، مع قليل من آيات القرآن الكريم ، فى النادر من الأحيان ، ونراهم يكتفون فى الكثير من الأحيان ، بتلك الأمثلة التى اصطنعوها اصطناعا[١٨]



الفصل الثانى

ضرورة الشعر والخطأ فى اللغة

الضرورة الشعرية ، عند جمهور علماء العربية ، عبارة عن مخالفة المألوف من القواعد فى الشعر ، سواء أُلْجِىء الشاعر إلى ذلك بالوزن والقافية ، أم لم يُلْجَأ[1] .

وهم بهذا التعريف ، يبعدون بالضرورة الشعرية ، عن معناها اللغوى وهو « الاضطرار » ، مما يجعل قبول رأيهم هذا ضربا من إلغاء التفكير المنطقى ، والتحكم بغير دليل أو برهان ؛ فإن الضرورة الشعرية فى نظرنا ، ليست فى كثير من الأحيان ، إلا أخطاء غير شعورية فى اللغة ، وخروجا على النظام المألوف فى العربية ، شعرها ونثرها ؛ بدليل ورود الآلاف من الأمثلة الصحيحة ، فى الشعر والنثر على سواء ، غاية ما هنالك ، أن الشاعر يكون منهمكا ومشغولا بموسيقى شعره ، وأنغام قوافيه ، فيقع فى هذه الأخطاء ، عن غير شعور منه .

ويقوى رأينا هذا ما يذكره « أبو هلال العسكرى » ، حين يقول عن الضرورة : « وإنما استعملها القدماء فى أشعارهم ؛ لعدم علمهم بقباحتها ؛ ولأن بعضهم كان صاحب بداية ، والبداية مَزَلَّة ، وما كان أيضا تنقد عليهم أشعارهم ، ولو قد نقدت ، وبُهْرِج منها المعيب ، كما تنقد على شعراء هذه الأزمنة ، ويبهرج من كلامهم ، ما فيه أدنى عيب ، لتجنبوها[2]» .

---

(١) انظر فى ذلك : خزانة الأدب ٤/١ والاقتراح ١٢ والأشباه والنظائر ٢٢٤/١

(٢) الصناعتين ١٥٠

وقد عرفنا من قبل ، موقف اللغويين العرب من السليقة اللغوية ، وأنهم كانوا يرونها مرتبطة بالجنس والوراثة ؛ ولذلك كان كثير منهم ، لا يجرؤ على تخطئة الشعراء ، الذين كانوا يضطرهم وزن الشعر وموسيقاه ، إلى مخالفة النظام اللغوى ، فى بعض الأحيان ، سواء فى بنية الكلمة أم فى الإعراب .

ولم يكن كثير من هؤلاء اللغويين والنحويين ، يعترف بما يسمى : « ضرورة الشعر » ، فلم يكونوا يتصورون أن يخطىء شاعر فى هذه اللغة ؛ لأنه يتكلمها بالسليقة فى نظرهم ، فإذا وجدوا فى شعر شاعر خروجا عن المألوف فى القواعد ، راحوا يلتمسون له المعاذير والحيل ، ويتكلفون فى التأويل والتخريج ما لا يحتمل ، فإنه مثلا على الرغم من أن عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى ، قد عاب الفرزدق ، وخطأه فى قوله :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَاابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ
مِنَ المَالِ إِلَّا مُسْحَتاً أَوْ مُجَلَّفُ

فإننا نجد من النحويين المتأخرين ، من يدافع عن الفرزدق ، ويلتمس له مخرجا ، كابن الأنبارى الذى يقول : « فرفع (مجلف) على الاستئناف ، كأنه قال : أو مجلّف كذلك[٣] » .

بل إن النحاة سرعان ما غيّروا فى رواية البيت ، لكى يستقيم لهم ما يريدون ، من وجوه التأويل ؛ فقد « قيل للفراء : إن بعض الرواة يقول :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَاابْنَ مَرْوَانَ **مَابِهِ**
مِنَ المَالِ إِلَّا مُسْحَتٌ أَوْ مُجَلَّفُ

قال : ليس هذا بشىء ... حدثنى أبو جعفر الرؤاسى ، عن أبى عمرو بن العلاء ، قال : مر الفرزدق بعبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى ، فأنشده

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ
مِنَ المَالِ إلّا مُسْحَتٌ أَوْ مُجَلَّفُ

(٣) الإنصاف فى مسائل الخلاف ١٢١

فقال عبد الله للفرزدق : علام رفعت ؟ فقال له الفرزدق : على ما يسوءك ![٤] » .

كما يقول ابن جنى : « فأما قولهم : وَدَعَ الشىء يَدِع إذا سكن – فاتَّدع ، فمسموع متبع . وعليه أنشد بيت الفرزدق :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْـنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدِعْ
مِنَ المَـالِ إِلَّا مُسْحَتٌ أَوْ مُجَلَّـفُ

فمعنى : (لم يدع) ، بكسر الدال : أى لم يتّدع ولم يثبت ، والجملة بعد : (زمان) فى موضع جرٍّ ، لكونها صفة له ، والعائد منها إليه محذوف للعلم بموضعه . وتقديره : لم يَدِع فيه أو لأجله من المال ، إلا مسحت أو مجلف ، فيرتفع (مسحت) بفعله ، و (مجلف) عطف عليه [٥] » .

وعلى ما فى كلام ابن جنى من التكلف الزائد ، وبنائه على رواية مغيرة ، لم يقلها الفرزدق نفسه ، فإنه يقول بعد ذلك : « وهذا أمر ظاهر ، ليس فيه من الاعتذار والاعتلال ، ما فى الرواية الأخرى » ! وقد صدق ابن عبد ربه ، حين علق على هذا البيت بقوله : « وقد أكثر النحويون الاحتيال لهذا البيت ، ولم يأتوا فيه بشىء يُرْضَى[٦] » .

والدليل عندنا على أن الشاعر ، كان يحفل بموسيقى الشعر والقافية ، ولا يأبه بالنظام اللغوى ، دون شعور منه أحيانا ، ما قاله محمد ابن سلام الجمحى ، فى تعليقه على بيت الفرزدق ، وعبارته : « وقال أبو عمرو بن العلاء : لا أعرف له وجها . وكان يونس لا يعرف له وجها .

---

(٤) معانى القرآن للفراء ١٨٢/٢

(٥) الخصائص لابن جنى ٩٩/١ وعنه فى المحكم لابن سيدة ٢٣٧/٢

(٦) العقد الفريد ٣٦٢/٥ وانظر كذلك : الشعر والشعراء ٨٩/١

قلت : لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه . قال : لا ، كان ينشدها على الرفع ، وأنشدنيها رؤبة بن العجاج على الرفع [٧] » .

وقد رأينا من قبل ، أن ما يسمى « بالإقواء » فى الشعر ، ليس إلا خطأ فى قواعد النحو ، يقع فيه الشاعر ، لكى يحتفظ بموسيقى القافية فى شعره ، وإن كان بعض النقاد القدماء ، يرون أن الشاعر كان يخالف موسيقى القافية ، لكى يصحح النحو ، وهذا ما يسمونه « الإقواء » فى نظرهم ؛ يقول قدامة بن جعفر ، وهو يتحدث عن عيوب القافية : « ومن عيوبها الإقواء ، وهو أن يختلف إعراب القوافى ؛ فتكون قافية مرفوعة مثلا ، وأخرى مخفوضة ، وهذا فى شعر الأعراب كثير ، وفى من دون الفحول من الشعراء . قال إسحاق : قلت ليونس : عبيد الله بن الحُرّ يُقْوِى ، فقال : الإقواء خير منه . وقد ركب بعض الفحول الإقواء فى مواضع ، مثل ما قال سحيم بن وثيل الرياحى :

عَذَرْتُ البُزْلَ إنْ هِىَ خَاطَرَتْنِى
فَمَا بَالِى وَبَالُ ابْنِ اللَّبُونِ

وَمَاذا يَدَّرِى الشُّعَراء مِنِّى
وَقَدْ جاوَزْتُ رَأْسَ الأَرْبَعِينَ

فنون الأربعين مفتوحة ، ونون اللبون مكسورة ، ولكنه كأنه وقف القوافى ، فلم يحركها . وقال جرير :

عَرِينٌ مِنْ عُرَيْنَةَ لَيْسَ مِنَّا
بَرِئْتُ إلَى عُرَيْنَةَ مِنْ عَرِينِ

عَرَفْنَا جَعْفَراً وَبَنِى عُبَيْدٍ
وَأَنْكَرْنَا زَعَانِفَ آخَرِينَا [٨] » .

ويقول ابن رشيق : « وعند أكثر العلماء ، اختلاف إعراب القوافى

---

(٧) طبقات فحول الشعراء ١٩ وعنه فى الموشح ١٦٠

(٨) نقد الشعر ١٠٩

إقواء ، وهو غير جائز لمولّد ، وإنما يكون فى الضم والكسر ، ولا يكون فيه فتح . هذا قول الحامض . وقال ابن جنى : والفتح فيه قبيح جدا[٩] » .

هذا هو اتجاه بعض نقاد الشعر . أما النحويون فإنهم كانوا يرون أن الشاعر يلتزم حركة واحدة فى القافية ، ولا يخطىء مع ذلك فى النحو ، وحين تزل قدمه فى الإعراب ، يلتمسون له الحيل ؛ فيرى ابن هشام أنه يجوز كسر نون جمع المذكر السالم بعد الياء فى الشعر ، ويخرج على ذلك الشاهدين السابقين ؛ فيقول : « ونون الجمع مفتوحة ، وكسرها جائز فى الشعر بعد الياء ، كقوله : وأنكرنا زعانف آخرين ، وقوله : وقد جاوزت حد الأربعين[١٠] » .

ويرى الزمخشرى والأشمونى أنه « قد يجعل إعراب ما يجمع بالواو والنون ، فى النون . وأكثر ما يجىء ذلك فى الشعر ، ويلزم الياء إذ ذاك[١١] » ، ويخرجان على ذلك بيت سحيم السابق . وهذا معناه أن كلمة :(الأربعين) فى هذا البيت ، مضاف إليه مجرور بالكسرة فى النون . ويعقب الأشمونى على ذلك بقوله : « والصحيح أنه لا يطرد ، بل يقتصر فيـه على السماع » .

★ ★ ★

وإذا اضطر شاعر إلى تسكين بعض الكلمات ، لضرورة الوزن ، فإنه لا يعدم من النحويين ، منذ أيام سيبويه ، من يطلب له تأويلا ، ويتكلف له قياسا ؛ فإذا قال الراجز :

فَاحْـذَرْ وَلَا تَكْتَـرْ كَرِيًّـا أَهْوَجَـا
عِلْجـاً إِذَا سَاقَ بِنَـا عَفَنْجَجَـا[١٢]

---

(٩) العمدة ١/١٠٩

(١٠) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ١٤

(١١) شرح المفصل لابن يعيش ٥/١١ وشرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ١/٨٦

(١٢) شرح شواهد الشافية ٤/٢٢٥

أو إذا قال العذافر الكندى :

قَالَتْ سُلَيْمَى **اشْتَـرْ** لَنَـا دَقِيقَـا
وَهَـاتِ خُبْـزَ البُـرِّ أَوْ سَوِيقَـا[١٣]

أو إذا قال أبو نخيلة :

إِذَا اعْوَجَجْـنَ قُلْتُ **صَاحِبْ** قَوِّمِ
بِالـدَّوِّ أَمْثَـالَ السَّفِيـنِ العُـوَّمِ[١٤]

أو إذا قال امرؤ القيس :

فَالْيَـوْمَ **أَشْرَبْ** غَيْـرَ مُسْتَحْـقِبٍ
إِثْمـاً مِنَ اللَّـهِ وَلَا وَاغِـلِ[١٥]

أو إذا قال لبيد بن ربيعة :

تَرَّاكُ أَمْكِنَـةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَـا
أَوْ **يَرْتَبِطْ** بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا[١٦]

أو إذا قال الأقيشر الأسدى :

رُحْتِ وَفِـى رِجْلَـيْكِ مَا فِيهِمَـا
وَقَـدْ بَدَا **هَنْكِ** مِنَ المِئْـزَرِ[١٧]

أو إذا قال جرير :

سِيرُوا بَنِى العَمِّ فَالأَهْوَازُ مَنْزِلُكُـمْ
وَنَهْـرُ تِيـرَى فَلَا **تَعْرِفْكُـمُ** الْعَـرَبُ[١٨]

---

(١٣) شرح شواهد الشافية ٢٢٥/٤

(١٤) سيبويه ٢٩٧/٢ والخصائص ٧٥/١ وشمس العلوم ١٤٦/١ وشرح شواهد الشافية ٢٢٥/٤ ومعانى القرآن للزجاج ١٠٧/١

(١٥) ديوانه ق ١٠/١٦ ص ١٢٢ والخصائص ٧٤/١ وشمس العلوم ١٤٦/١ ومعانى القرآن للزجاج ١٠٧/١ والشعر والشعراء ٩٨/١

(١٦) ديوانه ص ٣١٣ والخصائص ٧٤/١ والوساطة ٥ والشعر والشعراء ٩٨/١

(١٧) خزانة الأدب ٢٧٩/٢ وسيبويه ٢٩٧/٢ والوساطة ٧ وينسب إلى الفرزدق فى العمدة ٢١١/٢ والشعر والشعراء ١٠٠/١ وأمالى ابن الشجرى ٣٧/٢

(١٨) الخصائص ٧٤/١

أو إذا قال نهشل بن حَرِىّ :

فَلَمَّــا **تَبَيَّــنْ** غِبَّ أَمْــرِى وَأَمْــرِهِ

وَوَلَّتْ بِأَعْجَــازِ الأُمُــورِ صُدُورُ[١٩]

أو إذا قال الراعى :

تَأْبَى قُضَاعَةُ أَنْ **تَعْرِفْ** لكُم نَسَباً

وابْنَــا نِزَارٍ فَأَنْتُــمْ بَيْضَةُ الْبَلَــدِ[٢٠]

أو إذا قال الشاعر :

وَمَــنْ **يَتَّــقْ** فَإِنَّ اللَّـــهَ مَعْـــهُ

وَرِزْقُ الَّلــهِ مُؤْتَــابٌ وَغَــادِى[٢١]

إذا سكن هؤلاء الشعراء كلمات : لا تكتر ، واشتر ، وصاحب ، وأشرب ، ويرتبط ، وهنك ، وتعرفكم ، وتبيّن ، وتعرف ، ويتّق ، لضرورة الوزن ، فإن سيبويه يرى أن ذلك شبيه بتسكين عين نحو : (فخذ) و (عضد) ، عند من يسكنها فيهما ؛ فيقول : « وقد يجوز أن يسكنوا الحرف المرفوع والمجرور فى الشعر ، شبهوا ذلك بكسرة فَخِذ ، حيث حذفوا فقالوا : فَخْذ ، وبضمة عَضُد ، حيث حذفوا فقالوا : عَضْد ؛ لأن الرفعة ضمة ، والجرة كسرة قال الشاعر :

رُحْتِ وَفِى رِجْلَيْكِ مَافِيهِمَا وَقَدْ بَدَا هَنْكِ مِنَ المِئْزَرِ

ومما يسكن فى الشعر ، وهو بمنزلة الجرّة ، إلا أن من قال : فَخْذ لم يسكن ذلك . قال الراجز :

إِذَا اعْوَجَجْــــنَ قُلْتُ صَاحِبْ قَوِّمِ

بِالــدَّوِّ أَمْثَــالَ السَّفِيــنِ العُــوَّمِ

فسألت من ينشد هذا البيت من العرب ، فزعم أنه يريد : (صاحبى).

---

(١٩) الخصائص ١/٧٤

(٢٠) الخصائص ١/٧٤

(٢١) الصاحبى ٤٨ وشمس العلوم ١/١١٠ وشرح الشافية ٢/٢٩٩ وشرح شواهد الشافية ٤/٢٢٥

وقد يسكن بعضهم فى الشعر ويشمّ . وذلك قول الشاعر (امرىء القيس) :

فَالْيَــوْمَ أَشْرَبْ غَيْــرَ مُسْتَحْــقِبٍ
إِثْماً مِنَ اللَّــهِ وَلَا وَاغِــلِ[٢٢]» .

هذا تعليل سيبويه للتسكين فى مثل هذه الأبيات ؛ لأن الشاعر عنده لا يخطىء ، ولا يضحى بالإعراب فى سبيل موسيقى الشعر ، ذلك ما لم يخطر لسيبويه على بال ؛ ولذلك راح يتأول هذا التسكين ، ويلتمس له نظيرا بين لهجات القبائل .

فإذا اعترض معترض على ذلك ، بأن (كبدا) و (فخذا) و (عضدا) وما شابهها ، كلمات كاملة ، على حين أن نظائرها فى هذه الأبيات ، عبارة عن نهاية كلمة وبداية أخرى ، فى كثير من الأحيان ؛ فإن ابن جنى يرى أن ذلك من معاملة المنفصل ، معاملة المتصل فى العربية ، فيقول : « ومن إجراء المنفصل مجرى المتصل قوله : وقد بدا هنك من المئزر ، فشبه (هَنُكْ) بعضد ، فأسكنه كما يسكن نحو ذلك . ومنه : فاليوم أشرب غير مستحقب ، كأنه شبه (رَبُغ) بعضد . وكذلك ما أنشده أبو زيد: قالت سليمى اشتر لنا دقيقا ، وهو مشبه بقولهم فى عَلِمَ : عَلْمَ ؛ لأن (تَرِلَ) بوزن : عَلِمَ . وكذلك ما أنشده من قول الراجز : فاحذر ولا تكتر كريا أعوجا ؛ لأن (تَرِكَ) بوزن : عَلِمَ[٢٣] » .

هذا هو رأى سيبويه وابن جنى . أما عبد القادر البغدادى ، فإنه يرى : « أن الشاعر سكن الراء (فى أمثال : اشتر ، ولا تكتر) ، وهى عين الفعل ، وكان حقها الكسر ، كأنه توهم أنها لام الفعل ، فسكن للأمر[٢٤]» .

(٢٢) سيبويه ٢/٢٩٧

(٢٣) الخصائص ٣/٩٥ وانظر كذلك : ٢/٣٣٩ والأشباه والنظائر ١/٢٧

(٢٤) شرح شواهد الشافية ٤/٢٢٥

ونحن نسأل « البغدادى » صاحب هذا الكلام : لماذا يحدث هذا التوهم فى الشعر ، ولا يحدث فى النثر ؟ ولماذا لا نقول إن موسيقى الشعر ووزنه ، هى التى اضطرت الشاعر إلى ترك التحريك فى المواضع السابقة ؟

ويروى عن الأصمعى ، أنه عارض سيبويه فى رأيه ، وردّ عليه شواهده ، يقول حمزة الإصفهانى : « كان سيبويه يحكى عن الخليل أنه كان يجيز إسكان حرف الإعراب ، فى الاسم المرفوع والمجرور فى الشعر ، فعارضه الأصمعى ، وقال : ما جاءنا ذلك عن ثبت نعرفه ، فأنشده سيبويه للأقيشر :

رُحْتِ وَفِى رِجْلَيْكِ مَافِيهِما ‏ ‏ ‏ وَقَدْ بَدَا هَنْكِ مِنَ المِئْزَرِ

فقال الأصمعى : ليس للأقيشر بيت نعرفه ! فأنشده :

إذَا اعْوَجَجْنَ قُلْنَ صَاحِبْ قَوِّمِ

فقال الأصمعى : ليست الرواية بصحيحة ، وإنما روايتنا : قُلْنَ صَاحِ قَوِّمِ[٢٥] » .

وقد رويت بعض هذه الأبيات السابقة ، بروايات أخرى يبدو فيها جهد الرواة ، فى محاولة إصلاح الخلل الواقع فيها ، بسبب الوزن وموسيقى الشعر ؛ فبيت امرىء القيس مثلا يروى فى بعض المصادر[٢٦] :

فَالْيَوْمَ فَاشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ ‏ ‏ ‏ إثْمـــاً مِنَ اللهِ وَلَا وَاغِـــلِ

بصيغة الأمر للمخاطب ، على حين أن امرأ القيس ، يتحدث قبل هذا البيت عن نفسه ؛ فيقول :

حَلَّتْ لِىَ الخَمْرُ وَكُنْتُ امْرءاً ‏ ‏ ‏ عَنْ شُرْبِهَا فى شُغْلٍ شَاغِلِ

ولذلك تميل النفس إلى انتظار الفعل المضارع ، فى البيت الذى

---

(٢٥) التنبيه على حدوث التصحيف ١٣٣ – ١٣٤

(٢٦) انظر مثلا : الفاخر للمفضل بن سلمة ٧٧ وإصلاح المنطق ٢٤٥ ؛ والصحاح (وغل)

بعده ، بدلا من الأمر للمخاطب ؛ ولهذا السبب ورد البيت برواية أخرى ، فطن فيها راويها ، إلى ما أشرنا إليه هنا على ما يظهر ، وهى :

فَالْيَوْمَ أُسْقَى غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْمـاً مِنَ اللهِ وَلَا وَاغِـلِ

وهى رواية المبرد والبطليوسى[٢٧] . وقد ردّ على بن حمزة على المبرد هذه الرواية ؛ فقال : « وروى المبرد بيت امرىء القيس :

فَالْيَوْمَ أُسْقَى غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْماً مِنَ اللهِ وَلَا وَاغِـلِ

ولم يقل امرؤ القيس إلا : فاليوم أشربْ . وهو ممن اشتهر به من تغييره لروايته ... والهرب مما يجىء للشاعر الفصيح فى شعره ، مما جاءت أمثلته لغيره من الفصحاء ، جهل من الهارب[٢٨] » .

ويقول ابن جنى فى ردّ رواية المبرد كذلك : « واعتراض أبى العباس فى هذا الموضع ، إنما هو ردّ للرواية ، وتحكم على السماع بالشهوة ، مجردة من النصفة ، ونفسه ظلم ، لا من جعله خصمه . وهذا واضح[٢٩] » .

وقد اشتهر المبرد ، بتغيير الروايات التى لا تعجبه ؛ فمن ذلك ما صنعه فى بيت جميل :

أَلَا لَا أَرى إِثْنَيْـنِ أَحْسَنَ شِيمَـةً
عَلَى حَدَثَـانِ الدَّهْـرِ مِنِّى وَمِـنْ جُمْـلِ

إذ لم يعجبه قطع همزة : (اثنين) لضرورة الوزن ، فغيّر الرواية ، وجعل البيت : ألا لا أرى خِلَّين ؛ لكى يخلص من هذه الضرورة ، وادّعى أن رواية : ألا لا أرى إثنين ، ليست بثبت[٣٠] .

---

(٢٧) انظر : الكامل للمبرد ٢٤٤/١ وديوان امرىء القيس (أبو الفضل) ق ١٦/١٠ ص ١٢٢ أما رواية السكرى وابن النحاس وأبى سهل والأعلم الشنتمرى ، فإنها : « فاشرب » . انظر الديوان ص ٤١٢ وفى العمدة لابن رشيق ٢١١/٢ : « ويزعم قوم أن الرواية الصحيحة فى قول امرىء القيس : فاليوم أسقى ، وبذلك كان المبرد يقول . وقال آخرون : بل خاطب نفسه ، كما يخاطب غيره ، فقال : فاليوم فاشرب » . وانظر كذلك : معانى القرآن للزجاج ١٠٨/١

(٢٨) التنبيهات على أغاليط الرواة لعلى بن حمزة ١١٦ وانظر كذلك : الشعر والشعراء لابن قتيبة ٩٨/١

(٢٩) الخصائص ٧٥/١ وانظر كذلك : خزانة الأدب ٢٧٩/٢

(٣٠) انظر : نوادر أبى زيد ٢٠٤ وتعليق البغدادى على ذلك فى : شرح شواهد الشافية ١٨٤/٤

ومما أصلحه الرواة من الشواهد السابقة كذلك ، قول أبي نخيلة :

إِذَا اْعوَجَجْنَ قُلْتُ صَاحِبْ قَوِّمِ
بِالدَّوِّ أَمْثَالَ السَّفِينِ العُوَّمِ

فقد قال فيه الأعلم الشنتمرى : « الشاهد فيه : تسكين الباء ضرورة ، وهو يريد : يا صاحبُ ، أو ياصاحبى ، تشبيها له فى حال الوصل ، به إذا كان الوقف ، وهذا من أقبح الضرورة . ومن لا يرى هذا جائزا ينشد : قلت صاحِ قوّم ، على الترخيم[٣١] » . وهو يعنى بذلك قول الأصمعى السابق ، فى رده على سيبويه[٣٢] .

كذلك توجد رواية أخرى ، لبيت لبيد بن ربيعة :

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا
أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

ففى شرح ديوان لبيد (ص ٣١٣) : « ويروى : أو يُعْتَقى ، أى يحتبس » . ولا شك أن هذه الرواية ، لم يقلها لبيد نفسه ، وإنما هى مما صنعه الرواة ؛ ليخلصوا البيت من الخطأ النحوى . ويقول شارح الديوان : « والفعل : (يرتبط) فى موضع رفع ، وجزمة أتعب النحويين فى التخريج » .

ومما يدلنا على أن الرواة كانت تصلح أشعار الشعراء ، ما روى عن الأصمعى أنه قال : « قرأت على خَلَفٍ شعر جرير ، فلما بلغت قوله :

فَيَالَكَ يَوْماً خَيْرُهُ قَبْلَ شَرِّهِ تَغَيَّبَ وَاشِيهِ وَأَقْصَرَ عَاذِلُهْ

فقال : ويله ! وما ينفعه خير يئول إلى شر ؟ قلت له : كذا قرأته على أبى عمرو . فقال لى : صدقت ، وكذا قال لى جرير ، وكان قليل التنقيح مشرد الألفاظ ، فقلت : فكيف كان يجب أن يقول ؟ قال : الأجود

---

(٣١) شرح شواهد الكتاب للأعلم الشنتمرى ٢٩٧/٢

(٣٢) ويقول نشوان الحميرى فى كتابه : شمس العلوم ١٤٦/١ : « وكان أبو العباس (المبرد) ينشده : صاح قوم ، بحذف الياء . وينشد : فاليوم فاشرب بالفاء » . والمعروف أن رواية المبرد لبيت امرىء القيس : « فاليوم أسقى » كما سبق !

لو قال : فيالك يوما خيره دون شره ، فاروه هكذا ! فقد كانت الرواة قديما تصلح أشعار القدماء . فقلت : والله لا أرويه بعدها إلا هكذا[٣٣] » .

***

ونعود مرة أخرى إلى الضرورات الشعرية ، فنقول : إن الشاعر قد يضطره الوزن أيضا إلى تحريك ما يجب إسكانه ، وعندئذ يتأوله النحويون واللغويون ؛ لأنهم لا يريدون أن يعترفوا ، بأن الشاعر قد يفعل ذلك محافظة منه على موسيقى الشعر ، وإن كان يخالف اللغة المألوفة :

ومن ذلك ما رواه أبو زيد الأنصارى[٣٤] ، من قول الشاعر :

مِنْ أيِّ يَوْمَيَّ مِنَ الْمَوْتِ أفِرّْ أيَوْمَ لَمْ يُقْدَرَ أمْ يَوْمَ قُدِرْ[٣٥]

فهو يرى أن الشاعر هنا ، فتح الراء من : (يُقْدَرَ) ، وحقها الجزم بلم ؛ لأنه أراد النون الخفيفة فحذفها ، أى أن هذا الفعل مؤكد بنون التوكيد الخفيفة ، التى حذفت وبقيت الفتحة فى الفعل دليلا عليها .

ويرى بعض النحويين جواز ذلك ، وجواز قلب هذه النون ألفا فى الوقف . وقد ضرب ابن الأنبارى على ذلك بعض الشواهد ، وهو يشرح قول امرىء القيس ، فى مطلع معلقته المشهورة :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فهو يرى أن قوله : (قفا) فيها « ثلاثة أقوال ؛ أحدهن : أن يكون خاطب رفيقين له ، وهذا مما لا نظر فيه . والقول الثانى : أن يكون خاطب رفيقاً واحداً وثَنّى ؛ لأن العرب تخاطب الواحد بخطاب الاثنين ... والقول الثالث : أن يكون أراد : (قِفَنْ) بالنون ، فأبدل الألف من النون ، وأجرى الوصل على الوقف ، وأكثر ما يكون هذا فى

---

(٣٣) انظر : نور القبس المختصر من المقتبس للمرزبانى ٧٣

(٣٤) النوادر فى اللغة ١٣

(٣٥) يروى عن على بن أبى طالب فى حماسة البحترى ٤٥ وانظر : شرح القصائد السبع ٣٤ وخزانة الأدب ٤/٥٨٩ وسر صناعة الإعراب ١/٨٥ والخصائص ٣/٢٩٤

الوقف ، وربما أجرى الوصل عليه[٣٦] » . ثم ذهب ابن الأنبارى ، يعدد الشواهد على هذا القول الأخير ؛ فقال : وأنشد الفراء :

فَمَهْمَا تَشَأْ مِنْهُ فَزَارَةُ تُعْطِكُمْ وَمَهْمَا تَشَأْ مِنْهُ فَزَارَةُ تَمْنَعَا

أراد : تَمْنَعَنْ . وأنشد الفراء :

فَإِنَّ لَكَ الأَيَّامَ رَهْنٌ بِضَرْبَةٍ
إِذَا سُبِرَتْ لَمْ تَدْرِ مَنْ أَيْنَ تُسْبَرَا

أراد : تُسْبَرَنْ . وقال عمر بن أبى ربيعة :

وقُمَيْر بَدَا ابْنَ خَمْسٍ وعِشْرِيـ
ـنَ لَهُ قَالَتِ الفَتَاتَانِ قُومَا

أراد : قُومَنْ . وأنشد الفراء :

يَحْسَبُهُ الجَاهِلُ مَالَمْ يَعْلَمَا
شَيْخاً عَلَى كُرْسِيِّهِ مُعَمَّمَا

أراد : يَعْلَمَنْ . وقال الأعشى :

وَصَلِّ عَلَى حِينِ العَشِيَّاتِ والضُّحَى
وَلَا تَحْمَدِ المُثْرِينَ واللهَ فَاحْمَدَا

وهذه الأبيات كلها فى نظرنا ضرورة ، تحتمها قافية الشاعر المفتوحة . وقد رفض ابن جنى ، وهو يعلل لفتح الراء من : (يُقْدَرَ) فى البيت الذى رواه أبو زيد فيما سبق – أن تحذف نون التوكيد ، وعلل ذلك بأن حذفها فيه « نقض الغرض ؛ إذ كان التوكيد من أماكن الإسهاب والإطناب ، والحذف من مظان الاختصار والإيجاز[٣٧] » .

ثم لا يعترف ابن جنى بعد ذلك بالضرورة ، التى ألجأت هذا الشاعر إلى نصب المجزوم ، بل يرتكب مشقة كبيرة فى التخريج والتأويل ؛ فيقول : « لكن القول فيه عندى ، أنه أراد : (أَيَوْمَ لَمْ يُقْدَرْ أَمْ يَوْمَ قُدِرْ) ، ثم خفف همزة : (أَمْ) ، فحذفها وألقى حركتها على راء : (يقدر) ، فصار

(٣٦) شرح القصائد السبع ١٧
(٣٧) الخصائص ٣/٩٥

تقديره : (أيوم لم يُقْدَرَمْ) ، ثم أشبع فتحة الراء ، فصار تقديره : (أيوم لم يُقْدَرَامْ) ، فحرك الألف لالتقاء الساكنين ، فانقلبت همزة ، فصار تقديره : (يُقْدَرَ أَمْ) ، واختار الفتحة ، إتباعا لفتحة الراء[٣٨] » .

وقد ذكر ابن جنى هذا الرأى العجيب ، بتفصيل أكثر فى كتابه : « سر صناعة الإعراب » ، وقال بعد الفراغ من عرضه : « فعلى هذا ينبغى أن يحمل عندى قوله : (أيوم لم يقدر أم يوم قدر) ويكون ارتكابك هذا الذى ، قد شاعت أمثاله عندهم ، وإن كان فيها بعض اللطف والغموض ، أسهل وأسوغ من حذفك نون التوكيد ؛ لأمرين :

أحدهما : أن ذلك لم يأت عنهم فى بيت غير هذا ، فيحمل هذا عليه . فأما ما أنشدوه من قول الآخر :

اِضْرِبَ عَنْكَ الهُمُـــومَ طَارِقَهَـــا
ضَرْبَكَ بِالسَّوْطِ قَوْنَسَ الفَـــرَسِ[٣٩]

فمدفوع مصنوع ، عند عامة أصحابنا ، ولا رواية تثبت به .

والآخر : ضعفه وسقوطه فى القياس ، وذلك أن التوكيد من مواضع الإطناب والإسهاب ، ولا يليق به الحذف والاختصار ، فإذا كان السماع والقياس جميعا ، يدفعان هذا التأويل ، وجب إلغاؤه واطراحه ، والعدول عنه إلى غيره ، مما قد كثر استعماله ، ووضح قياسه[٤٠] » .

★★★

ولا تقتصر الضرورات الشعرية ، على الإعراب وحده ، بل تمتد إلى بنية الكلمة نفسها ، فتصيبها بالتغير والتحول ، فقد تقصر الحركات الطويلة ، فى مثل قول الأسود بن يعفر :

---

(٣٨) الخصائص ٩٥/٣

(٣٩) فى النوادر لأبى زيد ١٣ : « قال أبو حاتم : أنشدنى الأخفش بيتا مصنوعا لطرفة » ثم أنشده .

(٤٠) سر صناعة الإعراب ٩٣/١

فَأَلْحَقْتُ أُخْرَاهُمْ طَرِيقَ **أُلَاهُمُ**
كَمَا قِيلَ نَجْمُ قَدْ خَوَى مُتَتَابِعُ(٤١)

وقول رؤبة :

وَصَّانِى العَجَّاجُ فِيمَا **وَصَّنِى**(٤٢)

وقول أبى عامر جد العباس بن مرداس :

سَيْفِي وَمَا كُنَّا بِنَجْدٍ وَمَا
قَرْقَرَ قُمْرُ **الوَادِ** بِالشَّاهِقِ(٤٣)

وقول الأعشى :

وَأَخُو **الغَوَانِ** مَتَى يَشَأْ يَصْرِمْنَهُ
وَيَكُنَّ أَعْدَاءً بُعَيْدَ وِدَادِ(٤٤)

وقول مُضَرِّس بن رِبْعى الأسدى :

فَطِرْتُ بِمُنْصُلِى فِي يَعْمَلَاتٍ
دَوَامِى **الأَيْدِ** يَخْبِطْنَ السَّرِيحَا(٤٥)

وقول أبى خِرَاش الهذلى :

وَلَا **أَدْرِ** مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ
خَلَا أَنَّه قَدْ سُلَّ عَنْ مَاجِدٍ مَحْضِ(٤٦)

وقول أوس بن حجر :

وَلَكِنْ أَخُوكَ **النَّاءِ** مَا كُنْتَ آمِنًا
وَصَاحِبُكَ الأَدْنَى إِذَا الأَمْرُ أَعْضَلَا(٤٧)

---

(٤١) أمالى ابن الشجرى ١٧٩/٢

(٤٢) خزانة الأدب ٦٣/١

(٤٣) انظر تخريجه فى كتابنا : التذكير والتأنيث فى اللغة ٢٧

(٤٤) شرح شواهد الشافية ٤٨١/٤

(٤٥) لسان العرب (يدى) ٣٠٢/٢٠ وشرح شواهد الشافية ٤٨١/٤

(٤٦) ديوان الهذليين ١٢٣٠/٣

(٤٧) شرح شواهد الشافية ٩٣/٤

وقول خُفاف بن نُدبة :

كَنَــواحِ رِيشِ حَمَامَــــةٍ نَجْدِيَّـــــةٍ
وَمَسَحْتِ باللِّثَتَيْنِ عَصْفَ الإِثْمِـــدِ[٤٨]

وقول الشاعر :

كَفَّــاكَ كفٌّ لا تُلِيـــقُ دِرْهَمَـــا
جُوداً وَأُخْـرَى تُعْطِ بالسَّيْفِ الدَّمَـا[٤٩]

وقول الآخر :

لَيْسَ تَخْفَــى يَسَارَتِـــى قَدْرَ يَوْمٍ
وَلَقَــدْ تُخْــفِ شِيمَتِـــى إِعْسَارِى[٥٠]

ففى هذه الأبيات ، اضطر الشاعر إلى تقصير الحركة الطويلة ، من الكلمات : (أولاهم – وصانى – الوادى – الغوانى – الأيدى – أدرى النائى – نواحى – تعطى – تخفى) ؛ لكى يحتفظ بموسيقى الوزن ،وهو أمر لا يجوز إلا إذا جاء فى الكلام ساكن ، بعد هذه الحركة الطويلة ؛ فإنها تقصّر عندئذ فى النطق ، لا فى الكتابة ؛ مثل : « يدعو المؤمن إلى الحق » ، ومثل : « دوامى » فى بيت مضرس بن ربعى السابق ؛ فإن « الأصل رسم اللفظ ، أى كتابته بحروف هجائية ، يلفظ بها مع تقدير الابتداء به ، والوقوف عليه[٥١] » . وإن كانت هذه القاعدة الكتابية ، قد شذت عنها مواضع فى كتابة المصحف العثمانى ؛ نظراً إلى أن قواعد الكتابة ، لم تكن قد استقرت بعد فى ذلك العصر المبكر ، فكتب كُتَّاب المصحف بعض الكلمات القرآنية ، حسب النطق بها فى الوصل لا فى الوقف ؛ وذلك مثل قوله تعالى : « وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً » النساء ١٤٦/٤ « كَذَلِكَ حقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ » يونس

---

(٤٨) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ٨٥ وتلقيب القوافى لكيسان ٦٤

(٤٩) مقدمتان فى علوم القرآن ١٣٨ وأمالى ابن الشجرى ٧٢/٢ ومعانى القرآن للفراء ٢٦٠/٣

(٥٠) معانى القرآن للفراء ٢٦٠/٣

(٥١) رسالة فى علم الخط للسيوطى ٥٤ وانظر : الإتقان فى علوم القرآن ١٦٦/٢ وشرح الشافية ٣١٥/٣

١٠٣/١٠ « وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا » الحج ٥٤/٢٢ « وَمَا أَنْتَ بِهَادِ العُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِم » الروم ٥٣/٣٠ « فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ المُقَدَّسِ طُوىً » طه ١٢/٢٠ « حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ » النمل ١٨/٢٧ « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِيءِ الوَادِ الْأَيْمَنِ » القصص ٣٠/٢٨ « إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ المُقَدَّسِ طُوىً » النازعات ١٦/٧٩ « إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ » يس ٢٣/٣٦ « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ » الصافات ٦٣/٣٧ « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » العلق ١٨/٩٦ « وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ » ١١/١٧ « وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ » الشورى ٢٤/٤٢

وقد فطن إلى هذا الذى قلناه هنا ابن خالويه ؛ فقال عند قوله تعالى : سندع الزبانية : « والأصل : (سندعو) بالواو ، غير أن الواو ساكنة ، واستقبلتها اللام الساكنة ، فسقطت الواو ، فبنوا الخط عليه . وقد أسقطوا الواو فى المصحف فى : (سَنَدْعُ) و (يَدْعُ الإِنْسَانُ) و (يَمْحُ اللهُ البَاطِلَ) ، وكذلك الياء من : (وَادِ النَّمْلِ) و(إِنَّ اللهَ لَهَادِ الذين آمنوا) . والعلة فيهن ، ما أنبأتك من بنائهم الخط على الوصل[٥٢] » .

أما ابن جنى ، فيعلل لذلك تعليلا خاطئا ؛ فيقول :« ويمح الله الباطل ، وسندع الزبانية ، كتبت فى المصحف بلا واو ، للوقف عليها كذلك[٥٣] ؛ كما يقول كذلك : « ويمح الله الباطل ، ويوم يدع الداع ، وسندع الزبانية ؛ كتب ذلك بغير واو دليلا فى الخط ، على الوقوف عليه بغير واو فى اللفظ[٥٤] » ؛ لأنه على فرض أن بعض القراء ، يقف على هذه الكلمات ، بتقصير الحركات ، فإنه إنما يفعل ذلك ؛ لأنها كتبت بدون الواو ، لا أنها كتبت بدون الواو ، لأنه كان يوقف عليها بتقصير الحركات !

ويذهب الزركشى فى تعليل ذلك ، مذهبا بعيدا حين يقول إن :

(٥٢) إعراب ثلاثين سورة ١٤١
(٥٣) الخصائص ٢٩٣/٢
(٥٤) الخصائص ١٣٤/٣

الواو « قد سقطت من أربعة أفعال ، تنبيها على سرعة وقوع الفعل ، وسهولته على الفاعل ، وشدة قبول المنفعل المتأثر به فى الوجود ، أولها : سندع الزبانية ، فيه سرعة الفعل ، وإجابة الزبانية ، وقوة البطش ... وثانيها : ويمح الله الباطل ، حذفت منه الواو علامة على سرعة المحو ، وقبول الباطل له بسرعة ... وثالثها : ويدع الإنسان بالشر ، حذف الواو يدل على أنه سهل عليه ، ويسارع فيه ، كما يعمل فى الخير ، وإتيان الشر إليه من جهه ذاته ، أقرب إليه من الخير ... ورابعها : يوم يدع الداع ، حذف الواو لسرعة الدعاء ، وسرعة الإجابة(٥٥) » .

والزركشى بكلامه هذا ، يعتقد أن كتَّاب الوحى ، كانوا يرمزون للمعانى الدقيقة ، التى يحاول هو أن يستنبطها – برموز كتابية مختلفة ، وهو ما لم يخطر على بال أحد منهم بلا ريب !

هذا ، ومن أمثلة تقصير الحركات الطويلة فى الشعر ، لضرورة الوزن أيضا ، قول رؤبة :

إِذْ حَالَ دُونِى **مِصْرَعُ** البَابِ المِصَكّْ

ويقول فيه صاحب لسان العرب : « يحتمل أن يكون عندهم : (المِصْرَع) لغة فى : (المصراع) ، ويحتمل أن يكون محذوفا منه(٥٦) » .

ومن أمثلة التقصير ، لضرورة الشعر كذلك ، قول متمم بن نويرة :

عَلَى مِثْلِ أَصْحَابِ البَعُوضَةِ فَاخْمِشِى
لَكِ الوَيْلُ حُرَّ الْوَجْهِ **أَوْيَبْكِ** مَنْ بَكَى

وقول الآخر :

مُحَمَّدُ **تَفْدِ** نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ
إِذَا مَا خِفْتَ مِنْ شَىْءٍ تَبَالَا

---

(٥٥) البرهان فى علوم القرآن ٣٩٧/١ ونقله السيوطى فى الإتقان ١٦٨/٢ مع بعض التحريف !
(٥٦) لسان العرب (صرع) ٦٦/١٠

ففى هذين البيتين ، اضطر الشاعر إلى تقصير الحركة الطويلة فى : (يبكى) و (تفدى) فصارتا : (يبك) و (تفد) ؛ لضرورة الوزن ، وإن كان النحويون لا يجرءون على الاعتراف بهذا ، ويزعمون أن هذين الفعلين ، مجزومان بلام الأمر المقدرة ؛ يقول سيبويه : « واعلم أن هذه اللام ، قد يجوز حذفها فى الشعر ، وتعمل مضمرة ، وكأنهم شبهوها بأنْ إذا عملت مضمرة[٥٧] » .

غير أن المبرد ، لا يعجبه هذا التعليل ؛ فيقول : « والنحويون يجيزون إضمار هذه اللام للشاعر إذا اضطر ، ويستشهدون على ذلك بقول متمم ابن نويرة ... يريد : أو لِيَبْكِ مَنْ بكى ، وقول الآخر ... فلا أرى ذلك على ما قالوا ؛ لأن عوامل الأفعال لا تضمر ، وأضعفها الجازمة ؛ لأن الجزم فى الأفعال نظير الخفض فى الأسماء ، ولكن بيت متمم حمل على المعنى ؛ لأنه إذا قال : فاخمشى ، فهو فى موضع : فلتخمشى ، فعطف الثانى على المعنى . وأما هذا البيت الأخير فليس بمعروف ، على أنه فى كتاب سيبويه على ما ذكرت لك[٥٨] » .

ومن أمثلة تقصير الحركات ، لضرورة الوزن كذلك ، قول الشاعر :

فِى **كِلْتَ** رِجْلَيْهَا سُلَامَى زَائِدَهْ
كِلْتَاهُمَا قَدْ قُرِنَتْ بِوَاحِدَه

وقول الآخر :

كِلْتَ كَفَّيْهِ تُوَالِى دَائِماً
بِجُيُوشٍ مِنْ عُقَابٍ وَنَعَمْ

فإن « كلت » فى البيتين ، مقصورة من « كلتا » ، لضرورة الوزن ، وإن كان الكوفيون يرون أنها مفرد : « كلتا[٥٩] » .

★★★

---

(٥٧) كتاب سيبويه ٤٠٨/١

(٥٨) المقتضب ١٣٢/٢

(٥٩) انظر فى ذلك : خزانة الأدب ٦٢/١ – ٦٥ ومعانى القرآن للفراء ١٤٢/٢

وكما تقصر الحركات لضرورة الوزن ، فإنها تطوّل أحيانا لهذا السبب أيضا ؛ مثال ذلك قول الفرزدق :

تَنْفِى يَدَاهَا الحَصَى فِى كُلِّ هاجِرَةٍ
نَفْىَ **الدَّرَاهِيمِ** تَنْقَادُ **الصَّيَارِيفِ**(٦٠)

وقول أبى زُبيد :

لَهَا صَوَاهِلُ فِى صُمِّ السِّلَامِ كَمَا
صَاحَ القَسِيَّاتُ فِى أَيْدِى **الصَّيَارِيفِ**(٦١)

وقول الفرزدق :

فَظَلَّا يَخِيطَانِ **الوَرَاقَ** عَلَيْهِمَا
بأَيْدِيهِمَا مِنْ أَكْلِ شَرِّ طَعَامِ(٦٢)

وقول ابن هَرْمة :

وَأَنْتَ مِنَ الغَوَائِلِ حِينَ تَرْمِى
وَمِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ **بِمُنْتَزَاحِ**(٦٣)

وقول المفضَّل النُّكرى :

تَلَاقَيْنَا بِغَيْبَةِ ذِى طَرِيفِ
وَبَعْضُهُمُ عَلَى بَعْضٍ **حَنِيقُ**(٦٤)

وقول امرىء القيس :

كَأَنِّى بِفَتْخَاءِ الجَنَاحَيْنِ لَقْوَةٍ
صَيُودٍ مِنَ العِقْبَانِ طَأْطَأْتُ **شِيمَالِى**(٦٥)

---

(٦٠) أمالى ابن الشجرى ٢٢١/١ ؛ ١٥٧/٢ ورسالة الملائكة ٢٠٨ وشواهد التوضيح ٢٣

(٦١) ديوانه ق ٢/٣٨ ص ١١٩ وغريب الحديث لأبى عبيد ٦٨/٤

(٦٢) شواهد التوضيح ٢٢

(٦٣) شرح شواهد الشافية ٢٥/٤ والحماسة البصرية ١٩٠/١

(٦٤) تأويل مشكل القرآن ٢٣٤

(٦٥) شرح القصائد السبع ٣٣٢ ورسالة الملائكة ٢١١

وقول عنترة :

يَنْبَــاعُ مِنْ ذِفْــرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ
زَيَّافَــةٍ مِثْــلِ الفَنِيــقِ المُكَــدَّمِ[٦٦]

وقول عمرو بن الأهتم :

وسَوَاعِيــدَ يَخْتَلِيــنَ اخْتِــلاَءً
كَالْمَغَالِــى يَطِــرْنَ كُلَّ مَطِيــرِ[٦٧]

وقول النابغة الجعدى :

وَخَــدٍّ كَبُرْقُــوعِ الفَتَــاةِ مُلَمَّــعٍ
وَرَوْقَيْــنِ لَمــاَّ يَعْــدُوَا أنْ تَقَشَّرَا[٦٨]

وقول الراجز :

لاَ عَهْــــدَ لِى بِنِيـــــضَالْ
أَصْبَــــحْتُ كَالشَّنِّ الْبَـــالْ[٦٩]

وقول الشاعر :

وإنَّنِــي حَيْثُمــاَ يَسْرِي الهَــوَى بَصَرِي
مِنْ حَيْثُمــاَ سَلَكُــوا أدْنُــو فَأنْظُــورُ[٧٠]

وقول الآخر :

مَمْكُــورَةٌ جَمُّ العِظَــامِ عُطْبُــولْ
كَأَنَّ فِى أَنْيَابِهَــا القَرَنْفُــولْ[٧١]

---

(٦٦) شرح شواهد الشافية ٢٤/٤ وخزانة الأدب ٥٩/١

(٦٧) الوحشيات لأبى تمام ق ٥/٥٤ ص ٤١ والصاهل والشاحج ٤٧٨

(٦٨) ديوانه ق ٣٠/٣ ص ٣٤ وإصلاح المنطق ١٠٢

(٦٩) شرح القصائد السبع ٣٣٢ وتهذيب اللغة ٦٦٦/١٥ ورسالة الملائكة ٢١١

(٧٠) الصاحبى ٥٠ وشواهد التوضيح ٢٤ وخزانة الأدب ٥٨/١ وشرح القصائد السبع ٣٣٢ والصاهل والشاحج ٤٧٧

(٧١) أمالى ابن الشجرى ١٥٨/٢ وشواهد التوضيح ٢٤ والصاهل والشاحج ٤٧٦

وقول الثالث :

أَقُـولُ إِذْ خَرَّتْ عَلَـى **الكَلْكَـالِ**

يَانَاقَتِـى مَا جُلْتِ مِنْ مَجَـالِ[٧٢]

وقول الرابع :

أعُـوذُ باللهِ مِنَ **العَقْـرَابِ**

الشَّائِـلَاتِ عُقَـدَ الأذْنَـابِ[٧٣]

وقول الخامس :

لَوْ أَنَّ عَمْـراً هَمَّ أَنْ **يَرْقُـودَا**

فَانْـهَضْ فَشُدَّ المِئْـزَرَ الْمَعْقُـودَا[٧٤]

ففى هذه الأمثلة السابقة ، أصبحت : الدراهم الدراهيم ، والصيارف الصياريف ، والورق الوراق ، ومنتزح منتزاح ، وحنق حنيق ، وشمالى شيمالى ، وينبع ينباع ، وسواعد سواعيد ، وبرقع برقوع ، ونضال نيضال ، وأنظر أنظور ، والقرنفل القرنفول ، والكلكل الكلكال ، والعقرب العقراب ، ويرقد يرقود .

وروى ابن جنى أن « الدراهيم لاحجة فيه ؛ لأنه يجوز أن يكون جمع درهام ، وقد نطقت به العرب ، قال :

لَوْ أَنَّ عِنْـدِى مِائَتَـىْ دِرْهَـامِ

لَجَـازَ فِى آفَاقِهَـا خَاتَامِـى[٧٥] »

وقد نسى ابن جنى أن الذى أنتج صيغة « درهام » فى هذا البيت ، هو الضرورة كذلك . وأكبر الظن أن « خاتام » بمعنى : « خاتم » فى البيت السابق ، ضرورة كذلك ، وإن كان سيبويه يزعم أنها وردت عن العرب ؛ فيقول : « غير أنهم قد قالوا : خاتـام ، حدثنـا بذلك

(٧٢) تأويل مشكل القرآن ٢٣٤ والإنصاف ١٦ وتلقيب القوافى ٦٢ وشواهد التوضيح ٢٣

(٧٣) رسالة الملائكة ٢١٣

(٧٤) تهذيب اللغة ٦٦٥/١٥

(٧٥) سر صناعة الإعراب ٢٨/١ وانظر فى الرجز : رسالة الملائكة ٢٠٩ والصاهل والشاحج ٤٧٦

أبو الخطاب[٧٦] » . كما يقول المبرد : « فاعال ، ونظيره من الكلام : ساباط وخاتام . قال الراجز :

يَامَيُّ ذَاتَ الْجَوْرَبِ الْمُنْشَقِّ
أَخَذْتِ خَاتَامِي بِغَيْرِ حَقِّ[٧٧] » .

ومع أن هذه الصيغ الجديدة ، قد نشأت فى العربية ، بسبب ضرورة الوزن الشعرى ؛ فإن أصحاب المعاجم العربية ، قد وضعوها فى معاجمهم جنبا إلى جنب ، مع الصيغ الأصلية ؛ يقول الجوهرى : « الدرهم فارسى معرّب ، وكسر الهاء لغة ، وربما قالوا : درهام[٧٨] » ، كما يقول : « والخَاتِم والخَاتَم - بكسر التاء وفتحها - والخَيْتَام ، والخاتام ، كله بمعنى[٧٩] » ؛ ويقول كذلك : « والكلكل والكلكال : الصدر[٨٠] » .

حقا ، قد فطن بعضهم إلى أن السبب فى نشوء هذه الصيغ ، هو ضرورة الشعر ؛ ففى لسان العرب : « والمعروف : الكلكل ، وإنما جاء : الكلكال فى الشعر ضرورة ، فى قول الراجز :

أَقُولُ إِذْ خَرَّتْ عَلَى الكَلْكَالِ
يَانَاقَتِي مَا جُلْتِ مِنْ مَجَالِ[٨١] » .

وقد وجد بعض اللغويين ، وجها لبيت عنترة السابق ، يخلص به من الضرورة ؛ وذلك بجعل : (ينباع) فى البيت ، على وزن يَنْفَعِل من : البَوْع ، بمعنى : السيلان ؛ فقد روى عن ابن الأعرابى ، أنه قال : « ينباع : يَنْفَعِل ، من باع يَبُوع ، إذا مَرَّ مَرّاً لَيِّناً فيه تَلَوٍّ . وأنكر

---

(٧٦) كتاب سيبويه ١١٠/٢

(٧٧) الكامل للمبرد ٢٢١/٢ وانظر كذلك : شرح شواهد الشافية ١٤١/٤

(٧٨) الصحاح (درهم) ١٩١٨/٥

(٧٩) الصحاح (ختم) ١٩٠٨/٥

(٨٠) الصحاح (كلل) ١٨١٢/٥

(٨١) لسان العرب (كلل) ١١٧/١٤ وشواهد التوضيح ٢٢ ومقدمتان فى علوم القرآن ٢٢٦

أن يكون الأصل فيه : ينبع ، وقال : ينبع ، كما ينبع الماء من الأرض ، ولم يُرِد هذا ، إنما أراد السيلان وتلوِّيه على رقبتها[٨٢] » .

والحق أن هذا التخريج الأخير هو الصواب ، فمادة : (ب و ع) بمعنى : السيلان ، مستعملة فى اللغة ، كما فى بيت السفّاح بن بُكير اليربوعى :

يَجْمَعُ حِلْماً وَأَنَاةً مَعاً
ثُمَّتَ يَنْبَاعُ انْبِيَاعُ الشُّجَاعْ[٨٣]

كما ورد منه اسم الفاعل ، فى قول مُزَرِّد بن ضرار :

وَمُطَّرِدٌ لَدْنُ الكُعُوبِ كَأَنَّما
تَغَشَّاهُ مُنْبَاعٌ مِنَ الزَّيْتِ سَائِلُ[٨٤]

كما ورد المضارع كذلك ، فى المثل العربى : « مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاع » أى : ساكن لينبعث[٨٥] .

ومع ذلك ، لم يعجب البغدادى بهذا التخريج ، فقال : « وإنكار ابن الأعرابى رواية : (ينبع) مردود برواية الثقات . وقوله : ليس المراد ينبع إلخ ، مردود أيضا ؛ فإن (الذفرى) هو الموضع الذى يعرق من الإبل خلف الأذن[٨٦] » . أما ابن الشجرى ، فيقول : « أراد ينبع ، يعنى العرق ، فأشبع فتحة الباء[٨٧] » .

***

ومن أمثلة الصيغ الجديدة ، التى نشأت فى اللغة ، بسبب ضرورة الوزن الشعرى ، وتكلف اللغويون تخريجها وتأويلها ، ما رواه أبو عبيد

---

(٨٢) خزانة الأدب ٥٩/١ وانظر كذلك : شرح القصائد السبع ٣٤٤

(٨٣) المفضليات ق ٦/٩٢ ص ٦٣١ والحماسة البصرية ١٨٧/١ وشرح القصائد السبع ٣٣٤

(٨٤) ديوانه ق ٥٠/٢ ص ٤٥ والتشبيهات لابن أبى عون ١١٤

(٨٥) انظر : مجمع الأمثال للميدانى ١٧٥/٢ وفصل المقال ١٤٦

(٨٦) خزانة الأدب ٥٩/١

(٨٧) أمالى ابن الشجرى ١٥٨/٢

البكرى[٨٨] ، من قول نميرة بن حصن المازنى ، يرثى ابنه :

إنِّـى أُرِيـــىءُ الشَّامِتِيـــنَ تَجَلُّـــدِى
وإنِّـى لَكَالطَّـاوِى الجَنَـاحَ عَلَـى كَسْرِ

وعلّق عليه بقوله : « جاء بقوله : (أريىء) على الأصل ، رَاءَ الرجلُ الشيءَ ، وأراءه غيره ، فهو يُرِيئه » .

ولا يعجب الميمنى هذا التعليق ، فيقول فى الهامش : « ليس على الأصل ، وإنما هو من باب القلب : رأى وراء ، كنأى وناء ، وأراء مقلوب : أرى ، ومضارعه : يُرِيء » .

والحق أن هذا الفعل ، فى نظرنا نحن ، لم يَرِد لا على الأصل – كما يقول البكرى ، ولا على القلب – كما يقول الميمنى ، وإنما دعت إليه ضرورة الوزن . ولعل الرواية لم تكن على هذا النحو أصلا ، وإنما كانت هكذا :

إنِّـــى أُرِى أَلشَّامِتِيـــنَ تَجَلُّـــدِى
وإنِّـى لَكَالطَّـاوِى الجَنَـاحَ عَلَـى كَسْرِ

بقطع الهمزة فى : « ألشامتين » ضرورة ، كما قال لبيد :

أَوْمُـــذْهَبٌ جَدَدٌ عَلَـــى أَلْوَاحِـــهِ
أَلنَّاطِـــقُ الْمَبْـــرُوزُ والْمَخْتُـــومُ[٨٩]

وإن كانت الرواة ، قد غيّرت بيت لبيد هذا ، فجعلته هكذا :

أَوْ مُذْهَبٌ جَدَدٌ عَلَى أَلْوَاحِهِنَّ النَّاطِقُ الْمَبْرُوزُ وَالْمَخْتُومُ

قال ابن منظور ، بعد أن روى البيت على الأصل : « ويروى : على ألواحهن الناطق . وإنما عدل عن ذلك بعض الرواة ، استيحاشاً من

---

(٨٨) سمط اللآلى ٥٨٤/١

(٨٩) ديوانه ص ١١٩ وسيبويه ٢٧٤/٢ والخصائص ١٩٣/١

قطع ألف الوصل ، وهذا جائز عند سيبويه فى الشعر ، ولاسيما فى الأنصاف ؛ لأنها موضع فصول[٩٠] » .

كما غيّرت الرواة — أو النسّاخ — بيت نويرة بن حصين السابق ، إلى :

إنِّــى أرِى لِلشَّامِتِيــنَ تَجَلُّـــدِى
وإنِّى لَكَالطَّاوِى الجَنَاحَ عَلَى كَسْرِ[٩١]

★★★

والآن ، وبعد أن انتهينا من سرد الكثير من الأمثلة ، التى تدلل على حرص هؤلاء اللغويين ، على عدم تخطئة الشعراء ، والتماسهم العلل والمعاذير ، لما وقعوا فيه من الأخطاء اللغوية ؛ بسبب ضرورة الوزن ، نحب بعد هذا كله ، أن ننوه بتلك القلة النادرة من اللغويين ، الذين لم يغالوا فى تقدير كل ما وصل إلينا ، من كلام الشعراء الأقدمين ، بل اعترفوا بأن هناك ضرورات للوزن الشعرى ، تلجىء الشعراء أحيانا إلى مخالفة المألوف من ألفاظ اللغة وقواعدها .

ومن هؤلاء اللغويين : أبو بكر بن السَّرّاج (المتوفى سنة ٣١٦ هـ) ، الذى يقول : « ربما وجدت الشاعر من القدماء الفصحاء ، يحوجه الوزن إلى قلب البناء ، أو يحتاج إلى المعنى ، فيشتق له لفظا ، يلتئم به شعره[٩٢] » .

ومنهم كذلك : حمزة بن الحسن الإصفهانى (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) ، الذى يقول : « إنهم وجدوا اللغة العربية ، على الضد من سائر لغات الأمم ، لما يتولّد فيها مرة بعد مرة ، وأنّ المُوَلِّد لها قرائح الشعراء ، الذين هم أمراء الكلام ، بالضرورات التى تمر بهم فى المضايق ،

---

(٩٠) لسان العرب (ذهب) ٣٨٠/١

(٩١) انظر : أمالى القالى ٢٦٥/١

(٩٢) الاشتقاق ٣٩

التى يدفعون إليها ، عند حصر المعانى الكثيرة فى بيوت ضيقة المساحة ، والإعنات الذى يلحقهم عند إقامة القوافى ، التى لا محيد لهم عن تنسيق الحروف المتشابهة فى أواخرها ، فلابد أن يدفعهم استيفاء حقوق الصنعة ، إلى عَسْف اللغة بفنون الحيلة ، فمرة يعسفونها بإزالة أمثلة الأسماء والأفعال ، عما جاءت عليه فى الجِبِلَّة ، لِماَ يدخلون من الحذف عنها ، أو الزيادة فيها ، ومرة بتوليد الألفاظ ، على حسب ما تسمو إليه هممهم عند قرض الأشعار[٩٣] » .

ويقول القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى (المتوفى سنة ٣٦٦ هـ) : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية ، فانظر هل تجد فيها قصيدة ، تسلم من بيت أو أكثر ، لا يمكن لعائب القدح فيه ، إما فى لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه أو إعرابه ؟ ولولا أن أهل الجاهلية جُدُّوا بالتقدّم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة ، والأعلام والحجة ، لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، لكن هذا الظن الجميل ، والاعتقاد الحسن ستر عليهم ، ونفى الظنة عنهم ، فذهبت الخواطر فى الذب عنهم كل مذهب ، وقامت فى الاحتجاج لهم كل مقام[٩٤] » .

وبعد أن يذكر الجرجانى مجموعة لا بأس بها ، من أغلاط الشعراء — تقدم بعضها هنا — يقول : « ثم تصفحت مع ذلك ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج إذا أمكن . تارة بطلب التخفيف ، عند توالى الحركات ، ومرة بالإتباع والمجاورة ، وما شاكل ذلك من المعاذير المتمحلة ، وتغيير الرواية إذا ضاقت الحجة ، وتبينت ماراموه فى ذلك من المرامى البعيدة ، وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة ، التى يشهد القلب أن المحرك لها ، والباعث عليها ،

---

(٩٣) التنبيه على حدوث التصحيف ١٥٧ — ١٥٨

(٩٤) الوساطة بين المتنبى وخصومه ٤

شدة إعظام المتقدم ، والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد ، وألفته النفس[٩٥] » .

ويأتى ابن فارس اللغوى (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) ، فيؤلف فى ذلك تأليفا مستقلا ، بعنوان : « ذم الخطأ فى الشعر » ، وهو عبارة عن رسالة صغيرة فى وريقات ؛ يقول فيها[٩٦] : « والذى دعانا إلى هذه المقدمة ، أن ناسا من قدماء الشعراء ومن بعدهم ، أصابوا فى أكثر ما نظموه من شعرهم ، وأخطئوا فى اليسير من ذلك ، فجعل ناس من أهل العربية ، يوجهون لخطأ الشعراء وجوها ، ويتمحّلون لذلك تأويلات ، حتى صنعوا فيما ذكرنا أبوابا ، وصنّفوا فى ضرورات الشعر كتبا ... قال ابن فارس : فيقال لجماعتهم : ما الوجه فى إجازة ما لا يجوز إذا قاله شاعر ؟ وما الفرق بين الشاعر والخطيب والكاتب ؟ ... فإن قالوا : لأن الشعراء أمراء الكلام ، قيل : ولِمَ لا يكون الخطباء أمراء الكلام ؟ وهَبْنا جعلنا الشعراءَ أمراءَ الكلام ، لِمَ أجزنا لهؤلاء الأمراء أن يخطئوا ، ويقولوا مالم يقله غيرهم ؟

« فإن قالوا : إن الشاعر يضطر إلى ذلك ؛ لأنه يريد إقامة وزن شعره ، ولو أنه لم يفعل ذلك ، لم يستقم شعره . قيل لهم : ومن اضطره أن يقول شعرا ، لا يستقيم إلا بإعمال الخطأ ؟ ونحن لم نَرَ ولم نسمع بشاعر ، اضطره سلطان ، أو ذو سطوة ، بسوط ، أو سيف ، إلى أن يقول فى شعره ما لا يجوز ، وما لا تجيزونه أنتم فى كلام غيره .

« فإن قالوا : إن الشاعر يَعِنُّ له معنى ، فلا يمكنه إبرازه إلا بمثل اللفظ القبيح المعيب . قيل لهم : هذا اعتذار أقبح وأعيب . وما الذى يمنع الشاعر إذا بنى خمسين بيتا على الصواب ، أن يتجنب ذلك البيت المعيب ، ولا يكون فى تجنبه ذلك ، ما يوقع ذنبا أو يُزْرِى بمروءة ؟ » .

---

(٩٥) الوساطة بين المتنبى وخصومه ٩

(٩٦) ذم الخطأ فى الشعر ، صفحة ١٧ وما بعدها .

إلى أن يقول ابن فارس فى آخر الرسالة : « وهذا كثير ، وليس الغرض إثباته لكثرته وشهرته ، ولكن الغرض الإبانة عن أن الشعراء ، يخطئون كما يخطىء الناس ، ويغلطون كما يغلطون . وكل الذى ذكره النحويون فى إجازة ذلك والاحتجاج له ، جنس من التكلف » .

وقد أشار ابن فارس ، إلى مذهبه هذا مرة أخرى ، فى كتابه : « الصاحبى » ، فقال[٩٧] : « ولا معنى لقول من يقول : إن للشاعر عند الضرورة أن يأتى فى شعره بما لا يجوز ... وما جعل الله الشعراء معصومين ، يُوَقَّون الخطأ والغلط ، فما صح من شعرهم فمقبول ، وما أبته العربية وأصولها فمردود » .

وأخيرا ، يرى أبو عبيد الله محمد بن شرف القيروانى (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ) أن « من عيوب الشعر اللحن ، الذى لا تسعه فسحة العربية ، كقول جرير :

وَلَـوْ ولـدت لِعَنْـزَةَ جَرْوِ كَلْبٍ
لَسُبَّ بذَلِكَ الجَـرْوِ الكِـلَابَا

فنصب (الكلاب) بغير ناصب ، وقد تحيّل له بعض النحويين بكلام كالضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع . وكقول الفرزدق :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَاابْـنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ
مِنَ المَالِ إِلَّا مُسْحَتاً أَوْ مُجَلَّـفُ

فرفع (مجلفا) وحقه النصب ، وقد تحيّل بعض النحويين أيضا للفرزدق ، على وجهٍ ، الإقواء أحسن منه ، فاحذر منه ، وإياك وما يعتذر منه بفسيح من العذر ، فكيف بضيِّق ؟[٩٨] » .

***

(٩٧) انظر : الصاحبى ٢٧٥

(٩٨) أعلام الكلام لابن شرف ٣٧

ويهمنا فى نهاية هذا الفصل ، أن نؤكد أنه لا صحة لما يتردد على ألسنة القوم ، من أن الضرورة الشعرية ، رخصة للشاعر ، يرتكبها متى أراد ، لأن معنى هذا الكلام ، أن الشاعر يباح له عن عمد ، مخالفة المألوف من القواعد ، وهو ما يتعارض مع ما وصل إلينا من أخبار الشعراء فى القديم .

كما يهمنا أن نؤكد مرة أخرى ، أن هذه الضرورات ، التى أشرنا إلى أهمها هنا ، ليست إلا أخطاء فى اللغة ، وخروجا على النظام المألوف فى العربية ، شعرها ونثرها ؛ بدليل ورود الآلاف من الأمثلة الصحيحة لهذه الظواهر ، فى الشعر نفسه . وهذا هو الفرق الوحيد بينها وبين الظواهر ، التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، والتى يختص الشعر فيها بنماذج معينة ، تميزه عن لغة النثر ، وهى نماذج يجب أن تحصى ، باستقراء الأشعار المختلفة ، ثم تبنى عليها قواعد للغة الشعر ، وهو ما نرجو أن تتكفل به بحوث المستقبل .

★★★

الفصل الثالث

أثر الوزن الشعرى فى أبنية العربية

نقرأ فى كتب الصرف العربية ، أن كلمات مثل : (اطمأنّ) و (اشمأزّ) و(اشرأبّ) و(اقشعرّ) و(ازمهرّ) وغيرها ، وزنها : (افْعَلَلَّ) ، وهذا يعنى أن الهمزة فى الكلمات الثلاث الأولى أصلية ، وكذلك العين فى الكلمة الرابعة ، والهاء فى الكلمة الخامسة ؛ يقول ابن جنى مثلا : « من الأصلين المتداخلين : الثلاثى والرباعى قولهم : زَرِمَ وازْرَأَمَّ ، وخَضِلَ واخْضَأَلَّ ، وأَزْهَرَ وازْهَأَرَّ ، وضَفِدَ واضْفَأَدَّ ، وزَلِمَ القوم وازْلَأَمُّوا ... وينبغى أن يكون هذا من أصلين : ثلاثى ورباعى ، وهو قياس قول أبى عثمان ... فأما ازرأمّ واضفأدّ ونحو ذلك ، فلا تكون همزته إلا أصلا[1] » .

غير أن أبا منصور الأزهرى ، ذكر[2] — وهو يعدّ أنواع الهمزات فى اللغة العربية — الهمزة التى تزاد ، لئلا يجتمع ساكنان ، ومثّل لها باطمأنّ واشمأزّ وغيرهما ، أى أن أصل اطمأنّ : اطمانّ ، وأصل اشمأزّ : اشمازّ ، وهكذا .

فما حكاية التقاء الساكنين هذه ؟ ذكروا أنه لا يجوز فى العربية ، التقاء الساكنين إلا فى حالتين ؛ الأولى : حالة الوقف ، كما لو وقفنا على مثل : (بابْ) و(كتاب) وغيرهما .

والثانية : فى وسط الكلمة ، بشرط أن يكون الأول من الساكنين ، حرف

---

(١) الخصائص ٢/٥٠ — ٥١

(٢) تهذيب اللغة ١٥/٦٨٢ وانظر كذلك : لسان العرب ١/١٠

مد ، والثانى مدغما فى مثله ؛ نحو : (دابّة) و(شابّة) و(الضالّين) ونحو ذلك .

والحقيقة أنه لا وجود لما يسمّى بالتقاء الساكنين هنا . وقد وقع النحويون العرب ، فى هذا الوهم ، بسبب الخط العربى ، فظنوا الألف حرفا ساكنا ، وهو فى الواقع رمز للفتحة الطويلة ، وإنما نحن فى هذه الأمثلة ، أمام ما يسمى بالمقطع الرابع ، من المقاطع الصوتية . ولبيان ذلك يلزمنا هنا التعريج على أنواع المقاطع الصوتية فى العربية .

والمقطع الصوتى هو عبارة عن كمية من الأصوات ، تحتوى على حركة واحدة ، ويمكن الابتداء بها والوقوف عليها ، من وجهة نظر اللغة موضوع الدراسة ؛ ففى العربية الفصحى مثلا ، لا يجوز الابتداء بحركة Vowel وعلى ذلك فكل مقطع فيها ، يبدأ بصوت من الأصوات الصامتة Consonant . ويقول كانتينو : « إن الفترة الفاصلة بين عمليتين ، من عمليات غلق جهاز التصويت ، سواء أكان الغلق كاملا أم جزئيا ، هى التى تمثل المقطع[٣] » .

وأنواع المقاطع العربية فى الفصحى خمسة : مقطع قصير مفتوح ، وهو ما تكوّن من صوت صامت وحركة قصيرة ؛ مثل : كَ (ka) ، ومقطع طويل مفتوح ، وهو ما تكوّن من صوت صامت وحركة طويلة ؛ مثل : فى (fī) ، ومقطع طويل مغلق حركته قصيرة ، وهو ما تكوّن من صوتين صامتين بينهما حركة قصيرة ؛ مثل : مِنْ (min) ، ومقطع طويل مغلق حركته طويلة ؛ مثل : بَابْ (bāb) فى الوقف ، ومقطع زائد فى الطول ، وهو ما بدأ بصوت صامت ، ثم حركة قصيرة ، ثم يختم بصوتين صامتين متتاليين ؛ مثل : بِنْتْ (bint) فى الوقف .

والمقطع الرابع لا يجوز فى العربية الفصحى ، إلا فى آخر الكلمة

---

(٣) دروس فى علم أصوات العربية ١٩١

فى حالة الوقف عليها ، أو فى وسطها بشرط أن يكون المقطع التالى له ، مبتدئا بصامت يماثل الصامت الذى خُتِمَ هو به . وهذه الحالة الأخيرة ، هى ما عبر عنها اللغويون العرب القدامى (بالتقاء الساكنين على حدهما) ، وهو أن يكون الأول حرف مدّ ، والثانى مدغما فى مثله[٤] ؛ نحو : (دابّة) و(شابّة) و(الضالّين) و(مدهامّتان) و(احمارّ) و(اصفارّ) وما أشبه ذلك .

فصيغة (افعالّ) إذن ، يغتفر فيها التقاء الساكنين ، على رأى النحاة ، أو بعبارة أخرى : يجوز فيها ورود المقطع الرابع ، بالاصطلاح الذى يعرفه علماء الأصوات اليوم !

غير أننا لا يصح أن ننسى ، أن كل ذلك خاص بالنثر ، أما الشعر فإن هذا المقطع الرابع ، لا يجوز فيه أصلا ، إلا فى الوقف على القافية ، أى أنه لا يجوز فيه أمثال : دابّة ، وشابّة ، والضالّين ، ومدهامّتان ، واحمارّ ، واصفارّ ، وغيرهما ، وإن كان المبرد يرى أنه يجوز فى بحر المتقارب ؛ فيقول : « وحَمَارَّة القيظ : اشتداد حرّه واحتدامه . وحَمَارّة مما لا يجوز أن يحتج عليه ببيت شعر ؛ لأن كل ما كان فيه من الحروف التقاء ساكنين ، لا يقع فى وزن إلا فى ضرب منه ، يقال له المتقارب ، فإنه جُوِّز فيه — على بعد — التقاء الساكنين ، وهو قوله :

فَذَاكَ الـــقِصَاصُ وكَـــانَ التَّقَـــا
صُّ فَرضْاً وَحَتْمـاً عَلَـى المُسْلِمِينَـا

ولو قال : وكان القصاص فرضا وحتما ، كان أجود وأحسن ، ولكن قد أجازوا هذا فى هذه العروض ، ولا نظير له فى غيرها من الأعاريض[٤] » .

---

(٤) الكامل للمبرد ٢٥/١ وقد نقل البطليوسى كلام المبرد فى شرحه لفصيح ثعلب . انظر المزهر ١٠٧/٢ وانظر كذلك : خزانة الأدب ٤٩٠/٤ والعمدة ٩٠/١ والصاهل والشاحج ١٦٢ ولسان العرب (قصص) ٣٤٤/٨ وقال عنه التبريزى فى الكافى ١٨ : « والرواية الجيدة : وكان القصاص ، حتى لا يجتمع فيه ساكنان » . ويرى الأخفش أن « دابة لا تقع فى الشعر ، لأن فيه حرفين ساكنين ملتقيين ، أحدهما الألف والآخر الياء المدغمة » انظر : نور القبس٩٨

وقد ذكر المبرد ذلك مرة أخرى ، عند قوله : « مشعانّ الرأس ، يعنى : منتفخ الشعر متفرّقة . ومثل هذا لا يكون فى شعر ؛ لأن فى هذا التقاء ساكنين ، ولا يقع مثل هذا فى وزن الشعر ، إلا فيما تقدّم ذكره فى المتقارب(٥) » .

والذى نظنه نحن أن هذا النوع من المقاطع ، لا تجوز فى الشعر فى غير القافية إطلاقا ، لا فى وزن المتقارب ، ولا فى غيره ، وأن البيت السابق إن كان صحيح الرواية ، فلا بد أن الشاعر قاله بتخفيف الصاد ، لا بتشديدها ، إن لم تكن الكلمة محرفة أصلا عن : « القصاص » . وقد قال ابن سيدة تعليقا على هذا البيت : « قوله : التقاصّ شاذ ؛ لأنه جمع بين الساكنين فى الشعر ؛ ولذلك رواه بعضهم : وكان القصاص ، ولا نظير له إلا بيت واحد ، أنشده الأخفش :

وَلَـــوْلَا خِدَاشٌ أَخَـــذْتُ دَوَا
بَّ سَعْدٍ وَلَـمْ أُعْطِـهِ مَا عَلَيْهَـا

قال أبو إسحاق : أحسب هذا البيت ، إن كان صحيحا ، فهو : ولولا خداش أخذت دوابب سعد ؛ لأن إظهار التضعيف جائز فى الشعر ، أو أخذت رواحل سعد(٦) » .

وإذا كان الشعر العربى ، لا يقبل مثل هذا النوع من المقاطع ، فإن الشاعر إذا أراد استخدام كلمة ، تحتوى على هذا المقطع الجائز فى النثر ، أقحم همزة فى الكلمة ، أو بعبارة أخرى : قسم المقطع إلى مقطعين ، مثل قول كثير عزّة :

وأنْتَ ابْنَ لَيْلَى خَيْرُ قَوْمِكَ مَشْهَداً
إذَا مَا احْمَأَرَّت بِالْعَبِيـطِ العَوَامِـلُ(٧)

---

(٥) الكامل ٢/١١١

(٦) انظر : لسان العرب (قصص) ٨/٣٤٤

(٧) انظر : ديوانه ق ٤٦/١٠ ص ٢٩٤ ولسان العرب (جنن) ١٦/٢٤٩ وعبث الوليد ٦٩ وديوان أبى محجن الثقفى ١٠٦ ويروى البيت كذلك : « إذا ما العوالى بالعبيط احمأرت » فى الخصائص ٣/١٢٦ ؛ ٣/١٤٨ وألف باء للبلوى ٢/١٢٣

ويقول كثير أيضا :

وَلِــلأَرْضِ أَمَّــا سُودُهَــا فَتَجَلَّــلَتْ
بَيَــاضاً وأَمَّــا بِيضُهَــا فَادْهَــأَمَّتِ[٨]

ويقول الحطيئة :

وَضَيَّــعْتُ الكَرَامَــةَ فَارْمَــأَدَّتْ
وقَــبَّضْتُ السِّقَــا فى جَوْفِ سَلْــمِ[٩]

ويقول دُكَيْن الراجز :

رَاكِــدَةٌ مِخْلَاتُــهُ ومَحْلَبُــهْ
وَجُلُّــهُ حَتَّــى ابْيَــأَضَّ مَلْبَبُــهْ[١٠]

كما يقول الشاعر :

وَبَعْدَ انْتِهَاضِ الشَّيْبِ فى كُلِّ جانِبٍ
عَلَى لِمَّتِى حَتَّى اشْعَأَلَّ بَهِيمُهَــا[١١]

ويقول شاعر من بنى أسد :

حَشَّ الوَلَائِــدُ بالوَقُــودِ جنُوبَهَــا
حَتَّى اسْوَأَدَّ مِنَ الصَّلَى صَفَحَاتُهَا[١٢]

ومن هنا يبدو أن كل صيغة على وزن : « افعألَّ » ، قد جاءت فى العربية عن هذا الطريق ، حتى ولو لم يوجد إلى جوارها صيغة : « افعالَّ » فى

---

(٨) انظر : ديوانه ق ٤/٥٤ ص ٣٢٣ وشرح الشافية ١٧٠/٤ والفائق للزمخشرى ٤٦٢/١ والممتع لابن عصفور ٣٢٢/١ وسر صناعة الإعراب ٨٤/١ ويروى : « فاسوأدت » فى الخصائص ١٢٧/٣ ؛ ١٤٨/٣

(٩) انظر : ديوانه ق ٨/٩٢ ص ٣٤٩ وفيه : « السقاء » بالهمز ، وهو تحريف تشاغل محققة عن إصلاحه ، بذلك الهراء الذى كتبه فى مقدمة الديوان !

(١٠) الرجز فى شرح شواهد الشافية ١٧٠/٤ والخصائص لابن جنى ١٤٨/٣ واللسان (جنن) ٢٤٩/١٦ وسر صناعة الإعراب ٨٣/٣ والإبدال لأبى الطيب ٥٤٥/٢ والممتع لابن عصفور ٣٢١/١

(١١) البيت فى اللسان (شعل) ٣٧٦/١٣ وشرح ابن يعيش للمفصل ١٣٠/٩ وسر صناعة الإعراب ٨٣/١ وشرح شواهد الشافية ١٦٩/٤ والممتع لابن عصفور ٣٢١/١ وألف باء للبلوى ١٢٣/٢

(١٢) البيت فى عبث الوليد للمعرى ٦٩

الاستعمال[١٣] . وفيما يلى نقدم دراسة ، لما عثرنا عليه من أمثلة هذه الصيغة ، فى بطون المعاجم العربية ، وكتب اللغة ، محاولين ربط المعنى فى كل مثال بالثلاثى منه ، والبحث عن الأشعار التى ذكرت فيها هذه الأمثلة :

١ - (اتمأرّ) : يقال : اتمأرَّ الشيء اتمئراراً ، فهو متمئرّ ، إذا كان صلبا مستقيما ، أو طويلا شديدا[١٤] . ومن أمثلة وروده فى الشعر ، قول زهير بن مسعود الضبى :

ثَنَّـــى لَهَـــا يَهْـــتِكُ أَسْحَارَهَـــا
بِمُتْمَئِـــــرٍّ فِيـــــهِ تَحْـــــــزِيبُ[١٥]

وقول الفرزدق :

رَأَتْ كَمَـراً مِثْـلَ الجَلَامِيـدِ فَتَّـــحَتْ
أَحَالِيلَهَـا لَمَّـا اتْمَــأَرَّتْ جُذُورُهَـــا[١٦]

ولهذه الكلمة علاقة بما ورد فى المعاجم العربية ، من « التتمير » بمعنى : « التيبيس » ؛ يقال : تَمَّرَ اللحمَ ، أى قطعه قطعا صغارا وجففه ، وتتمير اللحم والتمر : تجفيفهما[١٧] .

وقد حرف بيت الفرزدق فى اللسان إلى : « لما اتمأدّت جذورها[١٨] » ، ووقف ابن سيدة أمام هذا التحريف حائرا ، ثم حاول تبريره بما يشبه القصة الخرافية ؛ فقال : « ولا أدرى كيف هذا ؟ اللهم إلا أن يريد : تمادّت ، فسكّن التاء ، واجتلب للساكن ألف الوصل ، كما قالوا : ادّكر ، وادّارأتم ، وهمز الألف الزائدة ، كما همز بعضهم ألف دابّة ، فقال : دأبّة » !

---

(١٣) انظر كتاب نولدكه : Nöldeke,Zur Grammatik ص ٨ (الفقرة الخامسة) .
(١٤) اللسان (تمر) ١٦٢/٥ والهمز لأبى زيد ٣٠ والأفعال لابن القطاع ١٢٦/١
(١٥) اللسان (تمر) ١٦٢/٥
(١٦) ديوانه ص ٤٦٠ والنقائض ٥٢٧/١
(١٧) اللسان (تمر) ١٦١/٥
(١٨) انظر : اللسان (مدد) ٤٠٣/٤

وقد ورد فى اللغة كذلك : **اتمألّ** سنام البعير ، إذا استوى وانتصب ، وكذلك : اتمألّ الشىء ، إذا طال واشتد[١٩] . ولا علاقة لهذا المثال بشىء من مادة (تمل) فى العربية ، وإنما نتج – فيما نعتقد – بإبدال الراء لاما ، فى كلمة : « اتمأرّ » السابقة ، فصارت : « اتمألّ » . والإبدال الواقع بين الراء واللام ، كثير الوقوع فى العربية[٢٠] ، ولا عجب فى ذلك ، فهذان الصوتان من فصيلة الأصوات المائعة أو السائلة Liquida التى يكثر فيها الإبدال فى اللغات السامية . ومن أمثلته فى العربية : الطِّرْس والطِّلْس بمعنى : الصحيفة ، والحَبْتَر والحَبْتَل بمعنى : القصير ، وقِرْف العود وقِلْفه بمعنى : قشره . وقال ابن الأعرابى : يقال : كلفتنى عَرَقَ القِربة وعَلَقَ القِربة ، أى كلفتنى أمرا عظيما .

٢ – (اجثألّ) : يقال : اجثألّ النبت ، إذا طال وغلظ والتفّ . واجثألّ الشعر والريش إذا انتفش[٢١] . ومن أمثلته فى الشعر قول جندل بن المثنى :

جَاءَ الشِّتَاءُ واجْثَأَلَّ القُبَّرُ[٢٢]

وقال الراجز الآخر :

مُوَفَّرُ اللِّمَّةِ مُجْثَئِلُّهَا[٢٣]

ولا شك أن لهذا المثال علاقة بما تذكره المعاجم العربية ، من أن الجَثْلَ والجَثِيل من الشجر والثياب والشعر : الكثير الملتف[٢٤] . وقد فطن إلى هذا **أبو حاتم السجستانى** فقال : « أصل اجثألّ افعالّ من الجَثْل . ويقال :

---

(١٩) اللسان (تمأل) ٨٤/١٣ (تمر) ١٦٢/٥ والأفعال لابن القطاع ١٢٦/١

(٢٠) انظر : الإبدال لأبى الطيب ٥٦/٢ وما بعدها .

(٢١) اللسان (جثل) ١٠٥/١٣ والأفعال لابن القطاع ١٩٨/١

(٢٢) تهذيب اللغة ٥٦/١٠ ؛ ٢٠/١١ وجمهرة اللغة ٢٧١/٣ ؛ ٤٠٢/٣ والنخلة لأبى حاتم ١٠ وأساس البلاغة ٤٥٠/١ واللسان (جثل) ١٠٥/١٣ والصناعتين ٢٨٦

(٢٣) جمهرة اللغة ٢٧٠/٣ واللسان (جثل) ١٠٥/١٣

(٢٤) اللسان (جثل) ١٠٥/١٣

شعر جَثْل ، فهمزه كما يهمز بعضهم : احمأرّ واسوأدّ ، فرارا من التقاء الساكنين ، وهما أول الحرف المشدد ، والألف التى قبله[٢٥] » .

٣ – (اجذأرّ) : فى اللغة أن المجذئرّ هو : المنتصب للسباب[٢٦] .
ومن أمثلته فى الشعر قول الطرماح :

تَبِيتُ عَلَى أطْرَافِهَا مُجْذَئِرَّةً
تُكَابِدُهَمّاً مِثْلَ هَمِّ المُخَاطِرِ[٢٧]

والعلاقة واضحة بين هذا المثال ، والجِذْر من جذور النبات . وقد ورد فى اللغة كذلك : « **المجظئرّ**[٢٨] » – بالظاء – وهو المعدّ شرّه ، كأنه منتصب ؛ يقال : مالَكَ مجظئرّاً ! ؟ وهو تطور عن : « المجذئرّ » السابقة ، قلبت فيها الذال ظاء ، أو بعبارة أخرى : فُخّمت الذال فصارت ظاء ، وذلك أثر من آثار الراء ؛ إذ يميل صوت الراء إلى تفخيم بعض الأصوات المجاورة له فى الكلام ؛ مثل قولنا : « صُور » فى : « سُور » و« أخرص » فى : « أخرس » و« رفص » فى : « رفس[٢٩] » . وقد روى مثل ذلك كثيرا فى العربية الفصحى ؛ إذ فيها : « الخَرَّاس والخَرَّاص » ، بمعنى : صاحب الدِّنان ، و« رَسَخَ الشىء ورَصَخَ » بمعنى : ثبت ، و« رجل أرْسَح وأرْصَح » بمعنى : خفيف لحم الوركين ، و« السِّراط والصِّراط » ، بمعنى : الطريق ، وغير ذلك[٣٠] .

٤ – (اجرأشّ) : فى اللغة : « اجرأشّ » أى ثاب جسمه بعد هزال . وقال أبو الدقيش الأعرابى : هَزُل وظهرت عظامه[٣١] . ولم نعثر على

(٢٥) النخلة لأبى حاتم ١٠
(٢٦) اللسان (جذأر) ١٩٤/٥ والأفعال لابن القطاع ١٩٧/١
(٢٧) ملحق ديوانه ص ٥٧٥ وتهذيب اللغة ٢٥٥/١١ واللسان (جذأر) ١٩٤/٥
(٢٨) انظر : لسان العرب (جظر) ٢٠٩/٥
(٢٩) انظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٣٥/٨
(٣٠) انظر فى هذا وغيره : كتاب الإبدال لأبى الطيب اللغوى ١٧٨/٢ وما بعدها ، وكتاب القلب والإبدال لابن السكيت ٤٢ – ٤٣
(٣١) لسان العرب (جرش) ١٦٠/٨

شعر ورد فيه ، على طول تقليب . وله علاقة « بالتجريش » ، بمعنى : الجوع والهزال ، كما حكت المعاجم من كراع النمل[٣٢] .

٥ – (اجفأظّ) : هذه الكلمة ورد أصلها فى اللغة ؛ فقد روى الجوهرى[٣٣]أن العرب تقول : « اجفاظّت الجيفة » بمعنى انتفخت . قال : « وربما قالوا : اجْفَأَظّت ، فيحركون الألف ، لاجتماع الساكنين » . هذا إلى ما روى عن الفراء أنه قال : « الجفيظ : المقتول المنتفخ[٣٤] » ؛ فالعلاقة واضحة بينه وبين المادة الثلاثية ، وإن كنت لم أعثر عليه فى شعر بعدُ .

٦ – (احزألّ) : فى اللغة أن « احزألَّ يحزئلُّ احزئلالاً ، يراد به الارتفاع . والمحزئلّ : المرتفع[٣٥] » . وقد وردت هذه الكلمة بكثرة فى الشعر العربى ؛ فمن أمثلة ذلك قول الطرماح :

واسْتَطْرَبَتْ ظُعْنُهُمْ لَمَّا احْزَأَلَّ بِهِمْ
آلُ الضُّحَى نَاشِطاً مِنْ دَاعِبٍ دَدِ[٣٦]

كما قال الطرماح أيضا :

وَلَوْ خَرَجَ الدَّجَّالُ يَنْشُرُ دِينَهُ
لَزَافَتْ تَمِيمٌ حَوْلَهُ وَاحْزَأَلَّتِ[٣٧]

وقال حُميد بن ثور يصف ناقة :

وَإِذَا احْزَأَلَّتْ فِى المُنَاخِ رَأَيْتَهَا
كَالْعَقْرِ أَفْرَدَهَا العَمَاءُ المُمْطِرُ[٣٨]

---

(٣٢) لسان العرب (جرش) ١٥٩/٨

(٣٣) الصحاح (جفظ) ١١٧١/٣ واللسان (جفظ) ٣١٧/٩ والمزهر للسيوطى ٣٦٧/٢

(٣٤) اللسان (جفظ) ٣١٧/٩

(٣٥) اللسان (حزل) ١٥٩/١٣ والأفعال لابن القطاع ٢٧٢/١

(٣٦) ديوانه ق ٥/٩ ص ١٥٧ والتكملة للصاغانى ٢٣٠/٢ واللسان (طرب) ٤٦/٢

(٣٧) ديوانه ق ٢٧/٤ ص ٥٦ واللسان (حزل) ١٥٩/١٣

(٣٨) ديوانه ص ٨٥ ومقاييس اللغة ٩٥/٤ واللسان (عقر) ٢٧٦/٦

وقال المرّار الفقعسى يصف إبلا وحاديها :

تَغَنَّـــــى ثمَّ هَزَّجَ فاحْـــــزَأَلَّتْ
تَمِيـــــلُ بها النَّحَائِـــــزُ والسُّدُولُ[٣٩]

وقال أبو دواد يصف ناقة :

ذَاتَ انْتِبَـاذٍ مِنَ الحَـادِى إِذَا بَرَكَتْ
خَوَّتْ عَلَـى ثِفِنَـاتٍ مُحْزَئِـلَّاتِ[٤٠]

وقال مزاحم العقيلى :

فَصَاحُـوا صِيَـاحَ الطَّيْـرِ مِنْ مُحْزَئِلَّـةٍ
عَبُــورٍ لِهَادِيهَـا سِنَـانٌ وَقَوْبَــعُ[٤١]

كما قال الشاعر :

يَغُــولُ عَنِّــى البِيـــدَ إِرْقَالُهَـــا
إِذَا احْـــزَأَلَّتْ بِالصَّيَاهِـــــيبِ[٤٢]

وقال الآخر :

فَمَـرَّتْ وَأطْـرَافُ الصُّوَى مُحْزَئِلَّـةٌ
تَئِجُّ كَمَـا أَجَّ الظَّلِيـمُ المُفَـزَّعُ[٤٣]

وقد ذكرت المعاجم العربية أن « الحَزْل يراد به الارتفاع فى السير والأرض[٤٤] » كما ذكر ابن برى أنه يقال : « احْزَلَّ » أيضا ، بمعنى : ارتفع . وأنشد قول الراجز :

تَرْمِـى الفَيَافِـى إِذَا مَا احْـــزَلَّتِ
بِمِثْـــلِ عَيْنَـــىْ فَارِكٍ قَدْ مَلَّتِ[٤٥]

---

(٣٩) اللسان (حزل) ١٥٩/١٣
(٤٠) ديوانه ق ٢/١٢ ص ٢٩٧ واللسان (حزل) ١٥٩/١٣
(٤١) ديوانه ق ٣/١٤ ص ٢٨
(٤٢) مجالس ثعلب ١١٨/١
(٤٣) مقاييس اللغة ٨/١ وجمهرة اللغة ١٤/١ واللسان (أجج) ٣٨/٣ (حزل) ١٥٩/١٣
(٤٤) انظر : اللسان (حزل) ١٥٩/١٣
(٤٥) اللسان (حزل) ١٥٩/١٣

فالعلاقة – كما نرى – واضحة بين : « احزألّ » ومادته الثلاثية .

٧ – (احظأبّ) : يقال احظأبَّ البطن ، إذا اشتد أو امتلأ شحما ، والمحظئبُّ : السمين ذو البطنة[٤٦] . ولم أعثر على شعر وردت فيه هذه الكلمة وتتضح العلاقة بينها وبين المادة الثلاثية فى قول المعاجم[٤٧] : « الحاظب : السمين ، وحَظِبَ يَحْظَبُ : سمن » .

٨ – (ارفأنّ) : يقال : ارفأنّ الرَّجُل ، أى نفر ثم سكن . ويقال ارفأنّ غضبى[٤٨] . ومن أمثله وروده فى الشعر : قول العجاج :

حَتَّى ارْفَأَنَّ النّاسُ بَعْدَ المَجْوَلِ[٤٩]

وقول الآخر :

حَتَّـــى تَرِنِّـــى ثُمَّ تَرْفَئِنِّـــى[٥٠]

ولعل لهذه الكلمة علاقة بما تذكره المعاجم ، من أن « الرَّفْن » معناه : النبض ، وأن « الرافنة » هى المتبخترة فى بطر[٥١] ؛ ففى النبض والتبختر حركة ، وفى النفور مثل هذه الحركة كذلك !

٩ – (ارمأزّ) : يقال : ما ارمأزّ فلان من مكانه ، أى ما برح . وارمأزّ عنه : زال[٥٢] . ومن أمثلة وروده فى الشعر : قول أبى مهديّة الأعرابى :

أنْ سَوْفَ تُمْضِيهِ وَمَـا ارْمَـأزّا[٥٣]

---

(٤٦) الأفعال لابن القطاع ٢٧٢/١ واللسان (حظب) ٣١٣/١

(٤٧) انظر مثلا : لسان العرب (حظب) ٣١٣/١ والصحاح (حظب) ١١٣/١

(٤٨) لسان العرب (رفن) ٤٣/١٧ والأفعال لابن القطاع ٧٧/٢

(٤٩) ديوانه ق ١٤٤/١٢ ص ١٦٥ وجمهرة اللغة ١٧٣/١ واللسان (رفن) ٤٣/١٧ والهمز لأبى زيد ٢٦

(٥٠) اللسان (رفن) ٤٣/١٧

(٥١) انظر : اللسان (رفن) ٤٣/١٧

(٥٢) اللسان (رمز) ٣٢٤/٧

(٥٣) الفصول والغايات للمعرى ٢٢٨ والأفعال لابن القطاع ٧٦/٢ والمحكم ٦٣/٣ وجمهرة اللغة ٤٠٣/٣

وقول الراجز :

وَمَا ارْمَأَزَّ الأَسْحَمَانِ الأَسْحَم[٥٤]

وقول الآخر :

لَيْسَ إذْ جِئْتُ بِمُرْمَئِزِّ[٥٥]

ولهذه الكلمة علاقة بقول العرب : ارتمز الرجل وترمّز ، أى تحرك ، وبقولهم : إبل مراميز ، أى كثيرة التحرك[٥٦] .

١٠ – (ازبأرّ) : يقال : ازبأرّ الشعر والوَبَر والنبات ، إذا طلع ونبت[٥٧] . كما يقال : ازبأرّ الشعر إذا انتفش . ومن أمثلة وروده فى الشعر قول امرىء القيس :

لَهَا ثُنَنٌ كَخَوَافِى العُقَا
بِ سُودٌ يَفِينَ إذَا تَزْبَئِرّ[٥٨]

وقول المرّار بن منقذ الحنظلى :

فَهْوَ وَرْدُ اللَّوْنِ فى ازْبِئْرَارِهِ
وَكُمَيْتُ اللَّوْنِ مَالَمْ يَزْبَئِرّ[٥٩]

وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

لَحَا اللهُ جَرْماً كُلَّمَا ذَرَّ شَارِقُ
وُجُوهَ كِلَابٍ هَارَشَتْ فَازْبَأَرَّتِ[٦٠]

ولهذه الكلمة علاقة بكلمة « الزُّبرة » ، وهى ما بين كتفى الأسد من الوبر .

---

(٥٤) المستقصى للزمخشرى ٣٣/٢

(٥٥) جمهرة اللغة ٤٠٣/٣

(٥٦) انظر : اللسان (رمز) ٢٢٤/٧

(٥٧) الهمز لأبى زيد ٩ ؛ ٢٦ واللسان (زبر) ٤٠٥/٥

(٥٨) ديوانه ق ٢٧/٢٩ ص ١٦٣ وأدب الكاتب ١٢٦ واللسان (زبر) ٤٠٥/٥

(٥٩) الحماسة بشرح المرزوق ١٦٠/١ والمفضليات ق ١١/١٦ ص ١٤٥ والأزمنة والأمكنة للمرزوقى ٧٣/١ واللسان (زبر) ٤٠٥/٥

(٦٠) ديوانه ق ٨/١٢ ص ٤٤ والحماسة بشرح المرزوقى ١٦٠/١ ومعجم ما استعجم ٤٢

١١ – (ازرأمّ) : يقال : ازرأمّ الرجل ازرئماما ، إذا غضب ، فهو مزرئمّ[٦١] . ومن شواهد فى الشعر : قول الأخطل :

تُمْـذِى إذَا سَخَـنَتْ فى قُبْـلِ أَذْرُعِهـا
وَتَزْرَئِـــمُّ إذَا مَا بَلَّهَـــا الْمَطَـــرُ[٦٢]

وقول الآخر :

أَلْفَيْتُــــهُ غَضْبَـــانَ مُزْرَئِمَّـــا
لَا سَبِـــطَ الكَـــفِّ وَلَا خِضَمَّـــا[٦٣]

ولعل لهذه الكلمة علاقة بما رواه الأصمعى ، من أن « الزَّرِم » هو المُضَيَّق عليه[٦٤] ؛ لأن الذى يضيّق عليه ، يغضب لا شك فى ذلك .

وقد ذهب **ابن فارس** ، فى هذا المثال ، إلى مثل ما نذهب إليه ، من زيادة الهمزة فيه ، وإن ربطه بمعنى آخر للمادة ، فقال : « ازرأمّ ، إذا غضب . وهذا مما زيدت فيه الهمزة ، وهو من : زَرِمَ إذا انقطع ، كذلك إذا غضب تغيّر خُلُقه ، وانقطع عما عُهد فيه[٦٥] » .

١٢ – (ازلأمّ) : يقال : ازلأمّ القوم ازلئماما ، إذا وَلَّوا سراعاً[٦٦] . ومن أمثلته فى الشعر : قول كثير عزّة :

تَأَرَّضُ أَخْفَـــافُ المُنَاخَـــةِ مِنْهُـــمُ
مَكَـانَ التِـى قَدْ بُعِّـــدَتْ فَازْلأَمَّتِ[٦٧]

---

(٦١) اللسان (زرم) ١٥٥/١٥ وجمهرة اللغة ٢٦٩/٣ والهمز لأبى زيد ٨ والأفعال لابن القطاع ١١٢/٢

(٦٢) ديوانه ص ١١١ واللسان (زرم) ١٥٥/١٥

(٦٣) اللسان (زرم) ١٥٥/١٥

(٦٤) اللسان (زرم) ١٥٥/١٥

(٦٥) مقاييس اللغة ٥٤/٣

(٦٦) الفائق للزمخشرى ٤٦٢/١ واللسان (زلم) ١٦٤/١٥

(٦٧) ديوانه ق ١٧/٥٤ ص ٣٢٦ واللسان (أرض) ٣٨٣/٨ (زلم) ١٦٤/١٥ والفائق ٤٦٢/١

وقول العجاج :

وَاحْتَمَلُـــــوا الأُمُورَ فَازْلَأَمُّوا[٦٨]

وقد أصاب **الزمخشرى** ، حين ذكر أن الهمزة فى هذا المثال ، بدل من ألف « افعالّ » ، وأن « الكلمة ثلاثية ، فلا تكون الهمزة أصلية ؛ لوضوح اشتقاق الكلمة من قولهم : مَرَّ يَزْلِمُ ويَحْذِمُ ، إذا قارب الخطو مع سرعة . وعن الأصمعى : تَزَلَّم إلى الشدِّ وتنزّع ، أى تسرَّع[٦٩] » .

١٣ - (اسمأدّ) : يقال : اسمأد الرجل اسمئداداً ، إذا وَرِمَ ، وقيل : إذا انتفخ من الغضب[٧٠] . ولم أعثر له على أمثلة شعرية .

وعلاقته واضحة بالمادة الثلاثية : سَمَد يَسْمُد سُمُوداً ، بمعنى : علا ، أو رفع رأسه تكبُّراً[٧١] ؛ لأن الورم علوّ ، والانتفاخ علوّ كذلك . هذا إلى أن المعاجم ذكرت إلى جانب « اسمأدّ » : « اسمادّ » بهذا المعنى كذلك .

١٤ - (اسمألّ) : فى اللغة أن المسمئلّ هو الضامر ، واسمألّ الشيء اسمئلالا ، إذا ضمر . ومنه : اسمألّ الظلّ ، أى قصر ورجع إلى أصله[٧٢] .ومن أمثلته الشعرية : قول سلمى بنت جَذَعة الجهنية :

يَرِدُ المِيـــاهَ حَضِيـــرَةً وَنَفِـــيضَةً
وِرْدَ القَطَـــاةِ إذَا اسْمَـــأَلَّ التُّبَّـــعُ [٧٣]

---

(٦٨) اللسان (زلم) ١٦٤/١٥

(٦٩) الفائق للزمخشرى ٤٦٢/١

(٧٠) اللسان (سمد) ٢٠٤/٤

(٧١) اللسان (سمد) ٢٠٣/٤

(٧٢) اللسان (سمأل) ٣٦٩/١٣

(٧٣) جمهرة اللغة ٢٧٢/٣ وتهذيب اللغة ٤٥٥/١٢ واللسان (سمأل) ٣٦٩/٣ والتكملة للصاغانى ٤٧/٥٢ والهمز لأبى زيد ٢٦ وشمس العلوم ٤٤٠/١

وقول الراجز :

وَانْضَمَّ بُدْنُ الشَّيْخِ وَاسْمَأَلَّا[٧٤]

ولعل لهذه الكلمة علاقة بكلمة : « السَّمَل » ، بمعنى : بقية الماء فى الحوض[٧٥] .

١٥ — (اشرأبّ) : اشرأبّ معناها فى اللغة : ارتفع وعلا[٧٦] .
ومن شواهده الشعرية : قول ذى الرمة :

ذَكَرْتُكِ إِذْ مَرَّتْ بِنَا أُمُّ شَادِنٍ
أَمَامَ المَطَايَا تَشْرَئِبُّ وَتَسْنَحُ[٧٧]

وقد أصاب صاحب اللسان حين قال : « اشرأبّ : مأخوذ من المَشْرَبَة ، وهى : الغُرفة[٧٨] » ؛ فالمشربة : الغرفة المرتفعة ، والمشارب العلالىّ .

١٦ — (اشمأزّ) : يقال : اشمأزّ يشمئزّا اشمئزازا ، إذا تقبّض واجتمع بعضه إلى بعض . وقال أبو زيد : اشمأزّ يعنى : ذُعِر من الشىء . والمشمئز : المذعور[٧٩] . ومن أمثلة وروده فى الشعر : قول عمرو بن كلثوم ، يصف قناة صلبة :

إِذَا عَضَّ الثِّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَّتْ
وَوَلَّتْهُمْ عَشَوْزَنَةً زَبُونَا[٨٠]

---

(٧٤) الخصائص ٢/٢٣٩

(٧٥) اللسان (سمل) ١٣/٣٦٨

(٧٦) اللسان (شرب) ١/٤٧٥ والأفعال لابن القطاع ٢/٢٢٥

(٧٧) ديوانه ق ١٠/١١ ص ٧٩ وغريب الحديث لأبى عبيد ٣/٢٢٥ واللسان (شرب) ١/٤٧٥ وتهذيب اللغة ١١/٣٥٥ والكامل للمبرد ٢/٣٠٣

(٧٨) اللسان (شرب) ١/٤٧٣

(٧٩) الهمز لأبى زيد ٢٦ واللسان (شمز) ٧/٢٢٩

(٨٠) شرح القصائد السبع ٤٠٤ واللسان (عشزن) ١٨/١٥٨ والمقاييس ٤/٣٦٣

ولهذه الكلمة علاقة بما تذكره المعاجم من : « الشَّمْز » ، بمعنى التقبض ونفور النفس من الشيء تكرهه .

١٧ – (اصمأكّ) : يقال : اصمأكّ الرجل ، فهو مصمئكّ ، إذا غضب(٨١) . ومن أمثلة وروده فى الشعر : قول رؤبة :

عَلَى لَدِيدَىْ مُصْمَئِكٍّ صِلْخَادْ(٨٢)

وقول الراجز :

حَتَّى اصْمَأَكَّ كَالْحَمِيتِ المُوكَرِ(١٨٣)

ولعل لهذا علاقة بقول المعاجم : « الصمكيك والصمكوك : الغليظ من الرجال . الجافى . وقيل : الجاهل السريع إلى الشرّ والغواية(٨٤) »

وقد روى صاحب اللسان فى الكلمة : « اصماكّ » أيضا بلا همز ، كما قال أبو منصور **الأزهرى** فيها : « وأصل هذه الكلمة وما أشبهها ثلاثى ، والهمزة فيها مجتلبة(٨٥) » .

وقد ورد فى اللغة كذلك : « **ازمأكّ** » بمعنى : غضب(٨٦) ، وهى تطور عن : « اصمأكّ » إذ جهرت الصاد ؛ بسبب مجاورتها للميم المجهورة ، فتحولت إلى زاى مفخمة ، وكتبت بالزاى المرققة ؛ إذ لا وجود لرمز الزاى المفخمة فى الكتابة العربية !

١٨ – (اصمألّ) : يقال : اصمألّ الشيء اصمئلالا ، أى اشتد . ويقال للداهية : مصمئلّة(٨٧) . ومن أمثلته الشعرية : قول الكميت :

---

(٨١) اللسان (صمك) ٣٤٤/١٢

(٨٢) ديوانه ق ١١٦/١٦ ص ٤١ والتكملة للصاغانى ٢٦٨/٢

(٨٣) جمهرة اللغة ٢٧٠/٣

(٨٤) اللسان (صمك) ٣٤٤/١٢

(٨٥) تهذيب اللغة ٤٢٢/١٠ وانظر اللسان (صمك) ٣٤٤/١٢

(٨٦) اللسان (زمك) ٣٢١/١٢

(٨٧) اللسان (صمل) ٤٠٩/١٣ والهمز لأبى زيد ٢٦

وَلَـــمْ تَتَكَأَّدْهُـــمُ الْمُـــعْضِلَاتُ
وَلَا مُصْمَئِلَّتُهَـــا الضِّئِبِـــلُ[٨٨]

وقول الشنفري ، أو خلف الأحمر :
نَبَـــأٌ مَا نَابَنَـــا مُصْمَئِـــلٌّ
جَلَّ حَتَّـــى دَقَّ فِيـــهِ الْأَجَلُّ[٨٩]

ولهذه الكلمة علاقة بقولهم : « الصَّمْل : اليُبْس والشّدة . والصُّمُلّ : الشديد الخَلْقْ من الناس والإبل والجبال[٩٠] » .

١٩ – (اضفأدّ) : روى عن الأصمعى أن العرب يقولون : اضفأدّ الرجل يضفئدُّ اضفئداداً ، إذا انتفخ من الغضب[٩١] . ولم أعثر له على مثال فى الشعر .

ولعل لهذه الكلمة علاقة بقولهم : « ضَفِدَ ، أى صار كثير اللحم ثقيلا ، مع حمق[٩٢] » !

٢٠ – (اطمأنّ) : معناها « هبط ، أو هدأ واستقر وسكن » . والثلاثى منها وإن لم يكن مستعملا فى العربية ، فهو فى العبرية טָמַן بمعنى : أخفى ، والشيء إذا خفى هدأ واستقر . وقال **الأزهرى** : « ويقال : طامن ظهره ، إذا حناه ، بغير همز ؛ لأن الهمزة التى حلت فى اطمأن ، إنما حلت فيها حذار الجمع بين الساكنين[٩٣] » .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الفعل : « طمأن » يعدّ بناء ثانويا حديثا فى العربية ، وكذلك مقلوبه : « طأمن » فى مثل قول الفرزدق :

---

(٨٨) اللسان (صمل) ٤٠٩/١٣
(٨٩) جمهرة اللغة ٢٧٢/٣
(٩٠) اللسان (صمل) ٤٠٩/١٣
(٩١) تهذيب اللغة ٤/١٢
(٩٢) اللسان (ضفد) ٢٥٣/٤
(٩٣) تهذيب اللغة ٣٧٧/١٣

وَإِذَا النُّفُوسُ جَشَأْنَ طَأْمَنَ جَأْشُهَا
ثِقَةً لها بِحِمَايَةِ الأَدْبَارِ[٩٤]

وقد ضَلّ سيبويه ، فرأى أن الأصل هو : « طأمن » ، وخالفه أبو عمر الجرمى ، فرأى ضد ذلك[٩٥]

٢١ – (اقسأنّ) : يقال : اقسأنّ الرجل اقسئنانا ، إذا كبر وعَسِيَ ، واقسأنّ العُود وغيره ، إذا يبس واشتد ، واقسأنّ الليل : اشتد ظلامه[٩٦] . ومن أمثلة وروده فى الشعر : قول الراجز :

مَاشِئْتَ مِنْ أَشْمَطَ مُقْسَئِنٍّ[٩٧]

وقول الآخر :

بِتُّ لَهَا يَقْظَانَ وَاقْسَأَنَّتِ[٩٨]

ولهذه الكلمة علاقة واضحة بقولهم : « أقسن الرجل : إذا صلبت يده على العمل والسقى » . ويؤكد **الأزهرى** هنا أيضا ثلاثية الكلمة ؛ فيقول : « هذه همزة تجتلب كراهة جمع بين ساكنين . وكان فى الأصل : اقسانّ يقسانُّ[٩٩] » .

٢٢ – (اكبأنّ) : يقال : اكبأنّ إذا لطأ بالأرض ، واكبأنّ : انقبض . وقال ابن بزرج : المكبئنّ : الذى قد احتبى وأدخل مرفقيه فى حُبوته ، ثم خضع برقبته وبرأسه على يديه[١٠٠] . ومن شواهده فى

(٩٤) الكامل للمبرد ١٣٥/٢ وباختلاف فى ديوانه ص ٣٧٦

(٩٥) انظر : سيبويه ١٣٠/٢ واللسان (طمن) ١٢٨/١٧ وعثرات اللسان للمغربى ١٠٠ والمنصف لابن جنى ١٠٤/١ وممن تابع سيبويه : المبرد فى الكامل ٢٥٥/٢ وابن جنى فى الخصائص ٧٥/٢

(٩٦) اللسان (قسن) ٢٢١/١٧ والأفعال لابن القطاع ٦٩/٣

(٩٧) الهمز لأبى زيد ٢٦ واللسان (قسن) ٢٢١/١٧ وتأويل مشكل القرآن ١٢٢ وجمهرة اللغة ٢٧٢/٣ ؛ ٤٠٢/٣ وتهذيب اللغة ٤٠٩/٨

(٩٨) اللسان (قسن) ٢٢١/١٧ وتهذيب اللغة ٤٠٩/٨

(٩٩) تهذيب اللغة ٤٠٩/٨

(١٠٠) اللسان (كبن) ٢٣٣/١٧ والأفعال لابن القطاع ١١١/٣

الشعر : قول مدرك بن حصن :

يَا كَرَوَاناً صُكَّ فَاكْبَأَنَّا[١٠١]

وقول الآخر :

فَلَمْ يَكْبَئِنُّوا إِذْ رَأَوْنِي وَأَقْبَلَتْ
إِلَيَّ وُجُوهٌ كَالسُّيُوفِ تَهَلَّلُ[١٠٢]

ولا شك أن لهذه الكلمة علاقة بما رواه الأصمعى ، من أن « الكَبْنَ : ما ثُنِى من الجلد ، عند شفة الدَّلو[١٠٣] » .

٢٣ - (اكلأزّ) : يقال : اكلأزّ الرجل ، إذا تقبّض ولم يطمئن . والمكلئز : المنقبض[١٠٤] . ومن أمثلة وروده فى الشعر : قول الراجز :

وَأَنَامِنْهَا مُكْلَئِزٌّ مُعْصِمُ[١٠٥]

وقول الآخر :

ذِى عَضُدَيْنِ مُكْلَئِزٍّ نَازِى[١٠٦]

وقول رؤبة :

وَكُلِّ مِخْلَافٍ وَمُكْلَئِزِّ[١٠٧]

ويقول ابن منظور : « وأميت ثلاثى فعله[١٠٨] » ، مع أنه قال قبل ذلك بقليل : « كَلَزَ الشىء يَكْلِزُه كَلْزاً ، وكَلَّزَه : جمعه » . والعلاقة

---

(١٠١) اللسان (كبن) ٢٣٣/١٧ والإبدال لأبى الطيب ٣٤٤/١

(١٠٢) جمهرة اللغة ٤٠٢/٣ واللسان (كبن) ٢٣٣/١٧ والإبدال لأبى الطيب ٣٤٤/١

(١٠٣) اللسان (كبن) ٢٣٤/١٧

(١٠٤) اللسان (كلز) ٢٦٨/٧ والهمز لأبى زيد ٢٧ والأفعال لابن القطاع ١١١/٣

(١٠٥) تهذيب اللغة ٩٧/١٠ وأساس البلاغة ٢٣١/٢ واللسان (كلز) ٢٦٨/٧

(١٠٦) تهذيب اللغة ٩٨/١٠ واللسان (كلز) ٢٦٧/٧

(١٠٧) ديوانه ق ٨٠/٢٣ ص ٦٥ والإبل للأصمعى ٩٩ والتكملة للصاغانى ٢٢٠/٢ وجمهرة اللغة ٢٧٣/٣

(١٠٨) لسان العرب (كلز) ٢٦٨/٧

واضحة بين الجمع والتقبض . وقد صدق **الأزهرى** حين قال : « واكلأزّ : كان فى الأصل : اكلازّ[١٠٩] » .

هذه هى الأمثلة ، التى تتضح العلاقة فيها بأفعالها الثلاثية . وهناك مثالان آخران ، لم تذكر لهما المعاجم العربية أصلا ثلاثيا ، وهما :

١ - (اتلأبّ) : يقال : اتلأب الطريق ، إذا امتدّ واستوى . واتلأبّ الحمار ، أى أقام صدره ورأسه[١١٠] . ومن أمثلته الشعرية : قول لبيد :

فَأَوْرَدَهَا مَسْجُورَةً تَحْتَ غَابَةٍ
مِنَ القُرْنَتَيْنِ واتْلأَبَّ يُحَوِّمُ[١١١]

وقول الحطيئة :

أَلَا طَرَقَتْنَا بَعْدَ مَا هَجَدُوا هِنْدُ
وَقَدْ سِرْنَ غَوْراً وَاتْلَأَبَّ بِنَا نَجْدُ[١١٢]

وقد أَحَسَّ ابن فارس ، بعدم وجود ثلاثيّه ، فعدّه من الموضوع وضعا[١١٣] .

٢ - (اضمأكّ) : يقال : اضمأكت الأرض اضمئكاكا : إذا خرج نبتها ، واضمأكّ النبت : إذا رَوِىَ واخضرّ[١١٤] . ولم يرد له فى الشعر أمثله . وعدّه ابن فارس مما وُضِع وضعا كذلك[١١٥] .

وأما قولهم : « **اضبأكّت** الأرض » بالباء ، فإنه من إبدال الميم باء .

---

(١٠٩) تهذيب اللغة ٩٨/١٠ وفى الأصل : « واكلاز كان فى الأصل اكلأز » وهو تحريف ؛ بدليل اتجاه الأزهرى فى كثير من الأمثلة الأخرى ، إلى أن الهمزة مقحمة ، للتخلص من التقاء الساكنين !

(١١٠) اللسان (تلأب) ٢٢٦/١

(١١١) ديوانه ق ١٠/١٢ ص ٩٧ واللسان (تلأب) ٢٢٦/١

(١١٢) ديوانه ق ١/٣٨ ص ١٤٠ والأفعال لابن القطاع ١٢٦/١

(١١٣) المقاييس ٣٦٤/١

(١١٤) اللسان (ضمك) ٣٤٨/١٢

(١١٥) المقاييس ٤٠٣/٣

والميم والباء من الأصوات الشفوية ، التى يحدث بينهما الإبدال كثيرا ؛ مثل قولهم : « مهلا » و« بهلا » و« أزمة » و« أزبة » و« كمحته » و« كبحته » وغير ذلك[١١٦] .

وإذا استثنينا هذين المثالين ، استطعنا أن نحكم باطمئنان ، إلى أن أصل الأمثلة السابقة هو : « افعالّ » ، أى : اتمارّ ، واجثالّ ، واجذارّ ، واجراشّ ، واجفاظّ ، واحزالّ ، واحظابّ ، وارفانّ ، وارمازّ ، وازبارّ ، وازرامّ ، وازلامّ ، واسمادّ ، واسمالّ ، واشرابّ ، واشمازّ ، واصماكّ ، واصمالّ ، واضفادّ ، واطمانّ ، واقسانّ ، واكبانّ ، واكلازّ .

ويؤيدنا فى بعض هذه الأمثلة : أبو منصور الأزهرى ، وأبو حاتم السجستانى ، والزمخشرى ، وابن فارس اللغوى .

ولا يعترضنّ معترض ، بأن صيغة : « افعالّ » خاصة فى العربية بالألوان . كصيغة : « افعلّ » ؛ مثل : ابلقّ وابلاقّ ، من البلق وهو سواد وبياض ، واحمرّ واحمارّ ، وادهمّ وادهامّ أى اسودّ ، وازرقّ وازراقّ ، واسودّ واسوادّ ، واشمطّ واشماطّ ، بمعنى : اختلف بلونين من سواد وبياض ، واشهبّ واشهابّ : غلب بياضه سواده ، واصهبّ واصهابّ ، والأصهب الذى يخالط بياضه حمرة ، وغير ذلك من الأمثلة – فقد ذكروا أن ذلك هو الشائع فيها[١١٧] . وقد عثرت أنا على أمثلة كثيرة فى الأدب العربى ، والمعاجم اللغوية ، لصيغة افعالّ فى غير الألوان ، مثل :

١ – ابلاجّ الشىء ابليجاجا : وضح (الأفعال لابن القطاع ١/١١٣ واللسان ٣/٣٧) .

٢ – ابلاقّ الباب : انفتح (الأفعال لابن القطاع ١/١١٣) .

---

(١١٦) انظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٦ والتطور اللغوى وقوانينه ١٧٤

(١١٧) انظر : كتاب سيبويه ٢/٢٤٢ والمنصف لابن جنى ١/٧٨ وشرح ابن يعيش للمفصل ٧/١٦١ وشرح الشافية للأستراباذى ١/١١٢ والتكملة لأبى على الفارسى ٢٩٠ والممتع لابن عصفور ١/١٩٥ وشرح درة الغواص للخفاجى ٥١ وشرح الملوكى ٨٤

٣ – ابهارَّ الليل : انتصف (الأفعال لابن القطاع ١١٢/١ واللسان ١٤٨/٥) .

٤ – اخضالَّ الشيء : ابتلّ (الأفعال لابن القطاع ٣٣٢/١ واللسان٢٢٠/٣) .

٥ – ارغادَّ اللبن : اختلط بعضه ببعض ، ولم تتمّ خثورته (اللسان١٦٢/٤) .

٦ – ارماقَّ الحبل : ضعف (اللسان ١٤٧/١١) .

٧ – ازوارَّ عن الشيء : عدل عنه (اللسان ٤٢٣/٥) .

٨ – اشعانَّ الرأس : انتفش وتفرق (اللسان١٠٦/١٧) .

٩ – اقراحَّ الفرس : طلع نابه وتم سنّه (الأفعال لابن القطاع ٦٩/٣) .

١٠ – اقطارَّ الشجر : تفطّر عن ورق أخضر (الأفعال لابن القطاع٦٩/٣) .

١١ – اقعالَّ النَّوْر : انشق عن قُعالته (تهذيب اللغة ٢٥١/١) .

١٢ – الغانَّ النبات : التف وطال (الأفعال للسرقطي ٤٨٠/٢) .

١٣ – الهاجَّ اللبن : خَثَرَ (إصلاح المنطق ٣٥٠ واللسان ١٨٣/٣) .

١٤ – املاسَّ الشيء : صار أملس (المنصف لابن جنى ٧٨/١ ومعانى الشعر ١١٠) .

هذا ، وقد أحسّ الجواليقى بشبه « افعألّ » بافعالّ فى عدم التعدّى ، وإن تابع جمهرة العلماء ، فى أنه من بنات الأربعة ؛ فقال : « وما كان على افعللت ، فإنه لا يتعدى ، نحو : احمررت واحماررت ... ونظيره من بنات الأربعة : اطمأننت واشمأززت[١١٨] .

***

(١١٨) شرح أدب الكاتب ٣٢٤

ولم يكن إقحام الهمزة فى هذه الأمثلة السابقة وغيرها ، هو التطور الوحيد الذى أصابها ؛ فقد أدت المبالغة فى تحقيق الهمز هنا ، إلى قلب الهمزة عينا ، فى بعض كلمات هذا الوزن فى الفصحى ، على طريقة نطق بعض أهالى صعيد مصر : « لَعْ » فى : « لأ » مثلا ، وعلى طريقة « العنعنة » فى لغة تميم[119] . وقد وردت فى اللغة أمثلة كثيرة ، لانقلاب الهمزة عينا ؛ مثل قولهم : « صبأت على القوم وصبعت عليهم ، وهو أن تدخل عليهم غيرهم » ، وقولهم : « انجأفت النخلة وانجعفت ، إذا انقلعت من أصلها » ، وقولهم : « الأُسُن : قديم الشحم . وبعضهم يقول : العُسُن » وغير ذلك[120] .

وفيما يلى بعض أمثلة هذا النوع من التطور الصوتى ، فى صيغة « افعألّ » فى العربية الفصحى :

١ - (ابذعرّ) : يقال : ابذعرّ الناس ، أى تفرقوا وتبدّدوا[121] . ومن أمثلته : قول زُفر بن الحارث :

فَلا أَفْلَحَتْ قَيْسٌ وَلَا عَزَّ نَاصِرٌ
لَهَا بَعْدَ يَوْمِ الْمَرْجِ حِينَ ابْذَعَرَّتِ[122]

وقول الأخطل :

فَطَارَتْ شِلَالًا وابْذَعَرَّتْ كَأَنَّهَا
عِصَابَةُ سَبْيٍ خَافَ أَنْ يَتَقَسَّمَا[123]

وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

فَلَمْ تُغْنِ جَرْمٌ نَهْدَهَا إِذْ تَلَاقَيَا
وَلَكِنَّ جَرْماً فى اللِّقَاءِ ابْذَعَرَّتِ[124]

---

(١١٩) انظر فصل : ألقاب اللهجات العربية ، فيما مضى ص ١٣٥

(١٢٠) انظر : الإبدال لأبى الطيب ٢/٥٥٥ وما بعدها .

(١٢١) الأفعال لابن القطاع ١/١١١ واللسان (بذعر) ٥/١١٥

(١٢٢) اللسان (بذعر) ٥/١١٥

(١٢٣) ديوانه ص ٢٤٩ وغريب الحديث لأبى عبيد ٢/٢٢٠ واللسان (بذعر) ٥/١١٥

(١٢٤) ديوانه ق ١٢/٩ ص ٤٥ وشرح الحماسة للمرزوقى ١/١٦١

والعلاقة واضحة بين هذه الكلمة ، ومادة (بذر) ، ومنها : بَذَر الحَبَّ : نثره وفرّقه ، وبذر الله الخلق : بثّهم وفرّقهم[١٢٥] ؛ فأصلها : « ابذارّ » ثم « ابذأرّ » ثم « ابذعرّ » ، على النحو الذى شرحناه من قبل .

٢ - (ارثعنَّ) : يقال : ارثعنَّ المطر ، إذا كثر ، وارثعنَّ إذا استرخى . وكل مسترخ متساقط : مرثعنّ[١٢٦] . ومن أمثلته قول النابغة الذبيانى :

وَكُـلُّ مُلِثٍّ مُكْفَهِـرٍّ سَحَابُـهُ
كَمِيشِ التَّوالِي مُرْثَعِنِّ الأَسَافِـلِ[١٢٧]

وقول رؤبة :

كَأَنَّـهُ بَعْـدَ رِيَـاحٍ تَدْهَمُـهْ
وَمُرْثَعِنَّـاتِ الدُّجُـونِ تَثِمُـهْ[١٢٨]

وقول أبو الأسود العجلى :

لَمَّـا رَآهُ جَسْرَبـاً مُجِنَّـا
أَقْصَرَ عَنْ حَسْنَـاءَ وَارْثَعَنَّـا[١٢٩]

وقول الراجز :

ضَرْباً وَلَاءً غَيْرَ مُرْثَعِنِّ[١٣٠]

والمادة الثلاثية ، تشهد بتطور هذه الكلمة عنها ، فالرَّثَانُ : قطرات المطر ، يفصل بينها سكون[١٣١] ، فأصل هذه الكلمة على هذا : « ارثانّ المطر » ثم « ارثأنّ » ثم « ارثعنّ » .

---

(١٢٥) اللسان (بذر) ٥/١١٤

(١٢٦) اللسان (رثعن) ١٧/٣٤

(١٢٧) ديوانه ق ٥/٣ ص ٦٥ واللسان (رثعن) ١٧/٣٤

(١٢٨) ديوانه ق ٥٥/١٣ - ١٤ ص ١٤٩ ونسبا لذى الرمة فى اللسان (رثعن) ١٦/٣٤ وليسا فى ديوانه .

(١٢٩) اللسان (رثعن) ١٧/٣٤

(١٣٠) اللسان (رثعن) ١٧/٣٤

(١٣١) اللسان (رثن) ١٧/٣٤

٣ – (ارمعلّ) : يقال : ارمعلّ الثوب وغيره : إذا ابتل ، وارمعلّ الدمع : سال وتتابع قَطَرَانُه[١٣٢] . ومن أمثلته قول مدرك بن حصن الأسدى :

بَكَى جَزَعاً مَنْ أَنْ يَمُوتَ وأَجْهَشَتْ
إِلَيْهِ الجِرِشّى وَارْمَعَلَّ خَنِينُهَا[١٣٣]

وقول الزَّفَيان :

كَنَظْمِ اللُّؤْلُؤِ مُرْمَعِلِّ
تُلُفُّهُ نَكْبَاءُ أَوْ شَمْأَلٌ[١٣٤]

وقول الشاعر :

وَانْصِبْ لَنَا الدَّهْمَاءَ طَاهِى وَعَجِّلَنْ
لَنَا بِشَوَاةٍ مُرْمَعِلٍّ ذُءُوبُهَا[١٣٥]

ولهذه الكلمة علاقة – فيما يبدو – بقولهم : رَمَّل الثوب ونحوه ، إذا لطخه بالدم ، كما يقول : أرمل السهمُ إرمالاً إذا أصابه الدَّمُ فبقى أثره[١٣٦] .

٤ – (اسمعدّ) : يقال : اسمعدّ الرجل ، إذا امتلأ غضبا[١٣٧] . وهى متطورة عن : « اسمأدّ » التى تحدثنا عنها من قبل .

٥ – (اشمعطّ) : قال أبو تراب : سمعت بعض قيس يقول : اشمعطّ القوم فى الطلب ، إذا بادروا فيه وتفرّقوا[١٣٨] . وقد عرفنا هنا أن قبيلة قيس ، ممن يبدلون الهمزة عينا ؛ فأصل الكلمة على هذا : « اشمأطّ

---

(١٣٢) اللسان (رمعل) ٣١٧/١٣
(١٣٣) المعانى الكبير ١٢٠٦/٢ والبارع للقالى ١٢١ واللسان (رمعل) ٣١٧/١٣
(١٣٤) اللسان (رمعل) ٣١٨/١٣
(١٣٥) اللسان (رمعل) ٣١٨/١٣
(١٣٦) اللسان (رمل) ٣١٣/١٣
(١٣٧) اللسان (سمعد) ٢٢٤/٤
(١٣٨) اللسان (شمعط) ٢١٠/٩

القوم » ، وقد تطورت بسبب استخدامها فى الشعر عن : « اشماطّ القوم » . وعلاقتها بالمادة الثلاثية ، تتضح فى قولهم : « جاءت الخيل شماطيط » ، أى متفرقة أرسالا ، وقولهم : « ذهب القوم شماطيط » ، إذا تفرقوا[١٣٩]

٦ – (اشمعلّ) : يقال : اشمعلّت الغارة ، إذا شملت وتفرّقت وانتشرت[١٤٠] . وعلاقتها بمادة « الشمول » واضحة . ويخطىء الخوارزمى[١٤١] ، حين يظن أنه « من اشتعال النار مضموما إليه الميم ، أو من الشموع وهو الطرب ، مضموما إليه اللام » .

ومن أمثلته : قول أوس بن مغراء التميمى :

وَهُمْ عِنْدَ الحُرُوبِ إذَا اشْمَعَلَّتْ
بَنُوهَا ثَمَّ وَالمُتَأَوِّبُونَا[١٤٢]

وقول الطرماح :

فَمَا لَقِيَتْ قَتْلَى تَمِيمٍ شَهَادَةً
وَلَا صَبَرَتْ لِلْحَرْبِ حِينَ اشْمَعَلَّتِ[١٤٣]

وقول الشاعر :

صَبَحْتُ شَبَاماً غَارَةً مُشْمَعِلَّةً
وَأُخْرَى سَأُهْدِيهَا قَرِيباً لِشَاكِرِ[١٤٤]

وقول مرة بن محكان السعدى :

بَنِى أَسَدٍ إنْ تَقْتُلُونِى تُحَارِبُوا
تَمِيماً إذَا الحَرْبُ العَوانُ اشْمَعَلَّتِ[١٤٥]

---

(١٣٩) اللسان (شمعط) ٢٠٩/٩

(١٤٠) اللسان شمعل ٣٩٥/١٣

(١٤١) شروح سقط الزند ١٣١

(١٤٢) الصحاح (شمعل) ١٧٤١/٥ واللسان (شمعل) ٣٩٥/١٣

(١٤٣) ديوانه ق ٣٣/٤ ص ٥٨

(١٤٤) اللسان (شمعل) ٣٩٥/١٣ وتهذيب اللغة ٣٢٦/٣

(١٤٥) الكامل للمبرد ١٩٩/١

وقول الشماخ :

رُبَّ ابْنِ عَمٍّ لِسُلَيْمَى مُشْمَعِلّْ[١٤٦]

٧ – (اقذعرّ) : المقذعرّ هو : المتعرّض للقوم ، ليدخل فى أمرهم وحديثهم ، واقذعرّ نحوهم يقذعرّ ، أى رمى بالكلمة بعد الكلمة وتزحّف إليهم[١٤٧] . ولعل لهذه الكلمة علاقة بمادة (قَذُر) فى العربية !

وقد أبدلت راؤها لاما ، فروى فى اللغة كذلك : « **اقذعلّ**[١٤٨] » بالمعنى نفسه . وقد سبق أن تحدثنا عن الإبدال الواقع بين الراء واللام ، وعرفنا أنه كثير الورود فى العربية . ومن أمثلة « اقذعلّ » : قول الراجز :

إذَا كُفِيتُ أكْتَفِى وَإلَّا
وَجَدْتَنِى أرْمُلُ مُقْذَعِلَّا[١٤٩]

٨ – (اقشعرّ) : يقال : اقشعرّ الجلد ، إذا تقبضّ وارتعد . وعلاقة هذه الكلمة وثيقة بمادة « قشر » ومنها : « الأقشر » وهو الشديد الحمرة ، كأنّ بشرته متقشّرة[١٥٠] » .

٩ – (اقصعلّ) : يقال : اقصعلّت الشمس ، إذا تكبّدت السماء[١٥١] ، أى توسطتها . وللكلمة ارتباط – فيما يبدو – بالقَصْل ، وهو قطع الشيء من وسطه ، أو أسفل من ذلك[١٥٢] .

هذه هى بعض الأمثلة ، التى تطوّرت فيها صيغة « افعألّ » ،

---

(١٤٦) الكامل للمبرد ١٩٩/١
(١٤٧) اللسان (قذعر) ٣٩١/٦
(١٤٨) اللسان (قذعل) ٧١/١٤
(١٤٩) اللسان (قذعل)٧١/١٤
(١٥٠) اللسان (قشعر) ٤٠٤/٦
(١٥١) اللسان (قصعل) ٧٤/١٤
(١٥٢) اللسان (قصل) ٧٣/١٤

فأبدلت فيها الهمزة عينا ، فبدا فى الظاهر انقطاع الصلة بينها وبين أصلها : « افعالّ » .

***

وهناك تطور آخر لصيغة « افعألّ » ، لم يبالغ فى تحقيق الهمزة فيها ، وإنما يميل إلى تسهيلها بعض الشيء ، فتنقلب فى النطق هاء . وإبدال الهمزة هاء أمر تعرفه العربية ؛ فقد روى لنا اللغويون فيها : « أرقت الماء وهرقته » ، و« أرحت الدابّة وهرحتها » و« إيّاك أن تفعل وهيّاك أن تفعل » . وغير ذلك[١٥٣] .

وفيما يلى بعض أمثلة هذا النوع من التطور ، فى العربية الفصحى :

١ – (اتمهلّ) : يقال : اتمهلّ الشيء ، أى اعتدل وانتصب[١٥٤] . وأصل هذه الكلمة : « اتمألّ » التى تحدثنا عنها من قبل ، وقلنا إن لامها منقلبة عن الراء فى : « اتمأرّ » ؛ أى أن الأصل هو : اتمارّ ، ثم اتمأرّ ، ثم اتمألّ ، ثم اتمهلّ . ويخطىء الزَّبيدى[١٥٥] ، حين يرى أن الهمزة فى : « اتمألّ » بدل من الهاء فى : « اتمهلّ » !

ومن أمثلة[١٥٦] هذه الكلمة الجديدة : قول القحيف :

إِذَا مَا الضِّبَاعُ الجِلَّةُ انْتَجَعْتَهُمْ
نَمَا النِّىُّ فِى أَصْلَائِهَا فَاتْمَهَلَّتِ

---

(١٥٣) انظر : الإبدال لأبى الطيب ٢/٥٦٩ وما بعدها ، والقلب والإبدال لابن السكيت ٢٥ – ٢٩

(١٥٤) اللسان (تمل) ١٣/٧٤ (مهل) ١٤/١٥٧

(١٥٥) تاج العروس (مهل) ٨/١٢٢

(١٥٦) انظر فى هذه الأمثلة : اللسان (مهل) ١٤/١٥٧ وتاج العروس (مهل) ٨/١٢٢

وقول معن بن أوس :

لُبَاخِيَةٌ عَجْزَاءُ جَمٌّ عِظَامُهَا
نَمَتْ فِي نَعِيمٍ وَاتْمَهَلَّ بِهَا الجِسْمُ

وقول كعب بن جُعيل :

فى مَكَانٍ لَيْسَ فِيهِ بَرَمٌ
وفِرَاشٌ مُتَعَالٍ مُتْمَهِلّ

وقول حبيب بن المرقال العبدى :

لَقَدْ زُوِّجَ المِرْدَادُ بَيْضَاءَ طَفْلَةً
لَعُوباً تُنَاغِيهِ إذَا مَا اتْمَهَلَّتِ

وقول عقبة بن مكدَّم :

فِي تَلِيلٍ كَأَنَّهُ جِذْعُ نَخْلٍ
مُتْمَهِلٍّ مُشَذَّبُ الأُكْرَابِ

وقول منظور بن مرثد الأسدى :

وَعُنُقٍ كَالْجِذْعِ مُتْمَهِلِّ

٢ - (اجرهدّ) : يقال : اجرهدّت الأرض ، إذا لم يوجد نبت ولا مرعى ، واجرهدّت السنة : اشتدت وصعبت[١٥٧] . والعلاقة واضحة بين هذه الكلمة ، وقولهم : أرض جرداء ، أى لا نبات فيها . ومعنى هذا أننا نتصور الأصل : اجرادّت الأرض ، ثم اجرأدّت ، ثم اجرهدّت . ومن أمثلته قول الأخطل :

مَسَامِيحُ الشِّتَاءِ إذَا اجْرَهَدَّتْ
وعَزَّتْ عِنْدَ مَقْسِمِهَا الجَزُورُ[١٥٨]

---

(١٥٧) اللسان (جرهد) ٩٢/٤

(١٥٨) ديوانه ص ٢٠٥ واللسان (جرهد) ٩٢/٤

٣ - (ادرهمّ) : يقال : ادرهمّ ، أى كبر فى السن . والمدرهمّ الساقط من الكبر(١٥٩) . ومنه قول كثير عزّة :

نَعَيْـنَ وَلَـوْ أَسْمَعْـنَ أَعْـلاَمَ صِنْـدِدٍ
وَأَعْلاَمَ رضَوْىَ مَا يَقُلْنَ ادْرَهَـمَّتِ(١٦٠)

وقول القُلاخ :

أَقْسَمْتُ لا أَسْأَمُ حَتَّـى يَسْأَمَـا
وَيَدْرَهِـمَّ هَرِمـاً وَأَهْرَمَـا(١٦١)

ولا شك أن هذه الكلمة ، ذات علاقة بكلمة : « الأدرم » ، وهو الذى لا أسنان له . ومنه الفعل : دَرِمَتْ أسنانُه ، أى تحاتّت(١٦٢) .

٤ - (ادلهمّ) : يقال : ادلهمّ الليل والظلام ، إذا كثف واسودّ(١٦٣) . وهذا الفعل روت لنا المعاجم كل مراحل حياته ؛ ففيها : « الأدلم الشديد السواد . وقد ادلامّ الرجل(١٦٤) » . وهذا هو الأصل على وزن « افعالّ » ، وفيها أيضا : « ادلأمّ الشيء : اسود(١٦٥) » وهذه هى المرحلة الثانية ، على وزن : « افعألّ » .

٥ - (ازمهرّ) : الزمهرير : شدة البرد ، ويقال : ازمهرّ اليوم

---

(١٥٩) اللسان (درهم) ١٥/٨٩
(١٦٠) ديوانه ق ٣/٥٤ ص ٣٢٣
(١٦١) اللسان (درهم) ١٥/٨٩
(١٦٢) اللسان (درم) ١٥/٨٧
(١٦٣) اللسان (دلهم) ١٥/٩٦
(١٦٤) اللسان (دلم) ١٥/٦٤
(١٦٥) الأفعال لابن القطاع ١/٣٨١

ازمهراراً ، إذا اشتد برده[١٦٦] . والعلاقة شديدة بينه وبين زَمْر الريح ، بمعنى صفيرها ، وهو يصاحب شدة البرد ، فى بعض الأحيان .

٦ - (اسلهبّ) : يقال : فرس مسلهبّ ، يعنى : طويل العظام[١٦٧] . والعلاقة واضحة بينه وبين الثلاثى فى قولهم : رُمح سَلِب ، أى : طويل[١٦٨] .

٧ - (اسمهدّ) : يقال : اسمهدّ السنام ، إذا اعظم وامتلأ[١٦٩] . وهذه الكلمة حلقة أخرى ، من تطور الكلمة السابقة : « اسمأدّ » ، التى عرفنا من قبل ، أنها تطورت كذلك إلى : « اسمعدّ » بالمعنى نفسه .

٨ - (اسمهرّ) : يقال : اسمهرّ الحبل ، إذا اشتد . والاسمهرار : الصلابة والشدّة[١٧٠] . ومن أمثلته : قول رؤبة :

إِذَا اسْمَهَرَّ الحَلِسُ المُغَالِثُ[١٧١]

والعلاقة واضحة بينه وبين قول العرب : « سَمَرَه يَسْمُره سَمْراً ، وسَمَّره ، إذا شدّه . والمسمار هو ما شدّ به الشيء[١٧٢] » .

٩ - (اكفهرّ) : المكفهرّ من السحاب الذى يغلُظ ويسودّ ،

---

(١٦٦) اللسان (زمهر) ٤١٨/٥

(١٦٧) اللسان (سلهب) ٤٥٧/١

(١٦٨) اللسان (سلب) ٤٥٥/١

(١٦٩) اللسان (سمهد) ٢٠٥/٤

(١٧٠) اللسان (سمهر) ٤٧/٦

(١٧١) ديوانه ق ٢١/١٢ ص ٢٩ واللسان (سمهر) ٤٧/٦

(١٧٢) اللسان (سمر) ٤٤/٦

ويركب بعضهُ بعضاً[١٧٣] . ومن أمثلته قول الطرماح :

تَرَكْتُمْ غَدَاةَ المِرْبَدَيْنِ نِسَاءَكُمْ
لِقَحْطَانَ لَمَّا أَبْرَقَتْ وَاكْفَهَرَّتِ[١٧٤]

والعلاقة واضحة بينه وبين قول العرب « الكفر » بمعنى : الظلمة ، لأنها تستر ما تحتها .

★★★

هذه هى بعض صور التطور فى صيغة (افعأل) ، التى يرجع السبب فى وجودها فى العربية ، إلى الوزن الشعرى ، وعدم قبوله لبعض المقاطع الجائزة فى النثر . ولا يفوتنا هنا ، أن نشير إلى أن الكلمة ، بعد أن تشيع على الألسنة ، تأخذ مجراها الطبيعى فى اللغة ، باستعمال باقى المشتقات منها ؛ فلا يعترض علينا بكلمات مثل : القُشَعْرِيرة ، والطمأنينة ، والاكفهرار ، والزمهرير ، وغير ذلك ؛ لأن هذه الكلمات وأمثالها ، مأخوذة من أفعالها ، بعد أن حدث فيها التطور الذى شرحناه .

★★★

وبعد ، فهذا أحد آثار الوزن الشعرى على أبنية العربية . وهناك الكثير من الآثار الأخرى ؛ فالوزن الشعرى هو المسئول مثلا عن وجود (الكلكال) إلى جانب (الكلكل) بمعنى : الصدر ، و(درهام) إلى جانب (درهم) و(خاتام) إلى جانب (خاتم) ، وغير ذلك مما سبق أن أشرنا إلى بعضه فى الفصل السابق .

وقد روى النحويون بعض الصيغ العربية ، التى وردت على غير

---

(١٧٣) اللسان (كفهر) ٤٦٧/٦ والأفعال لابن القطاع ١١١/٣

(١٧٤) ديوانه ق ٥٢/٤ ص ٦٥

المألوف فيها ، والقياس الجارى فى أمثالها ، ووقفوا أمامها حيارى ، وتكلفوا لها التأويل والتخريج ، وفاتهم فى كل ذلك ، أن السبب فى مخالفتها المألوف ، هو استخدامها فى الشعر ، ذلك الاستخدام الذى حوَّلها عن أصلها ؛ لتنسجم مع الوزن الشعرى ، ثم خرجت من الشعر إلى النثر ، وشاعت على الألسنة ، فى صورتها الجديدة .

من ذلك قولهم : (لم أُبَلْ) و(ولا أدْرِ)[١٧٥] ؛ فقد كثر استعمالهم لهاتين الكلمتين فى النثر بهذه الصورة . والقياس فيهما : (لم أُبالِ) و(لا أدرى) . وهم يعللون للحذف فيهما بكثرة الاستعمال[١٧٦] . ويقول المبرد فى سبب هذا الحذف : « وأما لم أُبَلْ ، فإنه كثر فى كلامهم ، وكأنّ الأصل مطَّرح ، وكأنه يقول فى الوقف : لم أُبَالْ ، فيلتقى ساكنان : الألف واللام ، فحذف الألف لالتقاء الساكنين ، ولولا كثرته لم يحذف ؛ لأنه يلتقى ساكنان فى الوقف[١٧٧] » .

كما يقول فى تعليل نشوء : (لا أدْرِ) : « وقولهم : لا أدر ، ردىء ، وإنما كان يقف عليه ، فوصله على وقفه[١٧٨] » .

أما نحن ، فإننا نرى أن الشعر ، هو المسئول عن نشوء هاتين الصيغتين ، من صيغ الكلام فى العربية ؛ فقد وردت (لم أُبَلْ) فى قول الشاعر :

وَلَـوْلاَ ابْنَـةُ الوَهْبِـيِّ رَيْدَةُ **لَمْ أُبَـلْ**
طِوَالَ اللَّيَالِي أَنْ يُحَالِفَـهُ الْمَحْـلُ[١٧٩]

---

(١٧٥) انظر فى ذلك : سيبويه ١/٨ ؛ ١/١٣٤ ؛ ١/٣١٠

(١٧٦) انظر : المحتسب ١/٣٧ وعنه بتحريف فى الأشباه والنظائر للسيوطى ١/١١

(١٧٧) المقتضب ٣/١٦٧

(١٧٨) المقتضب ٣/١٦٩

(١٧٩) بلاد العرب للغدة الإصفهانى ٣٨

وقول الآخر :

غُلَامٌ إِذَا مَا هَمَّ بِالْفَتْكِ **لَمْ يُـلْ**

أَلَامَتْ قَلِيلًا أَمْ كَثِيراً عَوَاذِلُهْ[١٨٠]

وقول الفرزدق :

لَوْلَا يَدَا بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ **لَمْ أُبَـلْ**

تَكَثُّرَ غَيْظٍ فِى فُؤَادِ الْمُهَلَّبِ[١٨١]

وقول الشاعر :

لَوْ مَا هَوَى عِرْسٍ كُمَيْتٍ **لَمْ أُبَـلْ**

... ... [١٨٢]

وقد استخدم الفراء عبارة : « لم أبل » فى كلامه هو ، دون ضرورة داعية ، حين قال : « الذى قبله مؤقت ، **فلم أُبَلْ** أن يخرج بطرح (من) كالحال[١٨٣] » ! وكذلك استخدمها ابن خالويه فى كلام له ، فيه : « ولم يُبَلْ[١٨٤] » .

كما وردت عبارة : (لا أدرِ) فى قول أبى خراش الهذلى :

وَلَا أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ

خَلَا أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَاجِدٍ مَحْضِ[١٨٥]

***

(١٨٠) الكامل للمبرد ٢٠٦/١

(١٨١) ديوانه ص ١٠

(١٨٢) معانى القرآن للفراء ٨٤/٢

(١٨٣) معانى القرآن للفراء ١٠٤/٢

(١٨٤) إعراب ثلاثين سورة ١٥٨

(١٨٥) ديوان الهذليين ١٢٣٠/٣

الباب الرابع

الثراء اللغوى فى العربية



الفصل الأول

المعاجم العربية

نظرة تاريخية

يبدأ تاريخ علم اللغة العربية بالقرآن الكريم ،وقد بدأت الدراسات المعجمية فى العربية – ككل الدراسات اللغوية عند العرب – لخدمة الدين الإسلامى ، ولغرض فهم القرآن الكريم ، المصدر الأول للتشريع الإسلامى ودستور المسلمين ؛ فالقرآن الكريم ، هو محور الدراسات العربية كلها كما عرفنا من قبل – وهو الأساس الذى من أجله قامت هذه الدراسات .

وقد تحدثنا من قبل ، عن ارتباط نشأة المعاجم العربية ، بالبحث عن معانى الألفاظ الغريبة ، فى القرآن الكريم ، وعرفنا منهج ابن عباس ، رضى الله عنه ، فى تفسير ألفاظ القرآن الكريم بالشعر ،وعددنا تفسير ابن عباس للقرآن ، على هذا النحو ، نواة للمعاجم العربية .

ونتحدث فيما يلى عن أنواع المعاجم العربية ، بالنسبة للنظام الذى اتبعته ، فى ترتيب الكلمات بها ، فهناك ثلاثة أنواع من المعاجم :

١ – نوع رتب الكلمات ،على حسب المخارج الصوتية ، وطريقة التقاليب ،مثل : كتاب العين للخليل بن أحمد ، وتهذيب اللغة للأزهرى ، والمحكم لابن سيدة الأندلسى .

٢ –ونوع رتب الكلمات ترتيبا أبجديا (بحسب الأصل الأخير ، أو الأول للكلمة) ؛ مثل : الصحاح للجوهرى ، ولسان العرب لابن

منظور ، والقاموس المحيط للفيروزابادى ، وأساس البلاغة للزمخشرى ، والمصباح المنير للفيومى .

٣ – ونوع ثالث رتب الكلمات بحسب الموضوعات ؛ مثل : الغريب المصنف لأبى عبيد القاسمّ بن سلام ، وفقه اللغة للثعالبى ، والمخصص لابن سيدة الأندلسى .

وقبل أن نتحدث عن المعاجم العربية الكبْيرة ، نود أن نلقى هنا نظرة على تلك الرسائل اللغوية الصغيرة ، التى استقى اللغويون العرب ، ولا سيما الأقدمون منهم ، مادتها من أفواه البدو . وبعض أسماء هؤلاء البدو ، معروف لنا من مؤلفات هؤلاء اللغويين . ومن هؤلاء البدو : أبو ثروان العكلى ، وأبو الجراح العقيلى ، وأبو حزام العكلى ، وأم الحمارس البكرية ، وأبو شنبل الأعرابى ، وأبو صاعد الكلابى ، وأبو الغمر العقيلى ، وغنية الكلابية ، وقريبة الأسدية ، وأبو مرة الكلابى ، وأبو مهدى الباهلى ، وأبو مهديّة الكلابى ... وغيرهم[١] .

فقد كان اللغويون الأقدمون ، يسيحون فى الجزيرة العربية ، يسألون البدو ،ويكتبون عنهم . وقد سأل الكسائى (المتوفى سنة ١٨٩ هـ) الخليل ابن أحمد قائلا : من أين أخذت علمك هذا ؟ فقال : من بوادى الحجاز ونجد وتهامة ، فخرج الكسائى إلى البادية ، ورجع وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبر ، فى الكتابة عن العرب ، سوى ما حفظ[*] .

ولننظر فيما يلى بعض هذه الرسائل اللغوية ، التى وصلت إلينا من مؤلفات هؤلاء اللغويين ؛ فمن بين ما ألفه اللغوى العربى الكبير :«عبد

---

(١) انظر فى هؤلاء البدو وغيرهم : الفهرست لابن النديم ١٦ ومعجم الشعراء للمرزبانى ٥٠٧ – ٥١٥ وإنباه الرواة ٤/١١٤ وما بعدها .

(*) انظر تاريخ بغداد ١/٣٠٤

الملك بن قريب الأصمعى » (المتوفى سنة ٢١٦ هـ) ، بقيت لنا المؤلفات التالية :

١- الإبل .
٢ - الخيل .
٣ - الشاء .
٤ - الوحوش
٥ - الفَرْق .
٦ - خلق الإنسان .
٧ - النبات والشجر .

والكتاب الأول : « **الإبل**[٢] » ، وصل إلينا فى روايتين مختلفتين ، ولا عجب فى ذلك بالنسبة للأصمعى ؛ فقدروى التبريزى[٣] أن الأصمعى أملى كتابه : خلق الإنسان (رقم ٦) ، خمس عشرة مرة ، فكل نسخة من إملائه ، تخالف سائر النسخ فى نقص أو زيادة .

ويتحدث الأصمعى فى كتاب : «الإبل» عن نتاجها وحَلْبها ، وأسماء أعضائها ،وألوانها ، وطريقة ورودها الماء ، وأدوائها ، وسَيْرها ، وغير ذلك .وفيما يلى نص صغير منه (ص ١٤٢) :

« فإذا ألقت (الناقة) ولدها ، فهو ساعة يقع (سَلِيل) ، فإذا وقع عليه اسم التذكير والتأنيث ، فإن كان ذكراً فهو (سَقْب) ، وإن كان أنثى فهو (حائل) . قال أبو ذؤيب :

فَتِلْكَ الَّتِى لَا يَبْرَحُ الْقَلْبَ حُبُّهَا
وَلَا ذِكْرُهَا مَا أَرْزَمَتْ أُمُّ حَائِلِ

وقال الأسدى :

مِنْ عُهْدَةِ الْعَامِ وَعَامٍ قَابِلِ
مَلْقُوحَةٍ فى بَطْنِ نَابٍ حَائِلِ

فإذا قوى ومشى فهو (راشح) ، وهى (المرشح) . وهى (المطفل) ما دام ولدها صغيرا .فإذا ارتفع عن الرشح فهو (الجادل) ، فإذا حمل

(٢) نشره أوجست هفنر A.Haffner فى كتاب : « الكنز اللغوى فى اللسن العربى » – ليبزج ١٩٠٥ م . ص ٦٦ –١٥٧

(٣) شرح حماسة أبى تمام للتبريزى ٦٧

فى سنامه شحما فهو (المُعْكِر) ، وهو فى هذا كله (حُوَار) ، فإذا فُطِم فهو (فَصِيل) ...إلخ .

أما الكتاب الثانى : «**الخيل**[٤]» ،فيبدأ الفصل الأول منه ، بعد إسناد طويل ، بإرادة الخيل للفحل حتى تنتج ، ثم يلى ذلك تسمية ولد الفرس ، من حين ولادته ، حتى يصل سنه إلى خمس سنوات ، وتسمية خلق الخيل جزءًا جزءًا . أما الفصل الثانى ، فهو بعنوان : « ما يستحب فى الخيل » . والفصل الثالث فى : « ما يكره فى الخيل » . ويلى ذلك فصل أخر فى :« صفة مشى الخيل وعَدْوها » ، وفصل خامس فى : «ألوان الخيل » ، يليه فصل عن : «الشِّيات » ، وهى العلامات التى توجد فى الخيل . ويختم الكتاب بذكر الخيل المشهورة ، وأسماء أصحابها . ثم يقصّ الأصمعى بعض القصص عن سباق الخيل وغيرها . ومن أمثلة الكتاب فى باب الشيات (ص ٢٢) :

« منها : الغُرَّة ، وهو بياض الجبهة ، فإذا صغرت فهى قُرحة ، فإذا استطالت وانصبَّت فهى شِمْراخ ، فإذا انتشرت قيل : غُرّة شادخة ، وفرس شادخ الغرة .وقال ابن مفرغ :

شَدَخَتْ غُرَّةُ السَّوَابِــــــــــقِ فِيهِمْ
فى وُجُــوهٍ مَعَ اللِّمـــَامِ الجِعَـــــادِ

فإذا ابيض موضع اللطمة من الفرس ، قيل : لَطِيم ، فإذا ابيضّت جحفلته العليا ، فهو أرثم ، وهى رثماء » .

ولم يكن الأصمعى هو الذى ألف وحده فى الخيل ؛ ففى عصره ألّف كل من : أبى المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) كتابا فى الخيل بعنوان :«نسب الخيل فى الجاهلية والإسلام وأخبارها » ، تحدث فيه عن بعض خيول العرب المشهورة وأخبارها . كما ألف أبو عبدالله محمد بن زياد الأعرابى (المتوفى سنة ٢٣١ هـ) كتابا آخر سماه :

(٤) نشره كذلك أوجست هفنر A.Haffner فى مجلة : SBWA فينا ١٨٩٥ م . ج ١٣٢/١٠

« كتاب أسماء خيل العرب وفرسانها[٥] » ، تحدّث فيه عن خيول القبائل المشهورة ، كخيول قريش وبنى أسد وغيرهما . كما ألّف أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى (المتوفى سنة ٢٠٩ هـ) «كتاب الخيل[٦]» ، ويمتاز هذا الكتاب عن غيره ، من الكتب المؤلفة فى الخيل ، بأن فيه فصلا طويلا (ص ١٣٦-١٧٣) عن الأشعار التى قيلت فى وصف الخيل . وكذلك ألّف على بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسى (من علماء القرن الثامن الهجرى) كتابا فى الخيل ، بعنوان : « حلية الفرسان وشعار الشجعان[٧] » .

ونعود الآن مرة أخرى ، إلى كتب الأصمعى ،**فالكتاب الثالث وهو** : «**الشاء**[٨]» ،هو الكتاب الوحيد الباقى لنا ، فى وصف حمل الغنم ، ونتاجها ، وحلبها ، ومرضها ، وعيوبها . وفيما يلى نص منه (ص ٨) :

« فإذا أكل ولدها من الأرض ، قيل : قارم ، وقد قَرَمَ يَقْرِمُ قَرْمًا ، أى أكل الحَمَلُ من الأرض ، فإذا أرادوا أن يفطموه من اللبن ، قيل : افطموه ، فإذا فُعل ذلك به ،فهو الفَطِيم .ومعنى الفَطْم : القطع ؛ يقال : فطم الحبل وما أشبهه فطما ، فإذا انتفخ جوفها من الماء والشجر ، فهى جَفْرَة ، والذكر جَفْر . والحُلَّان : الجدى الصغير ، فإذا تحرّك الجدى ونبت قرناه ، فهوعَتُود ، وجمعه عِتْدَان . فإذا أدرك السِّفاد فهو عريض ، وجمعه عِرْضان ، فإذا أتت عليه ثمانية أشهر ، أو تسعة ، أو نحوها ، قيل : قد أَجْذَع ، وهو جَذَع ، وهى جَذَعة » .

---

(٥) نشره هو والكتاب الذى قبله : « ليڤى دلاڤيدا » G. Levi Della Vida فى مجموعة بعنوان : Les Livres des Chevaux — ليدن ١٩٢٨ م .

(٦) نشر فى حيدر آباد بالهند سنة ١٣٥٨ هـ .

(٧) نشر مصورا فى باريس سنة ١٩٢٢ م . ثم نشره محمد عبد الغنى حسن بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م .

(٨) نشره « أوجست هفنر » A.Haffner فى مجلة SBWA ڤينا ١٨٩٦ م . ج ١٣٣/٦

والكتاب الرابع : « **الوحوش**[٩]» ، عالج فيه الأصمعى صفة الحمار الوحشى ، والظبى ، والوعل ، والنعام ، والأسد ، والذئب ، والضبع ، والثعلب ، والأرنب البرّى . وفيما يلى باب أسماء الثعالب فيه (ص ٣٧٨) :

«يقال : ثعلب وثُعالة . ويقال للثعلب : الهِجْرِس . ويقال له : سَمْسَم . قال :

... ... وأشباه الهجارس فى القتال

ويقال لولد الثعلب : التَّتْفُل مثل : يَعْفُر . قال امرؤ القيس :

لَهُ أيطَلاَظَبْــي وَسَاقَــا نَعَامَــةٍ
وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

والصَّيْدَن : لم أسمعه إلا فى شعر كثير . ويقال للأنثى من الثعالب : الثرملة » .

وقد ألّف مثل تأليف الأصمعى هذا ، محمد بن المستنير قطرب (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) .وعنوان كتابه : « ما خالف فيه الإنسان البهيمة فى أسماء الوحوش وصفاتها[١٠] » .وقد ألّف « قطرب » هذا كتابا آخر لطيفا ، بعنوان : « المثلثات » . وليس هذا الكتاب فى الهندسة ، كما قد يتبادر إلى الذهن من عنوانه ، وإنما هو فى الكلمات التى وردت عن العرب ، بثلاث حركات فى حرف واحد منها ، فيتغيّر المعنى تبعا لذلك ؛ مثل : الغَمر : الماء الكثير – الغِمْر : الحِقْد – الغُمْر : الرجل الجاهل . ومثل : الكَلَام : الحديث – الكِلام : الجروح – الكُلام : الأرض الوعرة . ومثل : المَسْك : الجِلد – المِسْك : الطِّيب – المُسْك : الطعام .

والكتاب الخامس : « **الفرق**[١١]» ، يتحدث فيه الأصمعى عن

---

(٩) نشره « رودلف جاير » R.Geyer فى مجلة SBWA ڤينا ١٨٨٨ م ج ١١٥/١

(١٠) نشره « جاير » كذلك ، وجعله ملحقا لكتاب الأصمعى فى الوحوش .

(١١) نشره « موللر » D.H.Müller فى مجلة SBWA ڤينا ١٨٧٦ م . ج ٨٣

الفرق بين الإنسان والحيوان ، فى تسمية الفم ، والشفة ، والأنف ، والظفر ، والرجل ، والصدر ، والثدى ، والفرج ، والمخاط ، والبصاق ، والعرق ، والجلوس ، والتغوّط ، والنكاح ، والحمل ، والولادة ، والأولاد ، والأصوات . وفيما يلى مثال من فصل الرِّجل (ص ٢٤٠) :

«وهى رِجْل الإنسان ، والجمع الأرجل . ومثله قدمه ، والجمع أقدام . والحافر من الفرس فى موضع القدم من الإنسان ، والجمع الحوافر . والخف من البعير ، والجمع أخفاف .ويقال : الخف ، للنعامة أيضا . والظلف من الشاة والبقر والظباء ، والجميع أظلاف » .

والكتـــاب السادس هو :« خلـــق الانسان[١٢]» ، ويصف الأصمعى فيه بعد مقدمة عن الحمل ، تقلب أحوال الإنسان ، منذ ولادته ، إلى أن يصير هرما – أعضاء الإنسان المختلفة ، بالترتيب ، مبتدئا بالرأس حتى القدم ، مستشهدا بالشعر على كثير من الكلمات التى يذكرها – على حسب عادته . ومن أمثلة (ص ٢٠٨) :

« وفى الأصابع : الرَّوَاجب ، واحدتها راجبة ، وهى السُّلَامَيَات ظُهُورُها .قال النابغة :

عَلَـــى عَارِفَـــاتٍ لِلطِّعَـــانِ عَوَابِسٍ
إِذَا عَرَضُوا الخَطِّـــىَّ فَوْقَ الـــرَّوَاجِبِ

وفى الكف : البَرَاجم ، والواحدة منها : بُرْجُمة ، وهى ملتقى رءوس السُّلَامَيَات ، من ظهر الكف ، إذا قبض الإنسان كفّه ، نَشَزَت وارتفعت . وفى الكفّ : الأشاجع ، وهى العصبات التى على ظهر الكفّ ، تتصل ببطون الأصابع ، والواحد أشجع . قال ذو الرمة :

أَغَـــذَّ بها الإِدْلَاجَ كُلُّ شَمَـــرْدَلٍ
مِنَ الْقَوْمِ ضَرْبُ اللَّحْمِ عَارِى الأَشَاجِعِ»

(١٢) نشره « أوجست هفنر A.Haffner » فى مجموعته : « الكنز اللغوى فى اللسن العربى » ليبزج سنة ١٩٠٥ م . ص ١٥٨ – ٢٣٢

وقد ألّف في موضوع : «خلق الإنسان[١٣]» ثابت بن أبي ثابت (من علماء القرن الثالث الهجرى) . ويعتمد ثابت فى كتابه :« خلق الإنسان[١٤]» على الأصمعى كثيرا ، غير أن كتاب الأصمعى ، لا يبلغ نصف ما فى كتاب ثابت ، من حيث اللغة والشواهد والتفصيل ، ونسبة ما فيه من الشواهد إلى قائليه . ومن أمثلته فى باب العيوب فى العين (ص ١١٦) :

« وفى العين : الحَوَل والقَبَل ... فالحَوَل : أن تكون كأنها تنظر إلى الحِجَاج . والقَبَل كأنها تنظر إلى عُرْض الأنف . وقال ابن الأعرابى : الحَوَل أن تميل الحدقة إلى اللحاظ ، والقَبَل أن تميل إلى المُؤْق . وفى العين : العَمَى والعَوَر والكَمَهُ ... والكَمَهُ : أن يولد الولد لايبصر شيئا » .

وقد ألف فى هذا الموضوع كذلك : أبو إسحاق إبراهيم بن السَّرِيّ الزَّجّاج (المتوفى سنة ٣١٠هـ) . وفى كتابه : « خلق الإنسان[١٥]» ، يصف الزجاج فى ٣٤ فصلا ، أعضاء الإنسان من الرأس إلى القدم ، وصفا لغويا . وهو متأثر بكتاب : « خلق الإنسان » للأصمعى ، تأثرا كبيرا ، فالمقارنة بين الكتابين تبين أن الزجّاج ، حذف من كتاب الأصمعى التعبيرات المكررة ، والاستطرادات ، والشواهد الشعرية إلا فى النادر ، والمقدمة والخاتمة ، وأضاف إليه فصلين صغيرين ، عن : الاست ، وفرج المرأة .

وممن ألف فى : « خلق الإنسان » كذلك : أبو الحسين أحمد بن فارس (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) . وكتابه يسمى : « مقالة فى أسماء أعضاء الإنسان[١٦]» ، وهو كتاب مختصر جدا ، ليس فيه شاهد شعرى واحد .

(١٣) وانظر كذلك : التأليف فى خلق الإنسان ، للدكتورة وجيهة السطل – دمشق ١٩٧٦ م .
(١٤) نشره عبد الستار أحمد فراج ، فى الكويت سنة ١٩٦٥ م .
(١٥) نشره الدكتور إبراهيم السامرائى فى بغداد سنة ١٩٦٣ م .
(١٦) نشره الدكتور فيصل دبدوب فى دمشق سنة ١٩٦٧ م .

ومن المخطوطات الباقية فى موضوع : « خلق الإنسان » كذلك : كتاب أبى عبدالله محمد بن عبدالله الخطيب الإسكافى (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) ، ويعتمد فيه على كتاب الأصمعى كثيرا[١٧] . ومن المخطوطات كذلك : كتاب جلال الدين السيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ) ، ويسمى : « غاية الإحسان فى خلق الإنسان » ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

وآخر كتاب بقى لنا من كتب الأصمعى اللغوية ، هو كتاب : « **النبات والشجر**[١٨] » . وفى هذا الكتاب ، يكتفى الأصمعى بذكر أنواع النبات المعروفة عند العرب ، بلا شرح أحيانا ؛ كقوله مثلا فى : باب ما ينبت فى السهل (ص ٤٠) :

« ومما ينبت فى السهل : العَرْفَج ، والغَضْر ، واحدته الغَضْرَة . والنُّعْضُ واحدته نُعْضَة . والأفانى واحدته أفانية . والسُّطَّاح واحدته السُّطَّاحة . والفَنَا وهو عنب الثعلب . والحَلَمَة » .

وممن ألّف مثل هذا التأليف كذلك : أبو زيد سعيد بن أوس الأنصارى (المتوفى سنة ٢١٤ هـ) فله كتاب يسمى : « الشجر[١٩] » ، وأبو حنيفة الدينورى (المتوفى سنة ٢٨٠ هـ) ، فله كتاب يسمى : « النبات[٢٠] » .

---

(١٧) منه مخطوطتان فى المتحف العراقى ببغداد ، والمكتبة الظاهرية بدمشق . وقد حققناه وأعددناه للنشر .

(١٨) نشره « أوجست هفنر » A.Haffner والأب « لويس شيخو اليسوعى » فى مجموعة بعنوان : « البلغة فى شذور اللغة » — بيروت سنة ١٩١٤ م . ص ١٧ — ٥٩ ثم نشره عبد الله يوسف الغنيم بالقاهرة ١٩٧٢ م .

(١٩) هذا الكتاب نشره « ناجلبرج » S.Nagelberg سنة ١٩٠٩ م ، اعتماداً على مخطوطة وحيدة ، تحمل اسم ابن خالويه (المتوفى سنة ٣٧٠ هـ) ، غير أنه عاد فأثبت فى مقدمته (ص ٣ —٩) أن الكتاب لأبى زيد الأنصارى ، وإن كان قد وضع اسم ابن خالويه ، فى عنوان الكتاب بالعربية ، على أنه المؤلف .

(٢٠) نشر « لوين » Lewin قطعة من الجزء الخامس منه ، فى ليدن سنة ١٩٥٣ م . ثم نشر الجزء الثالث مع النصف الأول من الجزء الخامس منه ، فى ڤيسبادن سنة ١٩٧٤ م .

ويعزى للأصمعي عدا ما ذكرنا ، كتابان آخران فى اللغة مطبوعان ، هما كتاب :« الأضداد[٢١] » ، وكتاب : « النخل والكَرْم[٢٢] » . غير أن من يدرس الكتاب الأول ، ويقارنه بكتاب : « الأضداد » لابن السكيت[٢٣] ، يدهش حين يرى الاتفاق الكبير بين هذين الكتابين . وقد لاحظ« هفنر » ذلك ، غير أنه قال فى مقدمة كتاب ابن السكيت : « يمكننا اعتبار كتاب الأضداد ، لابن السكيت ، كرواية ثانية لكتاب الأصمعي[٢٤] » .

وهذا الكلام الذى يقوله« هفنر » غير صحيح ، فإن كتاب « الأضداد » الذى ينسب للأصمعي ، يفيض بالرواية عن أبى زيد ، والأموى ، وابن الأعرابى ، وأبى عبيدة ، والفراء ، والأثرم . وإن من يدرس مؤلفات الأصمعي ، يعرف أنه لم يرو عن هؤلاء الرجال شيئا ، وعلى الأخص عن خصميه : ابن الأعرابى ، وأبى عبيدة ، فلا يوجد فى أى كتاب من كتبه أى ذكر لهم . هذا إلى أن الأخير ، وهو الأثرم ، شيخ لابن السكيت ، لا للأصمعي .

وإذا كنا نرى هذه الأسماء ، ترد بعينها فى أماكن مطابقة ، فى كتاب ابن السكيت ، فإن المرء يستطيع الحكم بأن كتاب « الأضداد » ، الذى ينسب إلى الأصمعي ، ليس إلا رواية أخرى لكتاب ابن السكيت .

أما أن تكون المخطوطة التى اعتمد عليها « هفنر » فى نشر الكتاب ، كانت تحمل اسم الأصمعي ، فأمر سهل التعليل ؛ لأن الكتاب يبدأ بعبارة : « قال الأصمعي » ، فابن السكيت يبدأ كتابه بالرواية

---

(٢١) نشره « أوجست هفنر » A.Haffner فى مجموعة بعنوان : « ثلاثة كتب فى الأضداد » - بيروت ١٩١٣ م . ص ٥ - ٦١

(٢٢) نشره « أوجست هفنر » A.Haffner والأب « لويش شيخو » فى كتاب : « البلغة فى شذور اللغة » - بيروت ١٩١٤ م . ص ٦٣ - ٩٨

(٢٣) نشره فى مجموعة : « ثلاثة كتب فى الأضداد » السابقة .

(٢٤) هامش صفحة ١٦٣

عن الأصمعى ، فجاء أحد النساخ ، وحسب الكتاب كله للأصمعى ، فنسبه إليه . وأغلب الظن أن ذلك قد حدث هنا ، ويحدث فى حالات مماثلة ، بسبب ضياع ورقة العنوان .

ولا يعنى ما قلناه هنا أن الأصمعى ، لم يؤلف كتابا فى « الأضداد » ؛ فإن كل المصادر التى ترجمت له ، تذكر أنه ألف مثل هذا الكتاب[٢٥] ، غاية ما هناك أنه ضاع ولم يصل إلينا ، وليس هو على أية حال ، ذلك الكتاب المطبوع ، الذى نشره « هفنر » منسوبا إليه[٢٦] .

أما الكتاب الثانى : « النخل والكَرْم » ، فقد قال عنه « هفنر » فى المقدمة : « هذا الفصل ورد فى النسخة الدمشقية ، من الصفحة ٢٦١ — ٢٩٣ وليس فى أول الفصل ذكر اسم الأصمعى ، ولكن صاحب لسان العرب ، نقل كثيرا من هذا الكتاب بحرفه الواحد ، وهو يعزوه مطلقا إلى الأصمعى ، فلا نتمارى فى نسبه إليه » .

غير أن « لويس شيخو » يشك فى هذا الكلام ، حين يقول : « أما نسبة الدكتور هفنر هذا الكتاب إلى الأصمعى ، فهو على ما نظن على التغليب ؛ لأن نسختنا التى أخذ عنها ، لا تصرح باسم الأصمعى . ومن المحتمل أن يكون الكتاب ، لأبى عبيد معاصر الأصمعى . ومما يحملنا إلى نسبته لأبى عبيد ، أن الشروح للمفردات ، توافق ما جاء فى لسان العرب ، والمخصص لابن سيدة ، منسوبا لأبى عبيد ، أكثر منها للأصمعى ، ومن المحتمل أيضا أن يكون الكتاب لأبى حاتم ، تلميذ الأصمعى » .

وإننا حين ندرس كتاب : « النخل والكرم » هذا ، يتبين لنا أنه فى

---

(٢٥) انظر مقدمة تحقيقنا لكتابه : « اشتقاق الأسماء » ص ٢٧ — ٢٨

(٢٦) انظر كذلك مقالتنا : « كتاب الأضداد للأصمعى ليس للأصمعى » فى مجلة : « المكتبة » العراقية (نوفمبر ١٩٦٦ م) ، وكتاب محيى الدين توفيق : ابن السكيت اللغوى ٢٤٧ — ٢٤٨ وقد حاول محمد حسين آل ياسين عبثا تصحيح نسبة هذا المطبوع إلى الأصمعى ، وهو منه برىء . (انظر كتابه : الأضداد فى اللغة ٣٦٧ — ٣٧٥) .

الواقع كتابان مستقلان ، لا علاقة لأحدهما بالآخر ، وهما :« كتاب النخل » و« كتاب الكرم » .

ودراسة الكتاب الأول ، تقودنا إلى اليقين ، بأن هذا الكتاب ، ليس إلا قطعة من كتاب : « الغريب المصنف » ، لأبى عبيد القاسم بن سلام – وسنتحدث عنه بالتفصيل فيما بعد – وذلك بعد حذف أسماء الرواة ، ومعظم الشواهد الشعرية . والمثال التالى يوضح ذلك على الوجه الأكمل :

النخل ٣/٧٠ : « ومن نعوت النخلة فى حملها : إذا كانت تدرك فى أول النخل ، فهى البَكُور ، وهنّ البُكُر . والمُبْتِلُ : الأم يكون لها فَسِيلة ، وقد انفردت ، واستغنت عن أمها . ويقال لتلك الفسيلة : البَتُول . والبَكيرة مثل البَكُور . والمِسْلاخ : التى نبتت (كذا) بواسرها . والخَضِيرة : التى نبت (كذا) بُسْرها وهو أخضر . والمئخار . التى يبقى حملها إلى آخر الصِّرام » .

الغريب المصنف ١٨/٢٥٩ : « باب نعوت النخل فى حملها : **الأصمعى** : إذا كانت تدرك فى أول النخل ، فهى البَكُور ، وهنّ البُكُر . **وأنشد للمتنخّل** :

ذَلِكَ مَادِينُكَ إذْ جُنِّبَتْ
أحْمَالُهَا كَالْبُكُرِ المُبْتِلِ

قال : والمُبْتِلُ : الأم تكون لها فَسِيلة ، قد انفردت واستغنت عن أمها ؛ فيقال لتلك الفسيلة : البَتُول . **الفراء** : البَكيرة مثل البَكُور . **قال** : والمِسْلَاخ : التى ينتثر بسرها . والخَضِيرة : التى ينتثر بسرها وهو أخضر . **الأصمعى** : المئخار : النخلة التى تبقى حملها إلى آخر الصِّرام . **وأنشد** :

تَرَى العَضِيضَ المُوقَرَ المِئْخَارَا
مِنْ وَقْعِهِ يَنْتَثِرُ انْتِشَارَا »

أما الكتاب الثانى : « الكَرْم » ، ففى أوله العبارة التالية : « عن أبى

حاتم السجستانى » . وقد علق الناشر على ذلك بقوله فى الهامش : « كذا فى الأصل ، والظاهر أن أبا حاتم السجستانى ، روى كتاب الكرم عن الأصمعى » .

غير أن نص كتاب الكرم يبدأ بالإسناد التالى : « حدثنا الحسن بن على الطوسى ، قال : حدثنا أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى ببغداد ، قال : أخبرنا أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان[٢٧] السجستانى ، قال الطائفى : يقال ... » .

وفى هذا الإسناد ، لا نرى اسم الأصمعى على الإطلاق ، بل نرى اسم أبى حاتم السجستانى . وهذا يجعلنا نؤمن بأن هذا الكتاب ، من تأليف أبى حاتم ، لا من تأليف الأصمعى . ويؤيد هذا أيضا أن ابن النديم[٢٨] يذكر أن أبا حاتم ألّف كتابا فى « الكرم » . ولم يذكر واحد ممن ترجموا للأصمعى ، أنه ألّف مثل هذا الكتاب[٢٩] .

وإذا كان كتاب « الأضداد » للأصمعى ، قد ضاع ، فإن مجموعة ضخمة من كتب الأضداد التى ألفها اللغويون العرب ، قد وصلت إلينا . **وأول هذه الكتب** : كتاب « الأضداد[٣٠] » لأبى على محمد بن المستنير قطرب (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) ، الذى سبق أن ذكرنا من مؤلفاته اللغوية : كتابى « الوحوش » و« المثلثات » . و« قطرب » لقب له ، لقبه به أستاذه سيبويه ؛ إذ كان قطرب يبكر إليه ، « فيفتح سيبويه بابه ، فيجده هنالك ، فيقول له : ما أنت إلا قطرب ليل ، فلقب قطربا لذلك[٣١] » .

---

(٢٧) فى الأصل : « عمر » وهو تحريف .

(٢٨) الفهرست ٩٣

(٢٩) انظر فى هذا كتابنا : Das Kitāb Al-Ĝarīb Al-Muṣannaf, S.95 FF. ومقالتنا بعنوان : « وكتاب النخل والكرم أيضا ليس للأصمعى » فى مجلة : « المكتبة » العراقية (مارس ١٩٦٧ م) ومقدمتنا لتحقيق كتاب « اشتقاق الأسماء » للأصمعى ٢٣ – ٣٩ .

(٣٠) نشره « هانز كفلر » H.Kofler فى مجلة « إسلاميكا » Islamica سنة ١٩٣٢ (المجلد الخامس) ص ٢٤١ – ٢٨٤

(٣١) انظر : لسان العرب (قطرب) ٧٧/٢

وقد عالج قطرب فى كتابه ٢١٨ كلمة من كلمات الأضداد ، واستشهد عليها بكثير من أبيات الشعر ، والقرآن الكريم ، والأمثال العربية ، غير أنه أخطأ فى عدّ بعض الكلمات من الأضداد وما هى منها ؛ مثل : « بَرَّد » التى جعلها بمعنى : برّد وسخّن ، كما تحدثنا عن ذلك من قبل . ومن أمثلة الكتاب (ص ٢٥٤) :

« ومنه القانع : الراضى ، والقانع : السائل . قَنِع قَنَاعَةً وقَنَعاً وقُنْعَاناً : رضى . وقَنَع قُنُوعًا : أى سأل . وقال عدىّ بن زيد :

وَمَا خُنْتُ ذَا وَصْلٍ وَأُبْتُ بِوَصْلِهِ
وَلَمْ أَحْرِمِ المُضْطَرَّ إِذْ جَاءَ قَانِعَا

أى سائلا . وقال لبيد من المُعَمَّرين :

فَمِنْهُمْ سَعِيدٌ آخِذٌ بِنَصِيبِهِ
وَمِنْهُمْ شَقِىٌّ فِى الْمَعِيشَةِ قَانِعُ »

والكتاب الثانى فى « الأضداد » ألفه أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السِّكِّيت[٣٢] (المتوفى سنة ٢٤٤هـ) . و « السِّكِّيت » لقب أبيه إسحاق ؛ لأنه كان يطيل السكوت .

ويعالج ابن السكيت فى هذا الكتاب ٩٤ كلمة ، من كلمات الأضداد ، ويستشهد عليها بكثير من أبيات الشعر ، والقرآن الكريم . وقد سبق أن عرفنا أن كتاب الأضداد ، الذى ينسب للأصمعى ، ليس إلا رواية أخرى ، لكتاب ابن السكيت هذا .

ويبدو أن ابن السكيت ، قد استعان فى تأليف كتابه ، بكتاب الأصمعى المفقود ، كما يبدو أنه استخدم كتاب : « الغريب المصنف » لأبى عبيد القاسم بن سلام ، بلا إشارة إليه ؛ فإن العبارات المروية فيه عن

---

(٣٢) نشره « أوجست هفنر A.Haffner » فى مجموعة بعنوان : « ثلاثة كتب فى الأضداد » بيروت ١٩١٣ م . ص ٦٣ - ٢٠٩ .

أبى زيد ، وأبى عبيدة ، والفراء ، والأموى ، توجد بنصها فى كتاب « الغريب المصنف » . ومن أمثلة الكتاب (ص ٢٠٢) :

« القانع والقَنِع : الراضِي بما قسم له ، ومصدره : القناعة . والقانع : السائل ، ومصدره : القنوع . قال عدى :

وَمَاخُـــــنْتُ ذَاوَصْلٍ وَأُبْتُ بِوَصْلِــــهِ
وَلَـمْ أَحْـرِمِ المُضْطَرَّ إِذْ جَاء قَانِعَــا

أى سائلا . وقال الله عز وجل : وأطعموا القانع والمعترّ ؛ فالقانع : السائل ، والمعترّ : الذى يأتيك ويتعرّض لك . قال الشماخ :

لَمــالُ المَــرْءِ يُصْلِحُــهُ فَيُغْنِــى
مَفَاقِــرَهُ أَعَــفُّ مِنَ القُنُـــوعِ

أى أعف من المسألة . قال : أخبرنى أبى أن أعرابيا أتى قوما ، فسألهم فلم يعطوه ، فقال : الحمد لله الذى أقنعنى إليكم ، أى أحوجنى إليكم » .

والكتاب الثالث ، الذى وصل إلينا من كتب « الأضداد » هو لأبى حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستانى[٣٣] (المتوفى سنة ٢٥٥هـ) . ويعالج فيه صاحبه ١٧٠ كلمة من كلمات الأضداد ، ويبدو أنه استخدم كتاب الأصمعى المفقود كذلك . ومن أمثلة هذا الكتاب (ص ١١٦) :

« وقالوا : القانع : السائل الطالب ، وهو فى القرآن : وأطعموا القانع والمعترّ ... والقانع أيضا : الراضى بالشىء ... »

والكتاب الرابع فى « الأضداد » — وهو أكبر كتب الأضداد وأهمها — هو كتاب أبى بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنبارى[٣٤] (المتوفى سنة ٣٢٧هـ) . وفى هذا الكتاب ٣٥٧ كلمة من كلمات الأضداد ،

---

(٣٣) نشره « هفنر » فى مجموعته السابقة فى الأضداد : ص ٧١ – ١٥٧

(٣٤) نشره « هوتسما » Hautsma فى ليدن ١٨٨١ م . ثم نشره محمد أبو الفضل إبراهيم فى الكويت ١٩٦٠ م وكان قد نشر من قبل فى القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

فقد جمع ابن الأنبارى فى هذا الكتاب ، كل كلمات الأضداد فى مؤلفات سابقية ، وشرحها شرحا مفصّلا ، وأكثر من إيراد الشواهد عليها من الشعر والقرآن الكريم .

والكتاب الخامس فى « الأضداد » ، ألفه معاصر لابن الأنبارى ، وهو أبو الطيب عبد الواحد بن على اللغوى الحلبى[٣٥] (المتوفى سنة ٣٥١ هـ) . وقد عالج فيه ٣٠٠ كلمة من كلمات الأضداد ، كما هاجم كثيرا ممن ألف فى الأضداد من قبله ، وخطّأهم ؛ فقد خطأ قطربا مثلا فى قوله : إن قولهم : « بلّج الرجل بشهادته » معناها : كتمها أو أظهرها ؛ فيرى أبو الطيب اللغوى أن ذلك تصحيف ، وأنه إنما يقال فى كتمان الشهادة : « بَلَّحَ بشهادته[٣٦] » بالحاء .

والكتاب السادس فى « الأضداد » ، ألفه أبو محمد سعيد بن المبارك ، المعروف بابن الدهّان النحوى[٣٧] (الموفى سنة٥٦٩ هـ) . وقد ذكر فى هذا الكتاب ٢٩١ كلمة من كلمات الأضداد .

والكتاب السابع والأخير من كتب « الأضداد » ، ألفه أبو الفضائل رضى الدين الحسن بن محمد الصاغانى[٣٨] (المتوفى سنة ٦٥٠ هـ) .

وفى هذين الكتابين الصغيرين ، جمع ابن الدهّان والصاغانى ، مجموعة كبيرة من كلمات الأضداد ، ورتباها ترتيبا هجائيا ، بعد أن حذفا أسماء الرواة والشواهد ، الموجودة فى كتب السابقين ، واختصرا العبارة

---

(٣٥) نشره « الدكتور عزة حسن » فى دمشق سنة ١٩٦٣ م .

(٣٦) الأضداد لأبى الطيب ٨٦/١ وانظر : أضداد قطرب ٢٧٩ هامش ١

(٣٧) نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين ، فى مجموعة : نفائس المخطوطات – بغداد ١٩٦٣ م . ص ٨٥ –١٠٨

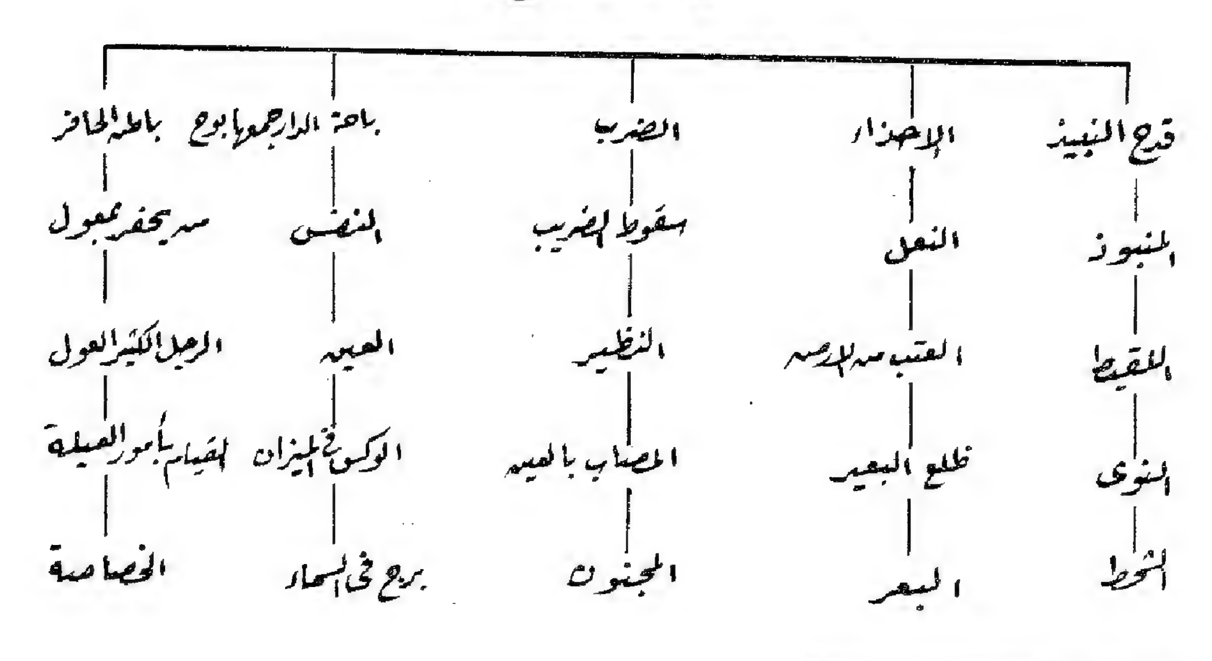
(٣٨) نشره « أوجست هفنر » A.Haffner وجعله ذيلا لمجموعته السابقة : « ثلاثة كتب فى الأضداد » ص٢٢١ –٢٤٨

اختصاراً كبيرا إلى درجة أننا لا نعثر فى هذين الكتابين ،فى كثير من الأحيان ، إلا على الكلمة من كلمات الأضداد ومعنييها المتضادين فحسب .

★★★

ولم يؤلف أبو الطيب اللغوى - الذى تحدثنا عنه من قبل - كتاب الأضداد فحسب ، بل ألف عدة كتب لغوية ، وهى :

١-**شجر الدرّ** فى تداخل الكلام بالمعانى المختلفة[٣٩] ، وطريقته فيه أن يذكر اللفظة ، ثم يفسرها بلفظة ثانية ، ويفسر اللفظة الثانية بثالثة ، والثالثة برابعة ... وهكذا ، ثم يعود إلى اللفظة الأولى ، ويفسرها بلفظة ثانية ، غير ما فسرها به فى المرة الأولى ، ثم يفسر الثانية بثالثة ، والثالثة برابعة .. إلخ .ويسمى كل تلك التفسيرات المنبثقة من لفظة واحدة : شجرة ، وكل تفسيرمنها : فرع لتلك الشجرة ، وهو فى هذا التأليف ، يستغل ما فى اللغة العربية ، من كلمات « المشترك اللفظى » الذى نعالجه فيما بعد . مثال ذلك : الشجرة الأولى :



(٣٩) نشره محمد عبد الجواد ، بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م .

ولم يكن « أبو الطيب اللغوى » ، هو أول من ألف مثل هذا النوع من التأليف ؛ فقد سبقه إلى ذلك : أبو عمر محمد بن عبد الواحد المطرّز ، المعروف بغلام ثعلب (توفى سنة ٣٤٥ هـ) وكتابه يسمى : « المُدَاخَل فى غريب اللغة[٤٠] » ، وطريقته مثل طريقة أبى الطيب ، غير أنه يتضمن كثيرا من الألفاظ الموغلة فى الغرابة .

ولدينا كتاب ثالث فى هذا الموضوع ، وهو كتاب :« المسلسل فى غريب لغة العرب[٤١] » لأبى الطاهر محمد بن يوسف بن عبدالله التميمى القرطبى (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) . وهو مؤلف من خمسين بابا ، يبدأ كل باب منها ببيت من الشعر ، غامض المعنى ، يتناول المؤلف منه كلمة ويفسرها بأخرى ، وهذه بثالثة ... وهكذا . وهو ملىء فيما عدا ذلك بالشواهد الشعرية .

٢- **كتاب الإتباع**[٤٢] : والإتباع عبارة عن تأكيد الكلمة ، بضم كلمة أخرى إليها ، لا معنى لها فى ذاتها ، غير أنها تساويها فى الصيغة والقافية ، بغرض الزينة اللفظية وتأكيد المعنى . والكلمة الثانية تسمى كلمة « الإتباع » . ويقسمها اللغويون العرب ، بحسب معناها ، إلى ثلاثة أقسام :

(أ) كلمة الإتباع لها معنى واضح ، يدرك بسهولة ؛ مثل قولهم : هنيئا مريئا .

(ب) كلمة الإتباع لا معنى لها على الإطلاق ، ولا تستخدم وحدها ؛ مثل : شيطان لَيْطَان ، وحَسَنٌ بَسَنٌ .

---

(٤٠) نشره محمد عبد الجواد ، بالقاهرة سنة ١٩٥٨ م .

(٤١) نشره كذلك محمد عبد الجواد ، بالقاهرة سنة ١٩٥٧ م .

(٤٢) نشره عز الدين التنوخى ، فى دمشق سنة ١٩٦١ م ، اعتمادا على مخطوطة تنقص صفحة من المقدمة .

(جـ) كلمة الإتباع لها معنى متكلف مستخرج من الأولى ، مثل : خبيث نبيث .

وقد ألف مثل هذا التأليف كذلك : أبو الحسن أحمد بن فارس اللغوى (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) واسم كتابه :« الإتباع والمزاوجة[٤٣] » ، ولا يظهر من مقدمته أى فرق بين الإتباع والمزاوجة ، غير أن « برونو » Brünnow ناشره الأول ، يرى « أنه يظهر من أمثلة ابن فارس بوضوح ، أن كلًّا من الإتباع والمزاوجة ، يفترقان عن التعبيرات المماثلة كالسجع مثلا ، فى أن الكلمة الثانية فى الإتباع والمزاوجة ، لا ترد فيما عدا ذلك من التراكيب ، أو على الأقل بهذا المعنى . كما يبدو أن اصطلاح الإتباع ، يقصد به الصيغ الوصفية ، التى تتبع الكلمة الأولى بلا رابط ، على حين أن الصيغ الفعلية ، التى ترتبط بالكلمة الأولى برابط ، أو تكون وحدها جملا مستقلة ، تسمى بالمزاوجة » .

وكتاب الإتباع لابن فارس ، مرتب ترتيبا هجائيا ، على حسب الأصل الأخير من الكلمة . ومن كلمات الإتباع فيه :« إِنّه لَعِفْريت نِفْرِيت » و « خَرَاب يَبَابْ » ، وهذا يذكر بالعبرية תֹהוּ וָבֹהוּ ومن المزاوج :« قولهم فى جواب من قال : هات : لا أهاتيك ولا أواتيك . والمعنى مفهوم فى الكلمتين » ، وقولهم : « ما عنده غيض ولا فيض ، أى كثير ولا قليل » .

٣ - **كتاب المثنى**[٤٤] : يقسم أبو الطيب اللغوى فى هذا الكتاب ، المثنيات العربية ، إلى عشرة أقسام ، منها :

---

(٤٣) نشره « برونو » R.Brünnow فى مدينة Giessen بألمانيا سنة ١٩٠٦ م ، ثم نشره كمال مصطفى بالقاهرة سنة ١٩٤٧ م .

(٤٤) نشره عز الدين التنوخى ، فى دمشق سنة ١٩٦٠ م .

(أ) الاثنان غلب اسم أحدهما على اسم صاحبه ؛ مثل : العمران = أبو بكر وعمر .

(ب) الاثنان جمعا فى التثنية لاتفاق اسميهما ؛ مثل : الأذنان والعينان .

(ج) الاثنان غلب نعت أحدهما على نعت صاحبه ؛ مثل : الأسودان = التمر والماء .

(ء) الاثنان جمعا فى التثنية لاتفاق نعتيهما ؛ مثل : الأحمران = الخمر واللحم .

(هـ) الاثنان اللذان لا يفردان من لفظهما ؛ مثل : الملوان = الليل والنهار .

٤ – **كتاب الإبدال**[٤٥] : يعالج فيه أبو الطيب ، صيغ الكلمات المختلفة ، التى نشأت عن طريق المماثلة ، أو المخالفة الصوتية ، أو خصائص اللهجات العربية .

مثال النوع الأول :الشَّاسِب < الشاسف = الضامر .
والشاسب < الشازب = الضامر .
والسَّبَنْتَى < السبندى = الجرىء .
وهَرَتَ < هَرَطَ = شق .

ومثال النوع الثانى :لصّ < لصت (معروف) .
وطَسّ < طست (معروف) .
والخَدَنَّق < الخدرنق = العنكبوت .

ومثال النوع الثالث :أبلج < أبلد = واضح .
وأجاء < أشاء = ألجأ .

---

(٤٥) نشره كذلك عز الدين التنوخى ، فى دمشق سنة ١٩٦٠ –١٩٦١ م .

غير أن هناك الكثير من الكلمات ، التى لم تنشأ إلا بسبب التصحيف والتحريف ، اللذين ابتليت بهما الكتابة العربية منذ القدم ؛ وذلك مثل : الأصلج والأصلخ ، بمعنى : الأصم ، والحَنْتَل والخَنْتَل ، بمعنى : الضعيف ، ودَجَنَ بالمكان ورَجَنَ به ، بمعنى : أقام به ، والدُّخَامِس والدُّحَامِس ، بمعنى : الشديد ، والمعكود والمعكول ، بمعنى : المحبوس ، والزّور والزّون ، بمعنى : الصنم .

والمثال الأخير يذكرنا بما عرفناه من قبل ، عن التحريف الذى وقع فيه صاحب الصحاح ، حين استشهد على أن « اللجز » مقلوب : « اللزج » ببيت ابن مقبل :

يَعْلُونَ بِالمَرْدَقُوشِ الـوَرْدِ ضَاحِيَـةً
عَلَى سَعَابِيبِ مَاءِ الضَّالَـةِ اللَّجِـزِ

ونسى أن هذا البيت ، من قصيدة نونية فى ديوان ابن مقبل ، وصحة الروىّ : « الضالة اللجن » .

وقد ألف قبل أبى الطيب اللغوى ، فى موضوع الإبدال : أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت (المتوفى سنة ٢٤٤ هـ) ، واسم كتابه : « القلب والإبدال[٤٦] » .

***

ونتحدث الآن عن جهود عالم آخر معاصر للأصمعى ، فى المعاجم العربية ، وتأليف الرسائل اللغوية المفردة ، ذلك هو أبو زيد سعيد بن أوس الأنصارى (المتوفى سنة ٢١٤ هـ) وقد عرفناه من قبل مؤلفا لكتاب : « النبات والشجر » .

---

(٤٦) نشره « هفنر » A.Haffner فى مجموعة : « الكنز اللغوى فى اللسن العربى » – ليبزج ١٩٠٥ م . ص ٣ –٩٥ ثم نشره الدكتور حسين محمد شرف ، بالقاهرة سنة ١٩٧٨ م بعنوان : « الإبدال » .

ومن رسائله اللغوية التى وصلت إلينا :

١ – **المطر** [٤٧] : يتحدث أبو زيد فى هذا الكتاب ، عن أسماء المطر ، والرعد ، والبرق ، والسحاب ، والمياه . ويقل فى الكتاب الاستشهاد بالشعر . ومن أمثلته :

« أسماء البرق : البرق وجِماعُه البروق . ويقال : بَرَقَت السماء تَبْرُقُ بَرْقًا . وأبرق القوم إبراقا : إذا أصابهم البرق . وتكشّف البرق تكشّفا ، وهو إضاءته فى السماء . واستطار البرق استطارة ، وهو مثل التكشّف ، ولمع البرق يلمع لمعا ولمعانا ، وهى البرقة ثم الأخرى ، المرّة بعد المرّة[٤٨] ... » .

٢ – **الهمز**[٤٩] : وقد عالج فيه أبو زيد حوالى ٣٠٠ كلمة ، تحتوى على الهمزة فى جميع تصاريفها . ولعل السبب فى ظهور مثل هذا النوع من التآليف ، هو أن الناس لم يكونوا يهمزون فى كلامهم العامى ، فى حياتهم اليومية ، فإذا أرادوا محاكاة اللغة الفصحى ، فى مواقف الجد ، حدث خلط كبير ، فى همز ما لا يستحق الهمز ؛ لأنهم إذا كانوا يقولون فى الكلام العامى : قريت الكتاب ، وقريت الضيف ، فإنهم فى حالة محاكاتهم للفصحى ، يقولون : قرأت الكتاب ، وقرأت الضيف مثلا . وليس فى المثال الثانى همز فى الفصحى ؛ لأنه من قَرَى يَقْرِى بمعنى : أطعم الضيف . وقد حدث مثل ذلك تماما فى الجاهلية ، وعصور الاحتجاج العربية ؛ فقد « قالت امرأة من العرب : رثأت زوجى بأبيات – وهمزت – أرادت : رثيته . قال الجوهرى : وأصله غير مهموز . قال الفراء : وهذا من

---

(٤٧) نشره « جوتهايل » Gottheil فى الجزء السادس عشر من مجلة : JAOS سنة ١٨٩٥ م . ص ٢٨٢ – ٣١٧ ، ثم نشره « لويس شيخو اليسوعى » فى مجموعته : « البلغة فى شذور اللغة » – بيروت سنة ١٩١٤ م . ص ٩٩ – ١٢٠

(٤٨) المطر لأبى زيد (نشرة شيخو) ١٠٨

(٤٩) نشره الأب « لويس شيخو اليسوعى » فى بيروت سنة ١٩١٠ م .

المرأة على التوهم ؛ لأنها رأتهم يقولون : رثأت اللبن ، فظنت أن المرثية منها[٥٠] » .

وقد عرفنا من قبل أن ترك الهمز ، من خصائص لغة أهل الحجاز وهذيل ومكة والمدينة ، أما الهمز فهو من خصائص لهجة تميم[٥١] ، وقد استعارته العربية الفصحى من تميم .

وقد قسم « أبو زيد » كتابه على ثلاثين بابا ، بحسب مكان الهمزة من الكلمة ، والصيغ والترتيب الأبجدى فى بعض الأحيان . ومن أمثلة الكتاب (ص ٢٦) :

« وتقول : قد اشمأزّ الرجل اشمئزازاً ، إذا ذعر من شيء ، وهو المذعور . تقول :قد اسمألّ الظلّ اسمئلالا : إذا صار إلى أصله . قال الشاعر :

يَرِدُ المِيــاهَ حَضِيــرَةً وَنَفِيــضَةً
وِرْدَ القَطَــاةِ إذَا اسْمَــأَلَّ التُّبَّــعُ

واسمئلاله أن يرجع إلى أصل العود . والتبع : الظل . وتقول : قد احزأل الإبل والقوم احزئلالا : إذا اجتمعوا ... » .

٣ - **كتاب اللِّبأ واللبن**[٥٢] : واللِّبأ هو أول اللبن فى النتاج . ويعالج أبو زيد فى كتابه ذلك ، أنواع اللبن المختلفة ، منذ أن يحلب حتى يستخلص منه الزبد . ومن أمثلة الكتاب (ص ١٤٤) :

« ومن اللبن : الرَّثيئة ، وهو أن يحلب على الحامض فيختر ، وهو : الهُدَبِدُ أيضا ، وهو المؤتلخ واتَّلَخ اتِّلاَخا . ومنه المُشمر والمَغِير : الشديد الحموضة إلى المرارة ، والصَّقْرة مثله ، ثم الحامض هو الحامز ، ثم الحازر ،

---

(٥٠) انظر : لسان العرب (رثأ) ٧٧/١

(٥١) انظر : لسان العرب ١٤/١

(٥٢) نشره الأب «لويس شيخو اليسوعى » فى مجموعته : « البلغة فى شذور اللغة » ص ١٤١ — ١٤٥

وهو أشد حمضا من الحامض . والعاتك مثل الحازر . والعَرِق : الخبيث الحمَض . والقاطع والحاذق مثله . والباسل مثله . والصَّرَب مثل العَرِق أيضا » .

٤ – **النوادر فى اللغة**[٥٣] : وهو كتاب يجمع بين دفتيه ، الكثير من ألفاظ اللغة ، غير متبع منهجا معينا فى ترتيبها . وليست كل الألفاظ الواردة فيها ، نادرة أو غريبة ، كما يوهم عنوانه ، فهو يورد النادر الشاذ من اللغة ، إلى جانب الفصيح المشهور منها . والكتاب ملىء بمقطعات الشعر ، والأراجيز النادرة . ومن أمثلته (ص ١٨٧) :

« أبو زيد : يقال : جمل ناهل فى جمال نِهال ، وناقة ناهلة فى نوق نهال ونواهل ، وهى العطاش . وقال الراجز :

إنَّكَ لَنْ تُثَأْثِــــــىءَ النِّهــــــالَا

بِمِثْــــــلِ أَنْ تُدَارِكَ السِّجَــــــالاَ

يقال : ثأثِىء الرَّجُلَ عنى ، أى احبسه عنى . والثأثأة : الحبس . والنواهل من الإبل وغيرها من المواشى : الرِّواء اللاتى قد نهلن نَهَلاً ، أى رَوِين ريًّا » .

وقد كثر التأليف فى النوادر ، إلى درجة أننا لا نجد لغويا فى ذلك العصر المبكر ، إلا وله فى النوادر كتاب أو أكثر . وقد بقى لنا من هذه الكتب ، كتاب أبى زيد السابق ، وكتابان آخران هما :

١ – كتاب النوادر ، لأبى مِسْحَل الأعرابى عبد الوهاب بن حريش (توفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى) ، تلميذ الكسائى (المتوفى سنة ١٨٩ هـ) . وكتابه كبير فى جزأين ، نشره الدكتور عزة حسن ، فى دمشق سنة ١٩٦١م .

٢ – النوادر ، لأبى على إسماعيل بن القاسم القالى (المتوفى سنة

---

(٥٣) نشره سعيد الخورى الشرتونى ، فى بيروت سنة ١٨٩٤ م .

٣٥٦هـ) ، وقد طبع مع كتابه : « الأمالى » المشهور ، فى بولاق سنة ١٣٢٤ هـ ، ثم طبع بعد ذلك فى دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ م .

★★★

ولنعرّج الآن على عالم آخر ، معاصر للأصمعى وأبى زيد ، هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (المتوفى سنة ٢٠٧ هـ) ، لنرى جهوده فى تأليف الرسائل اللغوية المفردة ؛ فمن كتبه الباقية لنا فى هذا الميدان :

١ – **الأيام والليالى والشهور**(٥٤) : عالج الفراء فى هذا الكتاب : الأسماء القديمة والحديثة ، للأيام والشهور العربية ، وأسماء الهلال والقمر والشمس ، وظلمة الليالى ، والأيام الباردة والحارة ، كما أنه يستشهد على ما يقوله دائما ، بالقرآن والشعر والأمثال .

والأسماء القديمة للأيام عند العرب فى الجاهلية ، هى كما يذكر الفراء : الأحد = أول . الاثنين = أهون . الثلاثاء = جُبار . الأربعاء = دُبار . الخميس = مؤنس . الجمعة = العَرُوبة . السبت = شيار .

تلك هى الأسماء القديمة للأيام . أما الأسماء التى نستخدمها اليوم ، فهى مستعارة فى العربية ، من الآرامية والعبرية ، فيما عدا يوم « الجمعة » فهى تسمية عربية خالصة . أما « العَرُوبة » القديمة ، فهى اسم سامىّ قديم ، يوجد كذلك فى اللغة الآرامية .

أما الشهور العربية القديمة ، فهى كما يذكر الفراء : محرّم = المؤتمر . صفر = ناجر . ربيع الأول = خُوان . ربيع الثانى = بُصان . جمادى الأولى = الحَنِين . جمادى الآخرة = وَرْنة . رجب = الأصمّ . شعبان = وَعْل . رمضان = ناتق . شوال = عاذل . ذو القعدة = هُواع . ذو الحجة = بُرك .

---

(٥٤) نشره إبراهيم الإبيارى بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م . وهذا الكتاب لم يذكره أحد ، ممن ترجموا للفراء ، كما يشك الناشر فى أن تكون محتويات الكتاب كلها من صنع الفراء .

ومثل كتاب الفراء فى : « الأيام والليالى والشهور » كتاب : « الأزمنة والأمكنة » لأبى على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) وهو كتاب ضخم ، نشر فى جزأين بحيدر آباد فى الهند سنة ١٣٣٢ هـ ، وهو وإن كان يحتوى على شروح لغوية ، فإنه يعد كتابا فى الفلك ، أكثر من أن يكون معجما لغويا . ومثله فى ذلك كتاب : « الأزمنة والأنواء[٥٥] » لأبى إسحاق إبراهيم المعروف بابن الأجدابى (المتوفى سنة ٩٥٠هـ) .

٢ – المنقوص والممدود[٥٦] : وقد تابع ناشره فى هذا العنوان ، مخطوطة الأصل ، وذكر أن بعض الكتب تسميه : « المقصور والممدود » ، وقال إن هذه التسمية الأخيرة هى « الأوفق » ؛ لأن فيه بعض كلمات آخرها ألف زائدة ، فلا تسمى منقوصة . ومن أمثلة الكتاب (ص ٢٣) :

« باب ما يفتح أوله فيمدّ ، وإذا كسر أوله قصر . من ذلك : البِلَى مقصور يكتب بالياء ، ويفتح فيمدّ . قال الشاعر :

والْمَــرْءُ يُبْليــهِ بَلاَءَ السِّرْبَــالْ
مَرُّ اللَّيَالـــي وانْتِقَـــالُ الأَحْوَالْ

القِرَى مقصور يكتب بالياء ، ويفتح فيمدّ . قال الكسائى : سمعت القاسم ابن معن يرويه عن العرب :قَرَاء الضيف » .

وقد ألّف أكثر من ثلاثين لغويا عربيا ، كتبا فى موضوع « المقصور والممدود » لم يبق لنا منها إلا سبعة كتب ، كتاب الفراء أقدمها ، والستة الأخرى هى :

١ – المقصور والممدود ، لأبى عبدالله إبراهيم بن محمد بن عرفة ،

---

(٥٥) نشره الدكتور عزة حسن ، فى دمشق سنة ١٩٦٤ م .

(٥٦) نشره عبد العزيز الميمنى فى القاهرة سنة ١٩٦٧ م ، فى مجلد واحد مع كتاب : « التنبيهات على أغاليط الرواة » لعلى بن حمزة البصرى .

الملقب بنفطويه (المتوفى سنة ٣٢٣ هـ) وهو رسالة صغيرة ، تجمع أبواب المقصور والممدود ، نشرها الدكتور حسن شاذلى فرهود ، فى مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض – المجلد الرابع (١٩٧٥/١٩٧٦ م) ص ٩٣ – ١٢٧ .

٢ – الممدود والمقصور ، لأبى الطيب الوشاء (المتوفى سنة ٣٢٥ هـ) . وهو مختصر بدأه بالحديث عن الممدود ، وطريقة كتابته عند الإضافة للضمائر . وبعد أن تحدث عن الممدود والمقصور القياسيين ، عالج المسموع منهما فى ستة أبواب . وهو معتمد فى كتابه هذا على كتاب الفراء ، وإن لم يصرح بذلك . والكتاب نشره الدكتور رمضان عبد التواب ، فى مجلة كلية اللغة العربية بالرياض – المجلد السابع (١٩٧٧ م) ص ٦٥ – ١٢٥ ثم نشره فى سلسلة « روائع التراث اللغوى » التى تصدرها مكتبة الخانجى ، بالقاهرة سنة ١٩٧٩ م .

٣ – المقصور والممدود ، لأبى العباس أحمد بن محمد بن الوليد بن ولّاد[٥٧] (المتوفى سنة ٣٣٢ هـ) وهو مرتب أبجديا ، على حسب الحرف الأول من الكلمة ، غير أنه مختصر العبارة ، وبه بعض الشواهد الشعرية .

٤ – المقصور والممدود ، لأبى عمر الزاهد ، المعروف بغلام ثعلب (المتوفى سنة ٣٤٥ هـ) وهو رسالة صغيرة فى وريقات ، نشره الدكتور عبد الحسين الفتلى ، فى مجلة كلية أصول الدين – العدد الأول (بغداد ١٩٧٥ م) .

٥ – المقصور والممدود ، لأبى على إسماعيل بن القاسم القالى[٥٨] (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ) وهو أضخم كتب المقصور والممدود ، التى

(٥٧) نشره « بولس برونله P.Brönnle » فى ليدن سنة ١٩٠٠ م .

(٥٨) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا ، ومنه نسخة وحيدة فى دار الكتب المصرية ، برقم ١٨٤ لغة ، فى ١٣٧ ورقة . وقد حققه تلميذنا الدكتور أحمد عبد المجيد هريدى ، وأعده للنشر .

وصلت إلينا ، وأوسعها شرحا ، وأكثرها استيعابا للمادة اللغوية ، وأوفاها استشهادا بالشعر والقرآن والأمثال .

٦ – المقصور والممدود ، لأبى البركات بن الأنبارى[٥٩] (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) ، وقد رتب فيه مؤلفه مادة المقصور والممدود ، فى ستة أبواب على النحو التالى :

الأول : المقصور المفتوح الأول ؛ مثل :العَصَا والسَّنَا .

الثانى : المقصور المكسور الأول ؛ مثل : الرِّبَا والغِنَى .

الثالث : المقصور المضموم الأول ؛ مثل : الضُّحَى والدُّجَى .

الرابع : الممدود المفتوح الأول ؛ مثل : الذَّكاء والغَباء .

الخامس : الممدود المكسور الأول ؛ مثل : الوِعَاء والغِطَاء .

السادس : الممدود المضموم الأول ؛ مثل : الهُرَاء والغُثاء .

ولم يرتب ابن الأنبارى الكلمات ، فى داخل هذه الأبواب ، على أى نوع من أنواع الترتيب .

ويظهر أن السبب فى كثرة التأليف فى هذا الموضوع ، هو أن الناس كانوا قد تركوا الهمز فى كلامهم ، كما كان يفعل أهل الحجاز من قبل ، فكان يشتبه المقصور بالممدود ، ولا سيما إذا كان للكلمة الواحدة صورتان : إحداهما مقصورة بمعنى ، والأخرى ممدودة بمعنى آخر ، مثل : الحيا = الغيث ، والحياء = الاستحياء . ومثل : الخلا = الحشيش الرطب ، والخلاء = الفضاء . ومثل : الغِنَى = ضد الفقر ، والغناء = من الطرب .

---

(٥٩) نشره الدكتور عطيه عامر ، فى ستوكهلم سنة ١٩٦٦ م .

٣ - المذكر والمؤنث[٦٠] : ينصب اهتمام الفراء فى هذا الكتاب ، على شرح ما يسمى « بالمؤنث السماعى » ، فالكلمات التى يسمى بها المؤنث الحقيقى ، وكذلك أسماء القبائل والبلاد والمدن والرياح والنار وأعضاء الجسم المزدوجة ، هى فى معظم الأحوال مؤنثة ، بغير حاجة إلى علامة تأنيث ؛ مثال ذلك : يد ، وعين ، ورجل ، وذراع ، وإصبع ، وظفر ، وسوق ، ونار ؛ وأغلب الظن أن الناس ، كانوا يخطئون فى معاملة بعض هذه المؤنثات السماعية ، معاملة المذكر ، فى زمن الفراء ، كما يحدث فى زماننا هذا ، فى مثل : ذراع ، وإصبع ، وظفر ، وسوق .

وقد ألف حوالى ثلاثين لغويا عربياً ، فى موضوع المذكر والمؤنث . ولم يبق لنا من هذه المؤلفات ، سوى أحد عشر كتابا ، أقدمها كتاب الفراء . والعشرة الباقية هى :

١ - التذكير والتأنيث ، لأبى حاتم سهل بن محمد السجستانى (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) ، وهو لا يزال مخطوطا ، ومنه نسخة فى حوالى ١٠٠ ورقة ، فى مكتبة قونية (يوسف أغا) باستانبول ، ومختصر منه فى المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية . وقد نشر هذا المختصر الدكتور إبراهيم السامرائى ، فى مجلة رسالة الإسلام ، فى بغداد سنة ١٩٦٩ م .

٢ - المذكر والمؤنث ، لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد (المتوفى سنة ٢٨٥ هـ) . وقد نشرته أنا وزميلى الدكتور صلاح الدين الهادى ، فى مركز تحقيق التراث ، بدار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٣ - مختصر المذكر والمؤنث ، للمفضل بن سلمة (المتوفى حوالى سنة ٣٠٠ هـ) . وقد نشرته أنا بالقاهرة سنة ١٩٧٢ م .

٤ - مايذكر ويؤنث من الإنسان واللباس ؛ لأبى موسى سليمان بن

---

(٦٠) نشره مصطفى الزرقا فى بيروت سنة ١٣٤٥ هـ ، ثم نشره الدكتور رمضان عبد التواب بالقاهرة سنة ١٩٧٥ م .

محمد الحامض (توفى سنة ٣٠٥ هـ) . وقد نشرت أنا هذه الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٦٧ م .

٥ – المذكر والمؤنث ، لأبى بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنبارى (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ) . وقد نشره الدكتور طارق الجنابى ، فى بغداد سنة ١٩٧٨ م .

٦ – المذكر والمؤنث ، لأبى الحسين سعيد بن إبراهيم بن التُّسْتَرِىّ (المتوفى بعد سنة ٣٦٠ هـ) وقد نشره تلميذنا الدكتور أحمد عبد المجيد هريدى بالقاهرة سنة ١٩٨٣ م .

٧ – المذكر والمؤنث ، لأبى الفتح عثمان بن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢هـ) . وقد نشره المستشرق « ريشر » Rescher فى مجلة « العالم الشرقى »MO فى الجزء الثامن ، ص ١٩٣ – ٢٠٢ وهو مرتب أبجديا .

٨ – المذكر والمؤنث ، لأبى الحسين أحمد بن فارس اللغوى (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) . وقد نشرته أنا فى القاهرة ١٩٦٩ م .

٩ – البلغة فى الفرق بين المذكر والمؤنث ، لأبى البركات عبد الرحمن ابن محمد الأنبارى (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) . وقد نشرته أنا بمركز تحقيق التراث ، بدار الكتب المصرية ، بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م .

١٠ – فتح الرحمن بشرح ما يذكر ويؤنث من أعضاء الإنسان ، لأحمد السجاعى (المتوفى سنة ١١٩٧ هـ) ، وهو لا يزال مخطوطا ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية ، برقم ٢٦٩ لغة تيمور .

***

والآن ، بعد أن قضينا وقتا ليس بالقصير ، مع الرسائل اللغوية الصغيرة ، التى تعد نواة المعجم العربى ، نعرّج على المعاجم الكبرى ، ونعالج فى بداية حديثنا الآن ، المعاجم التى اتبعت نظام الترتيب الموضوعى .

وأول كتاب وصل إلينا من هذا النوع ، هو كتاب : « الغريب المصنف[٦١] » لأبى عبيد القاسم بن سلام (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) . ولم يقدّم أبو عبيد لكتابه بمقدمة تبين منهجه ، والمصادر التى استخدمها فى كتابه ، شأنه فى ذلك شأن الكتب المؤلفة فى هذه العصور القديمة .

وينقسم « الغريب المصنف » إلى خمسة وعشرين كتابا ، يحتوى كل كتاب منها على عدة أبواب . ويحتوى « الغريب المصنف » كله ، على حوالى ٩٠٠ باب ، تختلف طولا وقصرا ، وقد استغرق أطولها سبع صفحات ، وأقصرها نصف سطر . وفيما يلى بيان للكتب ، التى ينقسم إليها الغريب المصنف :

١ – كتاب خلق الإنسان .
٢ – كتاب النساء .
٣ – كتاب اللباس .
٤ – كتاب الأطعمة .
٥ – كتاب الأمراض .
٦ – كتاب الدور والأرضين .
٧ – كتاب الخيل .
٨ – كتاب السلاح .
٩ – كتاب الطيور والهوام .
١٠ – كتاب الأوانى والقدور .
١١ – كتاب الجبال .
١٢ – كتاب الشجر والنبات .
١٣ – كتاب المياه والقنى .
١٤ – كتاب النخل .
١٥ – كتاب السحاب والأمطار .
١٦ – كتاب الأزمنة والرياح .
١٧ – كتاب أمثلة الأسماء .
١٨ – كتاب أمثلة الأفعال .
١٩ – كتاب الأضداد
٢٠ – كتاب الأسماء المختلفة للشىء الواحد
٢١ – كتاب الإبل .
٢٢ – كتاب الغنم .
٢٣ – كتاب الوحوش .
٢٤ – كتاب السباع .
٢٥ – كتاب الأجناس .

ولم يعتمد أبو عبيد ، فى جمع مادة كتابه ، على البدو من الأعراب فحسب ، بل اعتمد كذلك على اللغويين ، الذين تتلمذ عليهم

---

(٦١) حققنا نحن هذا الكتاب ، وأعددناه للنشر .

فى عصره ؛فقد تردد فى كتابه من هؤلاء اللغويين ذكر : الأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى ، وأبى عمرو الشيبانى ، والكسائى ، والفراء ، والأموى ، وأبى عبيدة ، والأحمر ، واليزيدى ، وأبى زياد الكلابى ، وهشام بن الكلبى ، وابن الأعرابى .

ومن البدو ، وفصحاء الأعراب الذين ذكرهم : أبو الجراح العقيلى ، والعدبّس الكنانى ، وأبوالحسن الأعرابى العدوى ، والقنانى الأعرابى ، وأبو الوليد الكلابى ، وأبو فقعس الأعرابى ، وأبو علقمة الثقفى ، وأبو طيبة الأعرابى ، وثور النمرى ، وأبو القعقاع اليشكرى ، وأبو شنبل الأعرابى ، وأبو جحوش الأعرابى .

ويعد كتاب « الغريب المصنف » من أهم الكتب اللغوية القديمة ، التى انتشرت نصوصها ، فى ثنايا المعاجم العربية المتأخرة ، وقل أن تجد معجما منها ، يخلو من ذكر صاحبه « أبى عبيد » . وفيما يلى بعض الكتب التى تأثرت بطريقته ومادته ، من المعاجم ذات الترتيب الموضوعى :

١ - الألفاظ الكتابية[٦٢] ،لعبد الرحمن بن عيسى الهمذانى (المتوفى سنة ٣٢٠ هـ) : وهو أول كتاب يصل إلينا بعد الغريب المصنف ، متبعا لمنهجه فى الترتيب ، وهو كتاب صغير نسبيا ، يحتوى « فى أبوابه الستة والستين والثلاثمائة ، على عبارات الأدب الجزل ، بصورة تجمع فى كل باب ، ما يتصل بناحية معنوية معينة من المترادفات ، وصيغ الاستعارة ، والأمثال ، ونثرت الشواهد فى الكتاب باقتصاد . وأحيانا تساق حكمة مثالية لعظيم ، أو آية من القرآن ، أو حديث للرسول ﷺ[٦٣] » . ومن أمثلته :

« يقال : السَّنَة ، والحَوْل ، والعام ، والحِجَّة . وفى القرآن

---

(٦٢) طبع عدة طبعات ، إحداها بالمطبعة الرحمانية ، بالقاهرة سنة ١٩٢٢ م .

(٦٣) انظر : العربية ليوهان فك ، بترجمة الدكتور رمضان عبد التواب ص ١٥٧

العظيم : ثمانى حجج . وفيه : يُحِلُّونه عاما . وفيه : حولين كاملين . ويقال : تصرّمت السَّنَة ، وتجرَّمت ، وانقضت . ويقال : كان ذلك عاماً أوَّل ، وعامَ الأوَّل » .

٢ – **جواهر الألفاظ**[٦٤] ،لقدامة بن جعفر (المتوفى سنة ٣٣٧ هـ) : وهو كتاب يتوخى فيه مؤلفه ، الإرشاد العملى ، إلى الأسلوب الجزل ، والعبارات المتأنقة ، فى الموضوعات المختلفة ، التى قسمها على ٣٧٢ بابا . ويقول المؤلف فى مقدمته : « هذا كتاب يشتمل على ألفاظ مختلفة ، تدل على معان مؤتلفة ، وأبواب موضونة ، بحروف مُسَجَّعة مكنونة ، متقاربة الأوزان والمبانى ، متناسبة الوجوه والمعانى ، تونق أبصار الناظرين ، وتروق بصائر المتوسمين ، وتتسع بها مذاهب الخِطاب ، وينفسخ معها بلاغة الكُتّاب[٦٥] »

ثم بيّن « فى لفظ قليل دالّ ، المطالب التى ينبغى أن تتحقق فى الأسلوب الجزل[٦٦] » ، فقال : « وأحسن البلاغة : الترصيع والسجع ، واتّساق البناء ، واعتدال الوزن ، واشتقاق لفظ من لفظ ، وعكسُ ما نُظِم من بناء ، وتلخيص العبارة بألفاظ مستعارة ، وإيراد الأقسام موفورة بالتمام ، وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة ، وصحة التقسيم باتفاق النظوم ، وتلخيص الأوصاف بنفى الخلاف ، والمبالغة فى الرصف بتكرار الوصف ، وتكافؤ المعانى فى المقابلة ، والتوازى ، وإرداف اللواحق ، وتمثيل المعانى[٦٧] » .

ثم وضح كل مطلب من هذه المطالب ، بأمثلة مختارة من الأدب

---

(٦٤) طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٢ م .

(٦٥) جواهر الألفاظ ص ٢

(٦٦) العربية ، ليوهان فك ١٥٢

(٦٧) جواهر الألفاظ ٣

العربي . وبعد أن انتهى من كل ذلك ، تتابعت أبواب الكتاب عنده ، مبتدئا ذلك بباب : « فى معنى : أصلح الفاسد وضده » .

وفى الكتاب قليل من الشواهد الشعرية والنثرية ، من القرآن ، والحديث ، والأمثال . وفيما يلى باب صغير من أبوابه ، وهو باب : « فى ثبات الأصل ونباهة الذِّكر(٦٨) » :

« رسا طَوْدُه ، وهطل جُودُه ، وزَخَر بحره ، وفاض نهره ، وآض عِزُّه ، وعلا رِزُّه ، وسطع سعده ، وارتفع جَدُّه ، وأفل نحسه ، وسلمت نفسه ، وأقبل بخته ، وبَعُدَ صوته ، وصِيته أيضا ، وصَلَح أمره ، وعلا ذِكْره ، وكَرَّت دولته ، واشتدت صولته ، وعادت أيامه ، واشتد إقدامه ، وثبتت وطأته ، وانتعشت وَجْبَتُه ، وزالت نكبته ، وعادت نعمته ، وانسدت نقمته » .

٣ – **متخيَّر الألفاظ**(٦٩) ، لأبى الحسين أحمد بن فارس اللغوى (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) : وهذا أيضا كتاب فى الألفاظ الجزلة ، والعبارات الرائعة ، التى تعلو على المبتذل المسترذل ، وتنزل عن الغريب الوحشى . وقد رتبه مؤلفه على حسب الموضوعات ، فى ١١٤ بابا ، ملأها بالكثير من ألفاظ الشعراء وعباراتهم .

وهو يروى فى كتابه ، عن الكثير من اللغويين ؛ كالأصمعى ، وأبى عبيدة ، وابن الأعرابى ، وأبى زيد الأنصارى ، والفراء ، وغيرهم . كما استشهد فيه بشىء من الشعر ، والقرآن ، والحديث ، والأمثال . وقال فى مقدمته :

« هذا كتاب : متخير الألفاظ ، مفردها ومركبها ، وإنما نحلته هذا الاسم ؛ لما أودعته من محاسن كلام العرب ، ومستعذب ألفاظها ، وكريم

---

(٦٨) جواهر الألفاظ ٢٢١

(٦٩) نشره الأستاذ هلال ناجى ، فى بغداد سنة ١٩٧٠ م .

خطابها ، منظوم ذلك ومنثوره . ولم آل جهدا فى الانتقاء والانتخاب والتخير . وهو كتاب كاتب عرف جوهر الكلام ، وآثر الاختصاص بجيده ، أو شاعر سلك المسلك الأوسط ، مرتقيا عن الدُّون المسترذل ، ونازلا عن الوحشى المستغرب ؛ وذلك أن الكلام ثلاثة أضرب : ضرب يشترك فيه العِلْية والدُّون ، وذلك أدنى منازل القول . وضرب هو الوحشى ، كان طباع قوم فذهب بذهابهم . وبين هذين ضرب ، لم ينزل نزول الأول ، ولا ارتفع ارتفاع الثانى ، وهو أحسن الثلاثة فى السماع ، وألذّها على الأفواه ، وأزينها فى الخطابة ، وأعذبها فى القريض[٧٠] » .

ومن أمثلة أبوابه : « باب الظُّلمة » ؛ يقول فيه : « هى الظُّلمة ، والغَيْهَب ، وليلة ليلاء ، ويوم أيْوَم . والسَّمَر : الظُّلمة . ويقال : جَنَّ الليل ، ودجا ، وأتانا فى جِلْب الليل ، أى سواده . ويقال : ظلماءُ داجية ، وليلة حُدارِيَّة . ومن ألفاظ الشعراء : دجا الليل ، وانساب الظلام ، وأغدف[٧١] » .

٤ – **التلخيص فى معرفة أسماء الأشياء**[٧٢] ، لأبى هلال العسكرى (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) : وقد أراد به مؤلفه ، أن يفى بما « عجزت جميع كتب الأسماء والصفات عن بلوغ غايته[٧٣] » ؛ ولذلك عاب بعض الكتب السابقة عليه بأنها « لا تجدى على المبتدئين ، ولا يحتاج إليها المتوسطون[٧٤] » . أما كتابه هو ، فإنه « أجمع لما أريد به ، وأوضح وأسهل وأقرب[٧٥] » .

وقد قسمه إلى أربعين بابا ، تنتظم مظاهر الحياة المختلفة ، وفى كل

---

(٧٠) متخير الألفاظ ٤٣

(٧١) متخير الألفاظ ٢٠٤

(٧٢) نشره الدكتور عزة حسن ، فى دمشق سنة ١٩٦٩ م ، وما بعدها .

(٧٣) التلخيص ٢/١

(٧٤) التلخيص ٣/١

(٧٥) التلخيص ٣/١

باب مجموعة من التفريعات ، التى يحتاج إليها الموضوع . وهو مقتصد فى الشواهد الشعرية ، وفى الرواية عن القدماء . وفيما يلى مثال « ذِكْر النَّوم » من باب : « ذكر أخلاق الإنسان وأفعاله وتصرف أحواله » :

« فأول النوم : الوَسَن والسِّنة والنُّعاس : نَعَسَ يَنْعُس ، وَوَسَن يَسِنُ . ويقال للنوم : الهُجود والهُجوع . فأما التهجُّد فالسهر . وقيل : هو السهر للعبادة . وفى القرآن : فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ . والرُّقاد والتهويم . رَقَد يرقُد ، وهو راقد ،وهم رُقود ، وهوَّم يهوِّم تهويما . والإغفاء النومة الخفيفة ، أَغْفَى يُغْفِى . والعامة تقول : غفا يغفو ، ولا أعرفه صحيحا . والبَرْد : النوم . وفى القرآن : لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلاَشَرَاباً[٧٦] » .

٥ – مبادىء اللغة[٧٧] ، لأبى عبدالله محمد بن عبدالله الخطيب الإسكافى (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) : وهو كتاب صغير ، يحتوى على أبواب قصيرة ، فى السماء والكواكب ، والمياه ، والجبال ، والكسوة ، والنار ، والطعام والشراب ، والسلاح ، والخيل ، والسباع ، والطير ، والشجر والنبات ، وغير ذلك .

وتعريفاته مختصرة ، وشواهده قليلة ، ولم يذكر فيه اسم راوٍ واحد ، غير أن فى صفحة العنوان النص التالى : « هذا الكتاب ، أعنى مبادىء اللغة ، مستخرج من كتاب العين للخليل ، ونوادر ابن الأعرابى ، وحروف أبى عمرو الشيبانى ، ومصنف أبى عبيد[٧٨] ، وجمهرة ابن دريد الأزدى » .

ومما يلفت النظر فى هذا الكتاب ، أن الإسكافى يفسر الكلمة العربية أحيانا ، بكلمة فارسية الأصل ؛ مثل قوله (ص ٤٧) : « المِسْحُ : البِلاَس ، وجمعه : أمساح ومسوح » ، وقوله (ص ٥٥) : « والسَّطل : ويقال له : الطسّ والطسَّة » ، وقوله (ص ٨٦) : « والمثقب بالفارسية :

---

(٧٦) التلخيص ١/١٣٣

(٧٧) طبع بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

(٧٨) فى الأصل : « أبى زيد » وهو تحريف .

جفت » . ولعله ألّف هذا الكتاب للفرس ، الذين يتعلمون العربية .

٦ – **فقه اللغة وسر العربية** ، لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) : ألّف الثعالبى هذا الكتاب ، للوزير أبى الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى ، وذكر فى مقدمته عددا من العلماء ، الذين اعتمد عليهم ، فى تصنيف كتابه هذا ؛ فقال : « وتُرِكْتُ والأدبَ والكتبَ ، أنتقى منها وأنتخب ، وأفصّل وأبوّب ، وأنتجع من الأئمة مثل : الخليل والأصمعى ، وأبى عمرو الشيبانى والكسائى ، والفراء وأبى زيد ، وأبى عبيدة وأبى عبيد ، وابن الأعرابى والنضر بن شميل ، وأبوى العباس (أحمد بن يحيى ثعلب ، ومحمد بن يزيد المبرد) وابن دريد ، ونفطويه وابن خالويه ، والخارزنجى والأزهرى ، ومن سواهم من ظرفاء الأدباء » .

ويحتوى كتاب « فقه اللغة » على ثلاثين بابا ، مقسمةإلى حوالى ستمائة فصل . وهو نفسه يقول فى خاتمته : « ... وتقرير الأبواب ، فبلغتُ بها الثلاثين على مهل ورويّة ، وضمّنتها من الفصول ما يناهز الستماية » . وقد طبع الكتاب أكثر من مرة .

واعتماد الثعالبى على كتاب « الغريب المصنف » لأبى عبيد ، كبير ؛ إذ لم يفعل فى كثير من الأحيان ، أكثر من نقله نص أبى عبيد فى كثير من فصوله ، بل لقد نقل فصلا وجده ملحقا بحاشية الورقة ، من باب : « الرمال » فى كتاب الغريب المصنف ، وهو من زيادات النساخ فيه!

٧ – **المخصص فى اللغة**[٧٩] ، لأبى الحسن على بن سيدة الأندلسى (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) : وهو أكبر كتاب وأهم مصنف فى المعاجم العربية ، ألّف على الترتيب الموضوعى . وقد نص ابن سيدة فى مقدمته ، على مصادره التى رجع إليها ، ووضع فى داخل نصه ، أسماء الأعلام الذين

---

(٧٩) طبع فى ١٧ سفرا بالقاهرة سنة ١٣١٦ هـ – ١٣٢١ هـ .

استخدم مصادرهم ، فى عناية فائقة تبعث على الاحترام والإعجاب ، فهو يعزو كل قول إلى صاحبه ، ويعلّق على هذا القول أو ذاك أحيانا .

ومن مقدمته ، نرى أنه اعتمد على كثير من الرسائل اللغوية ، التى ألّفها : ابن السكيت ، وثعلب ، وأبو حنيفة الدينورى ، والفراء ، والأصمعى ، وأبو زيد ، وأبو حاتم السجستانى ، والنضر بن شميل ، إلى جانب جمهرة اللغة لابن دريد ، وكتاب العين للخليل بن أحمد ، والبارع للقالى . وكان أكثر اعتماده على كتاب : « الغريب المصنف » لأبى عبيد ؛ إذ كان يحفظه عن ظهر قلب ؛ فقد « قال أبو عمر الطَّلَمَنْكِىّ : دخلت مرسية ، فتشبث بى أهلها ؛ ليسمعوا عنى غريب المصنف ، فقلت لهم : انظروا من يقرأ لكم ، وأمسك كتابى ، فأتونى برجل أعمى ، يعرف بابن سيدة ، فقرأه على من أوله إلى آخره ، من حفظه ، فعجبت منه[٨٠] » .

وقد كشف ابن سيدة فى مقدمة كتابه هذا ، عن فائدة الترتيب الموضوعى للمعاجم ، وأنه « أجدى على الفصيح المِدْرَه ، والبليغ المفوّه ، والخطيب المصقع ، والشاعر المجيد المدقع ؛ فإنه إذا كانت للمسمى أسماء كثيرة ، وللموصوف أوصاف عديدة ، تنقّى الخطيب والشاعر منها ما شاءا ، واتسعا فيما يحتاجان إليه من سجع وقافية[٨١] » .

٨ - **كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ** من اللغة وغريب الكلام[٨٢] ، لأبى إسحاق إبراهيم بن اسماعيل ، المعروف بابن الأجدابى (المتوفى فى حدود سنة ٦٠٠ هـ) : وهو كتاب صغير جدا ، لم يذكر فيه مؤلفه شيئا عن مصادره ، ولم يرد فيه ذكر عالم من علماء اللغة ، ما عدا موضعا واحدا ، ذكر فيه أبو زيد والأصمعى وأبو عبيدة . وليس فى الكتاب إلا شاهد شعرىّ واحد . وقد قصد مؤلفه إلى ذلك قصداً ، فهو يريد لكتابه أن

---

(٨٠) معجم الأدباء ٢٣٣/١٢

(٨١) المخصص ١٠/١

(٨٢) طبع فى مجموعة لغوية بحلب سنة ١٣٤٥ هـ ، كما طبع مرات بالقاهرة .

يكون صغير الحجم ، واضح العبارة ، خاليا من التطويل والاستشهاد ، ليسهل على طالب اللغة الانتفاع به وحفظه إن شاء الله .

والمؤلف نفسه يقول في المقدمة : « هذا كتاب مختصر فى اللغة ، وما يحتاج إليه من غريب الكلام ، أودعناه كثيرا من الأسماء والصفات ، وجنبناه حوشى الألفاظ واللغات ، وأعريناه من الشواهد ليسهل حفظه » .

* * *

ونعالج فيما يلى النوعين الآخرين ، من المعاجم العربية ، وهى التى رتبت فيها المادة اللغوية ، على حسب المخارج الصوتية وطريقة التقاليب ، أو على حسب الترتيب الأبجدى . وسنتبع فى عرضنا لهذه المعاجم المنهج التاريخى .

وأقدم معجم من هذا النوع ، يقابلنا على الإطلاق ، هو : « **كتاب العين**[٨٣] » ، للخليل بن أحمد الفراهيدى (المتوفى سنة ١٧٥ هـ) ، عبقرى زمانه ، الذى اكتشف موازين الشعر العربى ، ووضع طريقة الضبط بالشكل ، التى نستخدمها حتى يومنا هذا .

وهناك خلاف كبير ، فى نسبة كتاب العين إليه[٨٤] . ويبدو أن الخليل بن أحمد كتب مقدمته ، ووضع الهيكل العام للكتاب ، ثم حشاه من بعده تلميذه : « الليث بن المظفّر » (المتوفى سنة ١٩٠ هـ) .

وقد رتبت المادة اللغوية فى كتاب العين ، على حسب مخارج الأصوات من الحلق على النحو التالى :

[ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م / و ا ى] .

---

(٨٣) طبعت منه قطعة صغيرة فى ٤٤ صفحة ، بعناية الأب أنستاس مارى الكرملى فى بغداد سنة ١٩١٤ م . ثم ظهر جزء أول منه ، بتحقيق الدكتور عبد الله درويش ، فى بغداد سنة ١٩٦٧ م .

(٨٤) عن تفصيل هذه القضية فى : المعجم العربى للدكتور حسين نصار ص ٢٥٤ – ٢٧٠ .

وقد دل أحد الشعراء على ترتيب العين ، بأوائل كلمات الأبيات التالية :

عن حزن هجر خريدة غنَّاجة
قلبى كواه جوًى شديد ضِرار
صحبى سيبتدئون زجرى طُلَّباً
دَهْشَى تطلُّب ظالم ذى ثار
رغماً لِذِى نصحى فؤادى بالهوى
متلهِّب وذوى الملام يُمارى

وهو يقسم كل حرف من هذه الحروف ، إلى مضعف الثلاثى ، ومضعف الرباعى ، والصحيح ، والمعتل ، والرباعى . وهو يتبع فى كل قسم من هذه الأقسام « طريقة التقاليب » . وهذه الطريقة تنتج فى الثنائى (مضعف الثلاثى) إمكانتين لا غير ؛ مثل : ع ق / ق ع ، ومثل : ع ك / ك ع ... إلخ . أما الثلاثى ففيه ستة تقاليب ؛ مثل :

ر ج ع / ر ع ج / ع ج ر / ع ر ج / ج ع ر / ج ر ع

وأما الرباعى ففيه ٢٤ تقليبا ؛ مثل :

ع ب ق ر / ع ب ر ق / ع ق ر ب / ع ق ب ر / ع ر ق ب / ع ر ب ق

ب ع ق ر / ب ع ر ق / ب ق ع ر / ب ق ر ع / ب ر ق ع / ب ر ع ق

ق ع ب ر / ق ع ر ب / ق ب ع ر / ق ب ر ع / ق ر ع ب / ق ر ب ع

ر ق ع ب / ر ق ب ع / ر ع ق ب / ر ع ب ق / ر ب ق ع / ر ب ع ق

وفى الخماسى عدد من التقليبات ، تبلغ ١٢٠ تقليبا ، كالمثال التالى ، مضروبا فى خمسة أضعاف :

س ف ر ج ل / س ف ر ل ج / س ف ج ر ل /
س ف ج ل ر / س ف ل ج ر / س ف ل ر ج

س ر ج ف ل / س ر ج ل ف / س ر ف ج ل /
س ر ف ل ج /س ر ل ف ج /س ر ل ج ف

س ج ل ف ر / س ج ل ر ف / س ج ف ر ل /
س ج ف ل ر / س ج ر ف ل / س ج ر ل ف

س ل ر ف ج / س ل ر ج ف / س ل ج ف ر /
س ل ج ر ف / س ل ف ج ر / س ل ف ر ج

ومن الطبيعى أن هذه التقاليب ، ليست كلها مستعملة عند العرب ، ولذلك نرى الخليل يهمه المستعمل فحسب ، من تقاليب المادة الواحدة فينبه عليها ؛ مثل قوله : « باب العين والهاء والدال : ع هـ د / ع د هـ / د هـ ع مستعملات » . ومعنى هذا أن هناك ثلاثة تقاليب أخرى ، غير مستعملة من هذه المادة ، تركها الخليل بن أحمد .

ويضم « حرف العين » فى كتاب الخليل ، جميع الكلمات التى تتضمن صوت العين فى أى موضع منها ، ثم يليه « حرف الحاء » ويضم جميع الكلمات المشتملة على حاء ، فى أى موضع منها ، مع استبعاد الكلمات التى فيها عين ؛ لأنها قد ذكرت فى حرف العين . ثم يلى ذلك « حرف الهاء » مشتملا على الكلمات التى دخلتها الهاء ، عدا ما يشتمل منها على عين أو حاء ... وهكذا ، حتى إذا وصلنا إلى باب الميم مثلا ، وجدناه لا يكاد يعدو صفحة أو صفحتين ، على حين أن باب العين ، وهو الباب الأول ، باب ضخم جدا ، بل إنه أضخم أبواب الكتاب .

ويقال إن هذا الترتيب الصوتى ، لم يبتكره الخليل ، وإنما هو ترتيب اللغة السنسكريتية ، وهى لغة الهند القديمة ؛ فإن هذه اللغة كانت ترتب حروفها على هذا النظام ، ابتداء من أقصى الحروف مخرجا إلى أدناها . وقد اتصل المسلمون بالهنود فى الفتوحات الإسلامية ، بل اتصل بهم عرب الجاهلية فى القديم ، كما جاء كثير منهم إلى العراق وعاش فيه ، فقيل إن

الخليل عرف منهم هذا النظام[٨٥] . غير أن الأبنية من مضعف الثلاثى ، ومضعف الرباعى ، وغير ذلك مما سبق أن تحدثنا عنه ، هذه الأبنية من الأمور التى تمتاز بها اللغات السامية ، عن اللغات الهندوأوربية ، وكذلك الأمر فى « التقاليب » ، لم نجد من ينص على أنها استخدمت فى معاجم الهنود . وإذن فهاتان الخطوتان لا نزاع فى أنهما للخليل بن أحمد .

وقد أثر ترتيب كتاب العين ، ذلك الترتيب الصوتى ، فى تصنيف المعاجم العربية ، لعدة قرون طويلة بعد كتاب العين للخليل بن أحمد ؛ فقد أثر فى البارع للقالى ، وتهذيب اللغة للأزهرى ، والمحكم لابن سيدة ، والمحيط لابن عباد ، واللامع للفيروزابادى . كما أثر نظام كتاب العين كذلك فى كل من : جمهرة اللغة لابن دريد ، وديوان الأدب للفارابى ، ومجمل اللغة لابن فارس . وسنتحدث عن كل هذه المعاجم فيما بعد .

وقد اختصر كتاب العين ، عالم أندلسى ، يعرف بأبى بكر الزُّبيدى الإشبيلى (المتوفى سنة ٣٧٩ هـ) . ويصف السيوطى هذا المختصر ، بأنه أحسن من الأصل[٨٦] .

ومن هذا العصر المبكر ، وصل إلينا معجم آخر ، اسمه : « **الجيم**[٨٧] » ، لأبى عمرو إسحاق بن مرار الشيبانى (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) : ولا يبدأ الكتاب بحرف الجيم ، كما كنا نتوقع من تسميته بذلك على نمط كتاب العين . وقد وقع فى هذا الوهم بعض القدماء ؛ فقد روى السيوطى أن ابن مكتوم قال فى تذكرته : « سئل بعضهم : لم سمى كتاب الجيم – تصنيف أبى عمرو إسحاق بن مرار الشيبانى ، بهذا الاسم ؟ فقال : لأن أوله حرف الجيم ، كما سمى كتاب العين ؛ لأن أوله حرف العين .

---

(٨٥) انظـــــر : St. Wild, Das Kitāb al-ʿAin und die arabische Lexikographie

(٨٦) المزهر فى علوم اللغة ٨٧/١ وقد نشرت قطعة منه بتحقيق علال الفاسى بالرباط سنة ١٩٦٣ م .

(٨٧) منه مخطوطة وحيدة بمكتبة دير الإسكوريال بأسبانيا . وقد نشره مجمع اللغة العربية ، بتحقيق إبراهيم الإبيارى وآخرين ، بالقاهرة سنة ١٩٧٤ – ١٩٧٥ م .

قال : فاستحسنا ذلك ، ثم وقفنا على نسخة من كتاب الجيم ، فلم نجده مبدوءاً بالجيم[٨٨] » .

ولعل سبب تسميته بالجيم ، ما ذكره الفيروزابادى فى قوله : « وقال أبو عمرو الشيبانى : الجيم فى لغة العرب : الديباج . وله كتاب فى اللغة ، سماه بالجيم ، كأنه شبّهه بالديباج لحسنه[٨٩] » .

ولكتاب « الجيم » أسماء أخرى ، ذكرتها كتب التراجم ، فهو يسمى كذلك : كتاب اللغات ، وكتاب الحروف[٩٠] ؛ غير أن النسخة التى بقيت لنا من هذا الكتاب ، لا تحمل إلا اسم : كتاب الجيم .

وليس فى كتاب الجيم مقدمة ، تهدينا إلى هدف المؤلف من كتابه ولكن دراسة الكتاب نفسه ، تدل على أنه قصد إلى تدوين الألفاظ الغريبة ، من لغات العرب . ويقال إنه جمع أشعاراً لحوالى ثمانين قبيلة عربية ، ثم جمع الألفاظ الغريبة فى هذه الأشعار ، وفسرها فى هذا الكتاب .

« ومنهج أبى عمرو فى ترتيب كتابه ، غاية فى البساطة ، فقد قسم الكتاب إلى أبواب ، قصر كل واحد منها ، على حرف من حروف الهجاء ، واتبع فى ترتيب هذه الحروف ، الطريقة المألوفة لنا اليوم ، غير أنه قدم الواو على الهاء ، فالباب الأول للألف ، والثانى للباء ، والثالث للتاء ، إلى آخر الحروف ، ثم ملأ هذه الأبواب ، بالألفاظ المبدوءة بالحرف الخاص بكل باب ، بلا مراعاة لأى حرف بعدها ، ولا اعتداد بالصيغ التى تتفرع عن الأصول ، ولا نظر لأى أمر من الأمور ، وإنما هى ألفاظ يأتى بعضها وراء

---

(٨٨) المزهر فى علوم اللغة ١/٩٠

(٨٩) بصائر ذوى التمييز ٢/٣٥١

(٩٠) انظر : الحروف للخليل بن احمد ٧ أما ما ورد فى مقدمة العباب للصاغانى (١/٣٠) حين ذكر مصادره ؛ فقال : « وكتاب الحروف لأبى عمرو الشيبانى وكتاب الجيم له » ، فلعل فيه سقطا ، وصوابه : « ...و[هو] كتاب الجيم له » . ولعل مما يؤيد ذلك الظن أن الصاغانى نفسه روى فى التكملة (١/١٤) كلاما عن كتاب « الحروف » لأبى عمرو الشيبانى ، وهو بنصه فى كتاب الجيم (١/١٣٦) .

بعض ، وكل لفظة منفصلة عن تاليتها تمام الانفصال ، فعلى الباحث عن أى لفظ فى هذا الكتاب ، أن ينظر فى أوله ، فإن كان « باء » مثلا ، فعليه أن يقرأ باب الباء كله ، عسى أن يعثر على ما يبحث عنه[٩١] » .

وقد اشتهر عن كتاب « الجيم » أن فيه تسجيلا لكثير من اللهجات العربية القديمة ؛ بسبب كثرة ما ورد فيه من قوله مثلا : قال السعدى .. قال الطائى .. قال النميرى .. قال الكلابى .. قال الغنوى .. قال الكلبى .. قال العكلى .. قال القيسى .. إلخ[٩٢] .

غير أن دراسة الكتاب ، تثبت أن أبا عمرو ، لم يرد بذلك إلا ذكر أسماء الرواة ، الذين روى عنهم مادة كتابه ، وقد حدد المراد من تلك الأسماء فى غير موضع من كتابه ؛ فالسعدى مثلا هو : أبو جابر السعدى (١/٢٢٤ ؛ ٢/١٩٦ ؛ ٣/٢٦٨) والطائى هو : دكين الطائى (١/١٥٩ ؛ ١/٣٠٢ ؛ ٢/٥٢) والنميرى هو : أبو السفاح النميرى (١/٢٤٧ ؛ ١/٢٨٠ ٢/١٤٣ ؛ ٢/٢٢٢ ؛ ٢/٢٥١ ؛ ٣/٩ ؛ ٣/٢٩ ؛ ٣/٧٣ ؛ ٣/١٩٢ ٣/٢٤٢) والكلابى هو : أبو السمح الكلابى (٢/١٩٤) وقال عنه مرة : أبو السمح أحد بنى بكر بن كلاب (٣/٢٤٦) والغنوى هو : نصر الغنوى (١/١٢٣ ؛ ١/٢٨١ ؛ ٢/٢٠٠ ؛ ٢/٢٥٣ ؛ ٣/١٩٢) ، وغير ذلك كثير جدا .

ولا يريد أبو عمرو بروايته عن هؤلاء ، ذكر خصائص لهجاتهم القبلية ؛ بدليل أنه إن اراد ذكر كلمة من لهجة معينة ، نص على ذلك ؛ كقوله مثلا : تقول بنو أسد (١/١٨٣ ؛ ٢/٥٩) فى كلام بنى شيبان (١/٢٧٤) بلغة بَلِىّ (٢/٣٥) كلب تقول (٢/١٩٩ ؛ ٣/١٩٢) لغة لطيىء (٣/٤٠) بلغة عقيل (٣/١٨١) .

---

(٩١) المعجم العربى ، للدكتور حسين نصار ٨٠

(٩٢) انظر مثلا : مقدمة الجيم ١/٣٧ وكنت ذهبت إلى مثل ذلك ، فى الطبعة الأولى من كتابى هذا .

وليس أدل على ما نذهب إليه من قوله مثلا : وقال الثعلبى : طيىء تسمى الصخرة سهوة (٢/٩٢) ؛ فهذا الثعلبى – فى نظرى – ليس إلا شخصا معينا ، يروى عن العرب بعامة ، لا عن قبيلة بعينها هى قبيلته ، كما ترى !

ونصل الآن إلى أوائل القرن الرابع الهجرى . وأول ما يقابلنا فيه من المعاجم العربية ، كتاب : «**الجمهرة فى اللغة**[٩٣]» ، لمحمد بن الحسن ابن دريد الأزدى (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) وهو صاحب كتاب معروف لنا جميعا ، هو كتاب : « الاشتقاق » ، الذى حاول فيه أن يشتق أسماء القبائل العربية والأشخاص ، من مواد لغوية ، كقوله مثلا : « واشتقاق قضاعة من شيئين : إما من قولهم : انقضع الرجل عن أهله ؛ إذا بعد عنهم ، أو من قولهم : تقضّع بطنه ، إذا أوجعه أو وجد فى جوفه وجعا[٩٤] » .

أما كتابه : « الجمهرة فى اللغة » ، فإنه معجم لألفاظ اللغة العربية ، رتب فيه المادة اللغوية ، على الترتيب الهجائى المعروف لنا جميعا . ويعلل ابن دريد لتسمية كتابه بالجمهرة ، بقوله : « وإنما أعرناه هذا الاسم ؛ لأنا اخترنا له الجمهور من كلام العرب ، وأرجأنا الوحشى المستنكر[٩٥] » . ولم يذكر ابن دريد فى مقدمته ، مصدراً لكتابه سوى كتاب « العين » للخليل بن أحمد[٩٦] ، غير أنه يطالعنا فى نص الجمهرة نفسها ، أسماء : الأصمعى ، وأبى عبيدة ، وأبى حاتم ، وأبى زيد ، وغيرهم .

ويبدو تأثر ابن دريد بكتاب العين ، فى تقسيمه المواد إلى الثنائى والثلاثى والرباعى ، ومضعف الرباعى ، والمعتل ، والصحيح ، وكذلك

---

(٩٣) نشره المستشرق « كرنكو » F.Krenkow فى حيدر آباد بالهند سنة ١٣٤٤ – ١٣٥١ هـ .

(٩٤) الاشتقاق لابن دريد ٥٣٦

(٩٥) جمهرة اللغة ٤/١

(٩٦) جمهرة اللغة ٣/١

فى طريقة التقاليب ؛ ولذلك فإنه على الرغم من أن الأساس فى ترتيبها ، هو الأساس الأبجدى المعروف لنا ، فإن الكشف فيها عن كلمة من الكلمات ، أمر صعب جدا . ولولا أن ناشر « الجمهرة » قد صنع فهرسا حديثا مفصلا لها ، فى الجزء الرابع ، لما أمكننا أن نفيد منها الفائدة المنشودة ، إلا بشق الأنفس .

وفى آخر « الجمهرة » نجد بابا عقده ابن دريد ، لما سماه : « النوادر » . وقد قسمه إلى أبواب بحسب الصيغ ؛ فباب لفَعْلَاء ، وآخر لفاعلاء .. إلخ . ولم يراع ابن دريد فى هذه الأبواب ، ترتيبا أبجديا فى ذكر مفرداته ، كما نجد فى آخر « الجمهرة » كذلك ، عدة أبواب صغيرة ؛ مثل : « باب فى صفة النعل[٩٧] » ، وهو خلط للنظام الأبجدى ، بنظام الموضوعات والمعانى .

وتحتوى « الجمهرة » على شروح للكلمات ، وأبيات من الشواهد لا توجد أحيانا فى غيرها من المعاجم العربية . وقد اعتمد على الجمهرة فى تأليف المعاجم فيما بعد : ابن سيدة الأندلسى فى كتابيه : المخصص والمحكم ، والصاغانى فى : العباب والتكملة .

والمعجم الذى تلا جمهرة ابن دريد فى الظهور ، هو : « **ديوان الأدب فى بيان لغة العرب**[٩٨] » لإسحاق بن إبراهيم الفارابى (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) : وهذا الكتاب لا يمت إلى الأدب بصلة – كما يوهم عنوانه – بل هو معجم لألفاظ اللغة العربية . وينقسم « ديوان الأدب » إلى ستة كتب ، على النحو التالى :

١ – كتاب السالم .

---

(٩٧) جمهرة اللغة ٤٥٩/٣

(٩٨) نشره هذا المعجم الجليل فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، بتحقيق الدكتور أحمد مختار عمر ، سنة ١٩٧٤ –١٩٧٨ م .

٢ – كتاب المضاعف .

٣ – كتاب المثال .

٤ – كتاب ذوات الثلاثة (أى الأجوف) .

٥ – كتاب ذوات الأربعة (أى الناقص) .

٦ – كتاب الهمزة .

وكل كتاب من هذه الكتب الستة ، ينقسم إلى قسمين : الأول منهما خاص بالأسماء ، والثانى خاص بالأفعال . وكل قسم من هذين ينقسم إلى أبواب ، على أساس الأبنية ، فباب لفَعْل ، وآخر لفِعْل ، وثالث لفُعْل ، وما شابه ذلك . وأخيرا تنقسم الأبواب ، بحسب حروف المعجم ، على الألف باء تاء ... إلخ ، على حسب الأصل الأخير من الكلمة ؛ ففى فصل الباء مثلا ، نجد الكلمات التى أصلها الأخير باء ، ثم ترتب الألفاظ التى أواخرها الباء فى فصولها ، بحسب الحرف الأول منها ، فالثانى فما بعده من الحروف ، إن وجدت .

وذلك النظام الأخير نفسه ، هو الذى اتبعه – فيما بعد – الجوهرى ، ابن أخت الفارابى ، فى صحاحه ، واشتهر بأنه مبتكره ، على حسب دعواه فى مقدمته ، وهى غلطة شائعة ، لابد من التنبيه عليها .

ويقول الدكتور حسين نصار : « إن السبب فى اللجوء إلى هذا النظام ، شيوع السجع فى القرن الرابع الهجرى ، الذى ألف فيه (الديوان) ، وحاجة الأدباء إلى الكلمات المتحدة الحرف الأخير . ومن الأسباب أيضا : اختفاء العرب من بين الشعراء ، وغلبة الأعاجم على الشعر ، وضعف محصولهم اللغوى ، وحاجتهم إلى البحث عن الألفاظ ، التى تتفق مع قوافيهم[٩٩] »

---

(٩٩) المعجم العربى ١٧٦

يقول الفارابى فى مقدمة كتابه : « وقد أنشأت بتوفيق الله تعالى .. كتابا ، عملت فيه عمل من طَبَّ لمن حَبَّ ، مشتملا على تأليف لم أسبق إليه ، وسابقا بتصنيف لم أزاحم عليه ، وأودعته ما استعمل من هذه اللغة ، وذكره النحارير من علماء أهل الأدب فى كتبهم ، مما وافق الأمثلة التى مثَّلت ، والأبنية التى أوردت ، مما جرى فى قرآن ، أو أتى فى سنة ، أو حديث ، أو شعر ، أو رجز ، أو حكمة ، أو سجع ، أو مَثَل ، أو نادرة[١٠٠] » .

وإذا كان « الفارابى » قد جدّد فى تأليف المعاجم ، باتباع الترتيب الأبجدى فى داخل كل باب ، فإنه كان لا يزال متأثرا بكتاب العين ، فى تقسيمه المادة اللغوية أصلا على الأوزان : السالم والمضاعف ، وغير ذلك مما سبق الحديث عنه .

وفى الوقت نفسه ، الذى ظهر فيه « ديوان الأدب » للفارابى فى المشرق ، ظهر فى المغرب فى بلاد الأندلس ، معجم آخر اسمه : « **البارع فى اللغة** » ، لأبى على إسماعيل بن القاسم البغدادى ، المشهور بالقالى (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ) ، وهو تلميذ ابن دريد السابق . ويقال إن القالى ابتدأ فيه عام ٣٣٩ هـ ، ثم مات قبل أن يتمّه ويهذّبه ، فتولى تهذيبه وورّاقه : « محمد بن الحسين الفهرى » من أهل قرطبة ، مع أحد علمائها ، وهو : « محمد بن معمر الجيانى » ، فاستخرجاه من الصكوك والرقاع .

رُوِى عن أحد أبناء القالى أنه قال : « ابتدأ أبى — رحمه الله — بعمل كتاب : البارع ، فى رجب سنة ٣٣٩ ثم قطعته علل وأشغال ، ثم عاود النظر فيه ، بأمر أمير المؤمنين ، وتأكيده عليه ، فعمل فيه من سنة ٣٤٩ فأخذه بجد واجتهاد ، وكَمُلَ له ، وابتدأ بنقله ، فكمل لنفسه إلى شوال سنة

---

(١٠٠) ديوان الأدب ٧٢/١ – ٧٣

٣٥٥ كتاب الهمز ، وكتاب الهاء ، وكتاب العين ، ثم اعتل فى هذا الشهر[١٠١] » .

ولم يصل إلينا من هذا المعجم ، سوى قطعتين صغيرتين ، الأولى : فى المكتبة الوطنية بباريس ، والثانية : فى المتحف البريطانى ، وهى أكبر من الأولى . وقد نشرها مصورة فى كتاب : المستشرق « فولتون » A . Fulton فى لندن سنة ١٩٣٣ م ، ثم نشرت القطعتان ، بتحقيق هاشم الطعان ، فى بغداد سنة ١٩٧٥ م .

وقد اتبع القالى فى معجمه – كما يتضح مما تبقى لنا من الكتاب – منهج الخليل بن أحمد ، فى ترتيب المادة اللغوية ، على حسب مخارج الأصوات ، مع اختلاف طفيف ، على النحو التالى :

[ء هـ ع ح خ غ / ق ك /ض ج ش /ل ر ن /ط د ت / ص ز س /ظ ذ ث /ف ب م /و ا ى][١٠٢] .

وقد اعتمد القالى فى مادة كتابه : « البارع » على كتاب « العين » اعتمادا كبيرا ، إلى جانب اعتماده على كتاب : « الغريب المصنف » ، لأبى عبيد القاسم بن سلام ، وكتب أبى زيد ، وأبى حاتم ، وابن السكيت ، وغيرهم . وقد أخطأ « كرنكو » F . Krenkow حين ذكر أن « البارع اعتمد على كتاب الجمهرة لابن دريد[١٠٣] » ؛ لأن المقارنة تثبت خطأ ذلك الرأى .

وقد ظل أثر كتاب العين باقيا فى معجم آخر ، ظهر فى ذلك الوقت ، وبقى لنا حتى الآن كاملا ، ذلك هو معجم : « **تهذيب**

---

(١٠١) إنباه الرواة للقفطى ٢٠٩/١

(١٠٢) انظر مقدمة البارع (نشرة الطعان) ٧١

(١٠٣) انظر : F.Krenkow, The Beginnings of Arabic Lexikography til the time of : al - Jauhari 266 .

اللغة[١٠٤] » ، لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى (المتوفى سنة ٣٧٠ هـ) : وكان الأزهرى يهدف بمعجمه هذا إلى تنقية اللغة العربية من الشوائب ، التى تسرّبت إليها فى مؤلفات سابقيه من اللغويين . ويقول الأزهرى فى مقدمة كتابه : « وقد سميت كتابى هذا : (تهذيب اللغة) ؛ لأنى قصدت بما جمعت فيه ، نفى ما أدخل فى لغات العرب ، من الألفاظ التى أزالها الأغبياء عن صيغتها ، وغيّرها الغُتم عن سَنَنِها ، فهذّبت ما جمعت فى كتابى من التصحيف والخطأ ، بقدر علمى ، ولم أحرص على تطويل الكتاب ، بالحشو الذى لم أعرف أصله ، والغريب الذى لم يسنده الثقات إلى العرب[١٠٥] » .

وقد رتب الأزهرى تهذيبه ، كترتيب كتاب العين ، للخليل بن أحمد ، على حسب مخارج الأصوات ، من الحلق إلى الشفتين ، سواء بسواء ، واستقى مادته منه ، ومن غيره من الكتب التى ألفت قبله . وقد ذكر هذه الكتب جميعها ، وترجم لأصحابها ، فى مقدمته المطوّلة لكتابه ، وأضاف إلى هذه المصادر جميعها ، ما سمعه هو من العرب بنفسه ؛ فقد وقع الأزهرى أسيرا فى أيدى القرامطة ، فسنحت له الفرصة لكى يختلط بالبدو والعرب الخُلَّص ، فنقل عنهم الكثير فى معجمه : « تهذيب اللغة » ، وقال فى ذلك : « فبقيت فى إسارهم دهرا طويلا ، وكنا نتشتّى الدهناء ، ونتربّع الصمّان ، ونتقيّظ الستارين ، واستفدت من مخاطباتهم ، ومحاورة بعضهم بعضا ، ألفاظا جمّة ، ونوادر كثيرة ، أوقعت أكثرها فى مواقعها من الكتاب[١٠٦] » .

ويعد هذا المعجم ، مع معجم « المحكم » ، لابن سيدة الأندلسى ، من أهم مصادر « لسان العرب » الذى يأتى الكلام عليه فيما بعد .

---

(١٠٤) طبع هذا الكتاب الجليل ، بتحقيق عبد السلام هارون وآخرين ، بالقاهرة سنة ١٩٦٤ – ١٩٦٧ م .

(١٠٥) تهذيب اللغة ١/٥٤

(١٠٦) تهذيب اللغة ١/٧

وقد تأثر بكتاب « العين » فى ذلك العصر أيضا ، كتاب آخر للصاحب بن عبّاد أبى القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ) ، وهو كتاب : « **المحيط فى اللغة**[١٠٧] » : وهو متأثر بكتاب العين فى الترتيب والمادة ، غير أن فيه زيادات فى بعض المواد ، عن كتاب العين ، تحت عبارة : « أهمله الخليل » ومعظم هذه الزيادات ، مأخوذ عن كتاب « تكملة كتاب العين » للخارزنجى (المتوفى سنة ٣٤٨ هـ) . ويلاحظ فيه - فيما عدا ذلك - أنه ترك معظم شواهد كتاب العين .

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ألف أبو الحسين أحمد بن زكريا بن فارس اللغوى (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) معجمين مهمين هما : مجمل اللغة ، ومقاييس اللغة .

فالأول وهو : « **مجمل اللغة**[١٠٨] » ، معجم صغير ، يمتاز بتعريفاته المختصرة وشواهده الكثيرة ، وهو يعتمد على الخليل ، وابن دريد ، والكسائى ، والفراء ، وأبى عبيدة ، وأبى زيد ، وأبى عبيد القاسم بن سلام ، والأموى ، وأبى عمرو الشيبانى ، وغيرهم[١٠٩] .

وهو مرتب أبجديا ، على حسب الأصل الأول للكلمة ، مع الأصل الثانى والثالث ، موردا الحرف مع ما يليه ، إلى أن يصل إلى حرف الياء ، ثم يعود إلى ما تبقى من الحروف ، مبتدئا بالألف إلى الحرف الذى عقد له الباب . وهو متأثر بكتاب العين ، فى تقسيمه الحرف الواحد ، إلى مضعف الثنائى ، والثلاثى ، وما زاد على الثلاثة .

أما المعجم الثانى ، وهو : « **مقاييس اللغة**[١١٠] » ، فإنه يتبع نفس

---

(١٠٧) نشر الشيخ محمد حسن آل ياسين الجزأين : الأول والثانى منه فى بغداد سنة ١٩٧٥ - ١٩٧٨ م . وقد استغرقا حرف العين من الكتاب .

(١٠٨) طبع الجزء الأول منه ، بعناية الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد بالقاهرة سنة ١٩٤٧ م .

(١٠٩) مجمل اللغة ١/٣

(١١٠) نشر هذا الكتاب ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، بالقاهرة سنة ١٣٦٦ - ١٣٧١ هـ .

الترتيب والنظام ، الذى اتبعه مؤلفه فى المجمل . وذكر ابن فارس فى مقدمته ، أنه اعتمد أصلا على كتب خمسة ، وهى :

١ – العين ، للخليل بن أحمد .

٢ – غريب الحديث ، لأبى عبيد القاسم بن سلام .

٣ – الغريب المصنف ، لأبى عبيد القاسم بن سلام .

٤ – إصلاح المنطق ، لابن السكيت .

٥ – جمهرة اللغة ، لابن دريد .

ثم قال : « فهذه الكتب الخمسة ، معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة ، وما بعد هذه الكتب ، فمحمول عليها وراجع عليها ، إذا وقع الشيء النادر ، نصصناه إلى قائله إن شاء الله[١١١] »

غير أن كتاب : « المقاييس » يمتاز على كتاب : « المجمل » ، بأن فيه فكرتين جديدتين ، على حركة التأليف فى المعاجم العربية ، سبق أن تحدثنا عنهما ، ووصفناهما بأنهما من صميم الدراسات فى : « فقه اللغة العربية » ، وهما فكرتا : الأصول والنحت ؛ فهو فى المقاييس ، يحاول أن يعالج مفردات المادة الواحدة ، تحت أصل أو أصلين ، كما جمع ما زاد على الثلاثة من كل مادة ، تحت أبواب معينة ، وحاول تفسير بعضها بما يسمى : « النحت » . ويظهر أن « المقاييس » ألف بعد « المجمل » ؛ لأن الثانى فيه بعض بدايات هذا التفكير .

وينتهى القرن الرابع الهجرى ، بمعجم نال الشهرة ، وطبق ذكره الآفاق ، ذلك هو معجم : « **تاج اللغة وصحاح العربية**[١١٢] » ، لأبى نصر إسماعيل بن حماد النيسابورى المعروف بالجوهرى (المتوفى حوالى سنة

---

(١١١) مقاييس اللغة ١/٥

(١١٢) نشر الصحاح فى ستة أجزاء ، بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م .

٤٠٠ هـ) ، وبظهوره ظهر أول معجم للغة العربية ، رتبت فيه المادة اللغوية ، من أولها إلى آخرها ، بحسب الأصل الأخير للكلمة ، مع مراعاة الأصل الأول أيضا . وقد ظهرت بوادر هذا الترتيب ، فى كتاب خاله الفارابى : « ديوان الأدب » - كما ذكرنا من قبل - ولا شك فى أن الجوهرى ، قد تأثر بديوان الأدب ، فى هذا النوع من الترتيب ، وإن كان يدعى فى مقدمة الصحاح ، أنه الذى ابتكر هذا الترتيب ؛ فيقول : « على ترتيب لم أسبق إليه ، وتهذيب لم أغلب عليه[١١٣] » ؛ فقد ذكر ياقوت[١١٤] أن الجوهرى قرأ ديوان الأدب على خاله بفاراب .

وللصحاح شروح وتكملات واستدراكات ، منها : « التنبيه والإيضاح على ما وقع فى كتاب الصحاح » لابن برى وقد طبع منه جزءان بمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٨٠ — ١٩٨١ م . وقد اختار الرازى منه مختارات سماها : « مختار الصحاح » واتبع فى ترتيبها نفس ترتيب الصحاح ، ثم هذب هذا المختار فى العصر الحديث ، الأستاذ محمود خاطر ، بتكليف من وزارة المعارف العمومية ، فى مصر ، فغيّر ترتيبه مراعيا الحرف الأول والثانى وما بعدهما ، وحذف منه مالا ينبغى أن يطرق مسامع النشء . وقد ترجم الصحاح مختصرا إلى الفارسية ، كما ترجم إلى التركية .

وفى منتصف القرن الخامس الهجرى ، يظهر أبو الحسن على ابن إسماعيل بن سيدة الأندلسى (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) بمعجميه : المخصص فى اللغة ، والمحكم والمحيط الأعظم .

أما الأول ، فهو مرتب على حسب المعانى والموضوعات - كما سبق أن ذكرنا ذلك - وهو يعتمد اعتمادا كبيرا على كتاب « الغريب المصنف » لأبى عبيد ؛ إذ نقله كله تقريبا فى كتابه . وفيه ميزة حسنة ، وهى أنه إذا نقل

---

(١١٣) الصحاح ٣٣/١

(١١٤) معجم الأدباء ٦٣/٦

نصا من كتاب ، نسبه إلى صاحبه . ويعد كتاب المخصص من أكمل الكتب التى ألّفت على حسب المعانى .

أما المعجم الثانى : « **المحكم والمحيط الأعظم**[١١٥] » ، فقد ألّف فيما يظهر بعد المخصص ، وهو يتبع نظام كتاب « العين » للخليل بن أحمد تماما . ومصادره فى المحكم ، هى نفس مصادره فى المخصص ؛ إذ إنه ذكرها فى مقدمته ، غير أنه بخلافه فى المخصص ، لا يذكر فى نص المحكم مرجعا إلا فى النادر ، كما يتصرف فى عبارة المراجع ، التى ينقل عنها فى المحكم ، بعكس الحال فى المخصص .

وننتقل الآن إلى أوائل القرن السادس الهجرى ، لنرى الزمخشرى ، وهو أبو القاسم محمد بن عمر بن محمد الخوارزمى جار الله (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) يؤلف كتابه : « **أساس البلاغة**[١١٦] » . وقد خطا الزمخشرى فى كتابه هذا خطوة جديدة ، فى حركة التأليف فى المعاجم العربية ؛ إذ رتب فيه المادة اللغوية ، بحسب الأصل الأول للكلمة ، مراعيا الأصل الثانى والثالث أيضا ، كما اهتم فيه كذلك بناحية مهمة فى دلالة الألفاظ ، تلك هى ناحية المعانى الحقيقية والمجازية للكلمات ، كقوله فى مادة (لحد) مثلا :

« قبر مَلْحود ومُلْحَد . ولَحَدْت القبر وألحدته . وقبروه فى لَحْد ومَلْحُود . ولَحَدَ للميت وألْحد له : حفر له لَحْداً . ولَحَدَ الميتَ وألحده : جعله فى اللَّحْد . **ومن المجاز** : لَحَدَ السهمُ عن الهدف وألْحد . وألْحد فى دين الله . ولَحَدَ عن القصد : عَدَل عنه . وأَلْحَدَ فى الحرم ، ولَحَدَ إليه وألْحد : مال إليه . والْتَحَدَ إليه : التجأ . ومالى دُونَكَ مُلْتَحَد[١١٧] » .

ويرى الدكتور إبراهيم أنيس ، أن الزمخشرى « لم يوفق فى كل حالة ،

---

(١١٥) نشر المحكم بتحقيق مصطفى السقا وآخرين ، بالقاهرة سنة ١٩٥٨ م ، وما بعدها .

(١١٦) طبع أساس البلاغة ، بدار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٢ م .

(١١٧) أساس البلاغة (لحد) ٢/٣٣٤

فقد ضل الطريق ، حين حاول اشتقاق معنى حسّىّ ، من آخر معنوى ، مع أن الذى أجمع عليه المحدثون من علماء اللغات ، هو أن المعانى الحسية أسبق فى الوجود ، وأجدر بأن تعدّ المعانى الحقيقية ، وغيرها فروع لها عن طريق المجاز[١١٨] » .

ويبدو أن معجم « أساس البلاغة » هو المعجم الوحيد ، الذى اعتمد على كتاب « الجيم » لأبى عمرو الشيبانى .

وفى أواخر هذا القرن السادس ، ظهر نشوان بن سعيد الحميرى (المتوفى سنة ٥٧٣ هـ) بكتابه : « **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**[١١٩] » ، وهو معجم مهم لما فيه من إشارات قصصية ، تاريخية ، وجغرافية ، ولغوية ، من بلاد اليمن موطن المؤلف . وهو معجم معقد الترتيب ، ولا يوازيه فى هذا إلا « ديوان الأدب » للفارابى .

وهو مرتب أساسا على حسب الأصل الأول للكلمة ؛ فقد رتبه مؤلفه على حروف المعجم ، وجعل لكل حرف من حروف المعجم كتابا ، ثم جعل له ولكل حرف معه من حروف المعجم بابا ، ثم جعل كل باب من تلك الأبواب شطرين : أحدهما للأسماء ، والآخر للأفعال ، مقدما الأصلى على المزيد ، مبتدئا فى أول كل كتاب بالمضاعف ، جاعلا لكل كلمة من الأسماء والأفعال ، وزنا ومثالا ، مرتبا الكلمات فى كل وزن ، ومشيرا إلى حرفها الأخير[١٢٠] . وهو متأثر بكتاب العين ، فى التنظيم الداخلى للمواد ، وهو نظام الأبنية ؛ ولكل هذا لم يجد من يتأثر به أو يتبعه .

ونصل بعد هذا ، إلى منتصف القرن السابع الهجرى ، لنرى

---

(١١٨) فى اللهجات العربية ١٨٧

(١١٩) نشر منه جزءان فى القاهرة بمطبعة عيسى البابى الحلبى (بدون تاريخ) ، كما طبع منه جزءان بتحقيق المستشرق « تسترستين » K.V.Zetterstéen فى ليدن سنة ١٩٥١ –١٩٥٣ م .

(١٢٠) انظر : شمس العلوم (نشرة الحلبى) ١/٤

أبا الفضائل رضى الدين الحسن بن محمد الصاغانى (المتوفى سنة ٦٥٠ هـ) ، وقد ألف كتابين مهمين هما :

١ – كتاب : « **التكملة والذيل والصلة** لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية[١٢١] » . وقد توسع فيه المؤلف بعد ذلك ، وسماه : « كتاب الذيل والصلة لكتاب التكملة وحاشيتها » ثم جمع بين الصحاح والتكملة والحاشية ، وسمى الجميع : « مجمع البحرين فى اللغة[١٢٢] » .ويرمز فيه للصحاح بالرمز (ص) وللتكملة بالرمز (ت) وللحاشية بالرمز (ح) .

٢ – كتاب : « **العباب الزاخر واللباب الفاخر**[١٢٣] » : وينقل فيه عن الخليل بن أحمد ، وأبى عمرو الشيبانى ، وابن دريد ، والصاحب بن عباد . ويقل فيه ذكر أبى عبيد القاسم بن سلام ، والأزهرى ، وابن فارس . وهو مرتب على حسب الأصل الأخير كالصحاح . ومن الطريف أن مؤلفه لم يكمله ، وإنما وصل فيه عند مادة (بكم) ، حتى قال فيه بعض الشعراء :

إنّ الصاغانِىَّ الذى حاز العلوم والحِكَمْ
كان قُصارَى أمرِهِ أن انتهى إلى (بَكَمْ)[١٢٤]

ونأتى الآن إلى أوائل القرن الثامن الهجرى ، وفيه ألف ابن منظور الإفريقى المصرى ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (المتوفى سنة ٧١١ هـ) معجمه الضخم : « **لسان العرب**[١٢٥] » وهو مرتب كالصحاح ، على حسب الأصل الأخير من الكلمة ، مع مراعاة الأصل الأول وما بعده . ومصادره هى كما ذكر فى مقدمته : المحكم لابن سيدة ،

---

(١٢١) نشر بتحقيق عبد العليم الطحاوى وآخرين ، بالقاهرة سنة ١٩٧٠ –١٩٧٩ م .
(١٢٢) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا ، ومنه نسخة فى مكتبة كوبريللى باستانبول .
(١٢٣) من العباب أجزاء مخطوطة فى مكتبتى كوبريللى وأيا صوفيا باستانبول . وقد نشر الشيخ محمد حسن آل ياسين ، حرف الهمزة منه ، فى بغداد سنة ١٩٧٧ م .
(١٢٤) انظر : المزهر للسيوطى ١/١٠٠
(١٢٥) طبع لسان العرب فى بولاق بالقاهرة سنة ١٣٠٠ –١٣٠٧ هـ ، فى عشرين جزءا ، ثم طبع فى بيروت سنة ١٩٥٥ –١٩٥٦ م ، فى ١٥ مجلدا .

وتهذيب اللغة للأزهرى ، والصحاح للجوهرى ، والتنبيه والإيضاح لابن برى ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير[١٢٦] . وقد اعتمد على « لسان العرب » الزَّبِيدى فى كتابه : « تاج العروس » اعتمادا كبيراً .

وفى أواخر هذا القرن الثامن ، ألف الفيوميّ ، أبو العباس أحمد بن محمد بن على المقرىء (المتوفى سنة ٧٧٠ هـ) كتابه : « **المصباح المنير** فى غريب الشرح الكبير » : وهو فى الأصل شرح لكتاب عبد الكريم الرافعى (المتوفى سنة ٦٢٣ هـ) : « فتح العزيز على كتاب الوجيز » ، وهو شرح لكتاب الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) : « كتاب الوجيز فى الفروع » . وفيه لذلك كثير من التعبيرات الفقهية والكلامية ، وهو مرتب على حسب الأصل الأول للكلمة ، مع مراعاة الأصل الثانى والثالث ، مثل أساس البلاغة للزمخشرى تماما . وبه قائمة للمراجع فى آخره ، بها كثير من الكتب التى سبق أن تحدثنا عنها هنا .

ونأتى الآن إلى القرن التاسع ، لنرى القاموس ، الذى طبقت شهرته الآفاق ، وأصبح اسمه علما على كل معجم ، وهو كتاب : « **القاموس المحيط** ، والقابوس الوسيط ، الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط » تأليف أبى الطاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم مجد الدين ، الشيرازى الفيروزابادى (المتوفى سنة ٨١٧ هـ) . وقد ذكر فى مقدمته أنه ألف كتابا ضخما ، سماه : « اللامع المُعْلَم العُجاب ، الجامع بين المحكم والعباب[١٢٧] » ، وصل فيه إلى الجزء الخامس منه ، وكان مرتبا ترتيب المحكم والعين ، ثم قطع تأليفه ، وألف كتابه : القاموس .

والقاموس مرتب – كما نعرف – على حسب الأصل الأخير

---

(١٢٦) من الوهم ما وقع فيه ابن حجر فى الدرر الكامنة (٤ : ٢٦٣) وتبعه السيوطى فى بغية الوعاة (١ : ٢٤٨) وطاش كبرى زاده فى مفتاح السعادة (١٠٦/١) والزبيدى فى تاج العروس (٣/١) وبعض المحدثين ، من أن جمهرة اللغة لابن دريد ، من مصادر لسان العرب .

(١٢٧) منه نسخة فى مكتبة الدكتور فريد حداد فى بيروت . انظر مجلة معهد المخطوطات (١٩٧٩)

للكلمة ، مع مراعاة الأصل الأول لها أيضا ، كالصحاح ولسان العرب . وهو يعد خلاصة لما فى المحكم والعباب ، وقد توخى صاحبه فيه الإحاطة والشمول ، مع الاختصار الشديد ، والرمز لبعض ما يقصده أحيانا ؛ فقد رمز بالجيم إلى كلمة : « جمع » ، وبالميم إلى كلمة : « معروف » ، وبالعين إلى كلمة : « موضع » ، وبالدال إلى كلمة : « بلد » ، وبالتاء المربوطة إلى كلمة : « قرية » .

وقد شرح القاموس كثيرون ، أهمهم : أبو الفيض السيد محمد بن محمد بن عبد الرزاق مرتضى الزَّبِيدى (المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ) ، وذلك فى كتابه الضخم : « **تاج العروس** فى شرح جواهر القاموس[١٢٨] » .

وقد اعتمد الزبيدى فى شرحه للقاموس ، على « لسان العرب » لابن منظور كثيرا ، بالإضافة إلى كثير من المصادر الأصلية ، فى جميع فروع المعرفة العربية . وقد دل على هذه المصادر فى مقدمته المفصلة ، كما استدرك على صاحب القاموس ، كثيرا من المواد والألفاظ ، التى فاته ذكرها .

***

والآن وبعد أن قطعنا هذا الشوط البعيد ، مع المعاجم العربية ، منذ نشأتها إلى عصر الزَّبِيدى ، نرى أن مادتها اللغوية ، قد جمعها الجيل الأول من اللغويين ، ثم توقفت حركة الجمع هذه بعد فترة ، واقتصر جهد العلماء بعد ذلك ، على تبويب هذه المادة وعرضها بطرق مختلفة ، وبذلك أغفلوا ناحية مهمة ، من نواحى الدراسات اللغوية ، تلك هى ناحية التطور اللغوى ، فى نواحى : الأصوات ، والبنية ، والدلالة ، والأسلوب ؛ فلم يحاول مثلا أحد المؤلفين فى المعاجم ، فى القرن الرابع أو الخامس الهجرى ، أن يبين لنا تطور معنى الكلمة ، التى جمعها قبله أحد علماء القرن الثانى الهجرى ، وبعبارة أخرى : لم يبين لنا المعنى ، الذى كان يفهم من الكلمة فى عصره ، كما أنه لم يبين لنا كيف كانت تنطق الكلمة ، فى لغة التخاطب فى عصره ، وليس

---

(١٢٨) طبع فى عشرة أجزاء بالقاهرة سنة ١٣٠٦ هـ ، كما طبعت منه عدة أجزاء فى الكويت .

لدينا من ذلك سوى إشارات سريعة ، فيما يسمى بكتب : « لحن العامة » . وقد عالجنا هذه المسألة بالتفصيل ، فى كتابنا : « لحن العامة والتطور اللغوى » .

ومن أهم ما نلاحظه على معاجمنا العربية : قصورها فى الاستدلال على المعنى بالشواهد أحيانا ، فهى رغم غناها بالشواهد ، من القرآن والحديث والشعر والأمثال ؛ فيها الكثير من المواد التى تخلو من هذه الشواهد خلوّاً تاما ، مما يشكك فى صحة ورودها عن العرب ؛ مثل المواد : (كمثل) و(كمتل) و(كندش) و(كندس) وغيرها . وهذه الناحية تستدرك الآن ، بعمل معجم للغة العربية ، يستمد ألفاظه من الشعر والنثر . وهذا المعجم بدأه المستشرق الألمانى « أوجست فيشر » A.Fischer فى المجمع اللغوى بالقاهرة ، ويخرجه الآن نخبة من المستشرقين الألمان ، وعلى رأسهم أستاذنا بروفسور « شبيتالر » A.Spitaler رئيس معهد اللغات السامية بجامعة ميونخ .

ومن النواحى الأخرى ، التى تنقص المعاجم العربية : المقارنات باللغات السامية الأخرى ، وهو شىء لم يفطن له علماء العرب ، على الرغم من أن بعض هذه اللغات كان معروفاً لديهم .

ومن عيوب المعاجم العربية المتأخرة : ذلك التضخم الذى رأيناه فى « لسان العرب » لابن منظور ، و« تاج العروس » للزَّبيدى . والسر فى ذلك يرجع – كما نرى – إلى نقل المادة اللغوية الواحدة ، من أكثر من مصدر ؛ فمثلا ينقل صاحب اللسان – كما عرفنا من قبل – عن « تهذيب اللغة » للأزهرى ، و« المحكم » لابن سيدة ، و« الصحاح » للجوهرى . وكل واحد من هذه المعاجم الثلاثة ، استخدم بعض المصادر التى استخدمها الآخر ، كالغريب المصنف لأبى عبيد ؛ ولذلك تقابلنا مثلا ، عبارات هذا الكتاب الأخير ، فى « لسان العرب » منقولة ثلاث مرات ، عن المصادر الثلاثة المتقدمة .

وهناك عيوب أخرى كثيرة ، أبرزها : أن هذه المعاجم تخلط كثيرا ، بين مستوى العربية الفصحى واللهجات القديمة ، فى اللفظ والدلالة ، بلا إشارة إلى ذلك فى كثير من الأحيان ؛ مثل : السراط والصراط والزراط ، بمعنى : الطريق مثلا ، وكذكرها لكلمة : « العجوز » مثلا ، أكثر من سبعين معنى ، من بينها : الإبرة ، والجوع ، والسمن ، والقبلة ، واليد اليمنى . فمن المحال أن تكون هذه المعانى جميعها ، مستعملة فى الفصحى .

ومن العيوب البارزة فى المعاجم العربية كذلك : أن مادتها اللغوية ، أصابها الكثير من التصحيف والتحريف ، بسبب كثرة تعاور النساخ لها على مر العصور . وقد وقع اللغويون العرب ، فى وهم هذا التصحيف والتحريف فى معاجمهم ، كالتحريف الذى وقع فيه الجوهرى صاحب « الصحاح » ، حين استشهد على أن « اللجز » مقلوب : « اللزج » ، ببيت ابن مقبل :

يَعْلُون بِالْمَرْدَقُوشِ الــوَرْدِ ضَاحِيــةً
عَلَى سَعَابِيبِ مَاءِ الضَّالَــةِ الَّلجِــزِ

ونسى أن هذا البيت ، من قصيدة نونية ، وصحة الروى : « اللجن »!

ويعيب المعاجم العربية كذلك : عدم المنهجية فى ترتيب مفردات المادة الواحدة ؛ فيتحتم على المرء فى كثير من الأحيان ، أن يقرأ المادة كلها ، للعثور على بغيته ؛ إذ يلزمك أن تقرأ عشر صفحات ، فى مادة (عرف) ، إذا كنت تبحث مثلا عن معنى كلمة : « مَعْرَفة الفرس » ، وما شابه ذلك .

وفى مقدورنا بالطبع ، التغلب على هذه العيوب ، إذا أعدنا النظر مرة أخرى فى معاجمنا ، فصفيناها من الحشو والتكرار ، وفصلنا بين مستوى الفصحى واللهجات القديمة ، فى ألفاظها ومدلولاتها ، ورتبنا كلمات المادة الواحدة ، ترتيبا منهجيا ، صارما ، وأعدنا استقراء النصوص القديمة من جديد ؛ لنخلص هذه المعاجم مما فيها من تحريف أو تصحيف ، أو مواد هى من صنع اللغويين ، ولم تجربها ألسنة العرب القدماء .

هذا ويعمل مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، على إخراج معجم كبير للغة العربية ، مستخدما المعاجم العربية ، التى وصلت إلينا ، إلى جانب كتب الأدب واللغة ، ودواوين الشعراء . وقد اتبع فى تأليفه منهجا صارما ، تغلب فيه على كثير من العيوب السابقة . وقد خرج الجزء الأول من هذا « المعجم الكبير » خاصا بحرف الهمزة ، وطبع بمطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م ، وهو جهد يتطلب الكثير من الوقت ، وتعاون المتخصصين فى هذا الميدان . والله الموفق .



الفصل الثانى
الاشتقاق وتوليد الصيغ

الاشتقاق « Etymologie » عند علماء الغرب ، أحد فروع علم اللغة ، التى تدرس المفردات ، وينحصر مجاله فى « أخذ ألفاظ القاموس كلمة كلمة ، وتزويد كل واحدة منها ، بما يشبه أن يكون بطاقة شخصية ، يذكر فيها : من أين جاءت ؟ ومتى وكيف صيغت ؟ والتقلبات التى مرت بها . فهو إذن علم تاريخى ، يحدد صيغة كل كلمة ، فى أقدم عصر تسمح المعلومات التاريخية بالوصول إليه ، ويدرس الطريق الذى مرت به الكلمة ، مع التغييرات التى أصابتها ، من جهة المعنى ، أو من جهة الاستعمال[1] » .

فهو عند علماء الغرب بهذا المعنى ، علم نظرى عملى ، يعنى بتاريخ الكلمة ، ويتتبع حياتها عبر العصور المختلفة . أما الاشتقاق عند العرب ، فهو علم عملى تطبيقى ؛ لأنه عبارة عن « توليد لبعض الألفاظ من بعض ، والرجوع بها إلى أصل واحد ، يحدد مادتها ، ويوحى بمعناها المشترك الأصيل ، مثلما يوحى بمعناها الخاص الجديد[2] » .

والاشتقاق بهذه الصورة ، هو إحدى الوسائل الرائعة ، التى تنمو عن طريقها اللغات وتتسع ، ويزداد ثراؤها فى المفردات ، فتتمكن به من التعبير عن الجديد من الأفكار ، والمستحدث من وسائل الحياة .

---

(١) اللغة لفندريس ٢٢٦

(٢) دراسات فى فقه اللغة ، لصبحى الصالح ١٧٤ وانظر فى الغرض من الاشتقاق : كتاب الاشتقاق لابن السراج ٣٩

وهناك نوعان من الاشتقاق ، دار الحديث حولهما فى مؤلفات القدامى من اللغويين العرب ، الاشتقاق الأصغر ، والاشتقاق الأكبر[٣] .

أما الأول فهو : « أخذ صيغة من أخرى ، مع اتفاقهما معنى ، ومادة أصلية ، وهيئة تركيب لها ، ليدل بالثانية على معنى الأصل ، بزيادة مفيدة ، لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة ، كضارب من ضَرَب ، وحَذِر من حَذِرَ[٤] » .

وهذا النوع هو المَعْنِىُّ عند الإطلاق ؛ ولهذا يسمى : « الاشتقاق العام » أو « الاشتقاق الصرفى » ؛ لأنه الذى تتصرف الألفاظ عن طريقه ، ويشتق بعضها من بعض ، ومعنى هذا افتراض الأصالة فى بعض الألفاظ ، والفرعية فى بعضها الآخر . وهنا يختلف النحاة فى أصل المشتقات ؛ فيرى البصريون أن المصدر أصل المشتقات ؛ لكونه بسيطا ، أى يدل على الحدث فقط ، بخلاف الفعل ، فإنه يدل على الحدث والزمن . أما الكوفيون فيعدّون الفعل أصلا للمشتقات ؛ لأن المصدر يجىء بعده فى التصريف ؛ فيقال مثلا : ضرب يضرب ضربا .

ويؤيد الأستاذ عبدالله أمين مذهب البصريين ، ويزيد عليه أن العرب اشتقت من أسماء الأعيان ، إلى جانب اشتقاقها من المصادر ، ويدلل على ذلك بقوله : « ولا شك أن كل اسم من أسماء الأعيان ، هو أصل المشتقات من مادته ؛ إذ لا يعقل أن الفعل : تأبّل ، أى اتخذ إبلا ، قد

---

(٣) اختلف المحدثون من علماء اللغة العرب ، فى أنواع الاشتقاق ، ومدلول كل نوع ؛ فعبد الله أمين فى كتابه « الاشتقاق » يجعل الأنواع أربعة : صغير ، وكبير ، وكُبار (بالتخفيف) أو أكبر ، وكُبّار (بالتشديد) . ويعنى بالصغير : الاشتقاق الصرفى ، **وبالكبير** : **الإبدال** مثل : بعثر وبحثر ، **وبالأكبر** : التقليب ، مثل تقاليب مادة (ج ب ر) مثلا ، **وبالكُبّار** : النحت ، مثل : بسمل وحمدل — أما الدكتور على عبد الواحد وافى ، فى كتابه : « فقه اللغة » (١٧٢ — ١٨٠) ؛ فيجعل أنواعه ثلاثة : العام ، والكبير ، والأكبر ؛ فالعام هو الصرفى ، **والكبير** هو التقليب ، والأكبر هو الإبدال — والدكتور صبحى الصالح فى : « دراسات فى فقه اللغة » (١٧٣ — ٢٧٤) ، يجعله أربعة أنواع : **الأصغر** وهو الصرفى ، **والكبير** وهو التقليب ، **والأكبر** وهو الإبدال ، **والكبار** وهو النحت (وانظر أيضا : الاشتقاق للمغربى ١٠ — ١٢) .

(٤) المزهر فى علوم اللغة ١/٣٤٦ وانظر كذلك الاشتقاق لابن السراج ٣٢

وضع قبل أن يوضع لفظ : إبل نفسه ، ولا الفعل : تأرَّض ، أى لصق بالأرض ، وضع قبل لفظ الأرض ، ولا الفعل : تبنّى أى اتخذ ابنا ، وضع قبل لفظ ابن ... وأوضح من هذا دليلا وأقوى حجة ، على أن العرب اشتقوا من أسماء الأعيان ، كما اشتقوا من المصادر ، أنهم عربوا أسماء أعجمية ، ثم اشتقوا منها مصادر وأفعالا ومشتقات ؛ إذ لا يعقل أن يكون العرب ، قد اشتقوا كل ذلك من مواد الأسماء الأعجمية ، قبل أن يعربوها ... عرّبوا اللجام ، ثم اشتقوا منه : ألجم الفرس(٥) » .

وهذا النوع من الاشتقاق قياسى ؛ إذ لا يعقل أن يسمع عن أصحاب اللغة ، جميع المشتقات فى كل مادة من مواد اللغة « فكثير من تلك الصيغ التى يجوز اشتقاقها ، لا وجود لها فعلا فى نص صحيح من نصوص اللغة ، فهناك فرق كبير بين ما يجوز لنا اشتقاقه من صيغ ، وما اشتق فعلا ، واستعمل فى أساليب اللغة المروية عن العرب ، فليس من الضرورى أن يكون لكل فعل اسم فاعل ، أو اسم مفعول ، مرويان فى نصوص اللغة ، فقد لا يحتاج المتكلم أو الكاتب إلى كليهما فى فعل من الأفعال ، فالمشتقات تنمو وتكثر حين الحاجة إليها ، وقد يسبق بعضها بعضا فى الوجود ، ولهذا يجدر بنا ألا نتصور ، أن الأفعال أو المصادر ، حين عرفت فى نشأتها ، عرفت معها مشتقاتها ؛ فقد تظل اللغة قرونا ، وليس بها إلا الفعل وحده ، أو المصدر وحده ، حتى تدعو الحاجة إلى ما يشتق منهما(٦) » .

ويخالف فى هذا بعض قدامى اللغويين ، فيرون أنه لا قياس على كلام العرب فى الاشتقاق ، وأن كل كلام العرب توقيف ؛ « فإن الذى وقفنا على أن الاجتنان التستّر ، هو الذى وقفنا على أن الجن مشتق منه ، وليس لنا

---

(٥) الاشتقاق لعبدالله أمين ١٤٧ - ١٤٨ وانظر فى اشتقاق العرب من الأعيان : كتاب الاشتقاق لابن السراج ٣٦

(٦) من أسرار اللغة ٤٧

اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياسا لم يقيسوه ؛ لأن فى ذلك فساد اللغة ، وبطلان حقائقها[٧] »

وفى هذا القول غلو وإسراف ، فى منع القياس على ما اشتقه العرب ، علاوة على ما فيه من فساد الاعتقاد ، باشتقاق المعنوى من الحسّى ؛ فإن « الاجتنان » مأخوذ من « الجنّ » وليس العكس . وقد وقع بعض اللغويين فى هذا الوهم ، حين حاولوا تعليل بعض الأسماء العربية ؛ فقد « سئل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل ، فلم يعرف ، فمرّ أعرابى مُحْرِم ، فأراد السائل سؤال الأعرابى ، فقال له أبو عمرو : دعنى فأنا ألطف بسؤاله وأعرف ، فسأله ، فقال الأعرابى : استفاد الاسم من فعل المسمّى ، فلم يعرف من حضر ما أراد الأعرابى ، فسألوا أبا عمرو عن ذلك ، فقال : ذهب إلى الخيلاء التى فى الخيل والعُجْب ؛ ألا تراها تمشى العِرَضْنَةَ خيلاء وتكبُّرا[٨] » ؛ فأبو عمرو بن العلاء ، على جلالة قدره ، يعتقد فى رأى الأعرابى ، الذى ظن أن الخيل مشتق من الخيلاء !

ومثل ذلك أيضا ، محاولة بعض اللغويين ، اشتقاق الأعجمى من العربى ، كابن دريد الذى ادّعى أن « الفِرْدَوْس » مشتق من : « الفَرْدَسَة » ؛ فقال : « والفردسة : السعة ، وصدر مفردس : واسع . ومنه اشتقاق الفردوس[٩] » ، والخفاجى الذى ادعى أن « السراط » مشتق من « استراط الطعام » أى ابتلاعه ؛ فقال : « فالسراط حينئذ من سرطت الطعام ، أى ابتلعته ، يتخيل أنه يبتلع سالكيه[١٠] » .

وقد حذر المعتدلون من الوقوع فى هذا الخطأ ، فقال ابن السراج ، فى رسالته فى الاشتقاق : « مما ينبغى أن يحذر منه غاية الحذر ، أن يشتق

(٧) الصاحبى ٦٧ والمزهر ١/٣٤٦

(٨) طبقات الزبيدى ٢٩ والمزهر ١/٣٥٣

(٩) جمهرة اللغة ٣/٣٣٣ وقد غالى ابن دريد كذلك فى اشتقاق أسماء القبائل ، فى كتابه : « الاشتقاق » .

(١٠) شرح درة الغواص ٣٣ وانظر كذلك : تصحيح الفصيح لابن درستويه ١/١٤٨

من لغة العرب لشيء قد أخذ من لغة العجم . قال : فيكون بمنزلة من ادّعى أن الطير ولد الحوت[١١] »

ولا شك أن ابن السراج ، يقصد بهذه العبارة ، ابن دريد وأمثاله ، ممن ظنوا أن الدفاع عن عروبة اللغة ، يقتضى القول باشتقاق الأعجمى من العربى ، « فلم يزيدوا بذلك ، على أن صيروا الأصل فرعا ، والفرع أصلا ، ونسبوا إلى العربية من الإعجاز ، فى موافقة اللغات الأجنبية ، ما لا يجوز أن يدور مثله فى خلد الإنسان[١٢] ».

وهذا هو الخوارزمى يقول : « الأصطرلاب معناه : مقياس النجوم ، وهو باليونانية : أصطرلابون . وأصطر هو : النجم ، ولابون هو : المرآة . ومن ذلك قيل لعلم النجوم : أصطرنوميا . وقد يهذى بعض المولعين بالاشتقاقات ، فى هذا الاسم بما لا معنى له ، وهو أنهم يزعمون أن (لاب) اسم رجل ، و(أسطر) جمع سطر وهو الخط . وهذا اسم يونانى ، اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف[١٣] » .

وإذا كانت جمهرة اللغويين ، كسيبويه ، والخليل ، وأبى عمرو بن العلاء ، وأبى الخطاب الأخفش ، وعيسى بن عمر الثقفى ، والأصمعى ، وأبى زيد ، وابن الأعرابى ، وأبى عمرو الشيبانى ، وغيرهم ، يرون أن « بعض الكلم مشتق وبعضه غير مشتق » ؛ فقد غالت طائفة فادّعت أن « الكلم كله أصل » ، وأكثر منها غلوّاً تلك الطائفة ، التى ادّعت أن « الكلم كله مشتق[١٤] » فمم اشتق إذن ، إن لم تكن هناك أصول لهذا الاشتقاق المزعوم ؟!

وقد أشار ابن السراج إلى هذا الاضطراب ، فى مذاهب العلماء حول

---

(١١) الاشتقاق لابن السراج ٤١ وانظر أيضا : المعرب للجواليقى ٣ والمزهر ٣٥١/١
(١٢) دراسات فى فقه اللغة ، لصبحى الصالح ١٧٩
(١٣) مفاتيح العلوم ، للخوارزمى ١٣٤
(١٤) انظر فى ذلك كله : المزهر ٣٤٨/١

الاشتقاق ؛ فقال : « هذا كتاب نوضح فيه الاشتقاق الواقع فى كلام العرب ، لما يعرض من الحيرة والاضطراب لكثير من الناس فيه ؛ فهم مختلفون ، فمنهم من يقول : لا اشتقاق فى اللغة البتّة ، وهم الأقل . ومنهم من قال : بل كل لفظتين متفقتين ، فإحداهما مشتقة من الأخرى . ومنهم من يقول : بعض ذلك مشتق ، وبعضه غير مشتق ، وهؤلاء هم جمهور أهل اللغة[١٥] » .

وقد حاول ابن فارس ، أن يرجع أصول الاشتقاق ، فى المادة اللغوية الواحدة ، إلى أكثر من أصل ؛ كقوله مثلا : « الخاء والراء والسين أصول ثلاثة ؛ الأول : جنس من الآنية ، والثانى : عدم النطق ، والثالث : نوع من الطعام ؛ فالأول : الخِرْس ، بسكون الراء وهو الدَّنّ ، ويقال لصانعه : الخَرَّاس . والثانى : الخَرَس فى اللسان ، وهو ذهاب النطق ، ويحمل على ذلك فيقال : سحابة خرساء ، ليس فيها رعد . والثالث : الخُرْس والخُرْسة ، وهو طعام يتخذ للوالد من النساء[١٦] » .

وبعض هذه الأصول ، التى ذكرها ابن فارس فى مقاييسه ، يئول إلى بعض ، وقد لاحظ هو ذلك ، فقال مرة : « الظاء والفاء والراء أصلان صحيحان ، يدل أحدهما على القهر والفوز والغلبة ، والآخر على قوة فى الشيء . ولعل الأصلين يتقاربان فى القياس[١٧] » .

وقد عد الدكتور صبحى الصالح صنيع ابن فارس ، فى تعدد الأصول « لونا من الترف العقلى ، أو التزيّد العلمى ، ربما أراد به ذلك العلامة الجليل ، أن يظهر قوة ساعده ، فى تلمس الفروق الدقيقة بين المفردات ،

---

(١٥) الاشتقاق ، لابن السراج ٣١

(١٦) مقاييس اللغة ١٦٧/٢

(١٧) مقاييس اللغة ٤٦٥/٣

التى يرجح البحث العلمى المنهجى ، أنها تفرعت من أصل واحد ، لا من أصول متفرقة[١٨] » .

ولكن البعد الزمنى ، والحقب الطويلة ، التى تقلّبت فيها العربية ، حتى زمان تدوينها ، على أيدى ابن فارس وغيره ، جعل الرابطة بين معانى مفردات المادة الواحدة ، تبدو لنا وكأنها غير موجودة . وهذا هو السر الحقيقى وراء مذهب ابن فارس فى أصوله .

★★★

أما الاشتقاق الأكبر ، فقد أولع به « ابن جنى » وهو الذى سماه فى كتابة : « الخصائص » بهذا الاسم ، فى باب طويل بعنوان : « باب فى الاشتقاق الأكبر[١٩] » ، قال فى أوله : « هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا ، غير أن أبا على رحمه الله ، كان يستعين به ، ويخلد إليه ، مع إعواز الاشتقاق الأصغر ، لكنه مع هذا لم يسمه ، وإنما كان يعتاده عند الضرورة ، ويستروح إليه ، ويتعلل به ، وإنما هذا التلقيب لنا نحن ، وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن » .

وقد عرفه ابن جنى ، بقوله : « وأما الاشتقاق الأكبر ، فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية ، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً ، تجمع التراكيب الستة ، وما يتصرف من كل واحد منها عليه ، وإن تباعد شيء من ذلك عنه ، رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل له[٢٠] » .

وينبغى ألّا نخلط هنا بين الاشتقاق الأكبر ، وطريقة التقليبات التى عرفناها من قبل ، فى معجم : « العين » للخليل بن أحمد ، ومن نهج نهجه ، فالتقليبات هناك طريقة للإحصاء . ولم يحاول الخليل ولا غيره من أصحاب المعاجم ، أن يرجعوا تقاليب المادة المختلفة إلى معنى واحد ،

---

(١٨) دراسات فى فقه اللغة ، لصبحى الصالح ١٧٦

(١٩) الخصائص ٢/١٣٣–١٣٩

(٢٠) الخصائص ٢/١٣٤

كما فعل ابن جنى . ولكن لعل فكرة كتاب « العين » هى التى أوحت إلى ابن جنى ، بموضوع الاشتقاق الأكبر !

وقد ضرب ابن جنى على هذا الاشتقاق أمثلة كثيرة ، منها قوله : « فمن ذلك تقليب (ج ب ر) ، فهى أين وقعت للقوة والشدة . منها : (جَبَرْت) العَظْم والفقير ، إذا قويتهما وشددت منهما . والجَبْر : الملك ، لقوته وتقويته غيره . ومنها رجل (مُجَرَّب) إذا جَرَّسته الأمور ونجّذته ، فقويت مُنَّته ، واشتدت شَكِيمته ، ومنه الجراب ؛ لأنه يحفظ ما فيه ، وإذا حفظ الشيء وروعى ، اشتد وقوى ، وإذا أغفل وأهمل ، تساقط ورَذِىَ . ومنها : (الأَبْجر والبُجْرة) ، وهو القوىّ السرّة ... ومنها : (البُرْج) لقوته فى نفسه ، وقوة ما يليه به ، وكذلك البَرَج لنقاء بياض العين وصفاء سوادها ، هو قوة أمرها ، وأنه ليس بلون مستضعف . ومنها : (رَجَّبت) الرجل ، إذا عظّمته وقوّيت أمره ، ومنه رَجَب ، لتعظيمهم إياه عن القتال فيه ، وإذا كرمت النخلة على أهلها فمالت ، دَعَمُوها بالرُّجْبة ، وهو شيء تسند إليه لتقوى به ، والراجبة أحد فصوص الأصابع ، وهى مقوِّية لها . ومنها : (الرَّبَاجى) وهو الرجل يفخر بأكثر من فعله ... يعظم نفسه ، ويقوى أمرها[٢١] » .

ويقر ابن جنى نفسه ، بأن هذا الاشتقاق الأكبر ، صعب التطبيق ، على جميع نصوص اللغة ؛ فيقول : « واعلم أنّا لا ندّعى أن هذا مستمر فى جميع اللغة ، كما لا ندّعى للاشتقاق الأصغر ، أنه فى جميع اللغة ؛ بل إذا كان ذلك متعذرا صعبا ، كان تطبيق هذا وإحاطته ، أصعب مذهبا وأعزّ ملتمسا[٢٢] » .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا داعى للنقد الذى وجه إلى ابن جنى قديما وحديثا ، حول هذا النوع من أنواع الاشتقاق ؛ فقد قال السيوطى

---

(٢١) الخصائص ٢/١٣٥

(٢٢) الخصائص ٢/١٣٨

مثلا : « وهذا مما ابتدعه الإمام أبو الفتح بن جنى . وكان شيخه أبو على الفارسى يأنس به يسيرا ، وليس معتمدا فى اللغة ، ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق فى لغة العرب ، وإنما جعله أبو الفتح بيانا لقوة ساعده ، وردّه المختلفات إلى قدر مشترك ، مع اعترافه وعلمه بأنه ليس هو موضوع تلك الصيّغ ، وأن تراكيبها تفيد أجناسا من المعانى ، مغايرة للقدر المشترك ، ولا ينكر مع ذلك أن يكون بين التراكيب المتحدة المادة ، معنى مشترك بينها ، هو جنس لأنواع موضوعاتها ، ولكن التحيل على ذلك ، فى جميع مواد التركيبات ، كطلب لعنقاء مغرب(٢٣) » .

كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس : « وإذا كان ابن جنى ، قد استطاع فى عَنَت ومشقة ، أن يسوق لنا ، للبرهنة على ما يزعم ، بضع مواد من كل مواد اللغة ، التى يقال إنها فى جمهرة اللغة لابن دريد ، تصل إلى أربعين ألفا ، وفى معجم لسان العرب تكاد تصل إلى ثمانين ألفا ، فليس يكفى مثل هذا القدر الضئيل المتكلّف ، لإثبات ما يسمى بالاشتقاق الأكبر(٢٤) » .

ومع ذلك ، فإن ابن جنى يعدّ مقبولا ومعتدلا ، حين يحاول إرجاع تقليب المادة ، إلى أصل ثلاثى ، يحمل المعنى العام لهذه المادة ، إذا قيس بما يذهب إليه بعض المحدثين ، من فكرة ثنائية الأصول ، وأن المعنى العام للمادة يرتبط بأصلين اثنين فقط من أصولها .

ومن رواد هذه الثنائية فى العصر الحديث : الأب أنستاس مارى الكرملى ، الذى تبنى فكرة الثنائية فى العربية ، منذ سنة ١٨٨١ م ، ولم يكن يملّ ترديدها والدفاع عنها ، وتفصيل القول فيها فى المجامع والأندية ، وأخرج فيها كتابا بعنوان : « نشوء اللغة ونموها واكتهالها » ، وقال فى أوله : « عرف بعض حذّاق أبناء يعرب الأقدمين ، هذا الرأى ومالوا إليه . وممن قال به ، ولم يحد عنه قيد شعرة : الإصبهانى ، صاحب كتاب : غريب القرآن ؛ فإنه

(٢٣) المزهر فى علوم اللغة ١/٣٤٧

(٢٤) من أسرار اللغة ٥٢

بنى معجمه الجليل على اعتبار المضاعف هجاء واحداً ، ولم يبال تكرار حرفه الأخير ، فهو عنده من وضع الخيال ، لا من وضع العلم ولا التحقيق ، أى أنه إذا أراد ذكر : (مدّ يمدّ مدّا) مثلا فى سفره ، ذكرها كأنها مركبة من مادة : (مد) ، أى ميم ودال ساكنة ، ولا يلتفت أبداً إلى أنها من ثلاثة أحرف ، أى : (مدد) ، كما يفعل سائر اللغويين ، ولهذا السبب عينه يذكر : (مدّ) قبل (مدح) مثلا ، ولا يقدم هذه على تلك ، على ما نشاهده فى معظم معاجم اللغة ، كالقاموس ، ولسان العرب ، وأساس البلاغة ، وتاج العروس ، وغيرها » .

وقد عالج الكرملى كثيرا من مواد اللغة ، بناء على نظريته هذه ، فزعم أنها ثنائية الأصول ، وأن ما زاد فيها على اثنين ، ليس إلا تصديراً للمادة الثنائية (وهو زيادة فى أولها) ، أو حشواً لها (وهو زيادة فى وسطها) ، أو كسعاً وتذييلا فيها (وهو زيادة فى آخرها) ؛ فعنده أن : ثرم وجرم وحرم وخرم وشرم وصرم وعرم وغرم ، ذات أصل ثنائى ، هو الراء والميم ، مصدر بحرف آخر ، وتدل كلها على « القطع » . كما أن : رتم ورثم ورحم وردم ورسم ورشم ورضم ورطم ورغم ورقم وركم ، مشتقة عنده أيضا من هذه المادة الثنائية : (رم) ، بعد أن حشيت بحرف آخر ، وكلها تدل على « القطع » كذلك !

وقد غالى فى فكرته هذه ، فادعى أن أصول اللغات الأجنبية ، توجد فى العربية ؛ فمثلا : فى الإنجليزية كلمة then هى « إذَنْ » العربية ، وكلمة tail هى « ذيل » العربية ، وكلمة buy هى « باع » العربية ! وانظر إلى إسرافه فى ردّ اللغات الأجنبية إلى العربية ، ممثلا فى ردّ cum اللاتينية إلى « مع » العربية ؛ إذ يقول : « ويستعمل اللاتين : كُمْ cum ومعناها : (مع) للدلالة على ما يدل على الجمع . وما (كُمْ) إلا معكوس : (ملك) المقابل لأداتنا : (مع) ؛ وذلك أنه ليس للغربيين الحرف :

(عين) ، فيحارون فى نقله إلى لغتهم ، وقد نقلوه هنا إلى الكاف ، فقالوا : « cum (كُمْ)[٢٥] » .

ولم يكن الأب مرمرجي الدومنكي ، أقل حماسة من أنستاس الكرملي ، فى الدفاع عن هذا المذهب فى كتابه : « المعجمية العربية فى ضوء الثنائية الألسنية السامية » الذى يقول فيه : « وكل حرف زيد على الأصل الثنائى ، يجرى على قانون التطور اللغوى ، تتويجا أو إقحاما أو تذييلا ، مع بقاء اللحمة المعنوية بين الثنائى والثلاثى ، كما هى مستمرة بين الثلاثى والرباعى ، وما فوقه من المزيدات » .

وقد خدعه ماآل إليه المضعف الثلاثى ، فى بعض اللغات السامية ، بعد أن سكنت أواخر كلماتها ، لسقوط الحركات الإعرابية وغيرها ، فضاع التضعيف منها ، وصارت على حرفين ، فظن أن هذا هو الأصل فيها ، وقال : « المضاعف العربى ، الذى يقال إنه مركب من ثلاثة أحرف أصلية ، لا تجد مقابلة فى السريانية إلا بحرفين اثنين لا أكثر ؛ مثلا : مقابل قَصَّ = قَصْ ، وبحذاء حَمَّ = حَمْ ، وبإزاء مَسَّ = مَسْ ، وهكذا كل المضاعفات ، التى هى بالحقيقة ثنائيات ، والثنائى وارد فى كل الساميات » .

ونسى الأب مرمرجي ، أنه عند إسناد المضاعف إلى الضمائر ، فى العبرية والسريانية ، يظهر التضعيف ؛ فيقال فى العبرية مثلا : סַב sab بمعنى : « أحاط » بغير تضعيف ، وعند إسنادها إلى المتكلم مثلا يقال : סַבּוֹתִי sabbōtī ؛ فيظهر التضعيف ، وقد يفك التضعيف فيقال : סָבַבְתִּי sābabtī . وانظر كذلك فى العبرية : לֵב lēb بمعنى : « قلب » إذ لا تضعيف فيها للباء ، لوقوعها فى آخر الكلمة ، ولكنها عند الاتصال بالضمائر ، يظهر فيها التضعيف مرة أخرى ؛ فيقال مثلا : לִבִּי libbī = قلبى .

---

(٢٥) نشوء اللغة ١٤٠ .

كما يقال فى السريانية مثلا : ܒܙ baz بمعنى : « سَلَب » ، وعند إسنادها إلى الغائبة مثلا يقال : ܒܙܬ bezzat « سلَبَتْ » ، وفى المتكلم يقال كذلك : ܒܙܬ bezzet = « سَلَبْتُ » وغير ذلك .

وخلاصة الرأى فى الثنائية ، أنها وإن وجدت فى بعض الكلمات السامية ، فإننا لا يصح أن نعدّها الأصل الأول لهذه اللغات . ونحن مع الأستاذ عبدالله أمين ، فى أنه « لا يمكننا أن نسلم بأن رَجُلًا أصله : رَجْ ، وقردا أصله : قِرْ ، وفيلا أصله : فى ، كما يقولون[٢٦] » .

★ ★ ★

النحت فى اللغة :

النحت من ضروب الاشتقاق فى اللغة ، وهو « أن تعمد إلى كلمتين ، أو جملة ، فتنزع من مجموع حروف كلماتها ، كلمة فذّة ، تدل على ما كانت تدل عليه الجملة نفسها[٢٧] » .

ولعل السبب فى نشوء بعض المنحوتات فى اللغة ، أن المتكلم قد يعسر عليه أن « يفصل بين كلمتين ، وردتا إلى ذهنه دفعة واحدة ، وربما تتداخل الكلمتان فيما بينهما ، تداخلا تاما . والنتيجة الطبيعية لمثل هذه الزَّلّة ، وجود كلمة هى خليط من عناصر مختلفة ، أو صيرورة الكلمتين كلمة واحدة ، عن طريق النحت (Contamination) أو تكوين كلمة صناعية ، مشتملة على مزيج من أصوات كلمتين أخريين ، وجامعة لمعنييهما . وأكثر الكلمات التى تتكون بهذه الطريقة ، ذات عمر قصير ، غير أن قدراً غير يسير منها ، قد يكتب له البقاء ، فيستقر فى اللغة كلمات جديدة[٢٨] » .

---

(٢٦) الاشتقاق ١٥٩

(٢٧) الاشتقاق والتعريب ١٣

(٢٨) دور الكلمة فى اللغة ١٤٣

وينقسم النحت فى اللغة إلى أربعة أقسام :

١ – النحت الفعلى : وهو أن تنحت من الجملة فعلا ، يدل على النطق بها ، أو على حدوث مضمونها ؛ مثل : « جعفل »، إذا قال لآخر : جعلت فداءك ، و« بسمل » ، إذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم .

٢ – النحت الوصفى : وهو أن تنحت من كلمة واحدة ، تدل على صفة بمعناها أو بأشدّ منه ؛ مثل : « ضِبَطْر » للرجل الشديد ، من : « ضبط » و« ضبر » وفى : « ضبر » معنى الشدة والصلابة .

٣ – النحت الاسمى : وهو أن تنحت من كلمتين اسماً ؛ مثل : « جُلْمُود » من : « جمد » و« جلد » . ومثل : « حَبْقُر » للبَرَد ، وأصله : حَبُّ قُرٍّ .

٤ – النحت النسبى : وهو أن تنسب شيئا أو شخصا إلى بلدتى : « طبرستان » و« خوارزم » مثلا ، فتنحت من اسميهما اسما واحدا ، على صيغة اسم المنسوب ، فتقول : « طبرخزى » ونحو ذلك[٢٩] .

ولا تنفرد العربية بظاهرة النحت ؛ ففى الإنجليزية مثلا ، يقال : branch لوجبة الطعام التى تتناول فى الضحى ، فتقوم مقام الفطور والغداء معا ، وهى منحوتة فيها من : breakfast = فطور + lunch = غداء[٣٠] .

ولأبى الحسين أحمد بن فارس ، اليد الطولى فى هذا الموضوع ، فهو إمام القائلين بالنحت بين اللغويين القدامى ؛ يقول فى كتابه مقاييس اللغة : « اعلم أن للرباعى والخماسى مذهبا فى القياس ، يستنبطه النظر الدقيق ، وذلك أن أكثر ما تراه منه منحوت . ومعنى النحت : أن تؤخذ كلمتان ، وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعا بحظ[٣١] .

---

(٢٩) انظر : الاشتقاق والتعريب ١٣ – ١٤

(٣٠) انظر : دور الكلمة فى اللغة ١٤٣

(٣١) مقاييس اللغة ١/٣٢٨

وقد سبقه فى هذا الخليل بن أحمد ، حين قال : « فأخذوا من كلمتين متعاقبتين كلمة ، واشتقوا فعلا . قال :

وَتَضْحَكُ مِنِّى شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ
كَأَنْ لَمْ تَرَى قَبْلِى أَسِيراً يَمَانِيَا

نسبها إلى عبد شمس ، فأخذ العين والباء من : (عبد) ، وأخذ الشين والميم من : (شمس) ، وأسقط الدال والسين ، فبنى من الكلمتين كلمة ، فهذا من النحت[٣٢] » .

ويذكر ابن فارس ، أن الخليل بن أحمد ، سبقه فى هذا الرأى ، وأنه يسير على منهجه فى ذلك ؛ فيقول : « والأصل فى ذلك ما ذكره الخليل ، من قولهم : حَيْعَلَ الرجل ، إذا قال : حَيَّ عَلَى[٣٣] » .

غير أن ابن فارس ، لم يستطع أن يفسر الرباعى والخماسى كله هذا التفسير ، فجعله على ضربين : « أحدهما المنحوت الذى ذكرناه ، والضرب الآخر : الموضوع وضعا ، لا مجال له فى طرق القياس[٣٤] » .

فمن أمثلة المنحوت عنده : « البُحْتُر ، وهو : القصير المجتمع الخلْق ، فهذا منحوت من كلمتين : من الباء والتاء والراء ، وهو من بَتَرْتُه فبُتِرَ ، كأنه حُرِمَ الطُّوَل ، فبُتِرَ خَلْقُه . والكلمة الثانية : الحاء والتاء والراء ، وهو من : حَتَرْتُ وأَحْتَرْتُ ، وذلك ألاّ تُفْضِل على أحد ؛ يقال : أَحْتَر على نفسه وعياله ، أى ضَيَّق عليهم ؛ فقد صار هذا المعنى فى القصير ؛ لأنه لم يُعْطَ ما أُعْطِيَه الطويل[٣٥] » .

ومن أمثلة الموضوع وضعا : الضَّمْعَج للناقة الضخمة[٣٦] ،

---

(٣٢) العين للخليل بن أحمد ١/٦٩

(٣٣) مقاييس اللغة ١/٣٢٩ وانظر كذلك : الصاحبى ٢٧١ وأمالى القالى ٢/٢٧٠ والعين ١/٦٨

(٣٤) انظر : المقاييس ١/٣٢٩

(٣٥) مقاييس اللغة ١/٣٢٩

(٣٦) المقاييس ٣/٤٠٢

والطَّفَنَّش للواسع صدور القدمين[٣٧] ، والكُرْنافة لأصل السَّعفة الملتزق بجذع النخلة[٣٨] .

وقد يكون بين أمثلة هذا الذى عدّه ابن فارس ، من الموضوع وضعا ، أمثلة منحوتة كذلك من كلمتين ، ولكننا نجهل ذلك ؛ ولهذا يقول ابن فارس فى أحد المواضع : « وهذا ما أمكن استخراج قياسه من هذا الباب ، أما الذى هو عندنا موضوع وضعا ، فقد يجوز أن يكون له قياس ، خفى علينا موضعه . والله أعلم بذلك[٣٩] » .

غير أن فى الكتاب غير هذين الضربين ، أمثلة لا تندرج تحتهما ، وإنما هى عند ابن فارس ، أصول ثلاثية مزيدة بحرف فى أولها ، أو فى وسطها ، أو فى آخرها .

مثال ذلك قوله : « بَلْذَمَ إذا فَرِق فسكت ، والباء زائدة ، وإنما هو : لَذِم ، إذا لَزِم بمكانه فَرَقاً ، لا يتحرّك[٤٠] »

وقوله : « الدَّعْلَجَة ، وهو : الذهاب والرجوع والتردّد ، وبه يسمون الفرس : دَعْلَجاً ، والعين فيه زائدة ، وإنما هو من الدَّلْج والإدلاج[٤١] » .

وقوله : « البَرْزَخ : الحائل بين الشيئين ، كأن بينهما بَرَازاً ، أى متسعا من الأرض ، ثم صار كل حائل برزخا ، فالخاء زائدة[٤٢] » .

لذلك لا نعجب ، حين نجد ابن فارس ، ينقض قوله السابق ، بأن الرباعى والخماسى على ضربين : منحوت وموضوع ، فيستدرك فى موضع

---

(٣٧) المقاييس ٤٥٨/٣

(٣٨) المقاييس ١٩٤/٥

(٣٩) مقاييس اللغة ١٤٦/٢

(٤٠) مقاييس اللغة ٣٣٣/١

(٤١) مقاييس اللغة ٣٣٩/٢

(٤٢) مقاييس اللغة ٣٣٣/٢ ويلاحظ أن ابن فارس لم يلتفت هنا إلى أن الكلمة معربة عن الفارسية (انظر : الألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير ١٩) .

لاحق ، بأن منه « ما نحت من كلمتين صحيحتى المعنى ، مطردتى القياس ، ومنه ما أصله كلمة واحدة ، وقد ألحق بالرباعى والخماسى ، بزيادة تدخله ، ومنه ما يوضع كذا وضعا[٤٣] » .

ولم يذهب ابن فارس إلى فكرة النحت فى كتابه : « مقاييس اللغة » فحسب ، بل عالجها فى كتابه : « الصاحبى فى فقه اللغة » كذلك ؛ فيقول : « هذا مذهبنا فى أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف ، فأكثرها منحوت ، مثل قول العرب للرجل الشديد : ضِبَطْر ، من : ضبط وضبر . وفى قولهم : صَهْصَلِق ، أنه من : صهل وصلق . وفى الصّلدم أنه من : الصلد والصدم[٤٤] » .

« ولسنا نبّرىء ابن فارس من التكلف ، فى بعض ما ادعى فيه النحت ، ولكن تكلفه فى بعض أمثلة النحت ، لا يعنى فساد مذهبه ، فيما جاء من كلام العرب ، على أكثر من ثلاثة أحرف[٤٥] » .

غير أننا نلاحظ أن ابن فارس ، لا يرى النحت إلا فيما زاد على ثلاثة أحرف ، أما نحن فإننا نراه فى بعض الكلمات الثلاثية كذلك ؛ فإن كلمة : « أسمر » مثلا ، منحوتة – فى رأينا – من : «أسود » و« أحمر » .

كما لم يفطن هو ولا غيره ، إلى طريق من طرق خلق الرباعى فى العربية ، وهو طريق : « المخالفة الصوتية » ، وهى عبارة عن إبدال أحد الحرفين المتماثلين ، فى صيغة : (فَعَّل) ، حرفا يغلب أن يكون من الحروف المائعة أو المتوسطة : (ل م ن ر) ، مثل : « تَقَرْصَعَ » ، بمعنى : سال

---

(٤٣) مقاييس اللغة ١/٥٠٥ ولكن انظر : دراسات فى فقه اللغة ، لصبحى الصالح ٢٤٨

(٤٤) الصاحبى فى فقه اللغة ، لابن فارس ٢٧١

(٤٥) دراسات فى فقه اللغة للصالح ٢٦٧ ويرى المرحوم الدكتور مصطفى جواد ، أن ما ذكره ابن فارس فى مقاييس اللغة وفقه اللغة ، فى (النحت) لا يعدو الظن والتخمين ، والتأويل البعيد . انظر : المباحث اللغوية فى العراق ٨٦

فى مشيته ، فأصلها : « تقصَّع » خولفت فيها الصاد الأولى ، وجعلت راءً[٤٦] . ومثل ذلك فى اللهجات الحديثة : « هَرْدم » فى : « هَدَّمَ » و« طَرْبق » فى : « طَبَّق » و« كَرْبس » فى : « كَبَّسَ » و« خَرْمش » فى : « خَمَّشَ » ، وغير ذلك[٤٧] .

وعن هذا الطريق ، يمكن تفسير : « بَرْجَم[٤٨] » بمعنى : أغلظ فى الكلام ، بأنها ناتجة عن طريق المخالفة ، من الفعل : « بَجَّمَ » ، وكذلك : « تَبَلْخَصَ لحمه[٤٩] » ، بمعنى : غلظ ، أصلها : « تَبَخَّصَ » . ومثلها : « بَلْطَحَ[٥٠] » ، فهى مأخوذة من : « بَطَّحَ » بمعنى : ضرب نفسه فى الأرض .

وقد تحدث المخالفة الصوتية ، بتكرار الحرف الأول من الكلمة ، عوضا عن أحد المتماثلين فيها ؛ مثل : « كفكف دمعه » بدلا من : « كَفَّف[٥١] » . ومثل ذلك فى اللهجات الحديثة قولنا : « حكحك » فى : « حَكَّكَ » ، وغير ذلك .

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن طريق آخر ، لنشوء الرباعى فى العربية ، وهو طريق استعمال وزن : « افعالّ » فى الشعر ، بإقحام همزة فيه ؛ مثل : « اطمأنّ » . وعرفنا أن هذه الهمزة الناشئة من الوزن الشعرى ، قد تقلب عينا ، كما فى لهجة تميم ، وعندئذ يتولّد عندنا أمثال : « اقشعرَّ » و« ابذعرَّ » . كما تخفف الهمزة ، فتصير هاء ، فى مثل : « اكفهرّ » و« ازمهرّ » وغير ذلك . وكل هذه الأمثلة وغيرها ، يعدّها اللغويون من الرباعى ، ويجهلون الطريق الذى سلكته فى تطورها .

---

(٤٦) انظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٣١٤

(٤٧) انظر مقالتنا : التطور اللغوى وقوانينه ١٢٦

(٤٨) مقاييس اللغة ٣٣٣/١

(٤٩) مقاييس اللغة ٣٣٣/١

(٥٠) مقاييس اللغة ٣٣٠/١

(٥١) انظر : الأضداد لابن الأنبارى ٣٦٢

ومع ذلك ، فهناك الأمثلة الكثيرة ، التى تؤكد أن العربية تعرف النحت ، فى كلماتها الثلاثية وغيرها . أما ما ذكره « بروكلمان » ، من أن اللغات السامية لا تعرف تركيب الكلمات[٥٢] ، فإنه يقصد بذلك ، التركيب الذى فى مثل : « حَبْقُرّ » فى العربية الفصحى ، و« رسمال » و« ماورد » فى اللهجات العربية الحديثة ؛ فإن التركيب مع الاحتفاظ بجميع عناصر الكلمات الداخلة فى التركيب ، أمر نادر فى العربية ، بعكس الألمانية ، التى يوجد فيها الكثير من تلك الكلمات ؛ مثل : Schreibtischlampe بمعنى : « مصباح المكتب » ، وغير ذلك .

* * *

---

(٥٢) فقه اللغات السامية ١٥

الفصل الثالث

ظاهرة الترادف والاشتراك اللفظي والتضاد في العربية

الأصل فى كل لغة أن يوضع اللفظ الواحد ، لمعنى وحد ؛ أى أن يكون بإزاء المعنى الواحد فيها لفظ واحد ، ولكن ظروفاً تنشأ فى اللغة ، تؤدى إلى تعدّد الألفاظ لمعنى واحد ، أو تعدد المعانى للفظ واحد ؛ يقول سيبويه : « واعلم أن من كلامهم ، اختلاف اللفظين ، لاختلاف المعنيين ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين[1] » .

كما يقول قطرب : « الكلام فى ألفاظه بلغة العرب ، على ثلاثة أوجه ؛ فوجه منها وهو الأعم الأكثر : اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين .. وذلك قولك : الرجل والمرأة ، واليوم والليلة ، وقام وقعد ... وهذا لا سبيل إلى جمعه وحصره ؛ لأن أكثر الكلام عليه . والوجه الثانى : اختلاف اللفظين والمعنى متفق واحد ، وذلك مثل : عَيْر وحمار ، وذئب وسِيد .. وجلس وقعد .. والوجه الثالث : أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى ، فيكون اللفظ الواحد على معنيين فصاعدا ؛ وذلك مثل : الأمّة الرجل وحده يؤتمّ به . والأمّة القامة ، قامة الرجل ، والأمّة من الأمم . ومن هذا اللفظ الواحد الذى يجىء على معنيين فصاعداً ، ما يكون متضادا فى الشىء وضده[2] » .

---

(١) كتاب سيبويه ١/٧

(٢) أضداد قطرب ٢٤٣ -٢٤٤

والحقيقة أنه لم تغن لغة ، بمثل ما غنيت به اللغة العربية ، من تعدد المفردات الدالة على معنى واحد من ناحية ، أو تعدد معانى اللفظة الواحدة ، إلى درجة التضاد بينها فى بعض الأحيان ، من ناحية أخرى .

ويطلق العلماء على المفردات الدالة على معنى واحد ، اسم : « المترادف » Synonym ؛ كما يطلقون على الألفاظ الدالة على المعانى المختلفة ، اسم : « المشترك اللفظى » Homonym ويطلقون على ذات المعانى المتضادة من هذه الألفاظ ، اسم : « الأضداد » .

وإذا كان المحدثون من علماء اللغات ، يسلمون بوقوع أمثلة من هذه الأنواع الثلاثة ، فى اللغات المختلفة ، فإن اللسان العربى ، قد طال باعة وامتد ذراعه ، فى كل نوع من هذه الأنواع . ويعزى سبب تضخم المعجم العربى ، إلى كثرة أمثلة المترادف والمشترك والأضداد ، فى اللغة العربية ، فى كثير من الأحيان . ونحاول فيما يلى ، الوقوف على سر هذه الظاهرة الغريبة فى العربية .

* * *

أولا : الترادف

« المترادفات هى : ألفاظ متحدة المعنى ، وقابلة للتبادل فيما بينها فى أى سياق . والترادف التام – رغم عدم استحالته – نادر الوقوع إلى درجة كبيرة ، فهو نوع من الكماليات ، التى لا تستطيع اللغة أن تجود بها فى سهولة ويسر . فإذا ما وقع هذا الترادف التام ، فالعادة أن يكون ذلك لفترة قصيرة محددة ، حيث إن الغموض الذى يعترى المدلول ، والألوان أو الظلال المعنوية ، ذات الصبغة العاطفية ، أو الانفعالية ، التى تحيط بهذا المدلول ، لا تلبث أن تعمل على تحطيمه ، وتقويض أركانه ، وكذلك سرعان ما تظهر بالتدريج ، فروق معنوية دقيقة ، بين الألفاظ المترادفة ، بحيث يصبح كل لفظ منها مناسبا وملائما ، للتعبير

عن جانب واحد فقط ، من الجوانب المختلفة للمدلول الواحد[٣] » .

وقد اختلف اللغويون العرب ، فى وقوع هذا الترادف التام ، فى لغتنا العربية ، اختلافا كبيرا ، فمنذ أن بدأ الرعيل الأول ، من هؤلاء اللغويين ، فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، فى جمع اللغة العربية ، من أفواه فصحاء العرب من جانب ، وتفريغ ألفاظ القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر ، والخطب ، والرسائل ، حتى نهاية العصر الأموى ، والبحث عن معانيها وتفسيرها من جانب آخر ، أخذ العلماء فى تصنيف هذه المادة اللغوية ، فى أنماط شتى ، وعنّ لبعض هؤلاء العلماء ، أن يجمعوا الكلمات ، التى تدل على معنى واحد فى العربية ، فى تأليف مستقل ، سموه أحيانا « بالمترادف[٤] » ، وأحيانا أخرى باسم : « ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه[٥] » .

وقد بالغ بعضهم فى جمع تلك الألفاظ ، وحشد بينها طائفة كبيرة ، لا تمت إلى المترادف الحقيقى بصلة ، وكان فخر أحدهم على زميله ، أنه يحفظ لهذا الشيء أو ذاك ، كذا وكذا اسما ؛ فقد روى ابن فارس أن هارون الرشيد ، سأل الأصمعى عن شعر ، لابن حزام العكلى ، ففسره ، فقال : يا أصمعى ، إن الغريب عندك لغير غريب . قال : يا أمير المؤمنين ، ألا أكون كذلك ، وقد حفظت للحجر سبعين اسما[٦] .

كما روى ابن فارس ، عن شيخه أحمد بن محمد بن بُنْدَار ، أنه قال : « سمعت أبا عبد الله بن خالويه الهمذانى ، يقول : جمعت للأسد خمسمائة اسم ، وللحية مائتين[٧] » .

---

(٣) دور الكلمة فى اللغة لأولمان ٩٨

(٤) مثل : « الألفاظ المترادفة » لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى ، المطبوع بالقاهرة سنة ١٣٢١ هـ .

(٥) مثل : « ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه » للأصمعى ، الذى نشره مظفر سلطان بدمشق سنة ١٩٦٤ م .

(٦) الصاحبى ٤٤ والمزهر ١/٣٢٥

(٧) الصاحبى ٤٣ والمزهر ١/٣٢٥ وانظر : معجم الأدباء ٩/٢٠٤

وقد أدت مبالغة هؤلاء العلماء وغيرهم ، فى الاعتداد بهذه الظاهرة ، إلى ظهور طائفة أخرى من العلماء ، تعارض هذا الاتجاه ، وترفض ظاهرة الترادف فى العربية ، رفضا تاما ؛ ومن هؤلاء : أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابى (المتوفى سنة ٢٣١ هـ) وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (المتوفى سنة ٢٩١ هـ) وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه (المتوفى سنة ٣٣٠ هـ) وأبو على الفارسى (المتوفى سنة ٣٧٧ هـ) وأبو الحسين أحمد ابن فارس (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) وغيرهم .

قال أبو على الفارسى : « كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسما[٨] . فتبسم أبو على ، وقال : ما أحفظ إلا اسما واحدا ، وهو السيف ! قال ابن خالويه : فأين المهنّد والصارم وكذا وكذا ؟ فقال أبو على : هذه صفات ، وكأنّ الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة[٩] » .

كما يقول ابن فارس : « ويسمى الشىء الواحد بالأسماء المختلفة ، نحو : السيف والمهنّد والحسام . والذى نقوله فى هذا : إن الاسم واحد هو السيف ، وما بعده من الألقاب صفات . ومذهبنا أن كل صفة منها ، فمعناها غير معنى الأخرى . وقد خالف فى ذلك قوم ، فزعموا أنها – وإن اختلفت ألفاظها – فإنها ترجع إلى معنى واحد ، وذلك قولنا : سيف وعَضْب وحسام . وقال آخرون : ليس منها اسم ولا صفة ، إلا ومعناه غير معنى الآخر . قالوا : وكذلك الأفعال ، نحو : مضى وذهب وانطلق ، وقعد وجلس ، ورقد ونام وهجع . قالوا : ففى قعد معنى ليس فى جلس ، وكذلك القول فيما سواه ، وبهذا نقول . وهو مذهب شيخنا أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب[١٠] » .

---

(٨) منها واحد وأربعون اسما ، ذكرها ابن خالويه فى شرح الدريدية . انظر المزهر ١/٤٠٩

(٩) المزهر فى علوم اللغة ١/٤٠٥

(١٠) الصاحبى ٩٦ والمزهر ١/٤٠٤

كما يقول ابن السرّاج : « وقد حُكِيَ لى عن أحمد بن يحيى ، أنه كان يقول : لا يجوز أن يختلف اللفظ والمعنى واحد ، وهو فى هذا القول ، أبعد ممن قال : إنه لا يجوز أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى[١١] » .

ويقول كذلك ابن يعيش : « ويحكى عن أحمد بن يحيى إنكار ذلك ، ومنع جوازه ، ويزعم أن فى كل لفظ زيادة معنى ، ليس فى الآخر ؛ ففى : (ذهب) معنى ، ليس فى : (مضى) ، وكذلك باقى الباب ، وهو قول ليس بالسديد[١٢] » .

أما ابن درستويه ، فإنه يقول فى شرح الفصيح لثعلب : « لا يكون فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنى واحد ، كما لم يكونا على بناء واحد ، إلا أن يجىء ذلك فى لغتين مختلفتين ، فأما من لغة واحدة ، فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد ، كما يظن كثير من اللغويين والنحويين ، وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها ... ولم يعرف السامعون لذلك العلة فيه والفروق ، فظنوا أنهما بمعنى واحد ... وليس يجىء شىء من هذا الباب ، إلا على لغتين متباينتين كما بينا ، أو يكون على معنيين مختلفين ، أو تشبيه شىء بشىء[١٣] » .

وقد وضع ابن درستويه يده فى هذا الكلام ، على العوامل التى أدت إلى نشأة الترادف ، فى اللغة العربية ، فى نظر اللغويين العرب ، كما سنعرف فيما بعد .

---

(١١) الاشتقاق لابن السراج ٤٤

(١٢) شرح التصريف الملوكى ٩٧ وما رواه ابن فارس عن شيخه ثعلب ، وكذلك ما رواه عنه ابن السراج وابن يعيش ، يخالف مذهب ثعلب فى كتابه : « المجالس » ؛ إذ روى فيه كثيرا من الألفاظ المترادفة ، ولم يعلق عليها أو ينكرها ؛ كقوله مثلا : « ويقال : غلام نشنش وشعشع وبلبل وبزبز ، إذا كان خفيفا فى السفر » (مجالس ثعلب ١/١١) وقوله : « الزعيم والصبير والحميل والأذين والكفيل والأميل الذى لا يثبت فى سرجه (مجالس ثعلب ١/٧٧) وقوله : « ويقال : عفا ودرس ومحا وامحى واطرق » (مجالس ثعلب ١/٨٧) وقوله : « ويقال : قطعت يده وجذمت وبترت وبتكت وبضكت وصرمت وترت وجدت » (مجالس ثعلب ٢/٥٤٥ والمزهر ١/٤١١) .

(١٣) المزهر ١/٣٨٤ وانظر النص الأصلى فى : تصحيح الفصيح لابن درستويه ١/١٦٥ –١٦٦

ويقول ابن الأعرابى : « كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد ، فى كل واحد منهما معنى ليس فى صاحبه ، ربما عرفناه فأخبرنا به ، وربما غمض علينا ، فلم نلزم العرب جهله[١٤] » .

وقال المرزوقى : « سئل بعض أهل اللغة ، عن الفرق بين ارْفَضُّوا وانْفَضُّوا – وكان يدّعى أنه إذا اختلف اللفظان ، فلا بد من اختلاف المعنيين – فقال : انفضّوا ، معناه : تباينوا ، وهو من فضضت أى كسرت . وارفضّوا معناه : رفض بعضهم بعضا[١٥] » .

وقال التاج السبكى فى شرح المنهاج : « ذهب بعض الناس إلى إنكار الترادف ، فى اللغة العربية ، وزعم أن كل ما يظن من المترادفات ، فهو من المتباينات التى تتباين بالصفات ، كما فى الإنسان والبشر ؛ فإن الأول موضوع له باعتبار النسيان ، أو باعتبار أنه يؤنس ، والثانى باعتبار أنه بادى البشرة . وكذا الخندريس والعُقار ؛ فإن الأول باعتبار العتق ، والثانى باعتبار عقر الدنّ لشدتها . وتكلّف لأكثر المترادفات ، بمثل هذا المقال العجيب[١٦] » .

« وبعض هؤلاء الذين أنكروا الترادف ، كانوا من الأدباء النقّاد ، الذين يستشفون فى الكلمات أمورا سحرية ، ويتخيلون فى معانيها أشياء ، لا يراها غيرهم ، فهم قوم شديدو الاعتزاز بألفاظ اللغة ، يتبنون الكلمات ، ويرعونها رعاية كبيرة ، ينقبون عما وراء المدلولات ، سابحين فى عالم من الخيال ، يصور لهم من دقائق المعانى وظلالها ، ما لا يدركه إلا هم ، ولا يقف عليه إلا أمثالهم[١٧] » .

ومن هؤلاء الأدباء ، أبو هلال العسكرى ، الذى ألّف كتابا

---

(١٤) الأضداد لابن الأنبارى ٧ وانظر : المزهر ٣٩٩/١

(١٥) شرح اختيارات المفضل ، للتبريزى ٤٧٢/١

(١٦) المزهر فى علوم اللغة ٤٠٣/١

(١٧) فى اللهجات العربية ١٨١

سمّاه : « الفروق اللغوية » ، نادى فيه بأن « كل اسمين يجريان على معنى من المعانى ، وعين من الأعيان ، فى لغة واحدة ؛ فإن كل واحد منهما ، يقتضى خلاف ما يقتضيه الآخر ، وإلا لكان الثانى فضلا لا يحتاج إليه[١٨] » .

ولم يكن العسكرى من أنصار منع الترادف فحسب ، بل كان ممن يقولون بمنع الاشتراك اللفظى فى العربية كذلك ، « فكما لا يجوز أن يدل اللفظ الواحد على معنيين ، فكذلك لا يجوز أن يكون اللفظان ، يدلان على معنى واحد ؛ لأن فى ذلك تكثيرا للغة ، بما لا فائدة فيه[١٩] » .

وقد أحسّ العسكرى ، بأنه هو وطائفة قليلة من اللغويين ، يخالفون إجماع القوم ، على القول بالترادف فى العربية ؛ ولذلك يقول : « ولعل قائلا يقول : إن امتناعك من أن يكون للّفظين المختلفين معنى واحد ، ردّ على جميع أهل اللغة ؛ لأنهم إذا أرادوا أن يفسّروا اللُّبّ ، قالوا : هو العقل ، أو الجَرْح ، قالوا : هو الكسب ، أو السَّكْب ، قالوا : هو الصَّبّ . وهذا يدل على أن اللب والعقل عندهم سواء ، وكذلك : الجرح والكسب ، والسكب والصب ، وما أشبه ذلك . قلنا : ونحن أيضا نقول كذلك ، إلا أنّا نذهب إلى أنّ قولنا : اللّبّ وإن كان هو العقل ، فإنه يفيد خلاف ما يفيد قولنا : العقل[٢٠] » .

ولعلنا نوضح مذهبه هذا ، إذا ضربنا بعض الأمثلة من كتابه ؛ يقول العسكرى فى الفرق بين المدح والتقريظ ، إن « المدح يكون للحى والميت ، والتقريظ لا يكون إلا للحى . وخلافه التأبين لا يكون إلا للميت . وأصل التقريظ من القرظ ، وهو شىء يدبغ به الأديم ، وإذا دبغ به حسن وصلح وزادت قيمته ، فشبه مدحك للإنسان الحى بذلك ، كأنك تزيد من قيمته

---

(١٨) الفروق اللغوية ١١

(١٩) الفروق اللغوية ١٢

(٢٠) الفروق اللغوية ١٣

بمدحك إياه ، ولا يصح هذا المعنى فى الميت ؛ ولهذا يقال : مدح الله ، ولا يقال : قرّظه[٢١] » .

كما يقول فى الفرق بين المدح والثناء ، إن « الثناء مدح مكرر ، من قولك : ثَنَيت الخيط ، إذا جعلته طاقين ، وثنّيته – بالتشديد – إذا أضفت إليه خيطا آخر . ومنه قوله تعالى : سبعا من المثانى ، يعنى سورة الحمد ؛ لأنها تكرر فى كل ركعة[٢٢] » .

ومع أن أبا هلال العسكرى ، يبالغ فى هذا الكتاب فى منع الترادف ، ويحاول جاهدا البحث عن الفروق بين الألفاظ المترادفة ، فإنه فى كتابين آخرين له ، ينسى هذا المبدأ ، ويذكر الألفاظ المترادفة ، بلا اعتراض عليها ، أو محاولة للتفريق بينها . وأول هذين الكتابين هو : « التلخيص فى معرفة أسماء الأشياء » ، وقد ذكرنا من قبل نصا من نصوصه ، فى : « ذكر النوم[٢٣] » يمتلىء بهذه المترادفات . وثانى الكتابين هو : « المعجم فى بقية الأشياء[٢٤] » ، ذكر فيه من الأسماء الدالة على (بقية الماء فى الحوض) : الجَحْفَة (٦٥) والخَبْطة (٧٦) والدِّعْث (٨١) والرَّشَف (٨٦) والسَّمَلة (٩٥) والهلال (١٥٤) . كما ذكر من الألفاظ الدالة على (بقية اللبن فى الضرع) : التَّفْشِيل (٥٨) والرَّمَث (٨٨) والعُفافة (١١٧) والعُلالة (١٢٢) والغُبْر (١٢٦) ، وغير ذلك .

ورغم ما يوجد بين لفظة مترادفة وأخرى ، من فروق أحيانا ، فإننا لا يصح أن ننكر الترادف ، مع من أنكره جملة ، فإن إحساس الناطقين باللغة ، كان يعامل هذه الألفاظ معاملة المترادف ؛ فنراهم يفسرون اللفظة

---

(٢١) الفروق اللغوية ٢٧

(٢٢) الفروق اللغوية ٢٧

(٢٣) انظر فيما مضى : صفحة ٢٦٤

(٢٤) نشرة إبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى ، فى القاهرة سنة ١٩٣٤ م .

منها بالأخرى ، كما روى عن أبى زيد الأنصارى أنه قال : « قلت لأعرابى : ما المحبنطىء ؟ قال : المتكأكىء . قال : قلت : ما المتكأكىء ؟ فقال : المتآزف . قال : قلت : ما المتآزف ؟ قال : أنت أحمق ؟[٢٥] » .

وكما روى عن المازنى أنه قال : « سمعت أبا سَوَّار الغنوى يقرأ : وإذ قتلتم نسمة فادّارأتم فيها ، فقلت له : إنما هو (نفس) ، فقال : النسمة والنفس واحد[٢٦] » .

* * *

أسباب كثرة المترادف فى العربية الفصحى :

١ – تعدد أسماء الشىء الواحد فى اللهجات المختلفة ، فكل لهجة تطلق عليه اسما ، ثم أدى احتكاك اللهجات بعضها ببعض ، ونشأة اللغة العربية المشتركة ، فى تلك الظروف الدينية والاقتصادية والسياسية ، التى تحدثنا عنها من قبل – إلى تمسّك هذه اللغة المشتركة ، بعدد من تلك الألفاظ التى تدل على مسمى واحد فى اللهجات المختلفة « وأصبحت الحالة التى انتهت إليها أشبه شىء ببحيرة ، امتزج بمياهها الأصلية ، مياه أخرى انحدرت إليها من جداول كثيرة[٢٧] » .

ولو نظرنا فى اللهجات العربية الحديثة ، لوجدنا شيئا يشبه هذا الذى نتصوره فى القديم ، فما يسمى : « فكّة » مثلا فى مصر ، يسمى فى لبنان : « فرافير » ، وفى سوريا والأردن : « فراطة » ، وفى العراق : « خُرْدَة » ، وفى ليبيا : « رِقاق » ، وفى السعودية : « صرافة » أو « تفاريق » .

و« البطيخ » مثلا فى مصر ، هو : « الرَّقِّى » فى العراق ، و« الدّلّاح » فى ليبيا ، و« الحَبْحَب » فى السعودية ، وما إلى ذلك .

---

(٢٥) جمهرة اللغة ٣/٢٧ وعنها فى المزهر ١/٤١٣

(٢٦) أمالى القالى ٢/٨٠ وعنها فى المزهر ١/٤١٣

(٢٧) فقه اللغة ، لعلى عبد الواحد وافى ١٦٦

وهكذا لو تصورنا تفاعلا ، يتم بين هذه اللهجات جميعها ، لكان من الممكن أن يحتفظ ببعض هذه الألفاظ ، للدلالة على المسمى الواحد .

ويفسر لنا هذا السبب ، وقوع المترادف فى العربية المشتركة ، أو ما نعرفه باسم العربية الفصحى ، ونستطيع أن نفهم على ضوئه ، ما وقع فى القرآن الكريم ، من هذه الألفاظ المترادفة ، كورود : « حلف » و« أقسم » مثلا بمعنى واحد ، فى قوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا » (التوبة ٧٤/٩) ، وقوله : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » (النور ٥٣/٢٤) ، وكورود : « بعث » و« أرسل » بمعنى واحد ، فى قوله تعالى : « بعث فيهم رسولا » (آل عمران ١٦٤/٣) ، وقوله : « فأرسلنا فيهم رسولا » (المؤمنون ٣٢/٢٣) .

وإن كان من يمنعون الترادف ، يحاولون التفرقة بين اللفظين ، كأبى هلال العسكرى ، الذى حاول أن يفرق بين القسم والحلف ، بأن القسم أبلغ من الحلف ؛ لعلة ذكرها هو ، ولا تخلو من التكلف[٢٨] .

كما فرق بين البعث والإرسال ، بأنه « يجوز أن تبعث الرجل إلى الآخر ، لحاجة تخصه دونك ودون المبعوث إليه ، كالصبى تبعثه إلى المكتب ، فتقول : بعثته ، ولا تقول : أرسلته ؛ لأن الإرسال لا يكون إلا برسالة ، أو ما يجرى مجراها[٢٩] » .

ولا يخفى ما فى ذلك من التكلف ، ومخالفة الاستعمال القرآنى .

وكثير من هذه الألفاظ الخاصة باللهجات ، لم يستطع النفاذ إلى استعمالات اللغة الفصحى ، وبقيت مقصورة على الاستعمال المحلى ، عند هذه القبيلة أو تلك ، وكان من الممكن أن تندثر هذه الألفاظ ؛ لأن نصوص الفصحى الشعرية والنثرية منها ، لم تسجلها بين ألفاظها ،

---

(٢٨) الفروق اللغوية ٤٢

(٢٩) الفروق اللغوية ٢٢٢

لولا أن ساح اللغويون العرب ، فى القرون الأولى للهجرة ، فى قلب الجزيرة العربية ، وبين القبائل التى اعتمدوها هم ، لتلقى اللغة عنهم ، فدوّنوا عنهم فيما دوّنوا هذه الألفاظ المحلية .

وقد فطن إلى هذا ابن جنى ، فقال : « وإذا كثر على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة ، فسمعت فى لغة إنسان واحد ، فإن أحرى ذلك أن يكون قد أفاد أكثرها أو طرفا منها ، من حيث كانت القبيلة الواحدة ، لا تتواطأ فى المعنى الواحد على ذلك كله[٣٠] » . كما قال : « كلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد ، كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات ، اجتمعت لإنسان واحد من هَنَّا وهَنَّا[٣١] » .

ويروى عن الإصفهانى[٣٢] أنه قال : « وينبغى أن يحمل كلام من منع (الترادف) على منعه فى لغة واحدة ، أما فى لغتين ، فلا ينكره عاقل[٣٣] » .

كما يقول الأصوليون : إن من أسباب الترادف « أن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين ، والأخرى الاسم الآخر للمسمى الواحد ، من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى ، ثم يشتهر الوضعان ، ويخفى الواضعان ، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر[٣٤] » .

٢ – ومن أسباب الترادف كذلك : أن يكون للشىء الواحد فى الأصل اسم واحد ، ثم يوصف بصفات مختلفة ، باختلاف خصائص

---

(٣٠) الخصائص ١/٣٧٣

(٣١) الخصائص ١/٣٧٤

(٣٢) لعله أبو على الحسن بن عبد الله الإصفهانى ، المعروف بلغدة ، وهو من تلامذة الزجاج (بغية الوعاة ١/٥٠٩) . وقد علق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، على نص بإنباه الرواة ١/٤١ : « الرد على الإصبهانى لأحمد بن داود أبى حنيفة الدينورى » ، بقوله فى هامشه : « هو الحسن بن عبد الله المعروف بلغدة الاصفهانى » !

(٣٣) المزهر فى علوم اللغة ١/٤٠٥

(٣٤) المزهر فى علوم اللغة ١/٤٠٥

ذلك الشيء ، وإذا بتلك الصفات تستخدم فى يوم ما ، استخدم الشيء ، وينسى ما فيها من الوصف ، أو يتناساه المتحدث باللغة .

وفى ضوء هذا السبب ، يمكن النظر إلى السيف وأسمائه المختلفة فى العربية ، تلك الأسماء التى كانت فى الأصل صفات له ، كالصارم ، والباتر ، والقاضب ، والصقيل ، وغير ذلك .

وقد فطن إلى مثل هذا ، أبو على الفارسى ، فى حواره الذى سبق أن ذكرناه ، مع ابن خالويه ، أمام سيف الدولة . ويقول ابن الأثير : « وقد يوجد من الأسماء ما يطلق على المسمّى بالوضع ، اسما للذات لا لمعنى فيه ، كالسيف بإزاء هذه الآلة المعروفة كيف كانت . ومنها ما يطلق عليه لصفة فيه ، كالصارم ، فإنه موضوع له كصفة الحدّة[٣٥] » .

كما يقول نولدكه : « وطبيعى أن المعاجم العربية ، قد تضخمت جدا ، على الأخص بسبب أنها تذكر التسميات الشعرية ، الشخصية الخالصة للأشياء ، على أنها كلمات خاصة ؛ فحين يسمى أحد الشعراء الأسد مثلا ، بالكاسر بالأسنان ، ويسميه شاعر آخر بالساحق ، وغير ذلك ؛ فإن المعجم العربى يأخذ هذه التسميات ، على أنها ترادف كلمة الأسد تماما[٣٦] » .

٣ – وأحد أسباب كثرة المترادفات العربية ، فى مؤلفات القدامى من اللغويين : التطور اللغوى فى اللفظة الواحدة ؛ فقد تتطور بعض أصوات الكلمة الواحدة ، على ألسنة الناس ، فتنشأ صور أخرى للكلمة ، وعندئذ يعدّها اللغويون العرب ، مترادفات لمسمى واحد .

من ذلك قول ابن جنى مثلا : « ومن ذلك قولهم : هَتَلَت السماء وهَتَنَت : هما أصلان ، ألا تراهما متساويين فى التصرف ؛ يقولون : هَتَنَت

(٣٥) المرصع لابن الأثير ٣٥٢

(٣٦) اللغات السامية ٨١

السماءُ تَهْتِنُ تَهْتَاناً ، وهتلت تهتل تهتالا ، وهنّ سحائب هُتُنٌ وهُتْلٌ[٣٧] » .

وتمتلىء كتب « الإبدال » العربية ، بمثل هذه الكلمات ، التى يعدّها اللغويون من المترادفات ، وما هى منها فى شىء ؛ فإنه مما لا شك فيه أن الأفعال الآتية : « دَعَس » و« طَعَس » و« طَعَز » و« دَعَز » و« طَحَس » و« طَحَز » و« دَعَظ » و« عَزَد » و« عَصَد » بمعنى : جَامَعَ المراة – هذه الأفعال كلها ، تئول إلى فعل واحد هو : « دعس » فيما يبدو ، وفيه يظهر معنى الوطء . أما بقية الأفعال ، فهى نتيجة تطور صوتى ، فى بعض أصوات الفعل : « دَعَسَ » مع القلب المكانى فيه أحيانا .

ومثل ذلك كلمات : « الحثالة » و« الحفالة » و« الحذالة » و« الحسالة » و« الحصالة » للردىء من الشىء[٣٨] .

ويشبه هذا ما روى عن الأصمعى أنه قال : « اختلف رجلان فى : (الصقر) ، فقال أحدهما : (الصقر) بالصاد ، وقال الآخر : (السقر) بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما ، فحكيا له ما هما فيه ، فقال : لا أقول كما قلتما ، إنما هو : (الزقر) ![٣٩] » . كما روى الأصمعى كذلك عن العرب ، أنهم يقولون : « ما كدت أتملّص من فلان » و« أتملّس » و« أتملّز » بمعنى : أتخلّص منه[٤٠] .

وقد يكون التطور اللغوى فى معنى الكلمة ودلالتها ، لا فى لفظها « فمن الكلمات ما تشترك معانيها فى بعض الأجزاء ، وتختلف فى بعضها

---

(٣٧) الخصائص ٢/٨٢

(٣٨) انظر فى هذه الأمثلة والأمثلة السابقة : كتاب الإبدال لأبى الطيب اللغوى ، فى مواضع متفرقة منه .

(٣٩) الخصائص ١/٣٧٤ والمزهر ١/٢٦٣

(٤٠) ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه ، للأصمعى ٣٠

الآخر ، ويمكن تشبيهها بدوائر متحدة المركز ، ومختلفة فى جزء من سطوحها ، أو مشتركة فى جزء من السطح فقط ، فإذا مر عليها زمن طويل ، ودعت عوامل تغير المعانى ، أن تنطبق الدوائر بعضها على بعض ، أصبحت تلك الكلمات مترادفة ؛ لأن المعانى لا تبقى على حالة واحدة ، فقد يصبح الخاص عاما ، أو يصبح العام خاصا ، وإذا قارنا بين الكلمة : (هلك) فى العربية ، وجدنا معناها فى العبرية لكل نوع من الذهاب ، فى حين أن معناها فى العربية ، قد تحدد فأصبح مقصورا على نوع واحد من الذهاب ، وهو (الهلاك) . وقد أدّى مثل هذا التطور إلى الترادف بين الموت والهلاك[٤١] » .

٤ – ومن عوامل كثرة المترادف فى العربية كذلك : الاستعارة من اللغات الأجنبية ، التى كانت تجاور العربية فى الجاهلية وصدر الإسلام . وبين الكلمات المترادفة التي رويت لنا ، الكثير من الألفاظ المستعارة من الفارسية وغيرها ، كالدِّمَقْس والإسْتَبْرَق للحرير ، والزَّرجون والإسْفِنط والباذِق والدِّرياقة للخمر ، والبَهْرَج للباطل ، والبَخْت للجَدّ والحظ ، والجُلّ للورد ، والدّست للصحراء ، واليَمّ للبحر ، وغير ذلك .

ومثل ذلك كلمة : « دستفشار » من أسماء العسل ، فإنها كما قال ابن منظور : « كلمة فارسية ، معناها : ما عصرته الأيدى . ومنه قول الحجاج فى كتابه إلى بعض عماله بفارس : ابعث إلىّ بعَسَلٍ خُلَّار ، من النحل الأبكار ، من الدستفشار ، الذى لم تمسّه النار[٤٢] » .

والمسئول عن دخول هذه الألفاظ إلى العربية ، واستخدامها إلى جانب الألفاظ الأصلية فى اللغة ، هم الشعراء أمثال الأعشى وغيره ؛ فقد « ذكر أبو حاتم أن رؤبة بن العجاج ، والفصحاء كالأعشى وغيره ، ربما استعاروا الكلمة من كلام العجم للقافية لتستطرف ، ولا يصرفونه

---

(٤١) فى اللهجات العربية ١٨٣

(٤٢) اللسان (بكر) ٥/١٤٤

ولا يشتقون منه الأفعال ، ولا يرمون بالأصلى ، ويستعملون المستطرف[٤٣] » .

وقد أثرى عامل الاقتراض من اللغات الأجنبية ، لغة كالإنجليزية ، بالمترادفات اللغوية إثراء عظيما ؛ يقول أولمان : « واللغة الإنجليزية لغة غنية بصفة خاصة ، بالمترادفات أو أشباه المترادفات ، بتعبير أدق ، فهى قد فتحت الباب على مصراعيه ، للاقتراض من اللغة اللاتينية ، وما تفرع عنها من لغات . وقد عملت بذلك على إثراء مصادر الترادف فيها ، إثراء واسعا ، واكتسبت ألوانا من المعانى الدقيقة ، والدلالات المختلفة ، كما ظفرت بتنوع فى التعبير ، إلى درجة لم تصل إليها أية لغة أوربية أخرى[٤٤] » .

هذه هى بعض العوامل ، التى أدت إلى كثرة الألفاظ المترادفة ، فى المعاجم العربية ، ومؤلفات اللغويين العرب ، ولا يعنى نقدنا لها هنا ، أن اللغة العربية تخلو من المترادفات ؛ إذ « يجمع المحدثون من علماء اللغات ، على إمكان وقوع الترادف ، فى أى لغة من لغات البشر ، بل إن الواقع المشاهد ، أن كل لغة تشتمل على بعض هذه الكلمات المترادفة[٤٥] » .

غير أن هؤلاء العلماء يشترطون شروطا معينة ، إذا تحققت أمكننا القول بأن بين الكلمتين ترادفا . وفيما يلى نلخص أهم هذه الشروط[٤٦] :

١ — الاتفاق فى المعنى بين الكلمتين اتفاقا تاما ، فإذا تبين لنا بدليل قوى ، أن العربى كان يفهم حقا من كلمة : (جلس) شيئا ، لا يستفيده من كلمة : (قعد) ، قلنا حينئذ : ليس بينهما ترادف .

٢ — الاتحاد فى البيئة اللغوية . ولم يفطن المغالون فى الترادف إلى مثل

---

(٤٣) المعرب للجواليقى ٩ — ١٠

(٤٤) دور الكلمة فى اللغة ١٠٠

(٤٥) فى اللهجات العربية ١٧٨

(٤٦) انظر ، فى تفصيل هذه الشروط : فى اللهجات العربية ١٧٨ — ١٧٩

هذا الشرط ؛ بل عَدُّوا كل اللهجات وحدة متماسكة ، وعدّوا كل الجزيرة العربية بيئة واحدة ، ولكنا نعدّ اللغة المشتركة ، أو الفصحى الأدبية ، بيئة واحدة ، ونعدّ كل لهجة أو مجموعة منسجمة من اللهجات ، بيئة واحدة .

٣ – الاتحاد فى العصر . فالمحدثون حين ينظرون إلى المترادفات ، ينظرون إليها فى عهد خاص وزمن معين ، فإذا بحثنا عن الترادف ، يجب ألّا نلتمسه فى شعر شاعر من الجاهليين ، ثم نقيس كلماته بكلمات وردت فى نقش قديم ، يرجع إلى العهود المسيحية مثلا .

٤ – ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتى آخر ، فحين نقارن بين : (الجَثْل) و(الجَفْل) بمعنى : النمل ، نلحظ أن إحدى الكلمتين ، يمكن أن تعدّ أصلا ، والأخرى تطور لها .

على أية حال ، وكيفما كان نشوء هذا القدر الكبير ، من المترادفات فى اللغة العربية ، فقد أفادت هذه الظاهرة فى « التوسع فى سلوك طرق الفصاحة ، وأساليب البلاغة فى النظم والنثر ، وذلك لأن اللفظ الواحد ، قد يتأتّى باستعماله مع لفظ آخر السجع والقافية ، والتجنيس والترصيع ، وغير ذلك من أصناف البديع ، ولا يتأتى ذلك إلا باستعمال مرادفه مع ذلك اللفظ[٤٧] » .

ويرى ابن يعيش[٤٨] ، أن الترادف يحسن « للحاجة إلى التوسع بالألفاظ ، ألا ترى أن الساجع أو الشاعر ، لو افتقر إلى استعمال معنى : (قعد) مع قافية سينية ، لاستعمل معنى : (جلس) ، ولو لم يستعمل فى هذا إلا (قعد) ، لضاق المذهب ، ولم يوجد من التوسع ، ما وجد بوجوده » .

كما أمكن بهذه المترادفات « أن يأتى الشاعر بالاسمين المختلفين

---

(٤٧) المزهر فى علوم اللغة ١/٤٠٦

(٤٨) شرح الملوكى ٩٦

للمعنى الواحد ، فى مكان واحد ، تأكيداً ومبالغة ، كقول الحطيئة :

ألا حَبَّذَا هِنْـــدٌ وَأَرْضٌ بِهَـــا هِنْـــدُ

وهِنْدٌ أَتى مِنْ دُونِهَا النَّأْىُ والْبُعْدُ[٤٩] » .

بل لقد حفظ لنا التاريخ أن « واصل بن عطاء » زعيم المعتزلة ، كان ألثغ فى صوت الراء ، فلم يحفظ عنه أنه نطق بهذا الصوت ، ولولا المترادفات تعينه على قصده ، لما استطاع ذلك . ومن أمثلة ذلك ، ما يروى عنه من أنه « لما قال بشار بالرجعة ، وتتابع على واصل ما يشهده بإلحاده ، قال واصل : أما لهذا الأعمى الملحد ، أما لهذا المُشَنَّف المكنى بأبى معاذ من يقتله ؟ أما والله ، لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية ، لدسست إليه من يبعج بطنه فى جوف منزله أو فى حفله ، ثم لا يتولى ذلك إلا عُقيلىّ أو سَدُوسىّ . فقال : أبو معاذ ، ولم يقل : بشار . وقال : المشنّف ، ولم يقل : المرعَّث ، وكان بشار ينبز بالمرعث . وقال : من سجايا الغالية ، ولم يقل : الرافضة . وقال : فى منزله ، ولم يقل : فى داره وقال : يبعج ، ولم يقل : يَبْقُر . كل ذلك تخلّصا من الراء[٥٠] » .

* * *

ثانيا : الاشتراك اللفظى

عرف الأصوليون اللفظ المشترك بأنه « اللفظ الواحد الدالّ على معنيين مختلفين فأكثر ، دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة[٥١] » .

وكما وقع الخلاف بين اللغويين ، حول وجود المترادف فى اللغة ، فأنكره بعضهم ، نجد الأمر نفسه يتكرر هنا كذلك ، فهذا « ابن درستويه » ، الذى عرفناه من قبل ، معارضا فى وجود المترادف

---

(٤٩) انظر : المزهر فى علوم اللغة ١/٤٠٦ وديوان الحطيئة ق ٢/٣٨ ص ١٤٠ وانظر للمترادف وأثره فى توكيد الكلام : البرهان للزركشى ٢/٤٧٢

(٥٠) انظر : معجم الأدباء لياقوت ١٩/٢٤٥ والبيان والتبيين للجاحظ ١/١٦ والكامل للمبرد ٣/١٩٤

(٥١) المزهر فى علوم اللغة ١/٣٦٩

فى اللغة الواحدة ، ينكر كذلك أن يكون للفظ : (وجد) من المعانى المختلفة ، ما رواه اللغويون فيه ، وهى : العثور على الشىء ، والغضب ، والعشق ؛ ويقول فى شرح فصيح ثعلب : « فظن من لم يتأمل المعانى ، ولم يتحقق الحقائق ، أن هذا لفظ واحد ، قد جاء لمعان مختلفة ، وإنما هذه المعانى كلها شىء واحد ، وهوإصابة الشىء خيراً كان أو شرّاً[٥٢] » .

كما يقول أيضا : « فإذا اتفق البناءان فى الكلمة والحروف ، ثم جاءا لمعنيين مختلفين ، لم يكن بد من رجوعهما إلى معنى واحد ، يشتركان فيه ، فيصيران متفقى اللفظ والمعنى[٥٣] » .

وقد وضع ابن درستويه يده هنا كذلك ، على الأسباب التى تدعو إلى نشوء المشترك اللفظى فى اللغة ، حين قال : « فلو جاز وضع لفظ واحد ، للدلالة على معنيين مختلفين ، لما كان ذلك إبانة ، بل تعمية وتغطية ، ولكن قد يجىء الشىء النادر من هذا لعلل ... وإنما يجىء ذلك فى لغتين متباينتين ، أو لحذف واختصار قد وقع فى الكلام ، حتى اشتبه اللفظان ، وخفى ذلك على السامع ، وتأول فيه الخطأ[٥٤] » .

وإلى مثل هذا الذى فطن إليه ابن درستويه ، ينادى أبو على الفارسى ، بأن « اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، ينبغى ألا يكون قصدا فى الوضع ، ولا أصلا ، ولكنه من لغات تداخلت ، أو أن تكون كل لفظة تستعمل بمعنى ، ثم تستعار لشىء ، فتكثر وتغلب ، فتصير بمنزلة الأصل[٥٥] » .

وفى ضوء هذا الذى ذكره أبو على الفارسى ، ينبغى أن ننظر إلى المعانى الكثيرة المختلفة ، التى تذكرها المعاجم العربية ، لهذا اللفظ أو

---

(٥٢) تصحيح الفصيح لابن درستويه ١/٣٦٤ وعنه فى المزهر ١/٣٨٤

(٥٣) تصحيح الفصيح لابن درستويه ١/٢٤٠

(٥٤) المزهر ١/٣٨٥ وانظر النص الأصلى فى : تصحيح الفصيح لابن درستويه ١٦٦ - ١٦٧

(٥٥) المخصص ١٣/٢٥٩ وهو بالنص فى شرح التصريف الملوكى ٩٧ بلا نسبة .

ذاك ، ككلمة « العجوز » التى روى لها صاحب القاموس ، أكثر من سبعين معنى ، وهى : « الإبرة ، والأرض ، والأرنب ، والأسد ، والألف من كل شيء ، والبحر ، والبطل ، والبقرة ، والتاجر ، والترس ، والتوبة ، والثور ، والجامع ، والجعبة ، والجفنة ، والجوع ، وجهنم ، والحرب ، والحربة ، والحمى ، والخلافة ، والخمر ، والخيمة ، ودارة الشمس ، والداهية ، والدرع للمرأة ، والدنيا ، والذئب ، والذئبة ، والراية ، والرخم ، والرعشة ، والرمكة ، ورملة معروفة ، والسفينة ، والسماء ، والسِّن ، والسَّموم ، والسنة ، وشجر معروف ، والشمس ، والشيخ ، والشيخة ، والصحيفة ، والصنجة ، والصومعة ، وضرب من الطيب ، والضبع ، والطريق ، وطعام يتخذ من نبات بحرى ، والعاجز ، والعافية ، وعانة الوحش ، والعقرب ، والفرس ، والفضة ، والقبلة ، والقدر ، والقربة ، والقوس ، والقيامة ، والكتيبة ، والكعبة ، والكلب ، والمرأة شابة كانت أو عجوزا ، والمسافر ، والمسك ، ومسمار فى قبضة السيف ، والملك ، ومناصب القدر ، والنار ، والناقة ، والنخلة ، ونصل السيف ، والولاية ، واليد اليمنى[٥٦] » .

ويمكننا أن نلخص عوامل نشأة المشترك اللفظى فى العربية عموما ، فيما يلى :

١ – **الاستعمال المجازى** : فمثلا كلمة : « العين » ، يدل فى الأصل على عضو الإبصار فى الإنسان والحيوان ، بدليل مقارنة اللغات السامية المختلفة ، وهى من الأسماء القديمة فيها . أما العربية ففيها زيادة على هذا المعنى : الإصابة بالعين ، وضرب الرجل فى عينه ، والمعاينة ؛ وهذه كلها اشتقاقات فعلية من لفظ « العين » بمعناها القديم . ومن معانيها كذلك : « المال الحاضر » ؛ لأنه يُعَايَن كذلك ، بعكس المال الغائب ، الذى لا تراه العين . ومن معانيها : « الجاسوس » و« رَبِيئة الجيش » وهو

---

(٥٦) القاموس المحيط (عجز) ١٨١/٢

الذى ينظر لهم ؛ وهذا على التشبيه والمبالغة ، فكأن الجاسوس والربيئة ، قد تحوّلا إلى عين كبيرة ؛ لأن العين أهم أعضائهما فى عملهما . ومن المعانى كذلك : « خيار الشيء » و« السيد » و« سنام الإبل » ، وهذه الثلاثة يجمعها « بالعين » قيمتها بالنسبة إلى سائر الجسد ، على التشبيه بها فى المكانة والمنزلة . ومن المعانى أيضا : « الدينار » و« عين الركبة » وهى نقرة فى مقدمتها ، و« عين الشمس » و« عين الماء » ؛ وهذه كلها على التشبيه بالعين فى الاستدارة ، أو سيلان الدمع منها . وبقى من معانى « العين » فى العربية : « الاعوجاج فى الميزان » و« ما عن يمين قبلة أهل العراق » و« السحابة التى تنشأ من ناحية قبلة أهل العراق » و« مطر أيام كثيرة لا يقلع » و« طائر » و« ذات الشيء » ؛ وهذه كلها معان ، لا يتضح لنا الآن علاقتها بالعين المبصرة ، وما نظن إلا أن هذه الصلة ، كانت موجودة فى أذهان العرب الأوائل ، الذين أطلقوا لفظ : « العين » عليها[(٥٧)] .

وقد لعب الاستعمال المجازى ، دوره كذلك ، فى نشوء المشترك اللفظى ، فى غير العربية من اللغات الأخرى ؛ يقول « أولمان » فى مثال ذلك من الإنجليزية : « فالاستعارة مثلا كما فى نحو : crane وظيفتها إلحاق مدلول جديد بمدلول قديم ، عن طريق العلاقة المباشرة بين المدلولين ، غير أن السمات المشتركة فقط ، هى التى يدركها المتكلم ، حين يتم الانتقال من المعنى القديم ، إلى المعنى الجديد . والمعتاد أن يعيش المعنى القديم ، جنبا إلى جنب مع المعنى الجديد ؛ فالطير المسمى : crane (وهو طير الكركى) ، سوف يظل يُدعى بهذا الاسم ، بالرغم من أن اللفظ نفسه ، قد أطلق على تلك الآلة المعهودة التى تستعمل فى رفع الأحمال الثقيلة[(٥٨)] » .

---

(٥٧) انظر كذلك : المزهر فى علوم اللغة ١/٣٧٢ — ٣٧٥ وإصلاح المنطق ٥٦ والمأثور عن أبى العميثل ٨ وشرح التصريف الملوكى ١١٠ والمنجد ، لكراع النمل ٣٢ — ٣٣ وبصائر ذوى التمييز ٤/٤ — ٥

(٥٨) دور الكلمة فى اللغة ١١٧

وعلى كل ، فمن الملاحظ عند علماء اللغة المحدثين ، أن المعانى الحسية ، أسبق فى الوجود من المعنويات ، وأن المعنويات فرع عن الحسيات بطريق المجاز ، غير أن أصحاب المعاجم العربية ، لم يفرقوا بين الحقيقى والمجازى ، فى هذه المعانى الكثيرة ، التى جمعوها للكلمات فى معاجمهم ، كما رأينا فى معانى كلمة : « العجوز » فى القاموس المحيط ، من قبل .

ولم يهتم من أصحاب المعاجم بهذه الناحية ، وهى التفرقة بين المعانى الحقيقية والمجازية للكلمات ، سوى الزمخشرى فى معجمه : « أساس البلاغة » — كما عرفنا من قبل — ولكنه « لم يوفق فى كل حالة ؛ فقد ضل الطريق ، حين حاول اشتقاق معنى حسى من آخر معنوى ، مع أن الذى أجمع عليه المحدثون من علماء اللغات ، هو أن المعانى الحسية ، أسبق فى الوجود ، وأجدر بأن تعدّ المعانى الحقيقية ، وغيرها فروع لها عن طريق المجاز[٥٩] » .

ولعل السبب فى غموض العلاقة ، بين بعض معانى المشترك اللفظى ، أنها قد تكون مرتبطة بأشياء تاريخية ، أدت إلى نشوء هذه المعانى البعيدة للكلمة ، كالاعوجاج فى الميزان وما شابهه من معانى « العين » فى المثال السابق .

ويضرب « أولمان » مثالا مشابها ؛ فيقول : « كيف اكتسبت الكلمة : collation أى : الموازنة والمراجعة التفصيلية ، مثلا ، معنى : الأكلة الخفيفة ؟ من البديهى أنه ليست هناك مشابهة بين المعنيين ، بل إن احتمال وجود أية صلة بينهما ، احتمال يبدو بعيداً أول الأمر . ولكن التاريخ يمدّنا بما يفسر هذه الحالة . لقد كانت العادة فى بعض الأديرة ، أن يتناول الرهبان طعاما خفيفا ، بعد فراغهم من قراءة سِيَر الروّاد الأوائل ، من رجال الدين ، ومراجعة هذه السير ، فكان هذا الارتباط العرضى ، كافيا لأن ينحرف بالكلمة ، ويقودها إلى هذا التطور فى المعنى[٦٠] »

---

(٥٩) فى اللهجات العربية ١١٩ وانظر كذلك : دور الكلمة فى اللغة ١٩١

(٦٠) دور الكلمة فى اللغة ١٧٤

ومن أمثلة تلك العلاقات الغامضة بين المعانى ، التى يفسرها التاريخ فى اللغة العربية ، كلمة : « التقاوى » ، المستخدمة فى الريف المصرى ، بمعنى : « البذور » ؛ فهناك من يذهب إلى أن هذا الاستخدام « يرجع إلى عهد رأس الأسرة العلوية ، التى كانت تحكم مصر ، وهو محمد على الكبير ؛ ذلك أنه كان يُعْطَى الفلاحون من أهراء السلطان ، ومخازن الولاية ، ما يعينهم على الزرع ، من البذور . وكان ذلك يخرج من الديوان ، ويكتب فى كتب الأعطية : يعطى فلان كذا كيلجة أو إردبا **تقوية** له ، فلما كثر قرن عطاء البذر بالتقوية ، غلبت التقوية على البذر ، فكان إذا قيل : أخذت التقوية ، فإنما يعنى : أخذ البذر ، وجمع التقوية على : التقاوى ، وغلب هذا اللفظ : التقاوى ، على البذور[٦١] » .

ويبدو أن استعمال الكلمة ، بهذا المعنى فى مصر ، ترجع إلى فترة أقدم من عهد محمد على ؛ فقد عثرت عليها فى كتاب : « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » للمقدسى ، أحد علماء القرن الرابع الهجرى ؛ يقول فى حديثه عن دخل إقليم مصر : « يعمد الفلاح إلى الأرض ، فيأخذها من السلطان ويزرعها ، فإذا حصد ودرس وجمع ، رشمت بالعرام وتركت . ثم يخرج الخازن وأمين السلطان ، فيقطعون كرى الأرض ، ويعطى ما بقى للفلاح . وفيهم من يأخذ من السلطان **تقوية** ، فيزاد عليه فى كرى الأرض ، بقدار ما اقتطعه[٦٢] » .

٢ - **اللهجات** : فبعض هذه المعانى المجازية ، التى رويت لنا فى بعض الكلمات ، نشأت بالتأكيد فى بيئات مختلفة ، غير أن اللغويين لم يوضحوا لنا ، إلا فى النادر ، بيئة هذا المعنى أو ذاك . ومن البعيد أن يظن المرء أن هذه المعانى الكثيرة لكلمة : « العجوز » السابقة ، كانت تستخدم فى العربية فى بيئة واحدة . غير أننا لا نعدم إشارة هنا وهناك فى كتب اللغة ، إلى القبائل التى كانت تطلق الكلمة ، على هذا المعنى أو

---

(٦١) انظر : لغويات ، للشيخ محمد على النجار ٨٥

(٦٢) أحسن التقاسيم ٢١٢ وانظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٥٧ - ٣٥٨

ذاك ؛ فقد روى لنا أبو زيد مثلا ، أن قبيلة : « تميم » كانت تطلق كلمة : « الألفت » على الأعسر ، وهو الذى يعمل بيده اليسرى ، كأن فيه التفاتا من اليمنى إلى اليسرى . أما قبيلة « قيس » ، فكانت تطلق هذه الكلمة على الأحمق[٦٣] . ولعلها كانت تلحظ فيه التفاتا من الكَيْس إلى الحمق !

كما تطلق عامة العرب على الذئب : « السِّرْحان » و« السِّيد » ، وهاتان الكلمتان تطلقان عند هذيل على : « الأسد »[٦٤] .

وكذلك روى لنا الأصمعى ، أن عامة العرب ، كانت تطلق : « السليط » على الزيت . أما أهل اليمن ، فكانوا يطلقونه على دهن السمسم فقط[٦٥] . وهذا من تخصيص العام فى دلالة اللفظ ، وهو طريق من طرق تطور الدلالة ، فى اللغات المختلفة[٦٦] .

وقد وضع ابن السراج يده ، على هذا العامل ، من عوامل نشوء المشترك اللفظى فى اللغة ، فقال : « الذى يوجبه النظر ، على واضع كل لغة ، أن يخص كل معنى بلفظ ؛ لأن الأسماء إنما جعلت لتدل على المعانى ، فحقها أن تختلف ، كاختلاف المعانى ، ومحال أن يصطلح أهل اللغة ، على ما يلبس دون ما يوضح . وهذا ادعاء من ادّعى ، أنه ليس فى لغة العرب لفظتان متفقتان فى الحروف ، إلا لمعنى واحد ، لكنه أغفل أن الحىّ أو القبيلة ، ربما انفرد القوم منهم بلغة ، ليس سائر العرب عليها ، فيوافق اللفظ فى لغة قوم ، وهم يريدون معنى ، لفظ آخر من لغة آخرين ، وهم يريدون معنى آخر . ثم ربما اختلطت اللغات ، فاستعمل هؤلاء لغة هؤلاء ، وهؤلاء لغة هؤلاء . فأصل اللغة قد وضعت على بيان وإخلاص ، لكل معنى لفظ ينفرد به ، إلا أنه دخل اللبس ، من حيث لم يقصد[٦٧] » .

---

(٦٣) انظر : المزهر فى علوم اللغة ١/٣٨١

(٦٤) المنجد ، لكراع النمل ٦٣

(٦٥) المزهر فى علوم اللغة ١/٣٨١

(٦٦) انظر مقالتنا : التطور اللغوى وقوانينه ١٧٨ - ١٧٩ ودلالة الألفاظ ١٤٨

(٦٧) الاشتقاق لابن السراج ٣٣

٣ - **اقتراض الألفاظ من اللغات المختلفة** : إذ ربما كانت اللفظة المقترضة ، تشبه فى لفظها كلمة عربية ، لكنها ذات دلالة مختلفة ، كما لو تصورنا أن العربية ، استعارت من الألمانية ، كلمة : Kalb (كَلْب) بمعنى : « عجل » ، فتصبح كلمة : « كلب » فى العربية ، من كلمات المشترك اللفظى ، تدل على الكلب الذى نعرفه ، وعلى : العجل .

وقد حدث مثل هذا فى العربية القديمة ؛ ففيها أن : « السَّكْر نقيض الصحو » ، وفيها أيضا أن « كل شقّ سُدَّ ، فقد سُكِر ، والسَّكْر سدّ الشقّ[٦٨] » . والمعنى الأول عربى ، أما الثانى فهو معرب من الآرامية : ܣܟܪ sakkar . وقد فطن إلى هذا : شهاب الدين الخفاجى ، حين قال : « لا يضر المعرب كونه موافقا للفظ عربى ، كسَكَّرَ ، فإنه معرب ، وإن كان عربى المادة ، بمعنى : أغلق ؛ قال الله تعالى : سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا[٦٩] » .

وفى العربية الفصحى كذلك : « الحُبّ بمعنى : الوِدَاد ، وهو حُبّ الشىء » ، وفيها كذلك : « الحُبّ : الجَرّة التى يُجعل فيها الماء[٧٠] » . والمعنى الأول عربى أصيل ، أما الثانى ، فهو فيها مستعار من الفارسية ، لكلمة مماثلة تماما للفظ العربى[٧١] .

وفى العربية كذلك : « السُّور : حائط المدينة ، والسُّور : الضيافة[٧٢] » . والمعنى الأول عربى ، أما الثانى فهو لكلمة فارسية ، شرفها النبى ﷺ (كما قال صاحب القاموس) حين نطق بها ، فى قوله عليه الصلاة والسلام : « يا أهل الخندق ، قوموا فقد صنع جابر سُوراً . قال أبو العباس ثعلب : إنما يراد من هذا ، أن النبى ﷺ تكلم بالفارسية .

---

(٦٨) لسان العرب (سكر) ٤٠/٦

(٦٩) شفاء الغليل ٨

(٧٠) انظر : القاموس المحيط (حبب) ٥١/١ وشفاء الغليل ٦٨

(٧١) انظر : المعرب للجواليقى ١٢٠

(٧٢) القاموس المحيط (سور) ٥٣/٢

صنع سورا ، أى طعاماً دعا إليه الناس[٧٣] » .

٤ – **التطور اللغوى** : فقد تكون هناك كلمتان ، كانتا فى الأصل مختلفتى الصورة والمعنى ، ثم حدث تطور فى بعض أصوات إحداها ، فاتفقت لذلك مع الأخرى فى أصواتها . وهكذا أصبحت الصورة التى اتحدت أخيرا ، مختلفة المعنى ، أى صارت لفظة واحدة ، مشتركة بين معنيين أو أكثر .

مثال ذلك ما روى لنا ، من أن « مَرَدَ : أقدم وعتا ، ومَرَدَ الخبز : لَيَّنَهُ بالماء[٧٤] » . وأصل الكلمة بالمعنى الثانى هو : « مَرَثَ » ؛ ففى المعاجم : « مرث الشيء فى الماء : أنقعه فيه حتى صار مثل الحساء » ؛ فقد أبدل صوت الثاء هنا تاء ، فصارت الكلمة : « مَرَتَ » ، وهذه رويت لنا كذلك[٧٥] ، ثم جهرت التاء لمجاورتها للراء ، فصارت : « مَرَدَ » ، وبذلك ماثلت كلمة : « مَرَدَ » بمعنى : أقدم وعتا .

ومثال ذلك أيضا ما فى المعاجم ، من قولها : « الفَرْوَة : جلدة الرأس والغِنَى[٧٦] » . وأصل الكلمة بالمعنى الثانى ، هو : « الثروة » ، أبدلت الثاء فاء ، على طريقة العربية ، فى مثل : « جدث » و« جدف » و« حثالة » و« حفالة » وما أشبه ذلك .

ومثال ذلك أيضا ، من أن : دَعَمَ الشيء : قَوَّاه ، ودَعَمَه : دفعه وطعنه ورماه بشيء[٧٧] . وأصل الكلمة بالمعنى الثانى ، هو : « دَحَمَ[٧٨] » بالحاء ؛ فقد تطورت هذه الحاء ، وجهرت ؛ بسبب مجاورتها للدال المجهورة ، فقلبت إلى نظيرها المجهور ، وهو العين ؛ فصارت : « دعم » ،

---

(٧٣) المعرب للجواليقى ١٩٢

(٧٤) القاموس المحيط (مرد) ٣٣٧/١ واللسان (مرد) ٤٠٧/٤

(٧٥) انظر : الإبدال لأبى الطيب ١٥٩/١

(٧٦) القاموس المحيط (فروة) ٣٧٣/٤ والمأثور عن أبى العميثل ٧ – ٨

(٧٧) انظر : القاموس المحيط (دعم) ١١٢/٤ واللسان (دعم) ٩٢/١٥

(٧٨) انظر : الإبدال ، لأبى الطيب ٢٩٤/١

والتبست لذلك بكلمة : « دَعَمَ » ، بمعنى : قَوَّى ، فنشأ الاشتراك اللفظى فى هذه الكلمة .

ومن الأمثلة كذلك ، ما روته المعاجم ، من أن « حَنَك الغراب » هو باطن أعلى الفم من داخل ، و« حَنَك الغراب » هو شدة سواده[٧٩] ، فإنه مما لا شك فيه ، أن « الحنك » بالمعنى الثانى ، متطورة عن : « الحَلَكَ » بمعنى : شدة السواد ؛ قلبت فيها اللام نونا ، كما أبدلت فى مثل : إسماعيل وإسماعين ، وإسرائيل وإسرائين ، وجبريل وجبرين ، وغير ذلك[٨٠] .

ويحدثنا « أولمان » عن أثر التطور اللغوى ، فى نشوء بعض المشترك اللفظى ،فى الإنجليزية ، فيقول : « والمشترك اللفظى ينشأ من اتفاق كلمتين مستقلتين ، أو أكثر فى الصيغة ، اتفاقا بطريق الصدفة . وعلى هذا ليس هناك أقل من أربع كلمات تمثلها الصيغة : sound فى اللغة الإنجليزية ، فهذه الكلمات الأربع ، بعد أن اشتقت من أصول مختلفة ، أخذت تتقارب بعضها من بعض فى الصيغة ، حتى اتحدت وتماثلت ؛ فالكلمة : sound بمعنى : healthy (صحيح البدن) ، كلمة جرمانية قديمة ، وهناك ما يقابلها بالفعل فى تلك اللغة ، وهى الكلمة : Gesund التى لا تزال تؤدى المعنى نفسه . أما sound بمعنى : (صوت) ، فإنها ترجع إلى الكلمة الفرنسية : son وما العنصر : (d) إلا تطور متأخر الحدوث . و sound بمعنى : (سَبَرَ الغَوْرَ) امتداد للفعل الفرنسى : sonder . وربما تكون هناك علاقة تاريخية ، بين هذه الكلمة الفرنسية ، والكلمة : sound الرابعة ، التى تعنى : (مضيق الماء) ، والتى توجد فى لغات جرمانية متعددة[٨١] » .

---

(٧٩) انظر : القاموس المحيط (حنك) ٣/٣٠٠ والمنجد ، لكراع النمل ٤٠

(٨٠) انظر : الإبدال ، لأبى الطيب ٢/٤٠٢

(٨١) دور الكلمة فى اللغة ١٢٧

هذه هى بعض الأمثلة ، التى تدلل على ما يذهب إليه المحدثون ، من أن الاشتراك اللفظى فى اللغة ، قد ينشأ من تطور صوتى فى بعض الكلمات .

* * *

والمشترك اللفظى ، لا وجود له فى واقع الأمر ، إلا فى معجم لغة من اللغات ، أما فى نصوص هذه اللغة واستعمالاتها ، فلا وجود إلا لمعنى واحد ، من معانى هذا المشترك اللفظى . وفى ذلك يقول أولمان : « كثير من كلماتنا له أكثر من معنى ، غير أن المألوف هو استعمال معنى واحد فقط ، من هذه المعانى فى السياق المعين ؛ فالفعل : (أدرك) مثلا ، إذا انتزع من مكانه فى النظم ، يصبح غامضا غير محدد المعنى ، هل معناه : (لحق به) أو (عاصره) ، أو أنه يعنى : (رأى) أو (بلغ الحُلُم) ؟ إنه التركيب الحقيقى المنطوق بالفعل ، هو وحده الذى يمكنه أن يجيب عن هذا السؤال ؛ فإذا تصادف أن اتفقت كلمتان أو أكثر ، فى أصواتها اتفاقا تاما ، فإن مثل هذه الكلمات ، لا يكون لها معنى البتة ، دون السياق الذى تقع فيه[٨٢] » .

وإلى مثل هذا أيضا ، يذهب فندريس ؛ فيقول : « إننا حينما نقول بأن لإحدى الكلمات ، أكثر من معنى واحد (homonymie) فى وقت واحد ، نكون ضحايا الانخداع إلى حدّ ما ؛ إذ لا يطفو فى الشعور من المعانى المختلفة ، التى تدل عليها إحدى الكلمات ، إلا المعنى الذى يعنيه سياق النص ، أما المعانى الأخرى ، فتمّحى وتتبدّد ولا توجد إطلاقا ؛ فنحن فى الحقيقة نستعمل ثلاثة أفعال مختلفة ، عندما نقول : (الخياط يقصّ الثوب) أو (الخبر الذى يقصّه الغلام صحيح) أو (البدوى خير من يقصّ الأثر) ، فإننا نستعمل فى الواقع ثلاث كلمات ، لا يربطها بعضها ببعض أى رباط ، لا فى ذهن المتكلم ، ولا فى ذهن السامع .

---

(٨٢) دور الكلمة فى اللغة ٥٤

« وربما رأى الشخص ، الذى يشمل اللغة بأسرها ، فى تطورها واتساعها ، بنظرة واحدة ، أن (الريشة) التى من حديد ، جاءت من ريشة الأوزّة ، فهى عنده كلمة واحدة ، أخذت دلالتين مختلفتين على مرور الزمن ؛ لذلك يجدر بقاموس يفخر بتتبعه لخط سير المعانى ، أن يضع تحت كلمة : ريشة ، معنى الريشة التى من (حديد) بعد معنى ريشة (الأوزّة) . ولكن الفرنسى الذى يتكلم لغته اليوم ، لا يرى فى هذين الاستعمالين فى الواقع ، إلا كلمتين مختلفتين ، ولا يوجد شخص واحد ، يحاول أن يشكو من الغموض ، عند سماعه جملتين من قبيل : (يعيش من كدّ ريشته) و (اجتثّ له ريشة) ، وكل واحد يفهم دون تردد ، أن الكلام فى الجملة الأولى ، عن أحد الكتّاب ، وفى الثانية عن أحد الطيور ، فالكلمتان مختلفتان كجميع المشتركات الأخرى . وفى اللغة كلمتان من : (ريشة) تقابلان المعنيين السابقين[٨٣] » .

* * *

وقد أدّت كثرة المشترك اللفظى فى العربية ، إلى ذيوع ظاهرة « التورية » فيها ، وهى عبارة عن استخدام الألفاظ المشتركة ، فى معان غير متبادرة منها . وكذلك استخدمه بعض الناس ، حيلة للخروج من اليمين المكره عليها ؛ فقد ظن هؤلاء إذا أقسموا يمينا على شىء ، أنهم يرضون ضمائرهم بالقصد إلى معنى ، غير ما يفهمه السامع ، فإذا قال إنسان : والله ما سألت فلانا حاجة قط ، فإنه يقصد فى نفسه من لفظ : « حاجة » ، معنى آخر غير الشائع لهذه اللفظة . و « الحاجة » ضرب من الشجر له شوك ، وهذا هو المعنى الغامض ، الذى يقصد إليه الحالف هنا . وقد ألّف ابن دريد كتابه : « الملاحن » لهذا الغرض ، وجمع فيه نحوا من أربعمائة كلمة ، من كلمات الحيل فى القسم ، من المشترك اللفظى فى العربية[٨٤] .

---

(٨٣) اللغة لفندريس ٢٢٨

(٨٤) انظر : لحن العامة والتطور اللغوى ٧٨

كما أفاد من ظاهرة المشترك اللفظي كذلك ، بعض علماء اللغة ، الذين ألّفوا فى المشجَّر والمُداخَل والمُسلْسَل ، كما عرفنا من قبل .

* * *

ثالثا : التضاد

التضاد : « نوع من العلاقة بين المعانى ، بل ربما كانت أقرب إلى الذهن ، من أية علاقة أخرى ، فمجرد ذكر معنى من المعانى ، يدعو ضد هذا المعنى إلى الذهن ، ولا سيما بين الألوان ؛ فذكر البياض يستحضر فى الذهن السواد ، فعلاقة الضدّية من أوضح الأشياء فى تداعى المعانى ، فإذا جاز أن تعبر الكلمة الواحدة ، عن معنيين بينهما علاقة ما ، فمن باب أولى جواز تعبيرها عن معنيين متضادّين ؛ لأن استحضار أحدهما فى الذهن ، يستتبع عادة استحضار الآخر ؛ فالتضاد فرع من المشترك اللفظى[٨٥] » .

ويقول أبو الطيب اللغوى فى تعريف الأضداد : « الأضداد جمع ضد ، وضد كل شيء ما نافاه ، نحو : البياض والسواد ، والسخاء والبخل ، والشجاعة والجبن . وليس كل ما خالف الشيء ضدّاً له ؛ ألا ترى أن القوة والجهل مختلفان ، وليسا ضدين ، وإنما ضد القوة الضعف ، وضد الجهل العلم ، فالاختلاف أعم من التضاد ؛ إذ كان كل متضادين مختلفين ؛ وليس كل مختلفين ضدين[٨٦] » .

وممن أنكر الأضداد ، وألف فى ذلك كتابا هو : « ابن درستويه » ، الذى عرفناه من قبل ، منكرا للترادف والاشتراك اللفظى ؛ فقد قال ابن درستويه فى شرح الفصيح : « النَّوء الارتفاع بمشقة وثقل ، ومنه قيل للكوكب : قد ناء إذا طلع ، وزعم قوم من اللغويين أن النوء السقوط أيضا ،

---

(٨٥) فى اللهجات العربية ٢٠٧

(٨٦) الأضداد لأبى الطيب ١/١

وأنه من الأضداد ، وقد أوضحنا الحجة عليهم فى ذلك ، فى كتابنا فى إبطال الأضداد[٨٧] » .

كما روى ابن سيدة الأندلسى ، أن أحد شيوخ أبى على الفارسى ، كان كذلك « ينكر الأضداد التى حكاها أهل اللغة ، وأن تكون لفظة واحدة لشيء وضده[٨٨] » .

كما يقول الجواليقى : « المحققون من علماء العربية ، ينكرون الأضداد ، ويدفعونها . قال أبو العباس أحمد بن يحيى (ثعلب) : ليس فى الكلام ضدّ . قال : لأنه لو كان فيه ضد ، لكان الكلام محالا ؛ لأنه لا يكون الأبيض أسود ، ولا الأسود أبيض . وكلام العرب وإن اختلف اللفظ ، فالمعنى يرجع إلى أصل واحد ، فالصارخ المستغيث والصارخ المغيث ؛ لأنه صراخ منهما ... والقُرْء الوقت ، فاحتمل أن يكون للحيض والطهر[٨٩] » .

ويرى ابن دريد أن الأضداد ، لا تكون كذلك إلا فى لغة واحدة ؛ إذ يقول : الشعب : الافتراق ، والشعب : الاجتماع ، وليس من الأضداد ، إنما هى لغة لقوم[٩٠] » . وقد أفاد بهذا « أن شرط الأضداد ، أن يكون استعمال اللفظ فى المعنيين ، فى لغة واحدة[٩١] »

ويذهب أنصار هذا الرأى الأخير ، إلى أن التضاد فى المعانى ، ينشأ أولا فى لهجات مختلفة ، ثم تستعير كل لهجة المعنى المستعمل عند الأخرى ، وبذلك يجتمع المعنيان المتضادان فى هذه اللهجة ، عن طريق تلك الاستعارة ، ويقولون : « إذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فمحال

---

(٨٧) المزهر فى علوم اللغة ٣٩٦/١

(٨٨) المخصص ٢٥٩/١٣

(٨٩) شرح أدب الكاتب ٢٥١

(٩٠) جمهرة اللغة ٢٩١/١ وسمط اللآلى ١٨٩/١

(٩١) المزهر فى علوم اللغة ٣٩٦/١

أن يكون العربي ، أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ، ولكن أحد المعنيين لحي من العرب ، والمعنى الآخر لحي غيره ، ثم سمع بعضهم لغة بعض ، فأخذ هؤلاء عن هؤلاء ، وهؤلاء عن هؤلاء ؛ قالوا : فالجون الأبيض ، فى لغة حيّ من العرب ، والجون الأسود فى لغة حيّ آخر ، ثم أخذ أحد الفريقين من الآخر[٩٢] » .

ومن الطبيعي أن الكلمة من كلمات الأضداد ، لم توضع للمعنيين المتضادين فى أول الأمر ، وإنما وضعت لأحدهما ، ثم جدّت عوامل مختلفة ، أدت إلى نشأة المعنى الثانى المضاد للمعنى الأول . وقد فطن إلى ذلك بعض علماء اللغة ؛ فقالوا : « إذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع[٩٣] » .

وقد وقف القالى ، على المعانى الأصلية لبعض الكلمات ، فأنكر لذلك كونها من الأضداد ، وقال : « الصريم : الصبح ؛ سمى بذلك لأنه انصرم عن الليل . والصريم : الليل ؛ لأنه انصرم عن النهار ، وليس هو عندنا ضدّاً[٩٤] » ، وقال كذلك : « النطفة : الماء ، تقع على القليل منه والكثير ، وليس بضدّ[٩٥] » .

ولم تسلم العربية من هجوم الشعوبيين عليها ، بسبب ما فيها من الأضداد[٩٦] ؛ إذ ظن « أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب ، أن ذلك

---

(٩٢) الأضداد لابن الانبارى ١١

(٩٣) الأضداد لابن الأنبارى ٨

(٩٤) أمالى القالى ٣٢٢/٢ وانظر : المزهر ٣٩٧/١

(٩٥) أمالى القالى ٢٧٠/٢ وانظر : المزهر ٣٩٧/١

(٩٦) لا وجود لهذه الظاهرة ، فيما أعلم ، فى غير اللغة العربية من اللغات الأخرى ؛ ولهذا نرى الشعوبيين ، يعيبون العربية بما فيها من كلمات الأضداد ؛ لانفرادها بهذه الظاهرة ، وهم لم يتحدثوا عما فيها من ترادف واشتراك لفظى ، بخير أو شر ؛ لأن لغاتهم الفارسية وغيرها ، لا تخلو من أمثلة لهاتين الظاهرتين . وقد حاول الدكتور ربحى كمال ، العثور على بعض أمثلة للتضاد فى العبرية والسريانية ، وتكلف لذلك غاية التكلف ، فى كتابه : « التضاد فى ضوء اللغات السامية » ؛ فليس فى أمثلته مثال واحد ، يثبت للنقد . وقد أحس هو بذلك ؛ فقال (ص ٤١) : « وهذه الألفاظ يمكن تأويلها على وجه ، يخرجها من باب الأضداد » !

كان منهم ، لنقصان حكمتهم وقلة بلاغتهم ، وكثرة الالتباس فى محاوراتهم ، وعند اتصال مخاطباتهم[٩٧] » .

غير أن هذا « رأى باطل ، لا يرجع إلى حقيقة أو صواب ، بل يرجع إلى حقد وضغينة على العرب ، فى نفوس هؤلاء الشعوبيين من غير العرب ؛ لأن مردّ الأمر فى مسألة الأضداد فى اللغة ، إلى سياق الكلام ، وتعلق أوله بآخره ، وإلى قرائن الحال ، التى يكون فيها الناس أثناء التخاطب[٩٨] » .

وما درى هؤلاء أن « كلام العرب يصحح بعضه بعضا ، ويرتبط أوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطاب منه ، إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه ، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين ؛ لأنها يتقدمها ، ويأتى بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ، ولا يراد بها فى حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد[٩٩] »

غير أننا لا نود أن ننساق وراء المؤلفين فى الأضداد ، من اللغويين العرب ، فنعدّ كل ما أتوا به من كلمات هذه الظاهرة صحيحا ، فإننا مثلا لا نرى شيئا من التضاد فى استعمال كلمة : « الضِّعْف » بمعنى : المِثْل أو المثلين (ابن الأنبارى ١٣١) ، أو استعمال كلمة : « المِثْل » بمعنى : المماثل أو الضِّعف (ابن الأنبارى ١٣٢) ، أو استعمال : « الكأس » بمعنى : الإناء أو الشراب الذى يوضع فيه (ابن الأنبارى ١٦٢) ، أو استعمال : « الأحفاض » بمعنى : الأمتعة أو الإبل التى تحمل هذه الأمتعة[١٠٠] (ابن الأنبارى ١٦٢) ، أو استعمال : « الظعينة » بمعنى :

---

(٩٧) الأضداد لابن الأنبارى١ وانظر : المزهر ٣٩٧/١

(٩٨) مقدمة الدكتور عزة حسن لتحقيق أضداد أبى الطيب اللغوى ٢٠

(٩٩) الأضداد ، لابن الأنبارى ٧ وانظر : المزهر ٣٩٧/١

(١٠٠) وضعها أبو الطيب اللغوى فى الأضداد ٧١١/٢ ؛ ٧١٤/٢ فى باب بعنوان : « ما جاء مسمى باسم غيره لما كان من سببه ، فأدخله من كان قبلنا فى الأضداد » .

الهودج أو المرأة فى الهودج (ابن الأنبارى ١٦٤) ، أو استعمال : « الراوية » بمعنى : المزادة أو البعير الذى يحملها (ابن الأنبارى ١٦٤) ، أو استعمال : « المعصر » للجارية التى دنت من الحيض عند قيس ، أو التى ولدت أو تعنست عند الأزد (ابن الأنبارى ٢١٦) ، أو استعمال : « طبخ » للطبخ فى القدر أو الشوى فى التَّنُّور (ابن الأنبارى ٢٨٩ وأبو الطيب ١/٤٦٢) . ومثل ذلك كثير فى كتب الأضداد ، وبعضه فى الحقيقة من باب : المشترك اللفظى ، لا من باب الأضداد .

كما أننا نشترط اتحاد الكلمة ومتعلقاتها فى المعنيين ؛ لأن أى تغيير فيها ، أو فى متعلقاتها ، يخرجها عن كونها بذاتها تحتمل المعنيين المتضادين ، فلا نعدّ لذلك : « ظاهر عنك » بمعنى : زائل ، و« ظاهر عليك » بمعنى : لازم (ابن الأنبارى ٥٦) من كلمات الأضداد ، كما أنه ليس من الأضداد كذلك : « راغ على » بمعنى : أقبل ، و« راغ عن » بمعنى : ولّى (قطرب ٢١٨ وابن الأنبارى ١٥٣ وأبو الطيب ١/٣٢٨) ، وليس منها : « تَرِبَ الرجل » بمعنى : افتقر ، و« أترب » بمعنى : استغنى (قطرب ٢٦٧) . وقد أحسن ابن الأنبارى (٣٨٠) إذ قال : « وهذا عندى ليس من الأضداد ؛ لأن تَرِب يخالف أترب ، فلا يكون ترب من الأضداد ؛ لأنه لا يقع إلا على معنى واحد » . ومثال ذلك أيضا دعوى « قطرب » أن « ثللت » بمعنى : أفسدت وهدمت ، و« أثللت » بمعنى : أصلحت ، من الأضداد (قطرب ٢٦٨) ؛ فقد قال فيه ابن الأنبارى (٣٨٧) : « ليس عندى كما قال قطرب ؛ إذ كان ثللت يخالف أثللت ، فلا يجوز أن يعدّ فى الأضداد حرف ، لا يقع إلا على معنى واحد » .

ومن دعاوى قطرب (٢٥٥) كذلك : « خَذِمَت » النعلُ : انقطعت عُروتها ، وشسعها ، و« أخذمتُ » النعلَ : أصلحتُ عُروتها وشسعها .

وقد صرح أبو الطيب اللغوى مرة بأن « شرط الأضداد أن تكون

الكلمة بعينها ، تستعمل فى معنيين متضادين ، من غير تغيير يدخل عليها » (أبو الطيب ١/٤٥٥) وقال مرة أخرى (٢/٥٧٨) : « ليس هذا عندى من الأضداد ؛ لأن شرط الأضداد على ما أصّلنا أوّلا ، أن تكون الكلمة الواحدة ، تنبىء عن معنيين متضادين ، من غير تغيير يدخل عليها ، ولا اختلاف فى تصرفها » .

كما أننا لا نعد من كلمات الأضداد ، ما ترك اللغويون العرب الاستشهاد على أحد معنييه ؛ لأنه لم يثبت فى كلام العرب أنه استعمل بهذا المعنى ؛ مثل قولهم : إن « قَسَطَ » تعنى : عَدَلَ أو جار (قطرب ٢٥٩ وابن الأنبارى ٥٨ وأبو الطيب ٢/٥٩٤) ، فالمعنى الأول لا دليل عليه ، أما الثانى فقد ورد فى قوله تعالى : « وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّم حَطَباً » .

كذلك نستبعد من كلمات الأضداد ، تلك التى صحّفها اللغويون أو حرّفوها ؛ ففى الأضداد لابن الأنبارى (٦٣) : « وقال بعض العرب : بَرَّدْتُ من الأضداد ، يقال : بَرَّد الشيء على المعنى المعروف ، ويقال : بَرَّد الشيء إذا أسخنه ، واحتجوُّا بقول الشاعر :

عَافَتِ الشُّرْبَ فى الشِّتَـــاءِ فَقُلْنَـــا
بَرِّدِيـــهِ تُصَادِفِيـــهِ سَخِينَـــا »

ولا شك أن هذا تحريف لعبارة : « بل رديه » ؛ فقد قال ابن الأنبارى تعليقا على ذلك : « قال أبو بكر : وحكى لى بعض أصحابنا عن أبى العباس ، أنه كان يقول فى تفسير هذا البيت : بل رديه من الورود ، فأدغم اللام فى الراء ، فصارتا راء مشدّدة » (ابن الأنبارى ٦٤) .

وقال أبو الطيب (١/٨٦) فى التعليق على البيت : « قال قطرب : معنى بَرِّديه فى هذا البيت : سخنيه[١٠١] . وقال أبو حاتم : هذا خطأ ، إنما

---

(١٠١) الأضداد لقطرب ٢٥٨

هو : بل رديه ، من الورود ، ولكنه أدغم اللام فى الراء ، كما يقرأ : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىَ قلُوبِهِم . قال أبو الطيب : وهذا الصحيح ، وبه يستقيم معنى البيت » .

ومن التصحيف قول أبى الطيب اللغوى (١/٣٨٣) : « يقال : أَشْدَفَ الليل ، إذا أظلم ، وأَشْدَفَ الصُّبح ، إذا أضاء[١٠٢] » ، فإنه مما لا شك فيه أن هذا تصحيف لكلمة : « أَسْدَفَ » و« السُّدْفة » بمعنى : الظلمة والضوء (انظر : ابن الأنبارى ١١٤ وأبو الطيب ١/٣٤٦) .

ويبقى بعد هذا مجموعة صالحة من كلمات الأضداد فى العربية ، ولا شك فى أن الأصل فيها كلها ، دلالتها على معنى واحد ، غير أن هناك عوامل كثيرة ، أدت إلى التضاد فيها .

وفيما يلى عرض لهذه العوامل ، وتطبيقها على بعض كلمات الأضداد ، مع ملاحظة أن التطور فى المعنى الأصلى للكلمة ، أو فى صورتها على نحو يؤدى إلى التضاد فيها ، قد يحدث فى لهجة من اللهجات العربية ، ويروى لنا ذلك على أنه من خصائص تلك اللهجة[١٠٣] ، وقد تستعيره اللغة المشتركة ، ويعيش فيها جنبا إلى جنب مع المعنى الأصلى ، وحينئذ لا يروى لنا اللغويون شيئا عن اللهجة ، التى تم فيها مثل هذا التطور ، بل قد يحدث أن تعرّب كلمة من الكلمات الأعجمية ، فيخصص معناها عند قبيلة معينة ، ويسير هذا التخصيص فى اتجاه مضاد عند قبيلة أخرى ، وأخيراً فمن يدرى لعل بعض الأمثلة قد تمّ فيها التطور ، فى داخل العربية الفصحى نفسها ، بتأثير أحد العوامل التالية :

١ – **عموم المعنى الأصلى** : قد يكون المعنى الأصلى للكلمة عاما ، ثم يتخصص هذا المعنى فى لهجة من اللهجات ، كما يتخصص

---

(١٠٢) وانظر كذلك : مجالس ثعلب ١/٢١٤ ؛ ٢/٣٥٢

(١٠٣) انظر لبعض كلمات الأضداد فى اللهجات العربية القديمة كتاب : « الأضداد فى اللغة » لمحمد حسين آل ياسين ١٢٤ – ١٢٦

فى اتجاه مضاد فى لهجة أخرى . ويمكن تطبيق هذا العامل على الكلمات التالية :

(أ) كلمة : « الذفر » تذكرها كتب الأضداد ، بمعنى : الريح الطيبة ، والريح المنتنة (أبو الطيب ٢٧٧/١) . ويقول قطرب (٢٦٢) : « الذَّفَر : المِسْك ... ويقال لنَتْن الإبط : الذَّفر ، فكأنه ضد » . ويبدو أن المعنى الأصلى للكلمة هو : « الريح » وهو أعم من الريح الطيب والخبيث . وقد فطن إلى هذا ابن الأنبارى (٨٨) فقال : « الذفر : حِدَّة الريح فى الطيب والنتن جميعا » .

(ب) كلمة : « الطرب » معناها فى كتب الأضداد : الفرح والحزن (ابن الأنبارى ١٠٢) . والأصل فى هذا المعنى : « خفة تصيب الرجل ، لشدة السرور ، أو لشدة الجزع[١٠٤] » . وقد قال ابن الأنبارى : « الطرب ليس هو الفرح ولا الحزن ، وإنما هو خفة تلحق الإنسان ، فى وقت فرحه وحزنه » (ابن الأنبارى ١٠٣) .

(ج) المأتم : عدَّها أبو حاتم وقطرب من الأضداد ؛ لأنها تدل عندهما على النساء المجتمعات فى فرح وسرور ، كما تدل على النساء المجتمعات فى غم وحزن ومناحة (قطرب ٢٧٠ وابن الأنبارى ١٠٣ وأبو الطيب ١٨/١) . والأصل فى ذلك عموم المعنى ، فالمأتم النساء يجتمعن فى الخير والشر (انظر : أدب الكاتب ٢٤ والأضداد لابن الأنبارى ١٠٤ والأضداد لأبى الطيب ٢١/١) .

(د) القَلْت : هذه الكلمة تعنى فى لغة قيس وتميم وأسد : النقرة الصغيرة فى السهل أو الجبل ، وفى الصخرة ونحوها . أما أهل الحجاز ، فيطلقون هذه الكلمة ، على مستنقع ماء فى السهل أو فى الجبل ، واسع يمكن أن يغرق فيه الفيل (ابن الأنبارى ٤٢٠ وأبو الطيب ٥٨٧/٢) . ولا

---

(١٠٤) أدب الكاتب ، لابن قتيبة ٧٣

شك فى أن المعنى الأصلى لهذه الكلمة هو : حفرة الماء ، كبيرة كانت أم صغيرة .

(هـ) السُّدفة : يذكر اللغويون أن تميما تطلق هذه الكلمة على الظلمة ، ولكن قيسا تطلقها على الضوء (ابن الأنبارى ١١٤ وأبو الطيب ١/٣٤٦) . ومعنى هذه الكلمة فى الأصل عام « لأن أصل السُّدْفة : السِّتْر ، فكأن النهار إذا أقبل ، ستر ضوءُه ظلمة الليل ، وكأن الليل إذا أقبل ، سترت ظلمته ضوء النهار » (ابن الأنبارى ٩ والمزهر ١/٣٨٩ ؛ ١/٤٠١) .

(و) الصَّرِيم : تطلق هذه الكلمة على الليل ، كما تطلق على النهار (قطرب ٢٦٦ وابن الأنبارى ٨٤ وأبو الطيب ١/٤٢٦) . ويقول أبو حاتم : « الصريم : الليل إذا انصرم من النهار . والصريم : النهار إذا انصرم من الليل (أبو الطيب ١/٤٢٦) . وإذا كان الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل « فأصل المعنيين من باب واحد ، وهو القطع » (انظر أضداد ابن الأنبارى ٨ والمزهر ١/٤٠١) .

(ز) الصارخ : معناه فى اللغة : المغيث والمستغيث (قطرب ٢٧٣ وابن الأنبارى ٨٠ وأبو الطيب ١/٤٢٩) . والمعنى العام فى كل من المعنيين هو الصراخ ؛ « لأن المغيث يصرخ بالإغاثة ، والمستغيث يصرخ بالاستغاثة ، فأصلهما من باب واحد » (ابن الأنبارى ٨ والمزهر ١/٤٠١) .

(ح) الجَوْن : معناه الأسود فى لغة قضاعة ، والأبيض فى لغة غيرهم (قطرب ٢٥٦ وابن الأنبارى ١١١ وأبو الطيب ١/١٥١) . وهذه الكلمة معربة عن الفارسية ، وهى فيها بمعنى : « اللون » . وقد عربت هذه الكلمة بمعناها الأصلى فى كلمة : « زرجون » بمعنى : الخمر ، « وقال السيرافى : زرجون فارسى معرب ، شبه لونها بلون الذهب ؛ لأن (زَرْ) بالفارسية :

الذهب ، و(جون) : اللون ، وهم مما يعكسون المضاف والمضاف إليه ، عن وضع العرب[١٠٥] » .

وقد ذهب الدكتور على عبد الواحد وافى ، فى هذه الكلمة إلى مثل ما ذهبنا إليه ، من أنها معربة من الفارسية ، ثم نقل عن الأب مرمرجى الدومنكى أن « هذه الكلمة من السريانية : ܓܘܢܐ gawnā ومعناها : (اللون) من باب الإطلاق ، فنقلت إلى العربية بطريق التقييد ، فجاءت عند قبيل بدلالة اللون الأبيض ، وعند فريق بفحوى اللون الأسود[١٠٦] » .

(ط) الجَبْر : معناه فى العربية : الملك والعبد . وهو فى الأصل معرب عن الآرامية : ܓܒܪܐ gabrā بمعنى : « رَجُل » ، وهم أعم من الملك والعبد !

٣ – **التفاؤل** : التفاؤل والتشاؤم من غرائز الإنسان ، التى تسيطر على عاداته فى التعبير إلى حد كبير ، فإذا شاء المرء التعبير عن معنى سيىء ، تشاءم من ذكرالكلمة الخاصة به ، وفر منها إلى غيرها ، فجميع الكلمات التى تعبّر عن الموت والأمراض والمصائب والكوارث ، يفر منها الإنسان ، ويكنى عنها بكلمات حسنة المعنى ، قريبة إلى الخير[١٠٧] .

وهذه الظاهرة هى ما يطلق عليه اسم : « اللّامساس » أو : « الحَظْر » وهو ترجمة لكلمة : taboo ، وتطلق على كل ما هو مقدّس ، أو ملعون يحرم لمسه ، أو الاقتراب منه ، من الأشياء وأسمائها ؛ بسبب الاعتقاد الخرافى فى سحر الكلمة « فإذا اصطدمت كلمة ما بحظر الاستعمال ، تحت تأثير عامل اللامساس ، حلّت محلها كلمة أخرى ، خالية من فكرة الضرر والأذى . وهذه العادة ليست مقصورة بحال

---

(١٠٥) لسان العرب (زرجن) ٥٧/١٧ وانظر : دراسات فى فقه اللغة العربية ، للدكتور السيد يعقوب بكر ١٤٦ – ١٤٧

(١٠٦) انظر : فقه اللغة ، للدكتور على عبد الواحد وافى ١٩٠

(١٠٧) فى اللهجات العربية ٢٠٨

من الأحوال على المجتمعات البدائية ؛ فهى معروفة فى كل البيئات ، وفى كل أنواع الحضارات بمستوياتها المختلفة . وتحريم استعمال الكلمات بتأثير فكرة اللامساس ، نتيجة طبيعية للخرافات اللغوية ، وأثر من آثار الاعتقاد فى سحر الكلمة(١٠٨) » .

ونحن نعرف فى الديانة اليهودية ، أن كلمة : יְהוָה « يهوه » فى العبرية ، بمعنى : « الإله » ، ينطقها اليهود : « أذوناى » بمعنى : « سادتى » ؛ بسبب الخوف الذى يسيطر عليهم ، لارتباط الاسم القديم بالكوارث واللعنات ، التى حلّت عليهم خلال تاريخهم الطويل(١٠٩) .

« وهناك عادات مماثلة ، نلحظها فى المأثورات الشعبية ، لكثير من الأجناس والأمم ؛ ففى بلاد المجر فى العصور الوسطى ، كان الأطفال يسمون أحيانا بأسماء وقائية ، كأن يُدعى الواحد منهم « بالموت الصغير » أو «ليس حيا » أو « القذارة » و« الوسخ » ؛ وذلك لصرف الأرواح الشريرة عن هذه المخلوقات ... وعندنا نحن من العادات الخرافية والخزعبلات ، ما يعكس هذه الرهبة العميقة الجذور : رهبة تأثير الكلمة وسحرها العجيب(١١٠) » .

وهذا هو السر فى أننا نقول مثلا : « فلان بعافية » للشخص المريض ؛ تجنبا لذكر كلمة : المرض ، كما نسمى « الحمّى » : « المبروكة » ، ونقول : « يانهار اسْوِخْ » أو : « يا نهار احْوِسْ » ، فراراً من ذكر كلمة : « أسود » وغير ذلك .

وعلى هذا النحو ، يمكننا تفسير كلمات الأضداد التالية ، فى اللغة العربية :

(أ) المفازة : معناها فى العربية : المنجاة والمهلكة . واشتقاق

---

(١٠٨) دور الكلمة فى اللغة ١٧٧

(١٠٩) انظر : اللغة العبرية ، للدكتور رمضان عبد التواب ٧٥

(١١٠) دور الكلمة فى اللغة ١٧٨

الكلمة من : « الفوز » يؤكد أصالة المعنى الأول ، أما إطلاقها على المعنى الثانى ، فهو على سبيل التفاؤل . وقد فطن إلى هذا علماؤنا الأقدمون ؛ فقال أبو حاتم السجستانى : « وإنما قيل للعطشان : ناهل ، على سبيل التفاؤل ، كما يقال : المفازة ، للمهلكة ، على التفاؤل ، ويقال للعطشان : ياريّان ، وللملدوغ : سليم ، أى سيسلم ، وسيَرْوَى ، ونحو ذلك » (الأضداد لأبى حاتم ٩٩) .

كما قال ابن الأنبارى : « واختلف الناس فى اعتلال لها : لم سميت مفازة على معنى المهلكة ، وهى مأخوذة من الفوز ؟ قال الأصمعى وأبو عبيد وغيرهما : سميت مفازة على جهة التفاؤل لمن دخلها بالفوز ، كما قيل للأسود : أبو البيضاء ، وقيل للعطشان : ريّان » (ابن الأنبارى ١٠٥) .

(ب) السليم : يطلق فى العربية على الصحيح وعلى اللديغ . واشتقاقه من السلامة يؤكد أصالة المعنى الأول . أما إطلاقه على اللديغ ، فهو على التفاؤل بسلامته وبرئه من علّته (ابن الأنبارى ١٠٥ وقطرب ٢٤٨ وأبو الطيب ١/٢٥١) وإن كان الدكتور إبراهيم أنيس ، يذهب إلى أن كلمة : « السليم » تطلق على الملدوغ ، على جهة التهكم[١١١] !

كما يذهب ابن القطاع ، إلى إنكار التفاؤل ، فى هذا المثال والذى قبله ؛ فيقول وهو يتحدث عن بناء فَعِيل : « ويجىء بمعنى مفعول ، وللمؤنث بالهاء ، نحو : سليم للّديغ ، من سَلَمَتْه الحية ، إذا لدغته . ولا ينظر إلى قول من قال : إنه على طريقة التفاؤل ، فقد غلط فى ذلك جماعة من العلماء ، كما غلطوا فى قولهم : إن المفازة سميت من الفوز ، على التفاؤل ، وإنما سميت من فاز الإنسان وفوّز ، إذا هلك ، فهى على هذا : مَفْعَلَة من الهلاك ، لا غير[١١٢] » .

---

(١١١) انظر : فى اللهجات العربية ٢٠٩

(١١٢) أبنية الأسماء والأفعال والمصادر ، لابن القطاع ٢٨٣

(ج) الناهل : تطلق على الريّان وعلى العطشان . واشتقاق النهل من ورود الماء والشرب ، ومنه : « المنهل » بمعنى : المورد ، يؤكد أصالة المعنى الأول . أما العطشان ، فقيل له : ناهل ، على التفاؤل بالرى (قطرب ٢٥٣ وابن الأنبارى ١١٦ وأبو الطيب ٦٣٧/٢) .

(د) المُفْرَح : معناه فى العربية : المسرور والحزين المثقل بالدَّين (ابن الأنبارى ١٩٧) . واشتقاقه من الفرح بمعنى : السرور ، يؤكد أصالة المعنى الأول . أما إطلاقه على المعنى الثانى ، فهو على التفاؤل بأن يفك الله دينه فيفرح .

(هـ) الحافل : تطلق هذه الكلمة على الممتلىء وعلى الخالى ؛ يقال : « ناقة حافل إذا ذهب اللبن من ضرعها ، فلم يبق منه إلا اليسير ، وناقة حافل إذا امتلأ ضرعها باللبن » (قطرب ٢٧٦ وابن الأنبارى ٢٨٢ وأبو الطيب ٢٢٢/١) . وأصل « الحفل » فى اللغة : الجمع الكثير ؛ فدلالة « الحافل » على الضرع الممتلىء ، الذى تجمع فيه اللبن ، دلالة أصلية ، أما إطلاقها على الضرع الخالى ، فهو من باب التفاؤل .

(و) البصير : تطلق إلى يومنا هذا على المبصر وعلى الأعمى . وأصل دلالتها على المبصر ، لا تحتاج إلى دليل . أما إطلاقها على الأعمى ، فهو من باب التفاؤل له بصحة البصر (قطرب ٢٥٦ وابن الأنبارى ٣٦٧ وأبو الطيب ٦٣/١) .

(ز) المسجور : تطلق هذه الكلمة فى العربية ، على المملوء والفارغ (ابن الأنبارى ٥٤ وأبو الطيب ٣٦٠/١) . والظاهر أن إطلاقها على المملوء أصل ، وعلى الفارغ تفاؤل بامتلائه ، كما يقال فى الريف المصرى : « خد الملان » ، ويقصد : خد الكوب الفارغ من الشراب ، بعد أن يشربه الضيف ؛ تفاؤلا بأن يظل صاحب البيت فى نعمة ، ممتلئة أكوابه من الخير دائما .

وقد روى أبو الطيب اللغوى عن الأصمعى قوله : وأما المسجور الفارغ ، فقد بلغنى ذلك ، ولا أستيقنه ، ولست أقول فى قوله تعالى : « وإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ » ، ولا فى قوله : « والبَحْرِ المَسْجُور » شيئا ؛ لأنه قرآن فأتهيبه . وأما قول الجارية : إن حوضكم لمسجور ، ولم يكن فيه قطرة ، فيمكن أن يكون هذا الكلام على التفاؤل ، فأرادت الفأل ، كما يقال للعطشان : ريّان ، وللديغ : سليم ، أى سيروى وسيسلم ، وإنه لمسجور غدا ، أى سيكون ذلك (أبو الطيب ٣٦٤/١ وانظر أضداد قطرب ٢٥٧) .

٣ – **التهكّم**[١١٣] : لا شك فى أن عامل التهكم والهزء والسخرية ، من العوامل التى تؤدى إلى قلب المعنى ، وتغيير الدلالة إلى ضدها فى كثير من الأحيان ؛ فأصل كلمة : « التعزير » فى العربية : التعظيم ؛ ومنه قوله تعالى : « لِتُؤْمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ » (الفتح ٩/٤٨) ، غير أنها تستعمل فى معنى التأديب والتعنيف واللوم (ابن الأنبارى ١٤٧ وأبو الطيب ٥٠٦/٢) تهكما واستهزاء بالمذنب .

كما أن إطلاق : « العاقل » على : « الجاهل » إطلاق فيه تهكم . وقد قال ابن الأنبارى (٢٥٨) : « ومما يشبه الأضداد أيضا قولهم للعاقل : ياعاقل ، وللجاهل إذا استهزءوا به : ياعاقل ! » .

ومن المعروف أن « التقريظ » هو مدح الحى ، على العكس من « التأبين » الذى هو مدح الميت ، لكن قد ورد استعمال كلمة : « التقريظ » بمعنى الذمّ (أضداد قطرب ٢٦٧ وأضداد ابن الأنبارى ٣٩٢) من باب التهكم والسخرية بالمذموم !

واستعمال « القشيب » بمعنى الجديد ، فى قولهم : « ثوب قشيب » استعمال شائع . وقد حكى قطرب استعماله بمعنى : « الثوب

---

(١١٣) انظر للتهكم فى الأضداد : البرهان للزركشى ٢٣١/٢ – ٢٣٢

الخلق[١١٤] » . قال أبو حاتم : « ولا أعرف القشيب بمعنى الخلق . قال أبو الطيب : وقد حكاه عدة من علمائنا ، ولا أحسبه إلا صحيحا » (أبو الطيب ٥٨٨/٢) . وإذا صح أن هذا المعنى ورد عن العرب ، كان على سبيل التهكم والسخرية من الثوب الخلق !

٤ – **الخوف من الحسد** : يشيع فى القبائل البدائية ، الاعتقاد فى السحر والإصابة بالعين ، وتلعب الكلمة دوراً مهما فى هذا الاعتقاد ، فيفر المرء فى مثل هذه البيئة ، من وصف الأشياء بالحسن والجمال ، حتى لا تصيبها عين الحسود ، كما تسمع العامة عندنا يقولون ، عندما يشاهدون مولودا جميل الطلعة : « إيه الوحاشة دى ؟ » .

ويقول ابن الأعرابى : « كانت امرأة لا يبقى لها ولد ، إلا أفقدها ، فقيل لها : نفِّرى عنه ، فسمّته قنفذا ، وكنّته أبا العدّاء ، فعاش[١١٥] » .

ويمكن عن هذا الطريق ، تفسير بعض كلمات الأضداد فى العربية ، فمثلا كلمة : « شَوْهاء » يوصف بها الفرس القبيح والجميل ؛ فيقال : مهرة شوهاء ، إذا كانت قبيحة ، ومهرة شوهاء إذا كانت جميلة (ابن الأنبارى ٢٨٤ وأبو الطيب ٤٠٨/١) . ولا شك أن مادة : « شوه » تعنى : التشويه والقبح ، وإطلاق الكلمة على المهرة الجميلة ، إنما هو من باب درء العين ومعنى الحسد . وقد فطن إلى هذا أبو حاتم السجستانى ، فقال : « لا أظنهم قالوا للجميلة شوهاء ، إلا مخافة أن يصيبها عين » (انظر : الأضداد لأبى الطيب ٤٠٨/١) .

ومثل كلمة : « عَيِّن » التى تقال للخلق ، كالقربة التى تهيّأت مواضع منها للتثقّب . ووجه الشبه هنا ظاهر بين القربة التى أخلقت والعيون ، فهذا هو المعنى الأصلى للكلمة . أما طيىء فتطلق هذه الكلمة

---

(١١٤) انظر : الأضداد لقطرب ٢٥٣ وأضداد ابن الأنبارى ٣٦٣

(١١٥) مجالس ثعلب ٤٦٦/٢

على « الجديد » من الأشياء ، دفعاً للحسد ودرءاً للإصابة بالعين (انظر : الأضداد لابن الأنبارى ٢٩٣ والأضداد لأبى الطيب ٤٩٩/٢) .

وإذا كانت كلمة : « الخشيب » بمعنى : السيف الذى لم يصقل ، ظاهرة الاشتقاق من الخشب ، فإن إطلاقها على السيف الصقيل ، إنما كان فراراً من العين واتقاءً لشر الحسد (ابن الأنبارى ٣٢٧ وأبو الطيب ٢٥٥/١) .

وهل إطلاق : « البلهاء » على المرأة الكاملة العقل ، إلا من هذا النوع ، إذا كان البله هو نقصان العقل ، وفساد الاختيار والتمييز ؟ (انظر : الأضداد لابن الأنبارى ٣٣٣) .

ومنه كذلك : إطلاق « الأعور » على الحديد البصر ، وهو فى الأصل لمن ذهبت إحدى عينيه (الأضداد لقطرب ٢٥٦) .

٥ – **التطور اللغوى** : قد يحدث فى بعض الأحيان ، أن توجد كلمتان مختلفتان ، لهما معنيان متضادان ، فتتطور أصوات إحداهما ، بصورة تجعلها تنطبق على الأخرى تماما ، فيبدو الأمر كما لو كانت كلمة واحدة لها معنيان متضادان .

ومن أمثلة ذلك فى العربية : قول بنى عقيل : « لمقت الكتاب » أى كتبته ، وقول سائر قيس : « لمقت الكتاب » أى محوته . هكذا يبدو التضاد فى الفعل : « لَمَقَ » غير أننا إذا عرفنا أن هناك فعلا آخر ، بمعنى الكتابة ، هو : « نَمَقَ » ، عرفنا أن بنى عقيل ، قد تطور هذا الفعل الأخير فى نطقها ، فأبدلت النون لاما . والنون واللام من الأصوات المتوسطة فى العربية ، تلك الأصوات التى يحدث فيها الإبدال كثيرا ؛ وبذلك صار الفعل : « لمق » ، فتطابق مع نظيره بمعنى : « محا » ، وتولدّ التضاد بين

المعنيين عن هذا الطريق . وقد روى عن أعرابى أنه قال عن كتاب : « لمقته بعد ما نمقته » أى محوته بعد أن سطرته[١١٦] .

ومن أمثلة ذلك أيضا قولهم : « تلحلح » بمعنى : أقام وثبت ، وبمعنى : زال وذهب ؛ فإن هذا المعنى الثانى ، كان فى الأصل لكلمة أخرى ، هى : « تحلحل » ، ثم حدث قلب مكانى ، فقدمت اللام وأخرت الحاء ، كماقالوا : جذب وجبذ . ويوافقنا فى هذا التفسير : أبو زكريا الفراء من القدماء (انظر : الأضداد لابن الأنبارى ٢٣٦) .

وإذا عجبنا من دلالة الفعل : « ضاع » على الاختفاء والظهور معا ، فإن عجبنا يزول ، إذا عرفنا أن الأصل فى المعنى الأول ، هو الفعل القديم : « ضَيَعَ » ، وفى المعنى الثانى هو الفعل القديم : « ضَوَعَ » ، ثم تطور الفعلان إلى صورة واحدة ، هى : « ضاع » ، ومع ذلك بقى الفرق بينهما واضحا فى المضارع ؛ إذ هو على المعنى الأول : ضاع يضيع ، وعلى المعنى الثانى : ضاع يضوع (انظر : الأضداد لابن الأنبارى ٢٨٩ والأضداد لأبى الطيب ٤٥٢/١) .

٦ – **المجاز والاستعارة** : أوضح مثال لهذا العامل ، هو إطلاق كلمة : « الأمَّة » على الجماعة وعلى الفرد (ابن الأنبارى ٢٦٩) ؛ فإنه مما لا شك فيه أن الفرد لا يقال له أمّة ، إلا على التشبيه بالجماعة على وجه المبالغة ؛ فيقال عن هذا العالم أو ذاك : « كان أمّة وحده » ، يعنى أنه كان فى رجحان عقله ، وحدّة ذكائه ، جماعة بأسرها ، فاستعير له لفظ يطلق فى العادة على الجماعة .

٧ – **احتمال الصيغة الصرفية للمعنيين** : هناك صيغ كثيرة فى العربية ، تستعمل للفاعل أو للمفعول ؛ ومن هنا ينشأ التضاد كثيرا فى معانى هذه الصيغ . وهاك بعض الأمثلة :

---

(١١٦) انظر : الأضداد لابن الأنبارى ٣٥ والأضداد لأبى الطيب ٦١٤/٢ والأضداد لقطرب ٢٧٠ والمزهر ٣٩٠/١

(أ) صيغ (فَعُول) تستعمل فى العربية بمعنى : (فاعل) ، مثل : شكور وغفور وكفور ، كما تستعمل أحيانا بمعنى : (مفعول) ، مثل رسول ، بمعنى : مُرْسَل ، وناقة سَلُوب ، بمعنى : مسلوبة الولد . ومن هنا وردت إلينا بعض الأمثلة من هذه الصيغة بالمعنيين جميعا ؛ مثل : « ذَعُور » بمعنى : ذاعر ومذعور (قطرب ٢٤٩ وابن الأنبارى ٥٧) ، و« رَكُوب » بمعنى : الراكب والمركوب (قطرب ٢٤٩ وابن الأنبارى ٣٥٦ وأبو الطيب ٣٠٦/١) ، و« زَجُور » بمعنى : الزاجر والمزجور (قطرب ٢٤٩ وابن الأنبارى ٣٥٧) ، و« الأكولة » بمعنى الآكلة والمأكولة (أبو الطيب ٢٤/١) .

(ب) صيغة (فَعِيل) تأتى كذلك بمعنى : (فاعل) مثل : سميع وعليم وقدير ، كما تأتى بمعنى : (مفعول) مثل : دهين ، بمعنى : مدهون ؛ وكحيل ، بمعنى : مكحول ؛ وجريح بمعنى : مجروح ؛ وطريد ، بمعنى : مطرود ، وغير ذلك ؛ فلا عجب بعد هذا ، إذا رويت لنا بعض أمثلة هذه الصيغة بالمعنيين جميعا ؛ مثل : « الكَرِىّ » ، بمعنى : المكترِى والمكتَرَى (قطرب ٢٥٧ وابن الأنبارى ١٩٩ وأبو الطيب ٦٠٧/٢) ، و« الغريم » بمعنى : الدائن والمدين (ابن الأنبارى ٢٠٣ وأبو الطيب ١٥٦/٢ ؛ ٦٠٧/٢) ، و« القنيص » بمعنى : القانص والمقنوص (ابن الأنبارى ٢٦٢) ، و« التبيع » بمعنى : التابع والمتبوع (ابن الأنبارى ٣٧٢ وأبو الطيب ١٠١/١) ، وغير ذلك .

(ج) صيغة (فاعل) تستعمل فى العربية أحيانا بمعنى : (مفعول) ، إلى جانب استعمالها فى معناها الأصلى ، كما فى مثل قوله تعالى : « فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » (القارعة ٧/١٠١) بمعنى : مَرْضِيَّة . وقد ورد فى العربية ، بعض أمثلة هذه الصيغة ، بالمعنيين جميعا ؛ مثل : « خائف » (ابن الأنبارى ١٢٥) و« عائذ » (ابن الأنبارى ١٢٥ وأبو الطيب ٥٠٤/٢) و« عارف » (ابن الأنبارى ١٢٦ وأبو الطيب

٢/٥٠٤) و« عاصم » (ابن الأنبارى ١٢٨ وأبو الطيب ٢/٥٠٦) ، وغير ذلك .

(د) صيغة (تَفَعَّلَ) : وأصلها فى العربية – فيما يبدو – للمطاوعة ، كما فى أصل اللغات السامية الأخرى . أما معنى : السلب والإزالة ، التى اكتسبته بعض أفعال هذه الصيغة ، فأغلب الظن أنه قد جاءها من القياس على الفعل : « تَجنَّب » الذى يعنى الابتعاد عن الشيء جانبا . ومن هنا جاءتنا أفعال على هذا الوزن ، لا تعنى إلا السلب والإزالة ؛ مثل : « تحرَّج » و« تهجَّد » بمعنى : تجنب الحرج والهجود ، أى النوم ، كما بقيت أفعال فى العربية ، تحمل المعنى الأصلى ، إلى جانب هذا المعنى الجديد . ولما كان هذا المعنيان متضادين ، تضادّ الإيجاب والسلب ، أصبحت تلك الأفعال من كلمات الأضداد .

ومثال ذلك قولهم : « قد تأثّم الرجل ، إذا أتى المأثم ، وتأثّم إذا تجنب المأثم » (ابن الأنبارى ١٦٩ وأبو الطيب ١/١٧) ، وكذلك قولهم : « تَحنَّث الرجل ، إذا أتى الحِنْث ، وقد تحنّث إذا تجنّب الحِنْث » (ابن الأنبارى ١٨٠) .

(هـ) صيغة : (مُفْتَعِل) و(مُفْتَعَل) من الأجوف ، ومضعف الثلاثى ؛ مثل : مبتاع ، ومختار ، ومجتاح ، ومرتاد ، ومستاق ، ومغتاب . ومثل : مبتزّ ، ومرتدّ ، ومحترّ ، ومحتشّ ، ومختلّ ، ومختصّ ، ومعتدّ ، ومختلط ، وغير ذلك[١١٧] .

وذلك لأن اسم الفاعل واسم المفعول ، من الأجوف ، ومضعف الثلاثى ، من وزن (افتعل) يئولان إلى صيغة واحدة ؛ فمثلا : اسم الفاعل من الفعل : (اختار) الأصل فيه أن يكون : (مُخْتَيِر) بكسر الياء ، ثم يتحول إلى : (مختار) . واسم المفعول منه أصله أن يكون : (مُخْتَيَر)

---

(١١٧) انظر فى هذا وغيره : الأضداد لأبى الطيب ٢/٦٩١ – ٧١٠ والأضداد لابن الأنبارى ٤٠٩

بفتح الياء ، ثم يتحول كذلك إلى : (مختار) . وكذلك الحال فى مضعف الثلاثى ، فمثلا : اسم الفاعل من (ارتدّ) أصله أن يكون : (مُرْتَدِد) بكسر الدال الأولى ، ثم يتحول إلى : (مرتدّ) . واسم المفعول منه أصله أن يكون : (مُرْتَدَد) بفتح الدال الأولى ، ثم يتحول كذلك إلى : (مرتدّ) ، فتصبح الصيغة دالة على اسم الفاعل والمفعول معا .

* * *

هذا ، وقد كانت الأضداد العربية ، مجالا لدراسة اثنين من المستشرقين الألمان ، أولهما هو : « رد سلوب » Th.M.Redslob واسم كتابـــــــه : Die arabische Wörter mit entgegengesetzten Bedeutungen « كلمات الأضداد العربية » . وهو مطبوع فى : جوتنجن سنة ١٨٧٣ م .

ويبدأ فيه صاحبه بالحديث ، عن نظرية العرب ، فى تقسيم الكلمات بالنسبة لمعانيها ، إلى ثلاثة أقسام :

١ — اختلاف الصيغ والمعانى ؛ مثل : يد ، ورجل ، وغير ذلك .

٢ — اختلاف الصيغ واتفاق المعانى (الترادف) ؛ مثل : ساعد ، وذراع ، وغير ذلك .

٣ — اتفاق الصيغ واختلاف المعانى (المشترك اللفظى) ؛ مثل : عين . ومن هذا النوع الأخير : كلمات الأضداد .

ثم يذكر أن العرب يفهمون من كلمة : « ضدّ » : الكلمة التى تدل بذاتها ، ومن غير إضافات أخرى ، على معنيين متضادين ، ويفهم كل معنى مقصود من سياق الكلام . كما يذكر أن ما يعدّ من الأضداد عند اللغويين العرب ، على ضربين :

١ — كلمات مفردة .   ٢ — تعبيرات وجمل .

ويرى « ردسلوب » أن الضرب الأول ، يحتوى على كلمات لا تضاد

بين معانيها ؛ مثل : إن الشرطية ، وإن النافية ، كما أن الضرب الثانى ، بعيد عن الأضداد تماما .

ثم يقول المؤلف : إن عدّ مثل هذه الكلمات من الأضداد ، يوسع مدلول هذه الكلمة ، ويجعلها غير محدّدة تماما ، كما لو عددنا الكلمات الدالة على التهكم أو الاستهزاء من الأضداد ؛ لأن التهكم صالح لكل كلمة ، وليس خاصا بكلمات بعينها ، وكذلك كلمات التفاؤل ، غير أنه يعود فيؤكد أنه « قد يشيع استخدام كلمات التفاؤل ، بحيث تغلب على المعنى الأصلى أو تساويه ، مثل إطلاق كلمة السليم على اللديغ » .

كما يرى « رد سلوب » أن اللغويين العرب ، قد وقعوا فى الخطأ ، حين عدّوا التطورات الصوتية من الأضداد ، وكذلك حين عدّوا من التضاد صيغتين من مادة واحدة ؛ مثل قولهم : بلَّج بشهادته إذا كتمها ، وقولهم : الحق أبلج ، أى واضح ظاهر .

وأخيرا يرجع « ردسلوب » كثرة الأضداد فى العربية ، إلى عدّة عوامل منها :

١ – ثراء اللغة غير العادى . ٢ – التطور غير المشروط للمعانى .

٣ – كثرة الاشتقاق من الأسماء . ٤ – اختلاف اللهجات .

٥ – الصنعة والتكلف والاختراع الذى تم على يد اللغويين .

أما المستشرق الآخر ، فهو : « جيسى » Friedrich Giese واسم كتابه : Untersuchungen über die Aḍḍād « بحوث فى الأضداد » ، وهو مطبوع فى برلين سنة ١٨٩٤ م .

وقد نقل « جيسى » فى مقدمته ، تعريف « الضد » عن : « ردسلوب » ثم ذكر اختلاف علماء العربية ، فى وقوع التضاد فى اللهجة الواحدة ، وحدد منهجه فى كتابه ، بالبحث عن كلمات الأضداد

فى الشعر القديم ، وقد رفض لذلك كثيراً من كلمات الأضداد التى ذكرها ابن الأنبارى فى كتابه ؛ لأنه لم يعثر لها على شواهد إلا لواحد من المعنيين ، على كثرة ماقرأ ؛ مثل : (أَمَم) عند ابن الأنبارى (١٢٣) و(دَخْلل) عنده كذلك (٢٣٥) وغير ذلك .

وقد استخدم « جيسى » مبادىء علم الدلالة ، فى أن كل تطور للمعنى ، يكون بتعميم الدلالة ، أو بتخصيصها ، وذكر أن أسباب هذا التطور كثيرة ، غير أنها تتفق مع ما ذكره البلاغيون فى كثير من الأحيان ، ومنها : المجاز المرسل ، وتداعى المعانى .

فمن أمثلة الأول : إطلاق « الناهل » على الريّان ، وعلى العطشان . والمعنى الثانى عنده هو الأصل ، أما الأول فهو مجاز مرسل باعتبار ما يكون ؛ لأن الناهل هو العطشان الذاهب إلى الشرب ، فهو « ريّان » فى النهاية !

ومثال تداعى المعانى عنده : « البيْن » بمعنى : الفراق ، وهو يستدعى فى الذهن معنى : الوصال . وكذلك : « الماثل » بمعنى : الحاضر ، وهو يستدعى فى الذهن معنى : الغائب ، وغير ذلك .

★★★

الفصل الرابع

التعريب وألفاظ الحضارة

اتصل العرب فى جاهليتهم ، بالأمم المجاورة لهم ، كالفرس والأحباش والروم والسريان والنبط وغيرهم ، واحتكت لغتهم العربية بلغات هذه الأمم جميعا ، وهذا أمر طبيعى ؛ فإنه « من المتعذر أن تظل لغة بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى[1] »، كما أن « تطور اللغة المستمر ، فى معزل عن كل تأثير خارجى ، يعد أمراً مثاليا ، لا يكاد يتحقق فى أية لغة ، بل على العكس من ذلك ، فإن الأثر الذى يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها ، كثيرا ما يلعب دوراً هامّاً فى التطور اللغوى ؛ ذلك لأن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية ، واحتكاك اللغات يؤدى حتما إلى تداخلها[2] » .

ويعنى هذا اقتراض هذه اللغات بعضها من بعض ، وتأثير إحداهما فى الأخرى . وهذا ما حدث للغة العربية ، مع جاراتها من اللغات الأخرى ، فى ذلك الوقت المبكر ، ولا يعنينا هنا بالطبع ، أن نبحث أثر العربية فى هذه اللغات ، بقدر ما يعنينا الكشف عن أثر هذه اللغات فى العربية .

« وأهم ناحية يظهر فيها هذا التأثير ، هى الناحية المتعلقة بالمفردات ؛ ففى هذه الناحية على الأخص ، تنشط حركة التبادل بين اللغات ، ويكثر اقتباسها بعضها من بعض[3] » . ويطلق على مثل هذه

---

(١) علم اللغة ، لعلى عبد الواحد وافى ٢٢٩

(٢) اللغة ، لفندريس ٣٤٨

(٣) علم اللغة ، لعلى عبد الواحد وافى ٢٢٩

الكلمات ، التى أخذتها العربية من اللغات المجاورة ، اسم : « الكلمات المعرّبة » ، كما يطلق على عملية الأخذ هذه ، اسم : « التعريب » . ويعنى هذا أن تلك الكلمات المستعارة فى العربية ، لم تبق على حالها تماما ، كما كانت فى لغاتها ، وإنما حدث فيها أن طوّعها العرب لمنهج لغتهم ، فى أصواتها وبنيتها وما شاكل ذلك . وهذا هو معنى : « التعريب » .

وليس هذا الأمر بدعا فى العربية ؛ « إذ تخضع فى الغالب الكلمات المقتبسة ، للأساليب الصوتية فى اللغة التى اقتبستها ، فينالها كثير من التحريف فى أصواتها وطريقة نطقها ، وتبعد فى جميع هذه النواحى عن صورتها القديمة[٤] » .

وكان هذا دأب العرب فى جاهليتهم ، تجرى على ألسنتهم بعض الألفاظ ، التى يحتاجون إليها ، من لغات الأمم المجاورة لهم ، بعد أن ينفخوا فيها من روحهم العربية ، ويتلقفها الشعراء منهم ، فيدخلونها فى أشعارهم وأرجازهم ؛ فهذا هو الأعشى ميمون بن قيس ، يكثر فى شعره ذكر : اليرندج ، والديابوذ ، وإستار ، والإسفنط ، والبستان ، والبوصى ، والبرجان ، والجلسان ، والبنفسج ، والمرزجوش ، وغير ذلك . كما يشيع فى شعر عدىّ بن زيد ذكر : الإبريق ، والجؤذر ، والخوان ، والدخدار ، والمرزبان ، وغير ذلك .

ولا نطيل فى ذكر الأمثلة من شعر الشعراء ، فى تلك العصور القديمة ، فإنك إن طالعت شعر أحدهم ، استوقفك فيه هنا وهناك ، لفظة من تلك الألفاظ المعرّبة .

وقد طال الأمد على كثير من هذه الألفاظ فى الجاهلية ، وألف الناس استعمالها ، وصارت جزءا من لغتهم ، وربما نسوا أصلها فى كثير من الأحيان ، وجاء القرآن الكريم ، فأنزله الله تعالى بهذه اللغة العربية ، التى

---

(٤) علم اللغة ، لعلى عبد الواحد وافى ٢٢٩

أصبح بعض هذا المعرب من مقوماتها ، فجاء فيه شيء من تلك الألفاظ ، التى عرّبها القوم من لغات الأمم المجاورة .

وكان السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، يدرك ذلك تماما ؛ فقد « رُوى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم ، فى أحرف كثيرة (من القرآن) أنه من غير لسان العرب ؛ مثل : سجّيل ، والمشكاة ، واليمّ ، والطور ، وأباريق ، وإستبرق ، وغير ذلك[٥] » .

ولكن قول الله سبحانه وتعالى ، فى القرآن الكريم : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً » وقوله تعالى : « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين » ، جعل طائفة من مفكرى الإسلام ، تذهب إلى إنكار وقوع المعرّب فى كتاب الله ؛ فهذا أبو عبيدة معمر بن المثنى ، يقول : « من زعم أن فى القرآن لسانا سوى العربية ، فقد أعظم على الله القول[٦] » .

كما يقول أبو بكر بن الأنبارى : « وقال بعض المفسّرين : صِرْهُنّ معناه : قَطِّع أجنحتهن ، وأصله بالنبطية : صِرْية . ويحكى هذا عن مقاتل ابن سليمان ، فإن كان أُثر هذا عن أحد من الأئمة ، فإنه مما اتفقت فيه لغة العرب ولغة النبط ؛ لأن الله عز وجل ، لا يخاطب العرب بلغة العجم ؛ إذ بين ذلك فى قوله جل وعلا : إِنّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلّكُمْ تَعْقِلُون[٧] » .

وقد وازن أبوعبيد القاسم بن سلام ، بين رأى شيخه أبى عبيدة ، ورأى السلف الصالح ، وانتهى إلى القول بعربية هذه الألفاظ ، بعد أن عرّبتها العرب ؛ فقال : « فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبى عبيدة ، ولكنهم ذهبوا إلى مذهب ، وذهب هذا إلى غيره . وكلاهما مصيب إن شاء الله ؛ وذلك أن هذه الحروف ، بغير لسان العرب فى الأصل ، فقال أولئك على

---

(٥) المعرب ، للجواليقى ٥ وانظر : المزهر ٢٦٨/١

(٦) المعرب ، للجواليقى ٤ والمزهر ٢٦٦/١ والصاحبى ٥٩

(٧) الأضداد ، لابن الأنبارى ٣٨

الأصل ، ثم لفظت به العرب بألسنتها ، فعرّبته فصار عربيا بتعريبها إياه ، فهى عربية فى هذه الحال ، أعجمية الأصل[٨] » .

كما يقول ابن عطية : « فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ ، أنها فى الأصل أعجمية ، لكن استعملتها العرب وعرّبتها ، فهى عربية بهذا الوجه . وما ذهب إليه الطبرى من أن اللغتين اتفقتا فى لفظة لفظة ، فذلك بعيد[٩] » .

ولكن الشيخ أحمد شاكر ، يواصل فى العصر الحديث ، حملة أبى عبيدة فى القديم ، على من يقول بوقوع المعرّب فى القرآن ، ولا يعجبه حتى المعتدلون منهم ، كأبى عبيد فى قوله السابق : « فهى عربية فى هذه الحال أعجمية فى الأصل » ، والأزهرى الذى يرى أن الاسم قد يكون أعجميا ، فتعرّبه العرب ، فيصير عربيا[١٠] .

ويصم الشيخ شاكر ، القول بوقوع المعرّب فى القرآن ، بأنه « قول ينبو عنه التحقيق ، وإنما ذهب إليه من ذهب ، إعظاما لما روى عن بعض الأقدمين فى ألفاظ قرآنية ، أنها معرّبة ، وعجزا عن تحقيق صحة الرواية ، وعن تحقيق صحة هذه الحروف فى كلام العرب ، ثم تقليداً لأولئك القائلين ، وجمعاً بين القولين ، زعموا[١١] » .

وراح الشيخ شاكر يتعقب الجواليقى ، فى كتابه : « المعرّب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم » ، ويحاول أن يعثر على اشتقاق عربى ، للكلمات التى ذكرها الجواليقى ، فى هذا الكتاب ، معتسفا الطريق فى محاولاته تلك تارة ، وغافلا عن سنن اللغات فى الاقتراض عن غيرها تارة أخرى . ومن أمثلة ذلك قوله فى التعليق على أن « الاستبرق » فارسى

---

(٨) المعرب للجواليقى ٥ وانظر : المزهر ٢٦٩/١ والصاحبى ٦١

(٩) انظر : مقدمتان فى علوم القرآن ٢٧٨

(١٠) تهذيب اللغة ٢٦٩/١٤ ولسان العرب (تنر) ١٦٣/٥

(١١) مقدمة المعرب ، للجواليقى ص ١١

معرب : « هكذا زعم كثير من أهل اللغة ، أنها معرّبة ، وليس فى القرآن معرّب سوى الأعلام[١٢] » .

وفى التعليق على أن « التَّنُّور » فارسى معرب ؛ يقول : « وقد ذهب أكثر المفسرين ، إلى أن الكلمة أعجمية . ونحن نخالفهم فى هذا ، ونرى أنها عربية ، وأن هذا البناء إن كان نادراً ، فليس دليلا على أنه خارج عن لغتهم ... قال أبو منصور الأزهرى : قول من قال : إن التَّنُّور عمّت بكل لسان ، يدل على أن الاسم فى الأصل أعجمى ، فعرّبتها العرب ، فصار عربيا على بناء فَعُّول . والدليل على ذلك ، أن أصل بنائه : تنر ، ولا نعرفه فى كلام العرب ... ووجود الكلمات فى بعض اللغات الأخرى بهذا المعنى ، لا يدل على نقلها إلى العربية منها ، بل لعلها نقلت من العربية إليها ... والعربية من أقدم اللغات فى الدنيا[١٣] » .

كما يعلق على أن « الدينار » معرّب من الفارسية ، بقوله : « ونحن عند رأينا الذى ذهبنا إليه فيما مضى ، أن ليس فى القرآن من غير العربية شىء . وهذا الحرف فى لغة العرب قديم ... ومقاربة اللغة الرومية إياه فى اللفظ ، لا يدل على أن العرب أخذوه عنهم ،بل يحتمل أنه منقول إليهم عن العرب[١٤] » .

ويطول بنا القول ، لو ذهبنا نعدّد الأمثلة ، التى تدل على تعصب الشيخ أحمد شاكر ، ضد القول بوقوع المعرب فى القرآن ، وهو تعصب لا مبرر له ، إذ الكلمة المعرّبة تصبح – كما قلنا من قبل – عربية ، باستعمال العرب إياها على مناهجهم فى لغتهم ، غير أن ما دعا العلماء إلى القول بعدم أصالتها فى العربية ، أنها تدل على شىء لم يكن له وجود فى الأصل ، فى البيئة العربية ، وإنما هو وافد مع اسمه إلى تلك البيئة ، كما وفدت علينا فى العصر الحديث كلمات مثل : تليفون ، وراديو ، وتليفزيون ، مع أجهزتها التى

---

(١٢) المعرب ، للجواليقى ص ١٥

(١٣) المعرب ، للجواليقى ص ٨٤

(١٤) المعرب ، للجواليقى ص ١٤٠

سميت بها ، وكذلك مثل : أسبرين ، وسلفاديازين ، وأنتروفيوفورم ، وغيرها من أسماء الأدوية ، وما إلى ذلك من الأشياء التى وردت إلينا مع أسمائها من الخارج ؛ لأن « المفردات التى تقتبسها لغة ما ، عن غيرها من اللغات ، يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل هذه اللغات ، أو برّزوا فيها ، أو امتازوا بإنتاجها أو كثرة استخدامها ... وهلم جرّاً ، فمعظم ما انتقل إلى العربية ، من المفردات الفارسية واليونانية ، يتصل بنواح مادية أو فكرية ، امتاز بها الفرس واليونان ، وأخذها عنهم العرب[١٥] » .

وهكذا نرى أنه من العبث إنكار وقوع المعرب ، فى العربية الفصحى ، والقرآن الكريم . وقد وضع العلماء علامات ، يعرف بها المعرّب فى العربية ، استنتجوها من مقارنة نسج الألفاظ العربية ، بنسج هذه الألفاظ المعربة . ونلخصها هنا فيما يلى[١٦] :

١ — اجتماع الصاد والجيم ؛ مثل : جص ، وصنجة ، وصولجان .
٢ — اجتماع الجيم والقاف ؛ مثل : المنجنيق ، والجوالق ، والجرموق .
٣ — اجتماع الباء والسين والتاء ؛ مثل : البستان .
٤ — وقوع الراء بعد النون ؛ مثل : نرجس ، ونرسيان .
٥ — وقوع الزاى بعد الدال ؛ مثل : المهندز .
٦ — خلو الكلمة الرباعية والخماسية من حروف الذلاقة (فر من لب) ؛ مثل : عقجش[١٧] .
٧ — خروج الكلمة عن الأوزان ؛ مثل : إبريسم .

وتنتهج العربية نهجا معينا فى تعريب الألفاظ الأعجمية ، وذلك على النحو التالى :

١ — إبدال الأصوات التى ليست من أصوات العرب ، إلى أقربها

---

(١٥) علم اللغة ، لعلى عبد الواحد وافى ٢٣١

(١٦) قارن : المعرب للجواليقى ١١ — ١٢ والمزهر للسيوطى ١/٢٧٠ وتهذيب الألفاظ العامية ٢٢ — ٢٣ والاقتراح للسيوطى ١٣ وفقه اللغة لعلى عبد الواحد وافى ٢٠٠

(١٧) راجع كذلك : سر صناعة الإعراب ١/٧٤

مخرجا ؛ لئلا يدخل فى كلامهم ماليس من أصواتهم . فمما غيّروه من الأصوات : ما كان بين الجيم والكاف (گ) ، وربما جعلوه كافا ، وربما جعلوه جيما ، وربما جعلوه قافا ،[١٨]وأبدلوا الحرف الذى بين الباء والفاء (P) فاء ، وربما جعلوه باء[١٩] .

٢ – تغيير بناء الكلمة إلى أبنية العربية . فمما ألحقوه بأبنيتهم : « دِرْهَم ، ألحقوه بهِجْرَع[٢٠] . وكان الفراء يقول : « يبنى الاسم الفارسى أى بناء كان ، إذا لم يخرج عن أبنية العرب[٢١] » .

٣ – ترك اللفظ الأعجمى على حاله ، إذا كان موافقا لمنهج العربية فى الأصوات والصيغ ، أو بنية الكلمات .

هذا هو منهج العربية فى التعريب ؛ فهى « لغة إذا دخلتها كلمة أجنبية عنها ، قلق موضعها ، حتى تأخذ وزن كلمات اللغة وهيئة حركاتها ؛ لتشاكلها وتماثلها وتأتلف معها ؛ لذلك تراهم يشذبون الكلمات الأعجمية الطارئة التى لم تأت على أوزان العرب ، بالحذف والإبدال ، حتى تلائم الأسلوب العربى[٢٢] » .

وليس الاقتراض من اللغات الأجنبية ، مقصورا على الألفاظ فحسب ، بل يكون الاقتراض فى المعانى كذلك ، فعند الاقتراض « هناك طريقان ممكنان ، فإما أن تأخذ اللغة المقترضة الكلمة ، وتخضعها لقوانينها الصيغية والصوتية ، وفى تلك الحالة يكون عندنا **كلمة مقترضة** . وإما أن تترجم اللغة المقترِضة ، وحدات الكلمة المقتَرَضة ، ترجمة حرفية إلى كلمة وطنية ، وفى تلك الحالة يكون عندنا **ترجمة مقترضة** . والكلمة الإنجليزية : expression مأخوذة من الكلمة اللاتينية : expressio فهى لذلك كلمة

(١٨) المعرب للجواليقى ٦
(١٩) المعرب للجواليقى ٧
(٢٠) المعرب للجواليقى ٨
(٢١) المعرب للجواليقى ٩
(٢٢) مولد اللغة للعاملى ٦١

مقترضة . أما الكلمة الألمانية Ausdruck فهى ترجمة مقترضة ، بمعنى الكلمة اللاتينية[٢٣] » .

وقد يسود الأعجمى الدخيل فى لغة العرب ، فيغطى على مقابلة العربى ، ويشيع استعماله ، حتى يتوارى إلى جانبه اللفظ العربى ، ويندر استعماله . ومن أمثلة ذلك استعمال العرب : « الإبريق » ، مكان : « التامورة » ؛ و« الهاوون » مكان : « المهراس » ؛ و« الطاجن » مكان : « المقلى » ؛ و« الأشنان » مكان : « الحُرُض » ، و« الميزاب » مكان : « المثعب » ؛ و« المسك » مكان : « المشموم » ؛ و« الجاسوس » مكان : « الناطس » ؛ و« التوث » مكان : « الفِرصاد » ؛ و« والأُترجّ » مكان : « المُتْك » ؛ و« الكوسج » مكان : « الأثطّ » ؛ و« الكَبَر » مكان : « اللَّصَف » ؛ و« الياسمين » مكان : « السَّمسق » ؛ و« اللوبيا » مكان : « الدجر » ؛ و« الباذنجان » مكان : « الحدج » ؛ و« الرصاص » مكان : « الصَّرَفان » ، و« الخيار » مكان : « القَتَد »[٢٤] .

وتعامل العرب اللفظ المعرّب ، معاملة العربى فى الاشتقاق منه ؛ فمثلا : كلمة : « لجام » ، اشتق منها فى العربية : ألجم ، وتلجَّم ، والفرس مُلْجَم ، وغير ذلك . ويماثل هذا تماما ، ما يحدث الآن فى اللغة العامية ، حين تستعير بعض الكلمات من الإنجليزية وغيرها ، فتشتق منها أفعالا ، وتجمعها جموع تكسير عربية ، وغير ذلك ؛ فكلمة : nervous مثلا ، اشتق منها فى العامية العربية : (نرفز) ، و(نرفزة) ، و(ينرفز) ، و(متنرفز) .. إلخ ؛ وكلمة : table صارت فى العامية : (طبلية) ، وجمعت على : (طبالى) ، وغير ذلك .

ويقول عبد القادر المغربى : إن « الكلمات العربية ، التى وقعت للعرب ،فعرّبوها بألسنتهم ، وحولوها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظهم ،

---

(٢٣) أسس علم اللغة لماريو باى ١٥٧

(٢٤) انظر : المزهر فى علوم اللغة ٢٨٣/١ – ٢٨٤

تصبح عربية ،فيجرى عليها من الأحكام مايجرى على تلك ، فتتوارد عليها علامات الإعراب ، إلا فى بعض الأحوال ، وتعرّف بأل ، وتضاف ويضاف إليها ، وتثنى وتجمع ، وتذكر وتؤنث . وفوق ذلك كله تصرّف أهل اللغة فى الكلمة المعرّبة ، وإعمالهم مباضع الاشتقاق فى بنيتها[٢٥] » .

وقد وقف اللغويون العرب بالتعريب ، عند عصور الاحتجاج ، وهى تلك الفترة السعيدة ، التى تشمل الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بنى أمية ، وتعدّ بجميع ما فيها عربية فصحى ، وما عداها مما جاء بعدها مولد لا يصح ، يستوى فى هذا : التطور والتعريب الجديد .

وتقوم من آن لآخر صيحات ، تنادى بضرورة أن نسير على طريقة العرب ، فى تعريب ما نحتاج إليه ، من ألفاظ اللغات المعاصرة ؛ ومن هؤلاء عبد القادر المغربى ، الذى ألف فى ذلك كتابا ، وتتلخص فكرته فيه فى أن « الكلمات الدخيلة الدالة على الأحداث والمعانى ، لا تعتبر فصيحة ، ولا يكون استعمالها من الحسن فى شىء ، وذلك لأن فى اللغة ما يسدّ مسدّها ... ولكن هناك اختراعات ، أوجدها قوم من غير أبناء لغتنا ، ووضعوا من كلمات الأحداث والمعانى ، التى تشتق ويشتق منها — ما يتعلق باستعمال تلك الاختراعات ، ويدل على طرق الانتفاع بها ؛ اخترعوا : الأوتوموبيل مثلا ، وسموه بهذا الاسم ، فنحن معشر العرب ، نأخذه ونأخذ اسمه ، كما أخذ أسلافنا المنجنيق واسمه من لغة اليونان . ومخترعوا الأوتومبيل أنفسهم ، وضعوا كلمات أخر ، للدلالة على أفعال وأعمال تتعلق به ، مما لا يمكن أن يكون موجودا فى لغتنا ، مادام الأوتومبيل نفسه ، ما كان معروفا لدى أهلها ، وواضعى كَلِمها[٢٦] » .

وقد وقف مجمع اللغة العربية فى مصر ، من هذه القضية ، موقف المتشدّد ؛ فلم يجز إلا تعريب الألفاظ الفنية والعلمية ، التى يعجز عن إيجاد

(٢٥) الاشتقاق والتعريب ٤٨

(٢٦) الاشتقاق والتعريب ٧٤

مقابل لها فى العربية . وقد لخص الدكتور على عبد الواحد وافى ، موقفه ذلك أحسن تلخيص ؛ فقال[٢٧] : « أما ما استخدمه المولدون فى مختلف العصور ، وما أدخله بعض المحدثين فى العصر الحاضر ، أو يرى إدخاله فى العربية ، من كلمات أجنبية تتعلق بالمخترعات ، أو بالمصطلحات العلمية والفنية ، فقد رأى مجمع اللغة العربية عدم جواز استعماله ؛ « لأن فى العربية غنية عنه ؛ ولأن فى بطون معجماتها مئات الألوف من الكلمات المهجورة ، الحسنة النغم والجرس ، الكثيرة الاشتقاق ، مما يصلح أن يوضع للمسميات الحديثة ، بدون حدوث اشتراك ؛ لأن بعثها من مراقد الإهمال والنسيان ، يصيّرها كأنها موضوعة وضعا جديدا » . وقد عنى المجمع بتطبيق قراره هذا ، فوضع عددا كبيرا من الأسماء العربية لمسميات حديثة ، جرت العادة باستخدام كلمات أجنبية فى التعبير عنها . غير أنه قد احتاط للحالة التى قد تدعو فيها ضرورة قاهرة ، إلى استخدام لفظ أعجمى ، فى الشئون العلمية والفنية ، ويتعذر إيجاد لفظ عربى يحل محله ، فأجاز فى هذه الحالة فقط ، استخدام اللفظ الأعجمى ، بعد صقله بالأساليب الصوتية العربية . وإليك نص قراره بهذا الصدد : « يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية ، عند الضرورة ، على طريقة العرب فى تعريبهم » .

ويقول الدكتور وافى : وقد شرح المغفور له أستاذنا الشيخ أحمد الإسكندرى ، هذا القرار ، بما يفيد قصر الرخصة التى يتضمنها ، على حالات الضرورة التى أشرنا إليها ، حيث يقول : « فعبارة القرار تقتضى إجازة استعمال بعض الأعجمى فى فصيح الكلام ، وتقييده بلفظ (بعض) ، دون جنس الألفاظ ، يفيد أن المراد الألفاظ الفنية والعلمية ، التى يُعجز عن إيجاد مقابل لها ، لا الأدبية ، ولا الألفاظ ذات المعانى العادية ، التى يتشدق بها بعض مستعجمة زماننا ، من أبناء العرب » .

وفى رأيى أن اللغة لا تفسد بالدخيل ، بل حياتها فى هضم هذا

---

(٢٧) فقه اللغة ، لعلى عبد الواحد وافى ٢٠١ – ٢٠٢.

الدخيل ؛ لأن مقدرة لغة ما على تمثّل الكلام الأجنبى ، تعدّ مزيّة وخصيصة لها ، إذا هى صاعته على أوزانها ، وصبته فى قوالبها ، ونفخت فيه من روحها ، وتركت عليه بصماتها ؛ « فالتعريب إذن ضرورى لحياة العلم ، ومتى كانت القيود الموضوعة له ، هى كما بينا من قبل ، فلا خوف منه على كيان اللغة ، فإنما اللغة قائمة بحروف معانيها وأفعالها وصرفها ونحوها ، وبيانها وشعرها ، وخصائصها التى تمتاز بها ، لا ببضع مفردات غريبة عنها ، قد التجأت إليها ، فكسيت بكسائها ، وطليت بطلائها ، حتى أصبحت منها وعليها[٢٨] » .

والحق أن مشكلة تعريب ألفاظ العلم ومستحدثات الحضارة ، هى مشكلتنا الحقيقية فى العصر الحديث . ومجامعنا العلمية لم تستطع حتى الآن ، معالجة هذه المشكلة معالجة حاسمة ، فإنها تنتظر حتى يشيع اللفظ الأجنبى على كل لسان ، وتستخدمه العامة والخاصة ، ثم تقوم قيامة المجامع العلمية ، وتحاول البحث عن لفظ عربى بديل ، وبذلك يولد هذا اللفظ ميتا ، لاشتهار اللفظ الأعجمى وشيوعه على الألسنة . وكم من ألفاظ وضعتها المجامع اللغوية ، لمستحدثات الحضارة ، غير أنها لم تتجاوز أبواب هذه المجامع ؛ فمثلا : المذياع للراديو ، والخيالة للسينما ، والمأوى للبنسيون ، والطارمة للكُشُك ، والملوِّحة للسيمافور ، والمرناة للتليفزيون ، وغير ذلك – ألفاظ ولدت ميتة ؛ لهذا السبب الذى ذكرته .

وفى رأيى أنه لو صاحب دخول المخترع الأجنبى إلى البلاد العربية ، وضعُ لفظ عربى له ، وعنايةُ وسائل الإعلام والصحافة بالدعاية له ، لقضى على الكثير من مظاهر هذه المشكلة من أساسها . وإنك لتعجب حين ترى الألمان يقومون بمثل ما ننادى به هنا ، ومعظم المخترعات لها عندهم أسماء ألمانية خالصة ، فالتليفون مثلا هو عندهم : Fernsprecher والتليفزيون : Fernsehen وغير ذلك . وفى قدرتنا النسج على هذا المنوال ، للحفاظ على عروبة لغتنا . والله الموفق .

* * *

---

(٢٨) التهذيب فى أصول التعريب ، للدكتور أحمد عيسى ١٢٢

الباب الخامس

من قضايا اللغة ومشكلات العربية



الفصل الأول
قضية الإعراب

يرى جميع النحاة العرب ، إلا أبا على محمد بن المستنير ، المعروف بقطرب (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) أن حركات الإعراب ، تدل على المعانى المختلفة ، التى تعتور الأسماء ، من فاعلية أو مفعولية أو إضافة أو غير ذلك ؛ فيقول أبو القاسم الزجاجى (المتوفى سنة ٣٣٧ هـ) فى ذلك : « فإن قال قائل : قد ذكرت أن الإعراب داخل فى الكلام ، فما الذى دعا إليه واحتيج إليه من أجله ؟ فالجواب أن يقال : إن الأسماء لما كانت تعتورها المعانى ، وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافاً إليها ، ولم يكن فى صورها وأبنيتها ، أدلة على هذه المعانى ، بل كانت مشتركة ، جعلت حركات الإعراب فيها ، تنبىء عن هذه المعانى ، فقالوا : ضرب زيد عمراً ، فدلوا برفع زيد على أن الفعل له ، وبنصب عمرو على أن الفعل واقع به . وقالوا : ضُرِب زيد ، فدلوا بتغيير أول الفعل ، ورفع زيد ، على أن الفعل ما لم يسمّ فاعله ، وأن المفعول قد ناب منابه . وقالوا : هذا غلام زيد ، فدلوا بخفض زيد ، على إضافة الغلام إليه . وكذلك سائر المعانى ، جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ، ليتسعوا فى كلامهم ، ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك ، أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه ، وتكون الحركات دالّة على المعانى[١] » .

كما يقول الزجاجى أيضا : « وأصل الإعراب للأسماء ، وأصل البناء للأفعال والحروف ؛ لأن الإعراب إنما يدخل فى الكلام ، ليفرق بين الفاعل والمفعول ، والمالك والمملوك ، والمضاف والمضاف إليه ، وسائر ذلك

---

(١) الإيضاح فى علل النحو للزجاجى ٦٩ وعنه فى الأشباه والنظائر للسيوطى ١/٧٨

مما يعتور الأسماء من المعانى ، وليس شىء من ذلك فى الأفعال ولا الحروف[٢] » .

وكذلك يقول ابن فارس اللغوى : « فأما الإعراب فبه تميز المعانى ، ويوقف على أغراض المتكلمين ؛ وذلك أن قائلا لو قال : (ما أحسن زيد) غير معرب ؛ أو (ضرب عمرو زيد) غير معرب ، لم يوقف على مراده . فإذا قال : ما أحسن زيداً ، أو ما أحسنَ زيدٌ ، أو ما أحسنُ زيدٍ ؟ أبان بالإعراب عن المعنى الذى أراده . وللعرب فى ذلك ما ليس لغيرها ، فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعانى[٣] » .

وهذه نظرة سليمة ؛ فإن الجملة التالية ، إذا كانت غفلا من الإعراب ، احتملت معانى عدة ، فإن أعربت نصت على معني واحد : أكرم الناسُ محمداً – أكرم الناسَ محمدٌ – أكرمُ الناسِ محمدٌ – أكْرِمِ الناسَ محمدُ !

أما « قطرب » ، فإنه يرى وحده أن هذه الحركات ، جىء بها للسرعة فى الكلام ، وللتخلص من التقاء الساكنين ، عند اتصال الكلام ؛ فيقول : « وإنما أعربت العرب كلامها ؛ لأن الاسم فى حالة الوقف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضا ، لكان يلزمه الإسكان فى الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الإدراج ، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك ، جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ؛ ليعتدل الكلام ، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ، ومتحركين وساكن ، ولم يجمعوا بين ساكنين فى حشو الكلمة ، ولا فى حشو بيت ، ولا بين أربعة أحرف متحركة ؛ لأنهم فى اجتماع الساكنين يبطئون ، وفى كثرة الحروف المتحركة

---

(٢) الجمل للزجاجى ٢٦٠

(٣) الصاحبى فى فقه اللغة ١٩٠ وانظر كذلك : لمع الأدلة ، لابن الأنبارى ١٠٩

يستعجلون ، وتذهب المهلة فى كلامهم ، فجعلوا الحركة عقب الإسكان[٤] » .

هذا هو رأى قطرب ، وهو رأى لم يسبقه به أحد — فيما نعلم — ولم يتابعه عليه غيره من اللغويين أو النحويين ، فيما عدا أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس ، فى كتابه القيم : « من أسرار اللغة[٥] » ، ويظهر أنه تأثر برأى قطرب هذا ؛ إذ أشار إليه ناقلا إياه عن كتاب : « إحياء النحو » ، لإبراهيم مصطفى .

وقبل أن نشير إلى تفصيل نظرية الدكتور أنيس ونناقشها ، نود أن نذكر هنا أن رفع الفاعل ، ونصب المفعول ، وجر المضاف إليه ، وما أشبه ذلك ، كان من الحقائق المسلّمة ، التى لم يشكّ فيها واحد من النحاة القدامى ؛ ولذلك قالوا فى ردّهم على قطرب : « لو كان كما زعم ، لجاز خفض الفاعل مرة ، ورفعه أخرى ونصبه ، وجاز نصب المضاف إليه ، لأن القصد فى هذا ، إنما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل به الكلام ، وأى حركة أتى بها المتكلم أجزأته ، فهو مخيّر فى ذلك ، وفى هذا فساد للكلام ، وخروج على أوضاع العرب ، وحكمة نظام كلامهم[٦] » .

أما الدكتور إبراهيم أنيس ، فقد بدأ بمقدمة طويلة ، بين فيها كيف كان للنحاة سلطان على الشعراء والأدباء ، وأنهم لم يصادفوا من يهاجمهم إلا فى النادر ، من أمثال : « ابن مضاء القرطبى » ، الذى ألف كتابا ، تصدّى فيه لدحض علل النحاة . ثم يذكر الدكتور أنيس أن المحاولة الثانية ، كانت محاولة إبراهيم مصطفى فى كتابه : « إحياء النحو » ، وأنها كانت محاولة تعليمية ، لتيسير تلك القواعد الإعرابية على الناشئين .

---

(٤) الإيضاح للزجاجى ٧٠ وعنه فى الأشباه والنظائر للسيوطى ١/٧٩ وانظر رأى قطرب كذلك فى : مسائل خلافية للعكبرى ٩٥

(٥) فى الفصل الذى عقده لذلك بعنوان : « قصة الإعراب » — الطبعة الثالثة ص ١٨٣ — ٢٥٨ وممن تأثر به « فؤاد ترزى » فى كتابه : فى أصول اللغة والنحو ١٨٧ — ١٨٨

(٦) الإيضاح للزجاجى ٧١ وعنه فى الأشباه والنظائر للسيوطى ١/٧٩

ثم انتقل الدكتور أنيس بعد ذلك ، إلى البحث عن آثار هذا الإعراب فى اللغات السامية الأخرى ، غير أنه لم يتعرض للإعراب فى الأكادية والحبشية والأوجاريتية مع أن هذه اللغات الثلاث ، من أهم اللغات السامية فى موضوع الإعراب - كما سنعرف فيما بعد - واستأثرت العبرية ببحثه فى أقل من صفحة ، وقال إنها استأثرت ببحث المستشرقين كذلك ، وعلل اعتقادهم فى وجود الإعراب فى اللغات السامية « بتأثرهم بما حدث فى فروع الفصيلة الهندية الأوربية ، فقد عرفوا أن الوضع الإعرابى ، الذى يسمى : case - ending كان شائعا فى لغاتهم القديمة ، كاليونانية واللاتينية ، وأنه قد فقد من اللغات الأوربية الحديثة ، كالإنجليزية والفرنسية ، فتصوروا أن ما حدث فى التطور التاريخى للفصيلة الهندية الأوربية ، قد تمّ مثله فى الفصيلة السامية(٧) » .

وبعد أن استعرض الدكتور أنيس إعراب اللاتينية باختصار ، قال : « ولعل أهم فرق بين رموز الأسماء فى اللاتينية ، وبين حركاتنا الإعرابية ، أن الرموز اللاتينية لا تسقط مطلقا ، من نهاية الأسماء حين الوقف عليها ، كما يحدث غالبا للحركات الإعرابية فى لغتنا ، مما يجعلنا نرجح أن حركاتنا الإعرابية ، ليست رموزا لغوية ، تشير إلى الفاعلية أو المفعولية ، أو غير ذلك(٨) » .

وبعد أن درس ظاهرة الوقف ، فى اللغة العربية ولهجاتها ، بشىء من التفصيل ، خرج علينا الدكتور أنيس ، بنظريته الجديدة ، فى تفسير ظاهرة الإعراب فى اللغة العربية . ولنلخص نظريته فيما يلى :

١ - ليس للحركة الإعرابية مدلول ، فلا تدل الحركات الإعرابية ،

---

(٧) من أسرار اللغة ٢٠٢

(٨) من أسرار اللغة ٢٠٦ - ٢٠٧ ويذهب الدكتور داود عبده (أبحاث فى اللغة العربية ١٢٦) كذلك إلى أن الحركات فى أواخر كلمات العربية ، لم تكن تدل على فاعلية أو مفعولية أو نحوهما ، ويظن « أنها كانت فى الأصل جزءا من الكلمة ، وأنها كانت حركة واحدة فى جميع الحالات ، التى تقع فيها الكلمة » غير أنها اختلفت بعد ذلك ، باختلاف اللهجات .. إلى غير ذلك من الظنون ، التى لا دليل عليها !!

على فاعلية ، أو مفعولية ، أو إضافة ، أو غير ذلك .

٢ – هذه الحركات لا تعدو أن تكون حركات ، يحتاج إليها فى الكثير الغالب ، لوصل الكلمات بعضها ببعض ، بمعنى أنها حركات للتخلص من التقاء الساكنين ، عند وصل الكلام ، وأن معنى الفاعلية والمفعولية ، لا يستفاد من هذه الحركات ، وإنما من موقع كل من الفاعل والمفعول فى الجملة العربية . وحاول الدكتور أنيس – تبعا لذلك – أن يثبت نظاما معينا للجملة العربية القديمة ، يلى فيها الفاعُل الفعلَ ، ويسبق المفعول .

٣ – هناك عاملان تدخلا فى تحديد حركة التخلص من التقاء الساكنين ، أولهما : إيثار بعض الحروف لحركة معينة ، كإيثار حروف الحلق للفتحة مثلا ، وثانيهما : الميل إلى تجانس الحركات المتجاورة ، أو ما يسمى : Vowel Harmony .

٤ – سمع النحاة القدماء هذه الحركات ، فأخطئوا تفسيرها ، حين عدّوها علامات على الفاعلية والمفعولية وغيرها ، فى حين أنها لا تعدو أن تكون حركات وصل بين الكلمات .

٥ – وحين اعتقد النحاة أنها حركات إعرابية ، حركوا أواخر الكلمات التى لا داعى إلى تحريكها ، لتطّرد قواعدهم ؛ فقالوا مثلا : « الرجلُ قائم » بضم اللام من « الرجل » ، وكان يكفى أن يقال : « الرجلْ قائم » بتسكين اللام ؛ إذ لا توجد ضرورة تدعو إلى تحريكها .

٦ – الحالات التى ليس فيها ما يدعو إلى تحريك الآخر ، جاءت فى النثر والشعر على سواء ، ولا يؤثر ذلك على وزن الشعر من الناحية الذوقية ، وإن كان يخالف ما يشترطه العروضيون فى بعض الأحيان ؛ مثل بيت أبى ذؤيب الهذلى :

أَبَى القَلْبُ إِلَّا أُمَّ عَمْرٍو وَأَصْبَحَتْ
تُحَرِّقُ نَارِى بِالشَّكَاةِ وَنَارُهَا

فيرى الدكتور أنيس أن « كلمة : (تحرق) قد حرك آخرها ، دون ضرورة

ملحّة ، وأن إنشاد البيت بغير هذه الحركة ، لا يكاد يؤثر فى موسيقاه أو وزنه ، وكل الذى يترتب على مثل هذا الإنشاد ، أن تصبح (مفاعيلن) : (مستفعلْ) . وهذا التغيير الطفيف ، وإن لم يقل به أهل العروض ، فيما أظن ، لا يكاد يؤثر فى وزن البيت شيئا ، يشهد بهذا أصحاب الآذان الموسيقية المرهفة[٩] » .

٧ – أما المعرب بالحروف ، فكانت إحدى صوره تخص قبيلة معينة ، والصور الأخرى تخص قبائل أخرى ، ولكن النحاة جمعوا كل هذه الصور ، وخصوا كل صورة منها بحالة إعرابية معينة ؛ فهو يفترض مثلا أن هناك قبائل عربية ، كانت تنطق المثنى بالياء فى جميع الحالات ، ثم تطورت هذه الياء فصارت ألفا ، عند بعض القبائل فى جميع الحالات ، ولم يفهم النحاة سر الموضوع ، فجمعوا بين الصورتين ، وخصّوا الأولى بحالتى النصب والجر ، كما خصوا الثانية بحالة الرفع .

تلك هى نظرية الدكتور إبراهيم أنيس ، فى تفسير الإعراب فى العربية الفصحى . ونحب قبل أن نناقشها ، ونبين أن الإعراب كما يعرفه النحاة ، من خصائص اللغات السامية – أن نشير إلى أن نظريته هذه لم تلق قبولا لدى أى باحث من الباحثين ، بل انبرى أحدهم للرد عليه ، وهو الدكتور مهدى المخزومى[١٠] . ومن أبرز الاعتراضات التى أثارها ، أن نظرية الدكتور أنيس ، لا تستطيع أن تفسر اختلاف اللهجات العربية فى الوقف ؛ مثل لهجة أزد السراة ، الذين إذا وقفوا على المرفوع ، نطقوا بضمته وأطالوها ، فكأنما هى واو ، وإذا وقفوا على المكسور أطالوا كسرته ، فكأنما هى ياء ، فيقولون فى الجملتين : هل جاء خالد ؟ وهل مررت بخالد ؟ : خالدو ، وخالدى ، حين يريدون الوقف[١١] ؛ فيقول الدكتور المخزومى : « فإذا

---

(٩) من أسرار اللغة ٢٥٢

(١٠) فى كتابه : « مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو » ص ٢٤٩ – ٢٥٦

(١١) انظر : كتاب سيبويه ٢/٢٨١

لم تكن الحركات أعلاما لمعان قصد إليها المتكلم ، بل لم تَعْدُ أن تكون حركات يحتاج إليها فى الكثير من الأحيان ، لوصل الكلمات بعضها مع بعض ، فكيف يفسر الوقف على : خالد فى لغة من ينتظر (وهى لغة أزد السراة) ؟ ولماذا كانت الدال مرفوعة ومنصوبة ومخفوضة فى الجمل الثلاث ؟ ولماذا لا تكسر لتنسجم حركة الدال مع حركة اللام قبلها ؟ ... وعليه فإن القول بأن الحركات ، إنما هى سدّ للحاجة إلى وصل الكلمات بعضها ببعض ، وأنها ليست أعلاما للمعانى التى قصد إليها المتكلم ، قول لم يحالفه التوفيق[١٢] » .

وكان كلام الدكتور المخزومى قصيرا فى جملته ، كما أنه لم يشر إلى اللغات السامية الأخرى ، التى تعارض أصالة الإعراب فيها ، نظرية الدكتور أنيس تماما ، كما سنبين ذلك فيما بعد[١٣] .

ولم يكن الدكتور أنيس ، هو أول من شك فى حقيقة الإعراب ، وفسّره هذا التفسير ؛ فقد ذكرنا فى بداية حديثنا رأى قطرب ، فى أن الإعراب لم يدخل فى اللغة العربية للدلالة على المعانى ، وإنما دخل تخفيفا على اللسان ، ورأينا كيف ردّ اللغويون هذا الكلام ، ولم يأخذ به واحد منهم .

ومن المستشرقين من تشكك قبل الدكتور أنيس ، فى اللغة العربية الفصحى ، وفى أهم خصائصها ، وهو الإعراب كذلك . ومن هؤلاء « كارل فوللرز[١٤] » Karl Vollers الذى كان يرى أن النص الأصلى للقرآن ، قد كتب بإحدى اللهجات الشعبية ، التى كانت سائدة فى الحجاز ، والتى لا يوجد فيها كما لا يوجد فى غيرها تلك النهايات المسماة

---

(١٢) مدرسة الكوفة ٢٥١

(١٣) انظر ردا آخر قصيرا للدكتور صبحى الصالح ، فى كتابه : دراسات فى فقه اللغة ص ١٢٦ وانظر كذلك : فقه اللغة المقارن ، للدكتور إبراهيم السامرائى ١٢١

(١٤) فى كتابه : Volkssprache und Schriftsprache in alten Arabien « اللغة الشعبية واللغة الأدبية فى الجزيرة العربية القديمة » – شتراسبورج ١٩٠٦

بالإعراب ، وأنه انتقل إلى هذا النص فيما بعد ، الشكل الأدبى للغة العربية ، الذى هو عليه الآن . وهو يرى أن العربية الفصحى ، التى رواها لنا النحويون العرب ، والتى توجد فى القرآن ، كما احتفظ بها الشعر فى موازينه — هذه العربية يراها « فوللرز » مصنوعة ، وهو ينكر على الإطلاق أن تكون هذه اللغة ، كانت حية فى مكة ، على عهد النبى محمد ﷺ ، كما يشك أن يكون البدو الذين خرج من بينهم الشعراء ، كانوا يتكلمون هذه اللغة .

ومن المتشككين كذلك : « پاول كاله » Paul E . Kahle فى فصل من كتابه : « الذخائر القاهرية » Die Kairoer Genisa بعنوان : « نص القرآن العربى » ، يقول فيه : « جمع نص القرآن ، بعد وفاة النبى ﷺ ، بمدة وجيزة فى عام ٦٣٢ م ، وأخذ شكله النهائى فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٦٣٣ —٦٥٥) ، وهنا قامت مشكلة : كيف يقرأ هذا النص ويرتّل ؟ فقد ولد محمد ﷺ ، وانحدر — كمعظم مواطنيه — من القبيلة العربية : (قريش) . وكانت اللغة العربية التى يتكلمها ، هى لغة المواطن المثقف فى مكة . والنص القرآنى الخالى من الضبط بالشكل ، يعكس بوضوح اللغة العربية ، التى كانت تتكلم فى مكة . غير أن العرب كانوا قد تعودوا أن يعدّوا اللغة البدوية ، نموذجا للنطق الصحيح ، فبهذه اللغة نظم الشعر العربى الجاهلى ، وكان كل عربى مزهوًّا بذلك . وإذا كانت كلمة الله لايصح أن ترتل بلغة ، أقل مستوى من أية لغة أخرى ، فقد بدأت فى العواصم الإسلامية ، فى ذلك العصر المبكر — فى الكوفة والبصرة والمدينة ومكة — دراسة نشيطة للشعر البدوى ، فكان الرجال المهتمون بهذا النمط فى اللغة العربية ، يذهبون إلى جيرانهم من البدو ، ويجمعون ما أمكنهم من أشعارهم ، وما يتصل بها من الحكايات ، وهى فى الغالب أخبار عن الحروب الصغيرة ، التى جمعت تحت عنوان : أيام العرب . وقد اتخذت المادة التى جمعت بهذه الطريقة ، أساسا للعربية النموذجية ، التى ابتدعها النحويون ، ثم حذيت لغة القرآن على نمطها ، ومع

ذلك لم تغيّر كتابة المصحف ، بل ابتدعت طريقة ، تضاف فيها علامات مختلفة إلى النص ، لضمان صحة القراءة » .

ثم يقول باول كاله : « ولم تذكر كتب القراءات بوجه عام ، شيئا عن النشاط المبكر للقراء ؛ فقد ضاعت أو أهملت تلك الكتب التى ذكرت شيئا عن هذا النشاط ، فيما عدا خبراً ، عثرت عليه مؤخرا ، ويمكن أن يرى من خلاله ذلك التطور » .

ويظن « باول كاله » أنه عثر على بغيته ، فى اقتباس عن الفراء ، وجده فى مجموعة مخطوطة بمكتبة « تشستر بتى » Chester - Beatty رقم ٧٠٥ وفيه : « قال الفراء : وقد رأينا أهل القراءة ، الذين يعرفون الكتاب والسنة ، من أهل الفصاحة ، اجتمعوا على أنه نزل بأفصح اللغات ، فاعترض فى ذلك أقوام ممن ينظر فى الأشعار وأيام العرب ، فقالوا : إنما فضل القرآن من فضله ، لما أوجب الله من تعظيم القرآن ، فإذا صرنا إلى الفصاحة وجدناها فى أهل البوادى . واختلفوا فى ذلك ؛ فقال أهل الكوفة : الفصاحة فى أسد ؛ لقرب جوارهم منهم . وقال أهل البصرة : الفصاحة فى عليا تميم وسفلى قيس من عكل وعقيل . وقال أهل المدينة : الفصاحة فى غطفان ؛ لأنهم جيرانهم . وقال أهل مكة : الفصاحة فى كنانة بن سعد ابن بكر وثقيف . فأحببنا أن نردهم بالآثار والقياس والاعتبار ، إلى تفضيل لغة قريش على سائر اللغات ... قال : وسمع عمر بن الخطاب رجلا يقرأ : عتّى حين يريد : حتى حين ، فقال : من أقرأك هذا ؟ قال : عبد الله بن مسعود . قال : فكتب إلى عبد الله : إن القرآن نزل بلغة قريش ، ولم ينزل بلغة هذيل ، فأقرئه الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، وقال أبو بكر الصديق رحمه الله : إن إعراب القرآن ، لأحبّ إلىّ من حفظ بعض حروفه[١٥] ... وقال ابن مسعود : جَوِّدوا القرآن ، وزيّنوه بأحسن

(١٥) فى الإيضاح للزجاجى ٩٦ : « وقال أبو بكر وعمر : تعلم إعراب القرآن أحب إلينا من تعلم حروفه » . وانظر بعض الأحاديث المماثلة فى إيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنبارى ١٥ — ٢٢ والزينة لأبى حاتم الرازى ١١٧/١

الأصوات ، وأعربوه فإنه عربى ، والله يحب أن يعرب » .

وقد علق « كاله » على كلمة : « إعراب » فى نص أبى بكر الصديق ، بقوله : « الإعراب يعنى : الحركات فى أواخر الكلمات العربية ، طبقا لقواعد العربية الفصحى » . وقد استنتج « كاله » من ذلك أن « الإلحاح على طلب قراءة القرآن بالإعراب ، لا يبدو معقولا ، إلا إذا كان يقرأ فى الواقع بدون إعراب ، وأريد له أن يقرأ بالإعراب ، الذى عُدَّ فى وقت متأخر ، من مظاهر الصحة اللغوية » .

وهو مخطئ فى استنتاجه ذلك ؛ لأن الإعراب بمعناه الاصطلاحى ، لم يكن معروفا فى أيام أبى بكر وابن مسعود . ومعنى كلمة : « إعراب القرآن » فى هذه الأحاديث – إن لم تكن مزيفة – هو الوضوح والبيان فى قراءة القرآن الكريم .

وإذا كان هذان المستشرقان : « فوللرز » و« كاله » ، يريان هذا الرأى الغريب فى العربية الفصحى والإعراب ، فإن كثيرا من المستشرقين ، قد دافعوا عن أصالة الإعراب فى العربية ، مثل : « نولدكه » Th . Nöldeke الذى يرى فى مقالة له بعنوان : « ملاحظات على لغة العرب القدامى[١٦] » : « أنه من غير المعقول أن يكون محمد ﷺ ، قد استخدم فى القرآن ، لغة تخالف كل المخالفة ، تلك اللغة التى كانت شائعة فى مكة آنذاك ، وأن يكون قد اعتنى بالإعراب هذه العناية ، وقومه لا يستخدمون هذا الإعراب فى كلامهم » . كما يرى نولدكه : « أن شعر ذلك العصر ، كان يمثل لغة البدو ، التى كانوا يتحدثون بها فى ذلك الوقت ، والتى ظلوا يتحدثون بها زمنا طويلا بعد ذلك ، ولا يغير من هذه القضية شيئا ، أن لغة الشعر بها بعض الاختلاف عن لغة الحياة العامة ، وأن الشاعر ما كان يضطره وزن الشعر وأسلوبه ، إلى الإتيان بتعبيرات خارجة

---

(١٦) Einige Bemerkungen über die Sprache der alten Araber, ZA xii 172

عن المألوف ، وغير ذلك من الأمور التى لاحظها كذلك قدامى اللغويين العرب ، وسجلوها بدقة » .

ويستطرد « نولدكه » فى مقاله هذا إلى أن « فتسشتاين Wetzstein كان يرى هو أيضا ، أن لغة الشعر مصنوعة تماما ؛ فقد درس العربية الحديثة ، وتأثر بها إلى درجة أنه أصبح يرى أن القواعد ، التى نطالب بها من يريد التحدث بالعربية الفصحى ، عديمة الجدوى . ولم يذهب (فوللرز) إلى هذا الحدّ من التفكير بالنسبة للعربية ، ولكنه كان يرى أن اللغويين العرب ، قد جمعوا عناصر الإعراب بمهارة فائقة وأكملوها » .

ويرى « نولدكه » كذلك أنه « من الخطأ الشنيع ، الاعتقاد بأن اللغة الحية فى عهد النبى محمد ﷺ ، لم يكن فيها إعراب ؛ فإن العلماء فى عصر هارون الرشيد ، قد وجدوا الإعراب بكل دقائقه لدى البدو . ولكن ظاهرة الوقف الشائعة كثيرا فى الحديث اليومى ، قد عوّدت الأذن على سماع الصيغ الخالية من الإعراب ، فاستطاع أحد الشعراء استخدامها ، عند اتصال الكلام كذلك ، وعلى الأخص فى صيغة المضارع ، التى لا تتلاءم كثيرا مع وزن الشعر[١٧] » .

كما يرى « نولدكه » فى الفصل الذى كتبه عن « لغة القرآن » فى كتابه : « مقالات جديدة فى علم اللغات السامية[١٨] » أنه « لو كان النبى ﷺ ، أو أحد معاصريه من المؤمنين ، قد نطق بالقرآن دون إعراب ، لكان من غير الممكن أن تضيع الروايات الخاصة بذلك ، دون أن يبقى لنا آثار منها » .

وأخيرا يرى « نولدكه » كذلك ، أن « لهجة شديدة الانحراف عن عربية النحاة ، لا يناسبها مطلقا بحور الشعر المعروفة[١٩] » .

---

(١٧) انظر : Nöldeke, Zur Grammatik 10

(١٨) Nöldeke, Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft

(١٩) اللغات السامية ، لنولدكه ٧٥

ويقول المستشرق « يوهان فك » J. Fück : « قد احتفظت العربية الفصحى ، فى ظاهرة التصرف الإعرابى ، بسمة من أقدم السمات اللغوية ، التى فقدتها جميع اللغات السامية – باستثناء البابلية القديمة – قبل عصر نموها وازدهارها الأدبى . وقد احتدم النزاع ، حول غاية بقاء هذا التصرف الإعرابى ، فى لغة التخاطب الحىّ ، فأشعار عرب البادية – قبل الإسلام وفى عصوره الأولى – ترينا علامات الإعراب مطردة ، كاملة السلطان ، كما أن الحقيقة الثابتة ، من أن النحويين العرب كانوا – حتى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى على الأقل – يختلفون إلى عرب البادية ، ليدرسوا لغتهم ، تدل على أن التصرف الإعرابى ، كان فى أوج ازدهاره آنذاك ، بل لا نزال حتى اليوم ، نجد فى بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداة ، ظواهر الإعراب[٢٠] » .

ويقول المستشرق « برجشتراسر » G . Bergsträsser : « والإعراب سامى الأصل ، تشترك فيه اللغة الأكادية ، وفى بعضه الحبشية ، ونجد آثارا منه فى غيرها أيضا[٢١] » .

* * *

ونصل الآن إلى موقفنا من الإعراب ، ونظرية الدكتور أنيس فى تفسيره ، فنقول إن الإعراب فى العربية ، كان – كما يقول النحاة العرب – يدل على المعانى ، من الفاعلية والمفعولية وغيرها ، ولم يكن حركات وصل بين الكلمات ، كما يرى الدكتور أنيس . ودليلنا على ذلك عدة أمور :

أولا : وجود الإعراب كاملا فى بعض اللغات السامية القديمة ، كالأكادية ، وتشمل اللغتين : البابلية والآشورية فى عصورهما القديمة . وهذا قانون « حَمُورابى » (١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق م) ، المدون باللغة البابلية القديمة ، يوجد فيه الإعراب ، كما هو فى اللغة العربية الفصحى تماما ،

(٢٠) العربية ، ليوهان فك ١٥

(٢١) التطور النحوى ، لبرجشتراسر ١١٦

فالفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، وعلامة الرفع الضمة ، وعلامة النصب الفتحة ، وعلامة الجر الكسرة ، تماما كما فى العربية ؛ ففى الفقرة الأولى من هذا القانون ، نقرأ الجملة التالية : šummā awēlum awēlam ubbirma بمعنى : « إذا اتهم إنسان إنسانا » ؛ ففى هذه الجملة نجد awēlum الأولى بمعنى : « إنسان » فى حالة الفاعل ، وهى مرفوعة بالضمة . أما الميم الأخيرة ، فهى فى الأكادية ، تقابل التنوين فى اللغة العربية ، و awēlam الثانية فى حالة المفعول ، وهى منصوبة بالفتحة ، وبعدها التمييم كذلك .

وفى الفقرة الخامسة من قانون حمورابى : šummā dayānum dinam iddin بمعنى : « إذا حكم قاض حكما » ؛ فكلمة : dayānum بمعنى : « قاض » فى حالة الفاعلية ، وهى مرفوعة بالضمة ، وكلمة : dinam بمعنى : « حكم » فى حالة المفعولية ، وهى منصوبة بالفتحة .

وفى الفقرة ١٩٥ من هذا القانون : šummā maru abāšu imtaḫas بمعنى : « إذا ضرب ابن أباه » ، نجد كلمة : abāšu بمعنى : « أباه » ، وهى فى حالة المفعولية ، منصوبة بالألف ؛ لأنها من الأسماء الخمسة ، تماما كما فى العربية .

ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إن المثنى وجمع المذكر ، يماثلان فى الإعراب : المثنى والجمع فى العربية ، فيرفع المثنى بالألف ، وينصب ويجر بالياء ، التى تحولت إلى كسرة طويلة ممالة ، بعد انكماش الصوت المركب ، كما حدث فى اللهجات العربية الحديثة ، فى مثل : « مَرْكِبِينْ » ؛ فيقال فى الأكادية مثلا : īnān بمعنى : (عينان) فى حالة الرفع ، و īnēn فى حالتى النصب والجر . أما جمع المذكر ، فإنه يرفع بالواو ، وينصب ويجر بالياء ؛ فيقال مثلا : šarrū بمعنى : (ملوك)

فى حالة الرفع ، و šarri فى حالتى النصب والجر[٢٢] .

وقد اختلطت حالات الإعراب ، فى العصور المتأخرة للأكادية . ويرجح المستشرقون أن الإعراب ، كان قد زال من الاستعمال الحىّ فى تلك العصور ، وأن ما يوجد منه مختلطا فى الكتابة ، سببه محاولة تقليد الكتّاب ، للكتابات القديمة[٢٣] .

وتوجد حالات الإعراب كذلك ، فى اللغة الأوجاريتية ، وهى – كما عرفنا من قبل – إحدى اللغات السامية ، المكتشفة حديثا فى منطقة : « راس شمرا » على الساحل الشمالى لسوريا ، وهى مكتوبة بالخط المسمارى ، غير أنه يسير فيها على النظام الأبجدى ، ولا يوجد بها رموز لضبط الحركات ، إلا فى الرمز الدال على صوت الهمزة ، فإن هذا الرمز له ثلاث صور ، ونجد فى هذه الكتابات الأوجاريتية ، أن الكلمة إذا كانت منتهية بالهمزة ، صورت الهمزة فيها بإحدى الصور فى حالة الرفع ، وبالصورة الثانية فى حالة النصب ، وبالصورة الثالثة فى حالة الجر[٢٤] .

بل إن اللغة الحبشية ، تكفى هى أيضا للتدليل على أصالة الإعراب ، ودلالته على المعانى فى اللغة العربية ؛ إذ تظهر فى الحبشية حالة النصب ، التى تطابق من الناحية الإعرابية ، نظيرتها فى اللغة العربية ، إلى حد كبير .

ففى الحبشية يقال مثلا : waʾaḳamka lōtū kīdāna بمعنى : « وأقمتَ له عهداً » . وكذلك : reʾīku ḫaṭīʾata بمعنى : « رأيتُ

---

(٢٢) لا نريد الخوض فى تفاصيل اللغة الأكادية ، وحالات الإعراب فيها ، ويكفى أن نحيل الباحث ، على أحد المؤلفات المهمة فى قواعد اللغة الأكادية ، للمستشرق : « فون سودن » W.von Soden وهو : « الأساس فى قواعد الأكادية » Grundriss der akkadischen Grammatik – روما سنة ١٩٥٢ م .

(٢٣) انظر : فقه اللغات السامية لبروكلمان ١٠٢

(٢٤) انظر كتاب « جوردون » : C.H.Gordon,Ugaritic Manual,Roma 1955 وانظر كذلك : S.Moscati,An Introduction,95 .

خطيئةً » ، وكذلك مثل : fatarka lā‹lēhū mōta بمعنى : « كتبت عليه الموت[٢٥] » .

ويقول نولدكه : « وهذه حركة الفتح ، فى نهاية الماضى للغائب المذكر ، تلك الحركة التى ضاعت من اللهجات العربية الحديثة ، لا تزال موجودة فى لغة من اللغات السامية ، ابتعدت فيما عدا ذلك عن أخواتها الساميات بعداً كبيراً ، ونعنى بها اللغة الأمهرية فى الحبشية ، ولم يبق من هذه الفتحة فى اللغات السامية الأخرى ، إلا آثار ضئيلة (ولا سيما عند الاتصال ببعض ضمائر النصب) . ونحن نعدّ هذه الفتحة من مسائل الإعراب ، تماما كأى حركة إعراب أخرى[٢٦] » .

هذا ، وفى اللغات السامية الأخرى ، عدا الأكادية والأوجاريتية والحبشية ، بقايا حقيقية وأخرى مظنونة ، من حالات الإعراب ، التى كانت موجودة فى اللغة السامية الأم ، غير أن المقام لا يتسع لتفصيل القول فيها هنا[٢٧] .

ثانيا : القرآن الكريم ، الذى وصل إلينا متواتراً ، بالرواية الشفوية الموثوق بها جيلا بعد جيل ، وصل إلينا معربا . ولا نظن أحداً يعتقد أن النبى ﷺ ، كان لا يحرك أواخر الكلمات فى تلاوته لنص القرآن الكريم ، إلا حيث اقتضته ضرورة وصل الكلمات ، أو بعبارة أخرى ، حيث أراد التخلّص من التقاء الساكنين عند اتصال الكلام ، فمن غير الممكن ، ورواية القرآن الكريم إلى هذا الحد من التواتر ، أن نظن أن النبى ﷺ ، كان يتلو قوله تعالى فى سورة القلم : « ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون » ، بتسكين أواخر كلمات :

---

(٢٥) انظر كتابنا : نصوص من اللغات السامية ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢٦) انظر : Th.Nöldeke,Einige Bemerkungen,ZA,Bd.xii 172

(٢٧) أشار إلى هذه البقايا « بروكلمان » C.Brockelmann فى كتابة المشهور : Grundriss der vergleichenden Grammatik, I 459-766

القلم - بنعمة - ربك - وإنك - خلق ، حيث لا يوجد ما يدعو إلى تحريكها من الناحية الصوتية . إننا نعتقد أن ذلك لم يحدث ، ولو حدث لوصلت إلينا روايات عن ذلك . وقد كان « نولدكه » على حق ، عندما رأى - فى قوله الذى سبق أن ذكرناه هنا - أنه « لو كان النبى ﷺ ، أو أحد معاصريه من المؤمنين ، قد نطق بالقرآن دون إعراب ، لكان من غير الممكن أن تضيع الروايات الخاصة بذلك ، دون أن يبقى لنا آثار منها » .

ثالثا : الرسم القرآنى ، الذى نقل إلينا متواترا ، يؤيد وجود الإعراب فى العربية الفصحى ، وأنه ليس من اختراع النحاة ، وإلا فكيف نفسر وجود الألف فى الخط العثمانى ، فى حالة المنصوب المنون . وإننا إذا نظرنا مثلا فى قول الله تعالى : « وما الله بغافل » ، وقوله : « ولا تحسبن الله غافلا » ، عسر علينا فهم السرّ فى تحريك اللام فى : (غافل) الأولى بالكسرة ، وفى الثانية بالفتحة ، لو أن الأمر لا يعدو الانسجام الموسيقى ، والضرورة الصوتية . ومثل ذلك فى قوله تعالى : « إنا وجدناه **صابرا** نعم العبد » وقوله : « أليس ذلك **بقادر** على أن يحيى الموتى » ، وغير ذلك .

وقد تنبه إلى هذه النقطة ، الدكتور على عبد الواحد وافى ، فقال : « وإن فى رسم المصحف العثمانى نفسه ، مع تجرّده من الإعجام والشكل ، لدليلا على فساد هذا المذهب - وذلك أن المصحف العثمانى ، يرمز إلى كثير من علامات الإعراب بالحروف (المؤمنون ، المؤمنين ...) ، وعلامة إعراب المنصوب المنون (رسولا ، شهيدا ، بصيرا ...) وهلم جرّاً . ولا شك أن المصحف العثمانى ، قد دُوِّن فى عصر سابق بأمد غير قصير ، لعهد علماء البصرة والكوفة ، الذين تنسب إليهم هذه المذاهب الفاسدة ، اختراع قواعد الإعراب[٢٨] » .

رابعا : الشعر العربى بموازينه وبحوره ، لا يقبل نظرية الدكتور إبراهيم

---

(٢٨) فقه اللغة ، لعلى عبد الواحد وافى ٢٠٩

أنيس ، بحال من الأحوال ، ويكفى أن تقرأ بيتا كبيت بشر بن أبى خازم :

فَكَـأَنَّ ظُعْنَهُـم غَدَاةَ تَحَمَّلُـوا
سُفُنٌ تَكَفَّـأُ فى خَلِيـجٍ مُغْـرِبِ[٢٩]

بتسكين أواخر كلماته ؛ لتدرك إلى أى حد يفقد البيت وزنه الشعرى ، ووقعه الموسيقى على النفوس .

خامسا : هذه الأخبار الكثيرة ، التى وصلت إلينا ، والتى تدل على فطنة العلماء ، فى الصدر الأول ، إلى هذه الحركات الإعرابية ومدلولها ، وعيبهم من يحيد عنها ، ممن فسدت ألسنتهم ، بمخالطتهم للأعاجم . ونحن وإن كنا نشك فى صدق بعض هذه الأخبار ، لما يبدو فيها من مسحة التكلف والصنعة ، فإننا نرى فى جملتها دلالة صادقة ، على وجود الإعراب فى الكلام وشعور هؤلاء القوم به ، قبل أن يخرج النحاة بنظرياتهم على الناس .

فقد كتب كاتب لأبى موسى الأشعرى ، إلى عمر بن الخطاب : « من أبو موسى » . فكتب إليه عمر رضى الله عنه : « سلام الله عليك ، فاضرب كاتبك سوطا ، واحداً ، وأخِّر عطاءه سنة[٣٠] » .

ويروى عن أبى الأسود الدؤلى ، أنه سمع رجلا يقرأ : « أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِه » ، بكسر اللام ، فقال : « لا أظن يسعنى إلا أن أضع شيئا أصلح به نحو هذا[٣١] » .

ويروى أن أبا الأسود الدؤلى ، جاء إلى زياد بالبصرة ، فقال : إنى أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيّرت الألسنة ، أفتأذن لى أن أضع للعرب

---

(٢٩) ديوانه ق ٧/٤ ص ٣٥

(٣٠) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ٦ ونور القبس المختصر من المقتبس للمرزبانى ٣ وانظر : إيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنبارى ٢٥

(٣١) مراتب النحويين ٨ وأخبار النحويين البصريين للسيرافى ١٢ ونور القبس ٤ والفهرست لابن النديم ٦٦ ونزهة الألباء لابن الأنبارى ٣ وإنباه الرواة للقفطى ٥/١

كلاما يعرفون أو يقيمون به كلامهم ؟ قال : لا ، فجاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، توفى أبانا وترك بنونا . فقال زياد : توفى أبانا وترك بنونا . ! ادع لى أبا الأسود ، فقال : ضع للناس الذى نهيتك أن تضع لهم[٣٢] » .

ويروى أن ابنة أبى الأسود ، قالت لأبيها يوما : يا أبت ما أحسنُ السماء . قال : أىْ بُنَيَّة ، نجومُها . قالت : إنى لم أرد أى شيء منها أحسن ، وإنما تعجبت من حسنها . قال إذن فقولى : ما أحسنَ السماءَ ![٣٣]

كما يروى أن ابنته قالت له : يا أبت ، ما أشدُّ الحرِّ – فى يوم شديد الحرّ – فقال لها : إذا كانت الصقعاء (أى الشمس) من فوقك ، والرمضاء من تحتك . قالت : إنما أردت أن الحرّ شديد . قال : فقولى إذن : ما أشدَّ الحرَّ[٣٤] .

وقال رجل للحسن البصرى : يا أبو سعيد ، فقال له : كسب الدوانيق شغلك عن أن تقول : يا أبا سعيد[٣٥] .

ودخل رجل على زياد ، فقال له : إن أبينا هلك ، وإن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا ، فقال زياد : ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك[٣٦] .

ومثل ذلك حدث لسليمان بن عبد الملك ، فقد قام إليه رجل ، وقال : أصلح الله الأمير ، إن أبينا هلك ، فوثب أخانا ، وأخذ ما لنا ، فقال

---

(٣٢) أخبار النحويين البصريين ١٣ وطبقات النحويين للزبيدى ١٤ ونزهة الألباء ٥ وإيضاح الوقف والابتداء ٤٢ – ٤٣

(٣٣) أخبار النحويين البصريين ١٤ ونزهة الألباء ٥ وإنباه الرواة ١٦/١

(٣٤) أخبار النحويين البصريين ١٤ وطبقات النحويين للزبيدى ١٤ وإنباه الرواة ١٦/١

(٣٥) نور القبس المختصر من المقتبس للمرزبانى ٣ وإيضاح الوقف والابتداء ٥٨

(٣٦) عيون الأخبار ، لابن قتيبة ١٥٩/٢

سليمان : فلا رحم الله أباك ، ولا عافى أخاك ، ولا ردّ مالك . السَّوْط !! فلما أخذه السوط قال : بسمُ الله . قال سليمان : دعوه ، فلو كان تارك اللحن ، ترك الساعة(٣٧)

ودخل على عبد العزيز بن مروان ، رجل يشكو صهراً له ، فقال : إن خَتَنِى فعل كذا وكذا . فقال له عبد العزيز : ومن خَتَنَكَ ؟ قال : الخَتَّان الذى يختن الناس . فقال عبد العزيز لكاتبه : ويحك ، بم أجابنى ؟ فقال : أيها الأمير إنك لحنت – وهو لا يعرف اللحن – كان ينبغى أن تقول : من ختنُك ؟(٣٨)

ومرّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، على قوم يسيئون الرمى ، فقرّعهم ، فقالوا : إنا قوم متعلمين ، فأعرض مغضبا ، وقال : والله لخطؤكم فى لسانكم أشد علىّ من خطئكم فى رميكم(٣٩) .

واستأذن رجل على إبراهيم النخعى ، فقال : أبا عمران فى الدار ؟ فلم يجبه ، فقال : أبى عمران فى الدار ؟ فناداه : قل الثالثة وادخل(٤٠) .

ومثل ذلك يروى عن الحسن البصرى ؛ إذ قرع عليه الباب رجل ، وقال : يا أبو سعيد ، فلم يجبه ، فقال : يا أبى سعيد ، فقال الحسن : قل الثالثة وادخل(٤١)

كل هذه الروايات وأمثالها ، تدلنا على وجود الإعراب ، كما يعرفه النحويون فى العربية الفصحى ، كما تدلنا من جانب آخر ، على أنه لم يكن لغة سليقة لكل من تكلم العربية ، بدليل وقوع اللحن الإعرابى فى كلام هؤلاء القوم ، ومعظمهم من الموالى .

---

(٣٧) نور القبس المختصر من المقتبس للمرزبانى ٣ ومعجم الأدباء لياقوت ٨٦/١

(٣٨) نور القبس المختصر من المقتبس للمرزبانى ٣

(٣٩) معجم الأدباء ٦٧/١ وإيضاح الوقف والابتداء ٥٠

(٤٠) معجم الأدباء ٦٨/١

(٤١) معجم الأدباء ٧٩/١

سادسا : ومما يؤيد رأينا فى أن الإعراب ليس مصنوعا ، أن العلماء فى عصر هارون الرشيد ، كانوا يسمعونه بكل دقائقه من الأعراب الذين كانوا يلقونهم . وهذا هو سيبويه ، يروى فى كتابه كثيرا عنهم ، مثل قوله[٤٢] :

١ : ٣/١٤٧ : ومن ذلك قول العرب .
١ : ١٢/١٥٣ : وزعم أبو الخطاب أنه سمع بعض العرب الموثوق بعربيتهم .
١ : ٦/١٥٦ : وسمعنا أيضا من العرب من يوثق بعربيته يقول .
١ : ٨/١٦١ : وهذا مثل بيت سمعناه من بعض العرب الموثوق به يرويه .
١ : ٥/١٩٨ : وسمعنا العرب الموثوق بهم .
١ : ١/٢٠٢ : سمعنا ذلك ممن يوثق به من العرب .
١ : ١١/٢١٠ : وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم .
١ : ١٩/٢١٤ : كذا سمعنا العرب تنشده .
١ : ١٠/٢٢٧ : ولو أن هذا القياس لم تكن العرب الموثوق بعربيتهم تقوله ، لم يلتفت إليه ، ولكنا سمعناها تنشد هذا البيت جرّاً ... سمعنا من العرب من يرويه ، ويروى القصيدة التى فيها هذا البيت ، لم يلقنه أحد ، هكذا .
١ : ١٤/٢٥٠ : كذا سمعناه من العرب .
١ : ١٨/٢٥٨ : حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب ، عمن يوثق به من العرب .
١ : ٨/٢٧١ : وحدثنا الخليل أنه سمع من العرب من يوثق بعربيته ... وحدثنى أبو الخطاب أنه سمع من يوثق بعربيته من العرب .
١ : ١٨/٣٠٧ : وزعم لى بعض العرب .
١ : ٨/٤٥١ : وسمعنا عربيا موثوقا بعربيته .

---

(٤٢) وانظر أيضا : فهارس كتاب سيبويه ، للشيخ عضيمة ٣٦ - ٤١

١ :٨/٤٧٥ :وحدثنى من لا أتهم ، عن رجل من أهل المدينة موثوق به ، أنه سمع عربيا يتكلم .

ويزعم أبو زيد الأنصارى (المتوفى سنة ٢١٤ هـ) أنه هو المعنىّ بمثل عبارة سيبويه : « وسمعنا الثقة من العرب(٤٣) » .

وهذا ابن جنى فى القرن الرابع الهجرى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) ، يروى عنه أن البدو كانوا لا يزالون ينطقون بالإعراب فى عصره ؛ يقول ابن جنى : « وعلى نحو ذلك ، فحضرنى قديما بالموصل أعرابى عقيلى جوثى تميمى ، يقال له محمد بن العساف الشجرى ، وقلما رأيت بدويا أفصح منه ، فقلت له يوما شغفا بفصاحته ، والتذاذا بمطاولته ، وجريا على العادة معه فى إيقاظ طبعه ، واقتداح زند فطنته : كيف تقول : (أكرم أخوك أباك) ؟ فقال : كذلك ، فقلت له : أفتقول : (أكرم أخوك أبوك) ؟ فقال : لا أقول : (أبوك) أبدا . فقلت : فكيف تقول : (أكرمنى أبوك) ؟ فقال : كذاك . قلت ألست تزعم أنك لا تقول : (أبوك) أبدا ؟ فقال : أيشٍ هذا ؟ اختلفت جهتا الكلام ! فهل قوله : اختلفت جهتا الكلام ، إلا كقولنا نحن : هو الآن فاعل ، وكان فى الأول مفعولا ؟ فانظر إلى قيام معانى هذا الأمر فى أنفسهم ، وإن لم تقطع به عبارتهم(٤٤) » .

ونختم حديثنا فى هذه النقطة ، بما قاله الدكتور على عبد الواحد وافى : « وإذا أمكن أن نتصور أن علماء القواعد ، تواطئوا جميعا على اختلاق الإعراب ، فإنه لا يمكن أن نتصور أنه تواطأ معهم عليه ،

---

(٤٣) سيبويه ١ : ١٣/٣٣١ ويقول السيرافى : « وذكر أبو زيد النحوى اللغوى ، كالمفتخر بذلك بعد موت سيبويه ، قال : كل ما قاله سيبويه : وأخبرنى الثقة فأنا أخبرته » (أخبار النحويين البصريين ٣٧) . ويقول ياقوت : « وكان سيبويه إذا قال : سمعت الثقة ، يريد به : أبا زيد الأنصارى (معجم الأدباء ٢١٥/١١ وانظر : الاقتراح ٢١) .

(٤٤) معجم الأدباء ١٠٥/١٢ وهو فى الخصائص ٧٦/١ ؛ ٢٥٠/١ مع اختلاف فى الرواية . وانظر حوار آخر لابن جنى مع الشجرى هذا ، فى معجم الأدباء ١٠٦/١٢ — ١٠٩

جميع العلماء من معاصريهم ، فأجمعوا كلمتهم ألا يذكر أحد منهم شيئا ما ، عن هذا الاختراع العجيب ، ولا يعقل أن يقبل معاصروهم هذه القواعد ، على أنها ممثلة لقواعد لغتهم ، ويحتذوها فى كتاباتهم ، اللهم إلا إذا كان علماء البصرة والكوفة ، قد سحروا عقول النـاس واسترهبوهم ، وأنسوهم معارفهم عن لغتهم وتاريخها ، فجعلوهم يعتقدون أن ما جاءوا به من الإفك ، ممثل لفصيح هذه اللغة(٤٥) » .

★ ★ ★

وفيما يلى نشير إلى رأى المستشرقين فى تفسير حركات الإعراب فى اللغات السامية . وقد كتب فى ذلك منهم كل من « وليم رايت » W . Wright فى كتابه : « محاضرات فى النحو المقارن للغات السامية » Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages (كمبردج ١٨٩٠ م . ص ١٤٣) ، و « كارل بروكلمـان » فى كتابيـه : « فقـه اللغـات الساميـة » Semitische Sprachwissenschaft (ليبـزج ١٩٠٦ م . ص ١١١ -١١٢) ، وكتاب : « الأساس فى النحو المقارن للغات السامية » Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen (برلين ١٩٠٨ م - ١/٤٥٩ - ٤٦٠)

وخلاصة رأيهما أنه من الجائز أن تكون اللغة السامية الأم ، كانت تفرق بين حالة الرفع ، بوصفها حالة تحديد للمسند إليه ، وربما للمسند أيضا ، باللاحقة (u) ، وحالة الجر ، بوصفها حالة تحديد للاسم ، باللاحقة (i) ، وأخيرا حالة النصب ، بوصفها حالة تحديد للفعل ، باللاحقة (a) . والأصل الأول لكل لاحقة ، لا يعرف على وجه التأكيد ، وربما يكون الشكل الكامل للاحقة الخاصة بالنصب ، هو : (hā) الموجودة فى الحبشية فى الأعلام ، ولا سيما أعلام الأشخاص مثل :

---

(٤٥) فقه اللغة ، لعلى عبد الواحد وافى ٢٠٨

(re'īku yeṣḥāḳhā) بمعنى : « رأيت إسحاق » . وقد تكون (hā) هذه متصلة بسبب وثيق بـ (hā) الإشارية ، التى لا تزال تستخدم فى العربية للتنبيه ، وفى العبرية للتعريف فى أول الكلمة ، وفى الآرامية للتعريف فى آخرها ، بعد سقوط الهاء منها ، فى هذه اللغة الأخيرة . وتدل هذه الهاء فى الحقيقة ، على التوجه نحو شيء ما .

وقياسا على تفسير حالة النصب ، قد تكون لاحقة الرفع ، مختصرة من الضمير : « هو » ، أى أصل : « الملكُ » = الملكْ + هُو !

وأخيرا ، فبالنسبة إلى لاحقة الجر ، ليس الافتراض نهائيا ، أن تكون لها صلة بياء النسب ، التى أصابها التطور هنا ، فحذفت وبقيت الكسرة قبلها .

وعلى أى حال ، لم يقطع المستشرقون برأى ، وذلك لغموض الأصل ، وعدم وضوح الحجة والبرهان على رأى بعينه . وقد وجد تفسيرهم هذا لأصل حركات الإعراب من ينتقده ، ويذهب إلى أنه فروض ، دعا إليها تأثر المستشرقين بنظام لغاتهم ، وسبيل الإعراب والتصريف فيها(٤٦) .

★ ★ ★

أما متى ضاع الإعراب نهائيا من اللغة العربية ، فى الكلام الحىّ ، فلا نستطيع أن نقطع فى ذلك برأى . وقد صدق « نولدكه » حين قال فى مقاله السابق الذكر : « ملاحظات على لغة العرب القدامى » : « لسنا نعرف – بسبب قصور الرواية – إلى متى بقى الإعراب ، أو بعضه فى القبائل العربية ؛ فإن سكان مكة الذين اختلطوا ، منذ عصر مبكر فى الإسلام ، بعناصر أجنبية ، وكذلك سكان المدينة الذين تفرقوا عنها منذ يوم الحَرَّة – هؤلاء جميعا ، لم يحتفظ منهم إلا عدد قليل ، بالشكل القديم للغة ، ابتداء من النصف الثانى للقرن الأول الهجرى . أما فقدان البدو

---

(٤٦) من هؤلاء : إبراهيم مصطفى فى كتابه : إحياء النحو ٤٥

لظاهرة الإعراب على مرّ السنين ، فهو أمر حدث مثله فى تاريخ اللغات البشرية[٤٧] »

ويعلل « نولدكه » فى مقاله المذكور ، لضياع الإعراب من اللغة العربية ، فيرى أن الوقف على الكلمات العربية بالسكون ، فى كثير من الأحيان ، كان من الأمور التى ساعدت على فقدان الإعراب من الكلام[٤٨] ، كما يرى أن ثبات وضع الكلمات فى الجملة ، جعل فقدان الإعراب ، غير مؤثر فى وضوح المعنى .

وهو وإن كان على حق فى القضية الأولى ، فقد أخطأ فى القضية الثانية ؛ لأن جملة مثل : « ضرب محمد عليا » يمكن أن تقال فى العربية الفصحى بأوجه أخرى ، مثل : « ضرب عليا محمد » ، أو « محمد ضرب عليا » ، أو « عليا ضرب محمد » ، تبعا لاختلاف المقصود من الكلام . وهكذا نرى أن وضع الكلمات ، غير ثابت فى الجملة العربية القديمة ، وساعد على هذه الحرية فى وضع الكلمات فى الجملة ، ظهور الإعراب الذى كان يوضح وظيفة الكلمة فى اللغة ، ولولا ظهور الإعراب لاختلط الأمر فى الكثير من الأحيان ، فلو أسقطنا الإعراب من جملة : « ضرب محمد عليا » مثلا ، لاختلط علينا الأمر ، فلم نعرف الفاعل من المفعول .

ومثل ذلك فى آية : « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ[٤٩] » ، وآية : « أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ[٥٠] » ، وآية : « وإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ[٥١] » ، فلو أسقطنا الإعراب من هذه الآيات ، لجاز أن يكون المعنى فى الآية الأولى : أن الله يخشى العلماء من عباده ، وفى الثانية أن الله

---

(٤٧) انظر : Th.Nöldeke,Einige Bemerkungen,ZA xii 177

(٤٨) انظر كذلك : اللغات السامية ٨٠

(٤٩) سورة فاطر ٣٥/٢٨

(٥٠) سورة التوبة ٩/٣

(٥١) سورة البقرة ٢/١٢٤

برىء من المشركين ومن رسوله ، وفى الثالثة أن إبراهيم هو الذى ابتلى ربه ، وكل ذلك غير مراد ، بل هو كفر فى بعضه .

لهذا كله نرى أن الإعراب ، كان من الأمور التى تساعد على حرية بناء الجملة العربية ، وأن الجملة العربية ، لهذا السبب ، كانت تقال بأوجه عدة . وهذا هو ما كان الزجاجى يقصد إليه فى النص الذى اقتبسناه من كتابه « الإيضاح » قبل ذلك ، وهو قوله : «... وكذلك سائر المعانى ، جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ، ليتسعوا فى كلامهم ، ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك ، أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه ، وتكون الحركات دالة على المعانى » . فلما فقد الإعراب ، كان الواجب أن يلزم بناء الجملة نظاما واحدا ، وهو ما حدث فى اللهجات العربية الحديثة ؛ فإن جملة : « ضرب محمد عليا » مثلا ، أصبحت فى اللهجات الحديثة : « محمد ضرب على » ، بتقديم الفاعل ، والتثنية بالفعل ، ثم الإتيان بالمفعول به .



الفصل الثانى

مشكلة الخط العربى وأوهام اللغويين

قد يتعجب بعض الناس ، حين يرانا نعالج موضوع الخط العربى ومشكلاته ، فى إطار موضوعات فقه اللغة العربية ، ويرى أن اللغة التى تكون موضوع هذا العلم ، إنما هى اللغة المنطوقة ، وليست اللغة المكتوبة . غير أن الذى دعانا إلى ذلك ، هو أن اللغويين العرب القدامى ، قد تأثروا فى بعض الأحيان بالصورة المكتوبة ، وغفلوا عن النطق ، فوقعوا لذلك فى أوهام كثيرة فى قواعدهم وقوانينهم وأحكامهم اللغوية .

وسوف نعالج هنا أحد هذه الأوهام ، وهو أثر الخط العربى ، فى نظرة هؤلاء اللغويين ، إلى أصوات العلة العربية ، وهى التى تسمى فى الإنجليزية : Vowels وتُعَرَّف بأنها الأصوات المجهورة ، التى يحدث فى تكوينها أن يندفع الهواء فى مجرى مستمر ، خلال الحلق والفم ، وخلال الأنف ، معهما أحيانا ، دون أن يكون هناك عائق ، يعترض مجرى الهواء اعتراضا تاما ، أو تضييق لمجرى الهواء ، من شأنه أن يحدث احتكاكا مسموعا .

ويعرّفها « دانيال جونز D. Jones » بأنها « أصوات مجهورة ، يخرج الهواء عند النطق بها على شكل مستمر ، من الحلق والفم ، دون أن يتعرّض لتدخل الأعضاء الصوتية ، تدخلا يمنع خروجه ، أو يسبب فيه احتكاكا مسموعا[1] » .

وما عدا هذه الأصوات فى اللغة ، هى ما تسمى بالأصوات

---

(١) انظر : D.Jones,An Outline of English Phonetics,97

الصامتة ، أو ما يطلق عليها بالانجليزية : Consonants . وأصوات العلة فى العربية الفصحى ، هى ما سماه نحاة العرب بالحركات ، وهى الفتحة والضمة والكسرة ، وكذلك حروف المدّ ، كالألف فى : « قال » ، والواو فى : « يدعو » ، والياء فى : « القاضى » .

ولم تحظ أصوات العلة ، من قدامى اللغويين العرب ، بمثل ما حظيت به الأصوات الصامتة من العناية بها ، فإنهم على الرغم من إسهامهم فى علاج تلك الأصوات الصامتة ، واعتدادهم بها أصواتا مستقلة متمايزة ، رأيناهم يعالجون أصوات العلة علاجا سطحيا ، وينظرون إليها على أنها تابعة للأصوات الصامتة ، لا تستقل بنفسها فى النطق تماما ، كاستقلال الأصوات الصامتة .

ويعبر ابن جنى عن ذلك بقوله : « إن الحرف كالمحلّ للحركة ، وهى كالعَرَض فيه ، فهى لذلك محتاجة إليه[٢] » ، كما يقول : « لما كان الحرف قد يوجد ولا حركة معه ، وكانت الحركة لا توجد إلا عند وجود الحرف ، صارت كأنها قد حلّته ، وصار هو كأنه قد تضمّنها[٣] » . كما يرى سيبويه أن الحرف أقوى من الحركة ؛ فيقول : « لأنهم إذا فصلوا بين المذكر والمؤنث بحرف ، كان أقوى من أن يفصلوا بحركة[٤] » .

وقد أوقعهم فى هذا الخطأ ، أن الكتابة العربية ، لا ترمز إلى الحركات – أو أصوات العلة – القصيرة ، فى بنية الكلمة ، وإنما توضع رموزها فى الخط فوق الحرف أو تحته ، فتوهموا لذلك أنها تابعة للحرف ، وليست رمزا لصوت مستقل تمام الاستقلال ، لا يقل فى شأنه عن رمز الحرف للأصوات الصامتة .

وقد وقعوا فى خطأ آخر ، حين عدّوا حروف المدّ ، وهى الألف

(٢) سر صناعة الإعراب ٣٢/١

(٣) سر صناعة الإعراب ٣٧/١

(٤) كتاب سيبويه ٢٩٥/٢

فى مثل : « قام » ، والواو فى مثل : « يدعو » ، والياء فى مثل : « القاضى » – أصواتا صامتة ؛ ولذلك وضعوا قبل الألف علامة الفتحة ، كما وضعوا قبل الواو علامة الضمة ، وقبل الياء علامة الكسرة ، فى حين أن الألف والواو والياء ، فى مثل هذه المواقع ، علامات لأصوات : الفتحة الطويلة ، والضمة الطويلة ، والكسرة الطويلة . وقد وقعوا فى هذا الخطأ أيضا ، بسبب أن الخط العربى يرمز للحركات الطويلة ، برمز فى داخل بنية الكلمة ، بعكس الحركات القصيرة .

وهذا العيب فى الخط العربى ، يرجع إلى أصوله التى أخذ منها ، وهو الخط النبطى ، الذى كان منتشرا فى شمالى الجزيرة العربية ، فى الحيرة والأنبار وغيرهما ، قبل مجىء الإسلام . والنبط قوم من الساميين ، كانوا يتكلمون لهجة آرامية ، من تلك اللهجات الآرامية ، التى كانت شائعة فى سوريا والعراق فى ذلك الوقت ، وقد اشتقوا خطوط أبجديتهم من الخط الفينيقى ؛ فقد وضع الفينيقيون – وهم من الأقوام السامية القديمة – نظاما من الرموز لأبجديتهم ، ورثها عنهم بعض شعوب العالم القديم ، بعد أن أحدثوا فيها بعض التغييرات ، على مرّ الزمان .

وعلى الرغم من أن أصوات العلة ، قصيرها وطويلها ، أوضح فى السمع من الأصوات الصامتة بكثير ؛ فإن هؤلاء الساميين ، لم يرمزوا لها فى خطوطهم منذ البداية ، سواء فى ذلك القصير منها والطويل ؛ فكلمة : « كتاب » مثلا ، كانت تكتب : « كتب » ، و « عمود » كانت تكتب : « عمد » و « جميل » كانت تكتب : « جمل » وهكذا[٥] .

ثم حدث تطور صوتى فى اللغة ، ترتب عليه أن اكتسب بعض رموز الأصوات الصامتة ، صفة الدلالة على أصوات العلة الطويلة ؛ فقد كانت الألف فى الأصل رمزا للهمزة فى مثل : « أكل » و « رأس » و« ملأ »

(٥) يلاحظ أن هذه الأمثلة لتقريب الأمر فى الأذهان ؛ إذ لم يحدث ذلك فى الخط العربى ، وإنما حدث فى الخط السامى القديم .

مثلا ، كما كان كل من حرفى الواو والياء رمزا للصوت الصامت ، فى مثل : « ولد » و « يكتب » و « يوم » و « بيت » وغير ذلك . ثم حدث أن ضاعت الهمزة فى غير أول الكلمة ، وتحوّل الصوت المركب (aw) و (ay) فى مثل : « يَوْم » و « بَيْت » إلى حركة طويلة : (ō) و (ē) . ومع حدوث هذا التطور فى النطق ، كان الخط ثابتا ، فكان الناطق ينطق مثلا : rās ، ويكتب : « راس » ؛ كما ينطق : yōm ويكتب : « يوم » ؛ وينطق : bēt ويكتب : « بيت » ... إلى غير ذلك .

وهكذا بعد أجيال ، بدا للناس كأن الألف رمز للفتحة الطويلة ، إلى جانب أنها رمز للهمزة ، مع أنها كانت فى الأصل رمزاً للهمزة فحسب ، ومثل ذلك ظنه الناس فى الواو والياء ، أنهما رمزان للضمة الطويلة والكسرة الطويلة ، إلى جانب أنهما رمزان لصوتى الواو والياء الصامتين .

وعندما استقر ذلك فى الأذهان ، استعيرت هذه الرموز للدلالة على الحركات الطويلة ، فى الكلمات التى لم يكن فيها أصلا مثل تلك الرموز ؛ وذلك مثل : « كتاب » و « عمود » و « جميل » وغيرها ، غير أن ذلك لم يحدث فى أول الأمر بصفة مطردة . وعندما أخذ العرب الخط من النبط ، وجدوهم قد وصلوا إلى هذه المرحلة ، ولهذا فإننا نلحظ آثار عدم الاطراد هذا ، فى الخطوط العربية القديمة ، كالخط العثمانى الذى كتب به المصحف ، على عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ ففيه كلمات مثل : « أموال » و « كلالة » وغيرهما ، كتبت : « أمول » و « كللة » بدون الألف ، ومثل : « يدعو » و « يأتى » ، كتبت : « يدع » و « يأت » مع عدم وجود جازم قبل هذه الأفعال(٦) . وعلى الرغم من تعميم استخدام هذه الرموز الثلاثة – فيما بعد – للدلالة على الحركات الطويلة ، ظلت فى الكتابة العربية بقايا للنظام القديم فى الخط ؛ وإننا لا نزال حتى الآن نكتب : « هذا » و « ذلك » و « لكن » بدون ألف المد .

---

(٦) انظر أمثلة وتفصيلات لذلك ، فى معانى القرآن للفراء ١/٢٠٠ – ٢٠١

أما رموز الحركات القصيرة ، الموجودة فى الخط العربى حاليا ، فهى من عمل : « الخليل بن أحمد » اللغوى المشهور ، فى القرن الثانى الهجرى . ولم يكن الخليل بن أحمد أول من فكر فى ضبط الكتابة العربية بالحركات القصيرة ؛ فقد سبقه إلى ذلك « أبو الأسود الدؤلى » من علماء القرن الأول الهجرى .

وكانت العناية بالقرآن الكريم ، وصيانته عن اللحن ، هى التى دعت العلماء فى الصدر الأول للإسلام ، إلى البحث عن طريقة ، تمنع من يتلو النص القرآنى ، من الوقوع فى اللحن ، بسبب خلوه من رموز الحركات . وتنسب الروايات الإسلامية إلى أبى الأسود الدؤلى ، أنه كان أول من فكر فى وضع رموز للحركات ، يضبط بها الرسم القرآنى ، الذى كان يخلو من هذه الرموز ؛ فيروى عن المبرد أنه قال : « لما وضع أبو الأسود الدؤلى النحو ، قال : ابغوا لى رجلا ، وليكن لَقِناً ، فطلب الرجل ، فلم يوجد إلا فى عبد القيس ، فقال أبو الأسود : إذا رأيتنى لفظت الحرف فضممت شفتى ، فاجعل أمام الحرف نقطة ، فإذا ضممت شفتى بغنة ، فاجعل نقطتين ، فإذا رأيتنى قد كسرت شفتى ، فاجعل أسفل الحرف نقطة ، فإذا كسرت شفتى بغنة ، فاجعل نقطتين ، فإذا رأيتنى قد فتحت شفتى ، فاجعل على الحرف نقطة ، فإذا فتحت شفتى بغنة ، فاجعل نقطتين(٧) » .

وكانت تلك النقط الخاصة بالشكل ، تكتب بصبغ يخالف لون المداد ، الذى كتبت به الحروف ونقط إعجامها ، فكان ذلك يشق على الكاتب ، إذ كان يتحتم عليه ، أن يكتب بقلمين ومدادين مختلفين ، حتى جاء الخليل بن أحمد ، فوضع الشكل الذى نكتب به حتى الآن ؛ يقول المبرد أيضا : « الشكل الذى فى الكتب من عمل الخليل ، وهو مأخوذ من صور الحروف ، فالضمة واو صغيرة الصورة فى أعلى الحرف ؛ لئلا

---

(٧) انظر : المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٦ وإيضاح الوقف والابتداء ٤٠ - ٤١

تلتبس بالواو المكتوبة ، والكسرة ياء تحت الحرف ، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف[٨] » .

ومع أن الخليل بن أحمد ، قد وضع هذا الشكل المريح ، فإن العلماء غبروا زمانا طويلا ، لا يجرءون على استخدامه فى ضبط النص القرآنى ، ويفضلون عليه نقط أبى الأسود الدؤلى ، اتباعا للسلف ، ويسمون ضبط الخليل : « شكل الشعر » ، وكل ذلك لصيانة القرآن الكريم ، عن أن يتعاوره المتعاورون بالتبديل والتغيير . وهذا هو أبو عمرو الدانى (المتوفى سنة ٤٤٤ هـ) يقول : « وإنما جعلنا الحركات المشبعات ، نقطا مدوّرة على هيئة واحدة وصورة متفقة ، ولم نجعل الفتحة ألفا مضجعة ، والكسرة ياء مردودة ، والضمة واوا صغرى – على ما ذهب إليه سلف أهل العربية ؛ إذ كن مأخوذات من هذه الحروف الثلاثة ، دلالة على ذلك – اقتداء منا بفعل من ابتدأ النقط من علماء السلف ، بحضرة الصحابة رضى الله عنهم ، واتباعاً له ، واستمساكا بسنته ؛ إذ مخالفته مع سابقته وتقدمه لا تسوغ ، وترك اقتفاء أثره فى ذلك ، مع محله من الدين ، وموضعه من العلم ، لا يسع أحدا أتى بعده[٩] » !! كما يقول الدانى كذلك : « وترك استعمال شكل الشعر ، وهو الشكل الذى فى الكتب ، الذى اخترعه الخليل ، فى المصاحف الجامعة من الأمهات وغيرها ، أولى وأحق اقتداء بمن ابتدأ النقط من التابعين ، واتباعا للأئمة السالفين[١٠] » .

ومع هذه المعارضة الشديدة لطريقة الخليل ، فى ضبط الخط العربى ؛ فقد عمت هذه الطريقة ، وطغت على طريقة أبى الأسود الدؤلى ، واستخدمت كذلك فى ضبط النص القرآنى ، ولا نزال نستخدمها حتى اليوم .

---

(٨) المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٧

(٩) المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٤٢

(١٠) المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٢٢

ولم يكتف الخليل بن أحمد ، بوضع هذه الرموز للحركات القصيرة فحسب ، بل إن كثيرا من الرموز الأخرى ، التى نستخدمها فى الكتابة إلى يومنا هذا ، من صنعه كذلك ؛ مثل : رمز السكون ، وهو عبارة عن رأس خاء صغيرة ، اختصاراً من كلمة : « خفيف » بمعنى : غير محرّك[١١] . وكذلك : رمز الشدّة ، وهو مختصر من كلمة : « شديد[١٢] » . حتى رمز الهمزة الذى نستخدمه اليوم ، لم يكن معروفا فى الكتابة قبل الخليل ، وقد اقتطع من رأس العين[١٣] ؛ ولذلك يسمى فى بعض الأحيان : « القطعة » ، ولعله اقتطعه من العين لقرب الهمزة من العين فى المخرج[١٤] . ويقول السيوطى : « وأول من وضع الهمز والتشديد الخليل[١٥] » . أما رمز الهمزة القديم ، فهو الألف[١٦] . غير أن انتشار الخط فى الحجاز ، تم على نطاق واسع بين القرشيين ، الذين لم يكونوا يهمزون فى كلامهم[١٧] ، فكان يترتب على تركهم الهمز ، نشوء حركات طويلة ، يتحدد نوعها باختلاف أماكن ورودها فى الكلمة ، فكان الحجازيون ينطقون مثلا : « راس » و « بير » و « يومن » و « سما » ؛ وفى ذلك يقول ابن جنى : « اعلم أن الألف التى فى أول حروف المعجم ، هى صورة الهمزة ، وإنما كتبت الهمزة واواً مرة وياء أخرى ، على مذهب أهل الحجاز فى التخفيف . ولو أريد تحقيقها البتة ، لوجب أن تكتب ألفا على كل حال[١٨] » . كما يقول أحمد بن محمد الرازى : « وأما الهمزة المحققة ،

---

(١١) المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٥٢

(١٢) المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٤٩

(١٣) المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ١٤٧

(١٤) تاريخ الأدب ، لحفنى ناصف ٧٦ ويسميها الأستراباذى فى شرح الشافية ٣٢٠/٣ : العين البتراء .

(١٥) الإتقان فى علوم القرآن ١٧١/٢

(١٦) انظر للتعبير عن الهمزة بالألف ، ولو كانت مكتوبة بالياء : كتاب ما تلحن فيه العوام ، للكسائى ٢٩ وفى المعرب للجواليقى ١٣ : « باب الهمزة التى تسمى الألف » .

(١٧) انظر : شرح الشافية للأستراباذى ٣١/٣ وشرح مراح الأرواح ٩٩

(١٨) سر صناعة الإعراب ٤٦/١

فأصلها أن تكتب على صورة الألف اللينة ، وإنما تكتب مرّة واواً وأخرى ياءً ، على مذهب التخفيف[١٩] » .

وعندما ابتكر الخليل رمزا للهمزة – لتستكمل به الكتابة العربية عدّتها ، فى مطابقتها للنطق العربى الفصيح ، الذى استعار التزام الهمز فى الكلام من لهجة تميم – لم يُرِد أن يغيِّر الرسم الإملائى ، الذى كان قد استقر وشاع ، فاخترع هذا الرمز الجديد ، واقتطعه من رأس العين ، ووضعه فى الكلمة حيث وجد له حاملا ؛ فالحامل له فى : « رأس » الألف ، وفى : « بئر » الياء ، وفى : « يؤمن » الواو ، وفى : « سماء » لا يوجد حامل ؛ فوضع الهمزة لذلك على السطر بلا حامل .

وليس هذا الذى نقوله دعوى بلا سند ، فكل النصوص العربية القديمة ، التى وصلت إلينا فى البرديات المختلفة ، تخلو من رمز الهمزة الذى نعرفه تماما[٢٠] ؛ لأن الرمز القديم لها ، وهو الألف ، اكتسب عند الحجازيين صفة الدلالة على الفتحة الطويلة ، مع أنه الرمز الأصلى للهمزة ، ولو أن الخط شاع وانتشر أول الأمر ، فى بيئة تستخدم الهمز فى كلامها ، كبيئة تميم مثلا ، لوجدنا الهمزة تصور بصورة الألف دائما ، فى أى موقع من الكلمة . ويؤيدنا فى رأينا هذا ابن يعيش ، إذ يقول : « ... والصواب ما ذكره سيبويه وأصحابه ، من أن حروف المعجم تسعة وعشرون حرفا ، أولها الهمزة ، وهى الألف التى فى أول حروف المعجم ، وهذه الألف هى صورتها على الحقيقة ، وإنما كتبت تارة واواً أخرى ، على مذهب أهل الحجاز فى التخفيف ، ولو أريد تحقيقها لم تكن إلا ألفا على الأصل ، ألا ترى أنها إذا وقعت موقعا ، لا تكون فيه إلا محققة ، لا يمكن فيه تخفيفها – وذلك إذا وقعت أولا – لا تكتب إلا ألفا ، نحو : أعلم ، أذهب ، أخرج . وفى الأسماء : أحمد ، إبراهيم ، أترجّة ... وأمر آخر يدل على أن صورة الهمزة صورة الألف ،

(١٩) الحروف ٥٦ وسر صناعة الإعراب ١/٤٦

(٢٠) انظر مثلا : A.Grohmann,From the world of Arabic Papyri

أن كل حرف سمّيته ، ففى أول حروف تسميته لفظه بعينه ، ألا ترى أنك إذا قلت : باء ، ففى أول حروفه باء ، وإذا قلت : تاء ، ففى أول حروفه تاء ، وكذلك جيم ودال وسائر حروف المعجم ؛ فكذلك إذا قلت : ألف ، فأول الحروف التى نطقت بها همزة ، فدل ذلك أن صورتها صورة الألف[٢١] » .

ولسنا نريد هنا الخوض فى تفاصيل نشأة الخط العربى وتطوره ، وإنما يهمنا هنا أن نشير إلى أن الخط العربى بصورته الحالية ، كان من الأسباب التى أدت باللغويين القدامى ، إلى عدّ أصوات العلة أصواتا ثانوية ، بالنسبة للأصوات الصامتة . ويدلّك على هذا أيضا : ذلك الجدل ، الذى يثيره ابن جنى حول الحركة القصيرة ، أهى قبل الحرف ، أو معه ، أو بعده ؟ وبدلا من أن يلجأ إلى التجربة ، أخذ يستخدم منطق أرسطو ، فى التدليل على أن الحركة القصيرة تقع بعد الحرف ، مثلها فى ذلك مثل حروف المدّ ، وهى الألف والواو والياء ؛ فيقول : « واعلم أن الحركة التى يتحملها الحرف لا تخلو أن تكون فى المرتبة قبله ، أو معه ، أو بعده ؛ فمحال أن تكون الحركة فى المرتبة قبل الحرف ، وذلك أن الحرف كالمحل للحركة ، وهى كالعرض فيه ، فهى لذلك محتاجة إليه ، ولا يجوز وجودها قبل وجوده . وأيضا لو كانت الحركة قبل الحرف ، لما جاز الإدغام فى الكلام أصلا ، ألا ترى أنك تقول : قطَّع ، فتدغم الطاء الأولى فى الثانية ، ولو كانت حركة الطاء الثانية فى الرتبة قبلها ، لكانت حاجزة بين الطاء الأولى ، وبين الطاء الثانية . ولو كان الأمر كذلك ، لما جاز إدغام الأولى فى الثانية ؛ لأن الحركة على هذه المقدَّمة ، مرتبتها أن تكون قبل الطاء الثانية ، بينها وبين الأولى . وإذا حجز بين الحرفين حركة ، بطل الإدغام . فجواز الإدغام فى الكلام ، دلالة على أن الحركة ليست قبل الحرف المتحرك بها ؛ فقد بطل بما ذكرناه ،

---

(٢١) شرح المفصل ، لابن يعيش ١٢٦/١٠ وانظر كذلك : سر صناعة الإعراب ، لابن جنى ٤٦/١ — ٤٧ وشرح التصريف الملوكى ١٠٢

أن تكون حركة الحرف فى الرتبة قبله ، وبقى أن تكون معه أو بعده ، وفى الفرق بينهما بعض الإشكال . فالذى يدل على أن حركة الحرف فى المرتبة بعده ، أنك تجدها فاصلة بين المثلين أو المتقاربين ، إذا كان الأول منهما متحركا ؛ فالمثلان نحو قولك : قصص ، ومضض ، وسرر ، وخضض ، ومرر ، وقدد ؛ فلولا أن حركة الحرف الأول فى هذين المثلين بعده ، لما فصلت بينه وبين الذى هو مثله بعده ، ولو لم تفصل لوجب الإدغام ؛ لأنه لا حاجز بين المثلين ، فإن ظهر هذان المثلان ، ولم يدغم الأول منهما فى الآخر منهما ، فظهورهما دلالة على فصل واقع بينهما ، وليس ها هنا فصل البتة ، غير الحركة المتأخرة عن الحرف الأول[٢٢] » .

أما أبو على الفارسى ، فإنه لم يتصور إمكان استقلال الحركة بالنطق ، ولم يستطع أن يفرق بين الحرف الصامت والحركة ، هذه التفرقة ؛ فكان يرى أن « الحركة تحدث مع الحرف » ؛ يقول ابن جنى : « واستدل أبو على على أن الحركة تحدث مع الحرف ، بأن النون الساكنة إذا تحركت ، زالت عن الخياشيم إلى الفم ، وكذلك الألف إذا تحركت انقلبت همزة ؛ فدلّ ذلك عنده ، على أن الحركة تحدث مع الحرف . وهو لعمرى استدلال قوىّ[٢٣] » .

وقد فات أبا علىّ الفارسى ، أن الذى يزول عن الخياشيم إلى الفم ، هو الحركة وليست النون ، وأن الذى يتحرك هو الهمزة ، وليست ألف المدّ ؛ لأن ألف المدّ حركة طويلة ، والحركة لا تحرّك .

حقا يحمد لابن جنى ، أنه فطن إلى العلاقة بين ما يسمى بالحركات القصيرة ، وحروف المد ؛ فقال : « اعلم أن الحركات أبعاض حروف المدّ

---

(٢٢) سر صناعة الإعراب ٣٢/١

(٢٣) سر صناعة الإعراب ٣٧/١ ومع تحمس ابن جنى لرأى أستاذه أبى على الفارسى هنا ، ووصفه دليله بأنه « استدلال قوى » ، فإنه لم يرتض هذا الرأى فى كتابه : الخصائص (٣٢٤/٢) ، وردّ استدلاله هناك فانظره .

واللين ، وهى الألف والياء والواو ، فكما أن هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاث ، وهى الفتحة والكسرة والضمة ، فالفتحة بعض الألف ، والكسرة بعض الياء ، والضمة بعض الواو . وقد كان متقدمو النحويين ، يسمون الفتحة الألف الصغيرة ، والكسرة الياء الصغيرة ، والضمة الواو الصغيرة . وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة ؛ ألا ترى أن الألف والياء والواو ، اللواتى هن حروف توامّ كوامل ، قد تجدهن فى بعض الأحوال ، أطول وأتم منهن فى بعض ؛ وذلك قولك : يخاف وينام ، ويسير ويطير ، ويقوم ويسوم ، فتجد فيهن امتداداً واستطالةً ما ، فإذا أوقعت بعدهن الهمزة ، أو الحرف المدغم ، ازددن طولا وامتداداً ؛ وذلك نحو : يشاء ويداء ، ويسوء ويهوء ، ويجىء ويفىء . تقول مع الإدغام : شابّة ودابّة ... أفلا ترى إلى زيادة المدّ فيهن ، بوقوع الهمزة والمدغم بعدهن ، وهن فى كلا موضعيهن يسمين حروفا كوامل ، فإذا جاز ذلك ، فليست تسمية الحركات حروفاً صغاراً ، بأبعد فى القياس منه . ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف ، أنك متى أشبعت واحدة منهن ، حدث بعدها الحرف الذى هى بعضه[٢٤] » .

كما يقول ابن جنى كذلك : « الضمة قد تجرى مجرى الواو ، وهى واو صغيرة ، كما أن الكسرة ياء صغيرة ، والفتحة ألف صغيرة . وهذه الحروف عن هذه الحركات تنشأ متى كنّ مدّات ، نحو : رسالة وصحيفة وعجوز[٢٥] » .

هذا ما يقوله ابن جنى ، ومنه نفهم أنه أحسّ ، كما يحسّ علماء الأصوات من المحدثين ، أن الفرق بين الحركات وحروف المد ، ليس إلا فرقا فى الكمية والزمن ، الذى يستغرقه نطق كل واحد منهما ؛ فإنك تقول : « ضَرَبَ » ، ثم تطيل الزمن الذى تستغرقه فى نطق الفتحة بعد الضاد ،

---

(٢٤) سر صناعة الإعراب ١/١٩

(٢٥) المنصف لابن جنى ١/٢١٣ وانظر كذلك : الخصائص ٢/٣١٥

فتصير الكلمة : « ضَارَبَ » . ومثل ذلك فى : « ضُرِبَ » المبنى للمجهول ، و « ضُورِبَ » ، و « مساكن » و « مساكين » ، وأشباه ذلك .

وقد أحسّ بعض العلماء ، بازدواج وظيفة رمزى الواو والياء ، فى الكتابة العربية ، واختلافهما إذا كانتا رمزين للضمة الطويلة والكسرة الطويلة ، عنهما إذا كانتا رمزين للواو والياء من الأصوات الصامتة ؛ فقال الأزهرى : « والواو والياء إذا جاءتا بعد فتحة قويتا ، وكذا إذا تحركتا كانتا أقوى . ومن تبيان ذلك أن الألف اللينة ، والياء بعد الكسرة ، والواو بعد الضمة ، إذا لقيهن حرف ساكن ، بعدهن سقطن ... والياء والواو بعد الفتحة ، إذا سكنتا ولقيهما ساكن بعدهما ، فإنهما يتحركان ولا يسقطان أبدا ؛ كقولك : لَوِ انْطَلَقتَ يافلان[٢٦] » .

كما يقول المبرد : « تقول إذا بنيت فُوعِلَ من سرت : سُويِرَ . فإن قال قائل : هلا أدغمت الواو فى الياء ، كما قلت فى لَيَّة وأصلها : لَوْيَة ... ؟ فالجواب فى ذلك : أن واو (سُويِرَ) مدّة ، وما كان من هذه الحروف مدّاً ، فالإدغام فيه محال ؛ لأنه يخرج من المدّ ، كما أن إدغام الألف محال . والدليل على أن هذه الواو مدّة ، أنها منقلبة من ألف ، ألا ترى أنها كانت : (سَايَرَ) ، فلما بنيت الفعل بناء مالم يسمّ فاعله قلت : سُويِرَ ، فالواو غير لازمة[٢٧] » .

فقد أحسّ هذان العالمان الجليلان ، أن الياء والواو فى مثل : « ولد » و « يقع » و « لون » و « بيت » ، غيرهما فى مثل : « عجوز » و « قتيل » وغيرهما ، فهما من فصيلة الأصوات الصامتة ، فى الأمثلة الأربعة الأولى ، بعكس المثالين الأخيرين ، فهما فيهما من فصيلة أصوات العلة الطويلة ، وهى ما سماه علماء العربية ، بحروف المدّ .

* * *

(٢٦) تهذيب اللغة ، للأزهرى ٥٢/١

(٢٧) المقتضب للمبرد ١٧٢/١

وقد أدى هذا الازدواج فى وظيفة الرموز الثلاثة : « الألف والواو والياء » فى الخط العربى – إلى أن عدّهم اللغويون العرب ، فى حالة دلالتهم على الحركات الطويلة ، فى مثل : « هابونى » hābūnī مثلا – أصواتا صامتة (Consonants) فهم ينظرون إلى الألف والواو والياء فى هذا المثال ، نظرتهم إلى الأصوات الصامتة تماما ، فى حين أنها هنا علامات للحركات الطويلة : ī/ū/ā .

وقد أثرت تلك النظرة الخاطئة – التى تعتمد على الخط لا على النطق – فى أحكام اللغويين العرب فى كثير من قواعدهم ، وعلى الأخص فى أبنية اللغة (الصرف) ، وأوزان الشعر .

فمن أمثلة ذلك فى المجال الأول ، أنهم يقولون فى المضارع المعتل الآخر ، عند جزمه فى مثل : « لم يَدْعُ » و « لم يَخْشَ » و« لم يَرْمِ » أنه مجزوم بحذف حرف العلة ، فهم هنا ينظرون إلى الخط لا إلى النطق ، ولو نظروا إلى النطق لقالوا إنه مجزوم بتقصير الحركة ؛ فبدلا من : (ū) فى المثال الأول : (يدعو) ، يوجد فى حالة الجزم : (u) وبدلا من : (ā) فى المثال الثانى : (يخشى) ، يوجد فى حالة الجزم : (a) ، وبدلا من : (ī) فى المثال الثالث : (يرمى) يوجد فى حالة الجزم : (i) فى نهاية الفعل .

كما أنهم يقولون فى مثل : « لم يَمُتْ » إن أصله : « يَمُوتُ » ، فحين جزم بالسكون ، التقى ساكنان : التاء والواو ، فحذفت الواو للتخلص من التقاء الساكنين . وهم هنا ينظرون إلى الخط من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، يعدّون الواو حرفا مشكلا بالسكون ، فى حين أنها فى هذه الحالة علامة على الضمة الطويلة ، والضمة حركة ، والحركة لا توصف بالسكون . ولو نظروا إلى النطق ، ودرسوا نظام المقاطع فى اللغة العربية ، لعرفوا أنه بعد جزم مثل هذا الفعل بالسكون ، أصبح عندنا مقطعان ، الثانى منهما زائد فى الطول (ya + mūt) ، وهو غير مقبول فى العربية فى هذه

الحالة[٢٨] ، وعندئذ تقصرّ حركة هذا المقطع ، فتصير الكلمة : (ya + mut) . وهذا هو السرّ فى تقصير حركة الفعل الماضى الناقص ، عند اتصاله بتاء التأنيث ، مثل : « رَمَتْ » ، وأصله : « رَمَاتْ » ، وغير ذلك .

وقد أدى جهل اللغويين القدامى ، بنظام المقاطع فى اللغة ، ونظرتهم إلى رموز الحركات الطويلة ، على أنها حروف صامتة مشكلة بالسكون ، إلى بنائهم موازين الشعر العربى على متحرك وساكن ؛ فهم يتحدثون عن الأسباب والأوتاد والفواصل فى الشعر ، ويقسمون السبب إلى خفيف وثقيل ؛ فالخفيف عندهم : ما تكوّن من متحرك وساكن ؛ ومن أمثلته عندهم : « لَمْ » و « لا » مثلا ، فهم يعدّون الألف فى : « لا » حرفا صامتا مشكّلا بالسكون ، تماما كالميم فى : « لَمْ » ، فى حين أنها فى : « لا » علامة للفتحة الطويلة ، والفتحة الطويلة حركة ، وهى لذلك لا توصف بأنها ساكنة .

والواقع أننا هنا فى : « لَمْ » و « لا » ، أمام ما يسمى فى علم الأصوات : بالمقطع الطويل : (lam) و (lā) ، غير أنه فى الأول مقطع طويل مغلق ، وفى الثانى مقطع طويل مفتوح ، وهما من الناحية الموسيقية ، شيء واحد من ناحية الطول ، بعكس المقطع القصير ، فى مثل : (وَ) wa . ولو أنهم فطنوا إلى ذلك ، لبنوا موازين الشعر على المقاطع القصيرة والطويلة ، وأراحونا من هذه الاصطلاحات العروضية الكثيرة المحيّرة ، من أمثال : الخبن ، والوقص ، والقبض ، والعصب ، والكف ، وغير ذلك .

وإننا إذا رمزنا للمقطع الطويل بالرمز : (—) ، وللقصير بالرمز :(٧) لتمكّنا فى هذه الحالة ، من أن نقول فى بحر « الطويل » مثلا : إنه يتكون من المقاطع التالية :

٧ — — / ٧ — — — / ٧ — — / ٧ — — —   ٧ — — / ٧ — — — / ٧ — — / ٧ — — —

---

(٢٨) انظر لنظام المقاطع فى العربية كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٥٠

أى أننا يمكن أن نقول : إن بحر الطويل يتكون من : (مقطع قصير + مقطعين طويلين + مقطع قصير + ثلاثة مقاطع طويلة) ، مع تكرار ذلك أربع مرات . وبدلا من هذه الاصطلاحات الطويلة ، الخاصة بالزحافات والعلل عند العروضيين ، يمكن أن يقال هنا : إن المقطع الثانى من المقاطع الطويلة فى هذا البحر ، يمكن أن يقصر كذلك ، فتصير (٧ــ ــ) . إلى : (٧ ــ ٧ ــ) . كما تصير (٧ ــ ــ ــ) إلى (٧ ــ ٧ ــ ــ) أى أنه يمكن كتابة وزن الطويل ، على النحو التالى :

ــ ٧ ــ ٧/ ٧ ــ ٧/ــ ٧ ــ ٧/ ٧ ــ ٧   ــ ٧ ــ ٧/ ٧ ــ ٧/ــ ٧ ــ ٧/ ٧ ــ ٧

ومن هذه الأمثلة – وغيرها كثير – نرى كيف أن اللغويين العرب كانوا ينظرون فى بناء قواعدهم إلى الخط العربى ، لا إلى النطق . ولا يعيب هذا الخط العربى ، الذى عرفنا من قبل نشأته ومراحل تطوره ، بقدر ما يعيب مناهج اللغويين القدامى ، فى تأثرهم بالصورة المكتوبة ، فى كثير من الأحيان ، وإهمالهم النواحى الصوتية . وما الخط فى جميع اللغات إلا وسيلة ناقصة ، للتعبير عن الصورة السمعية الحية ، كما يذهب إلى ذلك علماء الأصوات من المحدثين .

وقد فطن إلى هذا العلامة ابن خلدون ، فقال : « كان الخط العربى لأول الإسلام ، غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ، ولا إلى التوسط ، لمكان العرب من البداوة والتوحش ، وبعدهم عن الصنائع . وانظر ما وقع لأجل ذلك فى رسمهم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة فى الإجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ، ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ... ولا تلتفتن فى ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين ، من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ، ليس كما يتخيل ، وأن لكلها وجها . ويقولون فى مثل زيادة الألف فى : لاأذبحنه ، أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع ، وفى زيادة الياء فى : بأييد ، أنه تنبيه على كمال القدرة

الربانية ، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض . وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن فى ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص ، فى قلة إجادة الخط ، وحسبوا أن الخط كمال ، فنزهوهم عن نقصه ، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته ، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه . وذلك ليس بصحيح(٢٩) »

هذا ويعجبنى فى نهاية هذا الفصل ، قول « كانتينو » : « وأما النحاة العرب ، فقد أطلقوا اسم (حرف) على كل صوت بسيط من الكلام ، سواء أكان حرفا (Consonant) بالمعنى الحقيقى للكلمة اليوم ، أم حركة طويلة ، كحرف المدّ واللين . ويمكن فى نظام الكتابة العربية ، أن تغفل الحركات القصيرة ، وإذا ما أثبتت كان ذلك بواسطة علامات صغيرة مساعدة ، تكتب فوق الحروف أو تحتها ، وتدعى (حركات) ، وهو جمع حركة ؛ فلفظ (حركة) لا يقابل لفظ (حرف) ، بل لفظ (سكون) ، أى انعدام الحركة وهكذا ... فإنه يمكننا القول ، بأن نظام الكتابة العربية هذا ، قد طمس بعض الشىء عند النحاة العرب ، معالم المقابلة الأساسية ، بين الحروف والحركات ، طمسا جعلهم لا يعيرون هذه المقابلة ، الأهمية الرئيسية التى لها فى الواقع(٣٠) » .

كما يقول كذلك : « إنهم يطلقون الحركة ، ويقصدون (حركة الحرف) . ويدل هذا اللفظ دلالة واضحة ، على أنهم كانوا يعتبرون الحركة القصيرة ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحرف السابق لها ، فالحركة القصيرة هى إذن عندهم مجرد ذيل للحرف . وقد أضفى هذا الاعتبار شيئا من الغموض ، على كامل نظريتهم الصوتية(٣١) » .

ثم يتحدث عن نظام الحركات ، الذى وضعه الخليل بن أحمد ،

---

(٢٩) مقدمة ابن خلدون ٤٦٧ – ٤٦٨

(٣٠) دروس فى علم أصوات العربية ٢٠

(٣١) دروس فى علم أصوات العربية ١٤٨

فيقول : « ورغم ما فى هذا النظام من وضوح وسهولة ، فقد قل استعماله فيما عدا القرآن ، اللهم إلا إذا أرادوا ضبط كلمة من الكلمات ، فبقيت الكتابة العربية ، كأنها ضرب من الاختزال ، يجب فهمه أولا كى تتسنى قراءته . وذلك عيب من أكبر عيوب الخط العربى[٣٢] » .

ولا يعنينا هنا البحث عن وسائل إصلاح هذا الخط ، والقضاء على عيوبه ، فقد ذاع وانتشر ، وكتب به تراث ضخم ، وأى تفكير فى إصلاح عيوبه ، لا يصح أن يغفل هذا التراث . والله أعلم .

★ ★ ★

(٣٢) دروس فى علم أصوات العربية ١٧٣

الفصل الثالث

مشكلة تعليم العربية

يشكو كثير من الناس ، من ضعف مستوى الدارسين فى اللغة العربية ، بمدارسنا وجامعاتنا ، وتلك مشكلة مزمنة ، طال عليها الأمد ، وحارت العقول فى البحث عن علتها ، والإشارة إلى موطن الداء فيها ... وأقصى ما كانت تمتد إليه يد الإصلاح فى هذه المشكلة ، هو الكتب المدرسية ، والمصطلحات النحوية ، ثم يعجب المصلحون ، حين يرون هذا الإصلاح ، لم يؤت ثماره المرجوّة ، ويشاهدون انحدار المستوى يوما بعد يوم ، كأننا أمام بئر ينضب ماؤها بالتدريج ، ولا شيء يرفدها ، ويصلح من شأنها . ولو استمر الحال على ذلك ، لجاء يوم قريب تشيع فيه الأمية بين حملة الشهادات العليا .

ولقد جمعتنى منذ أعوام جلسة فى القاهرة ، مع أحد المستشرقين الألمان ، فذكر لى أنه التقى ببعض خريجى الجامعة عندنا ، فتعجب من أنهم لا يقيمون جملة عربية ، ولا يدرون شيئا عن تراثهم ، ولم يقرءوا للجاحظ ، أو لابن قتيبة ، أو للمبرد ، أو لغيرهم من أعلام العربية ، وتلك للأسف حقيقة مفجعة !

هذه المشكلة بتلك الصورة ، مشكلة تعلّم اللغة الأدبية — لم يُعَانِ منها شعب كما تعانى الأمة العربية فى أيامنا هذه ، وهى مشكلة متعددة الجوانب ، ولست أدعى أننى سأحيط هنا بجميع نواحيها ، ولكننى سأتناول بالتحديد أربع نقط بالبحث ، أولها : لماذا نهتم بالعربية الفصحى ؟ وثانيها : هل العربية لغة صعبة ؟ وثالثها : كيف ينتقى مدرس العربية ؟ وكيف يعدّ ؟ ورابعها : ما الطريق الأمثل إلى تعلم العربية ؟

لماذا نهتم بالعربية الفصحى ؟

للعربية الفصحى ظرف خاص ، لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم ، وهذا الظرف يجعلنا نرفض ما ينادى به بعض الغافلين والمغرضين ، من ترك الحبل على الغارب للعربية الفصحى ، لكى تتفاعل مع العاميات ، تأخذ منها وتعطى ، كما يحدث فى اللغات كلها ... حقا إن اللغة كائن حىّ ، تتطور على ألسنة المتكلمين بها ، فينشأ من هذا التطور اختلاف بين لغة عصر والعصر الذى سبقه . وهنا يحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم ، وأنصار الشكل الجديد ، وبعد فترة يصبح قديما ما كان بالأمس جديدا ، فيتصارع مع جديد آخر ، وتضمحل لغة العصر الأسبق أو تندثر . غير أن كل جديد لا يظهر فجأة ، ولا يقضى على القديم بين يوم وليلة ، بل يظل الصراع بينهما لفترة قد تطول أو تقصر ، غير أن الانتصار يكون فى النهاية للشكل الجديد . تلك سنة الحياة ، وتاريخ اللغات جميعها يشهد بهذا ، ولا نعرف لغة على ظهر الأرض ، جمدت على شكل واحد مئات السنين .

غير أن العربية الفصحى ، لها – كما قلنا – ظرف لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم ، ذلك أنها ارتبطت بالقرآن الكريم ، منذ أربعة عشر قرنا ، ودوّن بها التراث العربى الضخم ، الذى كان محوره هو القرآن الكريم ، فى كثير من مظاهره . وقد كفل الله لها الحفظ ما دام يحفظ دينه ، فقال عز وجل : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ولولا أن شرفها الله عز وجل ، فأنزل بها كتابه ، وقيّض له من خلقه من يتلوه صباح مساء ، ووعد بحفظه على تعاقب الأزمان – لولا كل هذا لأمست العربية الفصحى لغة أثرية ، تشبه اللاتينية أو السنسكريتية ، ولسادت اللهجات العربية المختلفة ، فى نواحى الأرض العربية ، وازدات على مر الزمان بُعْداً عن الأصل الذى انسلخت منه .

هذا هو السر الذى يجعلنا لا نقيس العربية الفصحى ، بما يحدث فى اللغات الحية المعاصرة ، فإن أقصى عمر هذه اللغات ، فى شكلها

الحاضر ، لا يتعدى قرنين من الزمان ، فهى دائمة التطور والتغير ، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة ، تأخذ منها وتعطى ، ولا تجد فى كل ذلك حرجا ؛ لأنها لم ترتبط فى فترة من فترات حياتها بكتاب كريم ، كما هى الحال فى العربية .

فاهتمامنا بالعربية ، يجب أن يكون نابعا من هذا المنطلق ، وهو ارتباطها بالدين الإسلامى والتراث العربى . وإذا أصبح هذا المنطلق واضحا فى أذهان القائمين على تعليم العربية ، لم يجنح بهم الخيال يوما ، إلى الاعتقاد بأن إجادة تعليم هذه اللغة ، سيقضى على لغة الحديث اليومى تماما ، فليس من اللازم أن يستخدم الناس جميعا ، هذه اللغة الأدبية فى أحاديثهم ، بل إن هذا أمر يكاد يكون مستحيلا ، ولم يحدث فى أى عصر من العصور ؛ فمن القواعد المقررة عند علماء اللغة ، أنه يستحيل على مجموعة بشرية ، تعيش فى مساحة أرضية شاسعة ، أن تصطنع فى حديثها اليومى لغة موحدة ، تخلو من اختلاف صوتى ، أو دلالى ، أو اختلاف فى البنية أو التراكيب .

إن هذه قضية ليست فى حاجة إلى برهنة ، فاللغات التى تعيش بيننا الآن ، تعانى من هذه الظاهرة ، ولا يمكن تجنبها فى أية لغة من اللغات . وإنما الذى يمكن أن يحدث عن طريق التعليم الجاد للعربية ، هو أن تقترب المسافة بين العاميات والفصحى ، وأن نقرأ تراثنا الأدبى ونتمثله ، ونستمد منه عظمة الماضى ، وعدة الحاضر ، وأمل المستقبل ؛ أما فيما عدا ذلك ، فيمكن للموهوبين الذين يصبح فى مقدورهم محاكاة هذه اللغة الأدبية ، وما أكثرهم عندئذ — أن يحاكوا هذه اللغة فى أحاديثهم وكتاباتهم ، على اختلاف درجاتهم فى ذلك .

هل العربية لغة صعبة ؟

يسود بين جمهرة المثقفين العرب ، شعور مدمرّ بأن لغتنا الجميلة ، العربية الفصحى ، لغة معقدة القواعد ، صعبة التعليم ، كثيرة الشذوذ

فى مسائلها وقضاياها ، بحيث تجعل من تعلمها ، أو استخدامها والتحدث بها ، عبئا ثقيلا على أهلها .

ولقد انتهز المغرضون هذه الفرصة ، وأخذوا يصيدون فى الماء العكر ، ويدعون إلى استخدام العامية ، وهجر الفصحى أو خلطها بالعامية ، وهى دعوة حمل لواءها منذ فترة طويلة ، المعادون للإسلام وأهله ؛ فادعوا أن إعراب العربية الفصحى ، أمر عسير التعليم ، ليصرفوا المسلمين عن منبع دينهم ، وعماد شريعتهم ، ودستور حياتهم ، وهو القرآن الكريم ، الذى أنزله الله عز وجل ، بهذه العربية الفصحى .

والحق أن هذا الإعراب ، الذى يوصف بأنه مغقد وصعب ، لا تنفرد به العربية الفصحى وحدها ، بل إن هناك لغات كثيرة ، لا تزال تحيا بيننا ، وفيها من ظواهر الإعراب المعقد ، ما يفوق إعراب العربية بكثير ؛ فهذه هى اللغة الألمانية مثلا ، تقسم أسماءها اعتباطا إلى مذكر ومؤنث ، وجنس ثالث لا تعرفه العربية ، وهو : « المحايد » ، وتضع لكل واحد من هذه الأجناس الثلاثة ، أربع حالات إعرابية ، هى حالات : الفاعلية ، والمفعولية ، والإضافة ، والقابلية . وهذه الحالة الأخيرة ، لا تعرفها العربية ، وهى إعراب المفعول الثانى ، فهى من حالات المفعولية فى العربية ، وليست حالة خاصة فيها . تلك هى حالات إعراب الاسم المفرد المعرف فى الألمانية . والمفرد المنكر له أربع حالات أخرى ، وكذلك الجمع المعرف والجمع المنكر .

وبناء الجملة فى اللغة الألمانية ، له نظام صارم ، فالفعل يحتل فيها المرتبة الثانية دائما ، إلا فى الجمل الفرعية ، كالجمل التعليلية مثلا ، فإن الفعل يؤخر فيها إلى نهاية الجملة . وإن من يشكو من كثرة جموع التكسير فى العربية ، وغلبة الشذوذ على قواعد هذا الجمع فيها ، سيحمد للعربية الاطراد النسبى فى هذه القواعد ، إذا درس اللغة الألمانية ، ورأى كثرة صيغ هذه الجموع فيها ، وفقدان القاعدة التى تخضع لها تماما ، إلى درجة أن كل كتاب فى تعليم قواعد الألمانية ، تبدأ صفحاته الأولى بهذه العبارة : « احفظ

مع كل اسم ، أداة تعريفه ، وصيغة جمعه ؛ لأنه ليست هناك قاعدة لذلك » .

فليست العربية إذن ، بدعا بين اللغات ، فى صعوبة القواعد ، غير أن شيئا من هذه الصعوبة ، يعود بالتأكيد ، إلى طريقة عرض النحويين لقواعدها ، فقد خلطوا فى هذه القواعد بين الواقع اللغوى والمنطق العقلى ، وبعدوا عن وصف هذا الواقع إلى المماحكات اللفظية ، وامتلأت كتبهم بالجدل والخلافات العقيمة ، فضلّ المتعلم وسط هذا الركام الهائل من الآراء المتناقضة فى بعض الأحيان . والحقيقة أن القواعد الأساسية ، لنحو اللغة العربية ، يمكن أن تستخلص فى صفحات قليلة ، مصفاة من هذا الحشو ، الذى لا طائل وراءه .

كيف ينتقى مدرس العربية وكيف يعدّ ؟

يمثل مدرس العربية حجر الزاوية ، فى هذه المشكلة التى نعالجها ، وإليه يوجّه اللوم عادة فى الوصول إلى هذه النتيجة ، التى وصل إليها تعليم العربية فى بلادنا . ولسنا هنا نتهم المعلمين ، أو ننتقص من قدرهم ، وبينهم كل مربٍّ فاضل ، يحترم مهنته ، ويخلص فى أداء واجبه ، غير أننا نودّ الإشارة إلى ظاهرة خطيرة ، انتشرت واستفحل أمرها فى الأعوام الأخيرة ، ذلك أننا نرى ضعاف حملة الثانوية العامة ، تقذف بهم مكاتب التنسيق ، إلى كليات الآداب ، ومعاهد العربية مرغمين ، أو يلجئون هم إليها ، وفى حلوقهم غصة ، بعد أن توصد أمامهم أبواب الكليات الأخرى . وإنك لتعجب حين تلقى بين طلبة كليات الطب والعلوم والهندسة ، نوابغ فى العربية ، يقولون الشعر ، ويتذوقون الأدب ، على حين ترى الكثير ممن يدرسون العربية ، لا يكادون يقيمون جملة ، وبينهم وبين العربية عداء .

ولست أنسى فى هذا المقام ، رحلة أشرفت عليها ، من طلبة قسم اللغة العربية بآداب عين شمس ، إلى إحدى ضواحى القاهرة ، وهناك كانت المطارحات الشعرية بعض تسليتهم ، وقد دخل بينهم فى أثنائها شابان

غريبان ، أظهرا براعة فائقة فى هذه المطارحات ، وحين سألتهما : أنتما من طلبة العربية ؟ قالا : لا ، بل من طلبة الطب !

وهذا الطالب ، الذى توصله الظروف المختلفة ، إلى كليات الآداب ، غالباً ما يبحث فيها عن أى قسم سوى قسم اللغة العربية ، حتى إذا لفظته سائر الأقسام لجأ إلى هذا القسم ، وفى نفسه مرارة ، وفى قلبه حسرة . وتؤدى نظم الامتحانات الحالية ، بما فيها من التعويض والجبر ، ولجان الرأفة ، والنقل بمواد ، وغير ذلك ، إلى أن يتخرج هذا الطالب الأعرج ، لينشر الجهل بين صفوف التلاميذ ، ويقذف إلى الجامعة بأجهل منه .

إننا نأسى ، ونحن نرى المستوى الثقافى ، يترنح على أيدى هؤلاء الطلاب ، ومهما صنع أستاذ الجامعة ، فإنه فى حاجة إلى أعوام وأعوام ، لكى تخصب هذه الأرض المجدبة ، وتؤتى أكلها ، وإلا فماذا يفعل فى هذه الخامة الرديئة ، فى بضعة أعوام قليلة ، وسط الإلحاح على تخريج الأعداد الكبيرة ، لسد حاجة المدارس إلى المعلمين ؟!

أما آن الوقت لكى ننظر إلى تعليم العربية ، فى المدارس والجامعات ، نظرة الجد ؟ أليس فى الإمكان أن ننتقى طالب العربية ، من بين ذوى الاستعداد ، والموهوبين من حملة الثانوية العامة ، بعد إغرائهم بمكافآت شهرية سخية فى أثناء الدراسة ، وراتب كبير بعد التخرج ؟ ثم نصقلهم صقلا ، ونُعدّهم إعداداً طيّباً ، بعيدين عن نظام الجبر والتعويض ، ولجان الرأفة .

إن هذا المدرس الذى نريده ، فى حاجة كبيرة إلى ثقافة عربية واسعة شاملة ، ودراسة واعية صابرة لعيون تراثنا العربى ؛ فإن من عنده الكثير يستطيع أن يعطى وأن يبذل ، ومن عنده القليل لا يعطى شيئا . ولقد غفلنا عن هذه الحقيقة زمنا ، رأينا فيه من ينادى فى بعض لجان تطوير التعليم فى مصر ، بأن يقتصر فى إعداد المدرس على تلقينه كتب اللغة العربية ، التى

تدرس فى مراحل التعليم العام ، وأنه لا داعي لأن يدرس علم الأصوات اللغوية ، أو النظريات المختلفة لفقه اللغة ، أو التيارات الأدبية العالمية ، أو العروض والقوافى ؛ لأن ذلك – فى زعمهم – لا يفيد المدرس فى عمله المستقبل ، فى مدارس التعليم العام !

أما آن الوقت كذلك ، لكى ندرك أهمية المرحلة الابتدائية ، فى بناء الكيان التربوى السليم للطفولة البريئة ، فنكفّ عن امتهان معلم هذه المرحلة ، ونؤمن بما آمنت به بعض الدول المتقدمة ، من وضع خيرة المعلمين فى هذه المرحلة ؟ إن الحديث عن معلم المرحلة الابتدائية ، حديث ذو شجون ، فإننا ما زلنا نظن أن تعليم الطفل أهون أنواع التعليم ، وأدى هذا إلى أننا أصبحنا نقيس مقدار المعلم ، بعمر الطفل الذى يتولى تربيته وتعليمه ، صعوداً وهبوطا ، فمعلم الإعدادى أكثر احتراما من معلم الابتدائى ، وأقل مركزا من مدرس المدارس الثانوية ... وهى فكرة ساذجة ، مدمّرة لنفس هذا المعلم ، الذى وضعنا بين يديه هذه العجينة اللينة – طفل اليوم ، ورجل المستقبل ؛ ليجعل منه مواطنا صالحا ، أو شيطانا مارداً .

إن الدول المتحضرة ترعى هذا المعلم ، وتعدّه حجر الأساس فى العملية التربوية كلها ، وتختاره من أكفأ المدرسين فى المراحل الأخرى ، وتغدق عليه المال وتكرمه ؛ ليعيش فى حالة استقرار وقناعة ، ومعظم معلمى المرحلة الأولى ، فى كثير من الدول المتحضرة ، يحملون أرقى شهادات علم النفس والتربية ، لكى يتسنى لهم فهم تلك البراعم الصغيرة ، فيلقنوهم العلم ، وهم قريبون إليهم ، يلتصقون بهم ، ويلعبون معهم .

نعم .. فهذه المرحلة هى أهم المراحل ، وهى التى يحبو فيها الطفل على مدارج القراءة ، ويعشق فيها الكتاب ، أو يكرهه ، ويقبل على اللغة ، أو يمقتها إلى الأبد ..

الطريق الأمثل إلى تعلم العربية :

كثر البحث عن السر فى إخفاقنا حتى الآن ، فى تعليم العربية

الفصحى لأبنائنا ، كما ينبغى ، فلم تفلح مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا عموما ، فى إنشاء علاقة الود بين المتعلمين وهذه اللغة ، ولم تنجح فى غرس حب القراءة فى النشء منذ الصغر .

ولعل السبب فى ذلك ، يرجع بعضه إلى اعتقاد الكثيرين منا ، بأن فى تعليم قواعد اللغة تعليما للغة . وتفكيرنا فى الأمر على هذا النحو ، كتفكير من يعلم قواعد العروض ، لكى ينشىء شاعرا ، أو كتفكير من يحفظ صفحتين ، فى قواعد قيادة السيارات ، ثم يظن أنه بهذا الحفظ وحده ، قد أصبح سائقا ماهراً ، فإن اهتمامنا بتعليم القواعد النحوية ، فى مرحلة مبكرة من حياة الطفل ، جعلنا نظن أن مقياس إجادة اللغة ، هو البراعة فى حفظ المصطلحات النحوية ، والتفنّن فى عدّ مسوغات الابتداء بالنكرة ، ومجىء الحال معرفة ، وأحوال الصفة المشبهة ، وما إلى ذلك .

كل هذه الأمور وأمثالها ، يردّدها التلميذ ، فى هذه السنّ المبكرة بلا وعى ، ثم ينساها عقب الفراغ من الامتحان ، ولا يبقى فى ذهنه منها إلا التندر على صعوبة اللغة العربية ، وما لاقاه فى تعلمها من عنت ومشقة . وإننى لست بهذا أحط من أهمية قواعد اللغة ، ولا أقلل من قدرها ، فى الوقوف على سر اللغة والتمكن منها ، ولكننى أحذر من وضعها فى المقام الأول ، ونسيان الفطرة التى جبل عليها الإنسان فى تعلم اللغة . خذ لغة التخاطب مثلا ، وانظر كيف يتعلمها الطفل ؟ إننا لا نشرح له أية قاعدة من قواعدها ، ولكن الذى يحدث هو أننا نتكلم ، والطفل يحاكى ويقلد ، حتى إذا أخطأ ، لا يجد من حوله يشرحون له القاعدة ، وإنما يكررون الصواب أمامه ... وهكذا ، وعن هذا الطريق وحده ، يلم الطفل بتراكيب اللغة ومعانيها ، حفظا وفهما ، ويهضم كل ذلك ثم يقيس عليه ، ويكتمل نضج لغة الخطاب لديه ، فى وقت قصير ، دون أن يعلم شيئا عن قواعدها وقوانينها وضوابطها .

وإذا كان هذا هو المنهج الفطرى فى تعلم اللغة ، فلماذا لا نفيد منه

فى تعلم العربية الفصحى ؟ حقا إن العربية الفصحى ، لا يتكلمها الناس فى كل وقت حول التلميذ ، كما نتحدث بالعامية أمام الطفل . ولكن هناك طريقا آخر يقوم مقام السماع ، وهو طريق القراءة ، قراءة النصوص الأدبية القديمة ، وما نسج على نمطها فى العصور المختلفة ، قراءة واعية صابرة ، مع حفظ الكثير والكثير جدا ، من هذه النصوص الجيدة ، شعرا ونثرا ، وعلى رأس هذه النصوص جميعها بالطبع ، نص القرآن العظيم . وفى هذه الحالة تتكون الملكة القادرة على محاكاة هذه النصوص ، والنسج على منوالها .

ولقد نادى بمثل ذلك العلامة « ابن خلدون » فقال فى مقدمته : « ووجه التعليم لمن يبتغى هذه الملكة ، ويروم تحصيلها ، أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم ، الجارى على أساليبهم ، من القرآن والحديث ، وكلام السلف ، ومخاطبات فحول العرب فى أسجاعهم وأشعارهم ، وكلمات المولدين أيضا فى سائر فنونهم ، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور ، منزلة من عاش بينهم ، ولقن العبارة منهم[١] » .

هذا ما قاله ابن خلدون . وإنه لا شىء أجدى على من يريد تعلم لغة ما ، من الاستماع إليها ، والقراءة الكثيرة فى تراثها ، وحفظ الجيد من نصوصها . وإذا كنا أمام الفصحى ، لا ننعم بالوسيلة الأولى ، وهى الاستماع ، إذ أكثر ما نسمعه عامىّ أو فصيح ملحون ، أو ملىء بالخطأ ، أو ركيك العبارة ، ضحل المضمون ، فلا تزال أمامنا فرصة الإفادة ، من القراءة الواعية للنصوص الجيدة ، وعندئذ تتكون السليقة اللغوية عند أبناء العربية ، وتجرى ألسنتهم بالفصحى العذبة ، وتأتى دروس القواعد ، فتنظم هذا الكيان اللغوى ، الذى نما وترعرع ، فى ظل النصوص .

وإذا كان للقراءة هذا الجانب العظيم من الأهمية ، فى الوصول إلى اكتساب السليقة اللغوية ، فإن الكتاب المدرسى ، تبرز أهميته القصوى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٦٥٤

فى هذا المجال . وفى تصورى أن الكتاب المدرسى الجيد ، هو الذى يكون ملائما لسن الطفل ، وقريبا من لغته ، كما تكون موضوعاته وأمثلته ، متصلة بالبيئة التى يعيش فيها هذا الطفل . وكل هذه الأمور تتفاوت الجهات المسئولة ، عن الكتب المدرسية ، فى البلاد العربية ، فى مراعاتها قدر الطاقة .

غير أننى أتناول هنا ناحية خطيرة ، فى إعداد هذا الكتاب ، أجدها مسئولة عن بعض الضعف ، الذى نعانى منها فى لغتنا العربية ؛ ذلك هو ما درجنا عليه ، من كتابة كثير من الكلمات ، عارية عن الضبط بالشكل ، فى الكتاب المدرسى المقرر ، فى تلك الفترة المبكرة من حياة الطفل ؛ فقد يستطيع هذا الطفل أو ذاك ، أن ينطق كلمة سمع نطقها ، وتعلمه فى مدرسته ، غير أنه يقف عاجزاً مكتوف الأيدى ، أمام كلمة أخرى ، لم يقرأها من قبل ، حتى وإن عرف حروفها وهجاءها ؛ ذلك لأن رموز نصف الأصوات فى الكلمة مفقود تماما ، وهى رموز الحركات ، فحروف مثل : (ك ت ب) ، لا يدرى الطفل كيف تنطق ؛ لأنها تحتمل عدة أوجه من القراءة ، بسبب عدم ضبطها بالحركات . وهذا معوّق كبير عن القراءة ، يزيد من كراهية الطفل للتعليم ، ويحبط العملية التعليمية .

وإننا لنعجب حقا من تهاوننا فى طباعة هذه النصوص ، بلا شكل أحيانا ، وببعض الشكل أحيانا أخرى ؟ إننا بهذا الخط الخالى من التشكيل ، نفهم أولا ، لكى نقرأ قراءة صحيحة ، وفى كل لغات العالم ، يقرأ الناس ليفهموا ، وإن هذا الخط الخالى من التشكيل ، هو المسئول عن الخطأ فى ضبط بنية الكلمة ، فلماذا لا نقضى على هذه الآفة الخطيرة ، بتشكيل جميع الكتب المدرسية ، حتى مراحل متأخرة تشكيلا كاملا ، فيتعوّد التلميذ على النطق السليم ، لأبنية الكلام ، وهو ما لا يضبط بقاعدة فى كثير من الأحيان ، ولابد فيه من السماع ؟

هذا هو دور القراءة الواعية ، فى تعلم اللغة الفصحى . ولكن هل فقدنا حقا الوسيلة الأصلية فى تعلم اللغة ، وهى : السماع ؟ إن وسائل الإعلام السمعية (الراديو والتليفزيون) يمكن أن تسهم بدور فعّال ، فى الوصول إلى نتيجة مرضية فى تعلم الفصحى ، غير أن الذى يحدث للأسف الشديد ، هو طغيان العاميات فى كل يوم على الإذاعات العربية ، فتخسر الفصحى إحدى قلاعها الحصينة ، وتفوت الفرصة الذهبية ، لتعلم اللغة عن طريق السماع .

إنك لتعجب حين ترى بعض المتعلمين ، ينطق اللغة الأجنبية على وجهها الصحيح ، حتى إذا رام الحديث بالعربية الفصحى ، تلعثم وارتبك ، وأخطأ ولحن ، وصحّف وحرّف ، وخلطها بالردىء من الأساليب العامية ، كمن يخلط عملا صالحا بآخر سيّىء ، وما ذلك إلا لأنه لا يسمع الفصحى ، إلا فى حجرة الدراسة أحيانا ، حتى إذا خرج إلى الشارع ، ملأت العامية سمعه وبصره فى كل مكان ، فخلّطت عليه أمره ، وردّته عن الفصحى أيمّا ردّ ، وعاقته عن تملك زمامها ، والسيطرة عليها .

ولقد كان الأمل كبيراً ، فى أن تقوم وسائل الإعلام المختلفة ، بسدّ هذا النقص ، وتقويم هذا الميل فى ميزان الفصحى والعامية ، فلا يقتصر سماع الطالب للفصحى ، على دروس المدرسة ، بل تحيط به لغتنا الجميلة من كل مكان ، وتأخذ عليه جهاته الأربع ، فتتمكن من قلبه ، ويجرى بها لسانه ، وتصير لغة سليقة له .

كان الأمل كبيرا ، فى أن يدير الطالب مفتاح المذياع مثلا ، فلا يسمع إلا الفصحى فى كل شىء : فى النشرات ، والتعليقات ، والبرامج والتمثيليات ، والأغانى والسهرات . ولكن الذى يحدث فى كثير من الإذاعات العربية ، هو طغيان اللهجات المحلية على برامجها وأغانيها وتمثيلياتها ، فإذا سألت المشرفين على هذه الإذاعات ، والقائمين على التخطيط فيها ، عن أسباب هذه العلة ، التى أزمنت وطال عليها الأمد ، سمعت منهم حجة غريبة ، وعلة عجيبة ؛ ذلك أنهم يقولون : إن الجمهور يريد البث باللغة العامية ، وينفر من البرامج الفصيحة !

وينسى هؤلاء القوم أن وسائل الإعلام ، يجب أن تكون مُوَجِّهة لا مُوَجَّهة . وهذا يعنى أنها لا يصح أن تتملق عواطف الجمهور ، أو تجرى وراء نزواته ، بل يجب أن توجهه وتأخذ بيده ، وتقوده إلى حيث تريد ، فلهذا السبب وجدت ، ومن أجله تعمل ، فلا يصح أن تنسى وظيفتها الأصلية ، وتنساق خلف تحقيق الرغبات الجامحة ، للجمهور الكسول .

لقد كان المطربون والمطربات فى العصر العباسى ، يتغنون بالشعر العربى الفصيح ، فيذيعون هذا الشعر ، ويعملون على رواج سوق الأدب ، ونشر الفصحى بين الناس ، ولقد تُغُنِّى فى عصرنا الحديث ، بالقصائد الطوال ، من الشعر الفصيح ، فما ازورّ عنه الجمهور ، ولا ملّ الاستماع إليه .

نعم ... قد يقال : إن نسبة كبيرة من الجماهير العربية ، من الأميين الذين لا يعرفون هذه الفصحى ولا يفهمونها ، فلا يصح أن نخاطبهم بلغة تعلو عن مستواهم ، أو نوجههم بأسلوب ، لا يلقى عندهم صدى أو قبولا .

ولكن ... من قال إن العربية الفصحى ، تعنى التقعر والتشدق واختيار الألفاظ الحوشية ، والأساليب الغريبة فى اللغة ؟ إن هذا الجمهور نفسه ، هو الذى يستمع إلى خطبة الجمعة ، بالفصحى السهلة ، فيفهمها ويعيها ، ولا ينفر منها .

وليكن ما يقوله هؤلاء صوابا ... أفيصحّ أن نجعل النصيب الأوفر ، من البرامج بالعامية من أجل الأميين ؟ إن ما يحدث من طغيان العامية ، فى الأغانى والتمثيليات والبرامج فى الإذاعات العربية ، لا نظير له فى أية إذاعة أوربية مثلا ، مع كثرة اللهجات المحلية هناك ، وما ذلك إلا لأن أصحابها ، آمنوا بالوظيفة الأولى للإذاعة ، وهى التوجيه لا الانقياد .!

* * *

مراجع الكتاب

ا - المراجع العربية

١ - أبحاث فى اللغة العربية ، للدكتور داود عبده - بيروت ١٩٧٣ م .

٢ - الإبدال ، لأبى الطيب اللغوى - تحقيق عز الدين التنوخى - دمشق ١٩٦٠ م .

٣ - الإبدال والمعاقبة والنظائر ، للزجاجى - تحقيق عز الدين التنوخى - دمشق ١٩٦٢ م .

٤ - الإبل ، للأصمعى (ضمن الكنز اللغوى فى اللسن العربى) تحقيق هفنر - ليبزج ١٩٠٥ م .

٥ - أبنية الأسماء والأفعال والمصادر ، لابن القطاع الصقلى - تحقيق أحمد عبد الدايم - رسالة دكتوراه بدار العلوم ١٩٨٠ م

٦ - أبنية الفعل فى اللغات السامية ، للدكتور رمضان عبد التواب - مجلة كلية اللغة العربية بالرياض - العدد الرابع (١٩٧٤) ص ٥٥ - ٦٨

٧ - ابن السكيت اللغوى ، لمحيى الدين توفيق - بغداد ١٩٦٩ م .

٨ - أبو زكريا الفراء ومذهبه فى النحو واللغة ، للدكتور أحمد مكى الأنصارى - القاهرة ١٩٦٤ م .

٩ - أبو على الفارسى ، للدكتور عبد الفتاح شلبى - القاهرة ١٣٨٨ هـ .

١٠ - الإتباع ، لأبى الطيب اللغوى - تحقيق عز الدين التنوخى - دمشق ١٩٦١ م .

١١ - الإتباع والمزاوجة ، لابن فارس - نشر برونو - جيسن ١٩٠٦ م .

١٢ - الإتقان فى علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى - القاهرة ١٣٦٨ هـ .

١٣ – أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، للمقدسي – نشردى غويه – مطبعة بريل ١٩٠٦ م .
١٤ – الإحكام فى أصول الأحكام ، لابن حزم – القاهرة (مطبعة الإمام بلا تاريخ) .
١٥ – إحياء النحو ، لإبراهيم مصطفى – القاهرة ١٩٥٩ م .
١٦ – أخبار النحويين البصريين ، للسيرافى – تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وطه الزينى – القاهرة ١٩٥٥ م .
١٧ – أدب الإملاء والاستملاء ، للسمعانى – نشر فايسفيلر – ليدن ١٩٥٢ م .
١٨ – أدب الكاتب ، لابن قتيبة الدينورى – تحقيق جرونرت – ليدن ١٩٠٠ م .
١٩ – الأزمنة والأمكنة ، للمرزوقى – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣٢ هـ .
٢٠ – الأزمنة والأنواء ، لابن الأجدابى – تحقيق الدكتور عزة حسن – دمشق ١٩٦٤ م .
٢١ – أساس البلاغة ، للزمخشرى – طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٢ م .
٢٢ – أسطورة الأبيات الخمسين فى كتاب سيبويه ، للدكتور رمضان عبد التواب – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (١٩٧٤) ٤٩/٢
٢٣ – أسماء خيل العرب وفرسانها ، لابن الأعرابى – نشر ليڤى دلاڤيدا – ليدن ١٩٢٨ م .
٢٤ – الأشباه والنظائر فى النحو ، لجلال الدين السيوطى – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩ هـ .
٢٥ – الاشتقاق ، لابن دريد الأزدى – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٥٨ م .
٢٦ – الاشتقاق ، لأبى بكر بن السراج – تحقيق محمد صالح التكريتى – بغداد ١٩٧٣ م .
٢٧ – الاشتقاق ، لعبد الله أمين – القاهرة ١٩٥٦ م .
٢٨ – اشتقاق الأسماء ، للأصمعى – تحقيق الدكتور رمضان

عبد التواب ، والدكتور صلاح الدين الهادى – القاهرة ١٩٨٠ م .
٢٩ – الاشتقاق والتعريب ، لعبد القادر المغربى – القاهرة ١٩٤٧ م .
٣٠ – إصلاح المنطق ، لابن السكيت – تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون – القاهرة ١٩٥٦ م .
٣١ – أصول الكلمات العامية ، لحسن توفيق العدل – القاهرة ١٨٩٩ م .
٣٢ – الأضداد ، لأبى بكر بن الأنبارى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – الكويت ١٩٦٠ م .
٣٣ – الأضداد ، لأبى حاتم السجستانى (ضمن ثلاثة كتب فى الأضداد) – نشر هفنر – بيروت ١٩١٣ م .
٣٤ – الأضداد ، لابن الدهان – نشر الشيخ محمد حسن آل ياسين – بغداد ١٩٦٣ م .

٣٥ – الأضداد ، لابن السكيت (ضمن ثلاثة كتب فى الأضداد) نشر هفنر – بيروت ١٩١٣ م .
٣٦ – الأضداد ، للصاغانى (ضمن ثلاثة كتب فى الأضداد) – نشر هفنر – بيروت ١٩١٣ م .
٣٧ – الأضداد فى كلام العرب ، لأبى الطيب اللغوى – تحقيق الدكتور عزة حسن – دمشق ١٩٦٣ م .
٣٨ – الأضداد فى اللغة ، لمحمد حسين آل ياسين – بغداد ١٩٧٤ م .
٣٩ – الأضداد ، لقطرب – نشر كوفلر ، فى مجلة : إسلاميكا ١٩٣٢ م .
٤٠ – إعجاز القرآن – للباقلانى – تحقيق السيد أحمد صقر – القاهرة ١٩٦٣ م .
٤١ – إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لابن خالويه – تحقيق عبد العزيز الميمنى – القاهرة ١٩٤١ م .
٤٢ – أعلام الكلام ، لابن شرف القيروانى (ضمن سلسلة الرسائل النادرة) القاهرة ١٩٢٦ م .
٤٣ – الأفعال ، للسرقسطى – تحقيق الدكتور حسين محمد شرف – القاهرة ١٩٧٥ م وما بعدها .
٤٤ – الأفعال ، لابن القطاع – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩ هـ .

٤٥ – الاقتراح فى علم أصول النحو ، لجلال الدين السيوطى – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩ هـ .
٤٦ – الإكليل ، للهمدانى – الجزء العاشر – تحقيق محب الدين الخطيب – القاهرة ١٣٦٨ هـ .
٤٧ – ألف باء ، لأبى الحجاج البلوى – القاهرة ١٢٧٨ هـ .
٤٨ – الألفاظ الكتابية ، للهمذانى – القاهرة ١٩٢٢ م .
٤٩ – الأمالى ، لابن الشجرى – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٩ هـ .
٥٠ – الأمالى ، لأبى على القالى – بولاق ١٣٢٤ هـ .
٥١ – إنباه الرواة على أنباه النحاة ، للقفطى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٥٠ –١٩٧٣ م .
٥٢ – الإنصاف فى مسائل الخلاف ، بين النحويين البصريين والكوفيين ، لأبى البركات بن الأنبارى – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – القاهرة ١٩٥٣ م .
٥٣ – أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، لابن هشام – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – القاهرة ١٩٤٩ م .
٥٤ – الأيام والليالى والشهور ، للفراء – تحقيق إبراهيم الإبيارى – القاهرة ١٩٥٦ م .
٥٥ – الإيضاح فى علل النحو ، للزجاجى – تحقيق مازن المبارك – القاهرة ١٩٥٩ م .
٥٦ – إيضاح الوقف والابتداء فى كتاب الله عز وجل ، لأبى بكر بن الأنبارى – تحقيق محيى الدين رمضان – دمشق ١٩٧١ م .
٥٧ – البارع فى اللغة ، لأبى على القالى – قطعة مصورة نشرت بعناية فولتون – لندن ١٩٣٣ م .
٥٨ – البارع فى اللغة ، لأبى على القالى – نشر هاشم الطعان – بيروت ١٩٧٥ م .
٥٩ – البحر المحيط ، لأبى حيان الأندلسى – مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٨ هـ .
٦٠ – البرهان فى علوم القرآن ، للزركشى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٥٧ – ١٩٥٨ م .

٦١ – بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، للفيروزابادى – القاهرة ١٩٦٣ – ١٩٧٣ م .

٦٢ – بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، لجلال الدين السيوطى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٦٤ – ١٩٦٥ م .

٦٣ – بلاد العرب ، للغدة الإصفهانى – تحقيق الشيخ حمد الجاسر والدكتور صالح العلى – الرياض ١٩٦٨ م .

٦٤ – البيان والتبيين ، لأبى عمرو الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٤٨ – ١٩٥٠ م .

٦٥ – التأليف فى خلق الإنسان من خلال معاجم المعانى ، للدكتورة وجيهة السطل – دمشق ١٩٧٦ م .

٦٦ – تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة – تحقيق السيد أحمد صقر – القاهرة ١٩٥٤ م .

٦٧ – تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدى – القاهرة ١٣٠٦ هـ .

٦٨ – تاريخ الأدب ، أو حياة اللغة ، لحفنى ناصف – القاهرة ١٩٥٨ م .

٦٩ – تاريخ الطبرى = تاريخ الرسل والملوك ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٦٠ – ١٩٦٩ م .

٧٠ – التاريخ العربى القديم ، لهومل وآخرين – ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على – القاهرة ١٩٥٨ م .

٧١ – تاريخ اللغات السامية ، لإسرائيل ولفنسون – القاهرة ١٩٢٩ م .

٧٢ – التذكير والتأنيث فى اللغة ، مع تحقيق رسالة أبى موسى الحامض فيما يذكر ويؤنث من الإنسان واللباس ، للدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٦٧ م .

٧٣ – التشبيهات ، لابن أبى عون – تحقيق محمد عبد المعيد خان – كمبردج ١٩٥٠ م .

٧٤ – تصحيح الفصيح ، لابن درستويه – تحقيق عبد الله الجبورى – بغداد ١٩٧٥ م .

٧٥ – التضاد فى ضوء اللغات السامية ، للدكتور ربحى كمال – بيروت ١٩٧٢ م .

٧٦ – التطور النحوى للغة العربية ، لبرجشتراسر – أخرجه وصححه وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٨٢ م .
٧٧ – التعريف والإعلام ، للسهيلى – القاهرة ١٩٣٨ م .
٧٨ – تفسير القرطبى = الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبى – القاهرة ١٩٦٧ م .
٧٩ – التكملة ، لأبى على الفارسى – تحقيق كاظم بحر المرجان (رسالة ماجستير) مخطوط .
٨٠ – التكملة والذيل والصلة ، لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية للصاغانى – تحقيق عبد العليم الطحاوى وآخرين – القاهرة ١٩٧٠ –١٩٧٩ م .
٨١ – التلخيص فى معرفة أسماء الأشياء ، لأبى هلال العسكرى – تحقيق الدكتور عزة حسن – دمشق ١٩٦٩ م .
٨٢ – تلقيب القوافى ، لابن كيسان (ضمن جرزة الحاطب وتحفة الطالب) – نشر رايت – ليدن ١٨٥٩ م .
٨٣ – التنبيه على حدوث التصحيف ، لحمزة الإصفهانى – تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين – بغداد ١٩٦٧ م .
٨٤ – التنبيهات على أغاليط الرواة ، لعلى بن حمزة البصرى – تحقيق عبد العزيز الميمنى – القاهرة ١٩٦٧ م .
٨٥ – التهذيب فى أصول التعريب ، للدكتور أحمد عيسى – القاهرة ١٩٢٣ م .
٨٦ – تهذيب الألفاظ ، لابن السكيت – نشر لويس شيخو – بيروت ١٨٩٥ م .
٨٧ – تهذيب الألفاظ العامية ، للشيخ محمد على الدسوقى – القاهرة ١٩١٣ م .
٨٨ – تهذيب اللغة ، لأبى منصور الأزهرى – تحقيق عبد السلام هارون وآخرين – القاهرة ١٩٦٤ –١٩٦٧ م .
٨٩ – الجمل للزجاجى – نشر العلامة ابن أبى شنب – باريس ١٩٥٧ م .
٩٠ – جمهرة اللغة ، لابن دريد الأزدى – تحقيق كرنكو – حيدر آباد الدكن بالهند – ١٣٤٤ –١٣٥١ هـ .
٩١ – جواهر الألفاظ ، لقدامة بن جعفر – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – القاهرة ١٩٣٢ م .

٩٢ – الجيم ، لأبى عمرو الشيبانى – تحقيق إبراهيم الإبيارى وآخرين – القاهرة ١٩٧٤ –١٩٧٥ م .
٩٣ – جيمية هميان بن قحافة السعدى فى وصف الإبل – جمعها وحققها وعلق عليها الدكتور رمضان عبد التواب – مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢٧)فبراير ١٩٧١ م .
٩٤ – حاشية الشريف الجرجانى على الكشاف – القاهرة ١٩٤٨ م .
٩٥ – الحروف ، لأحمد بن محمد الرازى – ضمن ثلاثة كتب فى الحروف تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٨٢ م
٩٦ – الحروف ، للخليل بن أحمد – تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٦٩ م .
٩٧ – الحروف ، لأبى نصر الفارابى – تحقيق محسن مهدى – بيروت ١٩٦٩ م .
٩٨ – حماسة أبى تمام ، بشرح التبريزى – نشر فرايتاج – بون ١٨٢٨ م .
٩٩ – الحماسة للبحترى – نشر كمال مصطفى – القاهرة ١٩٢٩ م .
١٠٠ – الحماسة البصرية ، لصدر الدين البصرى – تحقيق مختار الدين أحمد – حيدر آباد الدكن بالهند ١٩٦٤ م .
١٠١ – حلية الفرسان وشعار الشجعان ، لابن هذيل الأندلسى – تحقيق محمد عبد الغنى حسن – القاهرة ١٩٤٩ م .
١٠٢ – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر البغدادى – بولاق ١٢٩٩ هـ .
١٠٣ – الخصائص ، لابن جنى – تحقيق محمد على النجار – القاهرة ١٩٥٢ –١٩٥٦ م .
١٠٤ – خلق الإنسان ، للأصمعى (ضمن الكنز اللغوى فى اللسن العربى) نشر هفنر – ليبزج ١٩٠٥ م .
١٠٥ – خلق الإنسان ، لثابت بن أبى ثابت – تحقيق عبد الستار فراج – الكويت ١٩٦٥ م .
١٠٦ – خلق الإنسان ، للزجاج – تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائى – بغداد ١٩٦٣ م .
١٠٧ – الخيل ، للأصمعى – نشر هفنر فى مجلة : SBWA – ڤينا ١٨٩٥ م .

١٠٨ – الخيل ، لأبى عبيدة معمر بن المثنى – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٨ هـ .
١٠٩ – دارسات فى فقه اللغة ، للدكتور صبحى الصالح – بيروت ١٩٧٠ م
١١٠ – دراسات فى فقه اللغة العربية ، للدكتور السيد يعقوب بكر – بيروت ١٩٦٩ م .
١١١ – دراسات فى اللغة ، للدكتور إبراهيم السامرائى – بغداد ١٩٦١ م .
١١٢ – درة الغواص فى أوهام الخواص ، للحريرى – مطبعة الجوائب باستانبول ١٢٩٩ هـ .
١١٣ – الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلانى – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٨ – ١٣٥٠ هـ .
١١٤ – الدرر اللوامع على همع الهوامع ، للشنقيطى – القاهرة ١٣٢٨ هـ .
١١٥ – دروس فى علم أصوات العربية ، لجان كانتينو – ترجمة صالح القرمادى – تونس ١٩٦٦ م .
١١٦ – دلالة الألفاظ ، للدكتور إبراهيم أنيس – القاهرة ١٩٥٨ م .
١١٧ – دور الكلمة فى اللغة ، لأولمان – ترجمة الدكتور كمال بشر – القاهرة ١٩٦٢ م .
١١٨ – ديوان الأخطل – نشر أنطون صالحانى – بيروت ١٨٩١ م .
١١٩ – ديوان إبراهيم بن هرمة – تحقيق محمد نفاع وحسين عطوان – دمشق ١٩٦٩ م .
١٢٠ – ديوان الأدب ، للفارابى – تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر – القاهرة ١٩٧٤ – ١٩٧٨ م .
١٢١ – ديوان الأعشى = الصبح المنير فى شعر أبى بصير – تحقيق جاير – لندن ١٩٢٨ م .
١٢٢ – ديوان امرىء القيس – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٥٨ م .
١٢٣ – ديوان بشر بن أبى خازم – تحقيق الدكتور عزة حسن – دمشق ١٩٦٠ م .
١٢٤ – ديوان جران العود النميرى ، برواية أبى سعيد السكرى – القاهرة ١٩٣١ م .

١٢٥ – ديوان الحطيئة – تحقيق نعمان أمين طه – القاهرة ١٩٥٨ م .
١٢٦ – ديوان حميد بن ثور الهلالى – صنعة عبد العزيز الميمنى – القاهرة ١٩٥١ م .
١٢٧ – ديوان الخرنق أخت طرفة – تحقيق الدكتور حسين نصار – القاهرة ١٩٦٩ م .
١٢٨ – ديوان ذى الرمة – تحقيق كارليل هنرى هيس – كمبردج ١٩١٩ م .
١٢٩ – ديوان أبى دواد الإيادى ، فى كتاب : دراسات فى الأدب العربى ، تأليف غرنباوم ، وترجمة إحسان عباس وآخرين – بيروت ١٩٥٩ م .
١٣٠ – ديوان رؤبة بن العجاج – تحقيق آهلورت – ليبزج ١٩٠٣ م .
١٣١ – ديوان أبى زبيد الطائى – جمعه وحققه الدكتور نورى حمودى القيسى – بغداد ١٩٦٧ م .
١٣٢ – ديوان زهير بن أبى سلمى ، بشرح ثعلب – القاهرة ١٩٤٤ م .
١٣٣ – ديوان الطرماح – تحقيق الدكتور عزة حسن – دمشق ١٩٦٨ م .
١٣٤ – ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات – تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم – بيروت ١٩٥٨ م .
١٣٥ – ديوان العجاج ، برواية الأصمعى وشرحه – تحقيق الدكتور عزة حسن – بيروت ١٩٧١ م .
١٣٦ – ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدى – جمع هاشم الطعان – بغداد ١٩٧٠ م .
١٣٧ – ديوان الفرزدق – نشر عبد الله إسماعيل الصاوى – القاهرة ١٩٣٦ م .
١٣٨ – ديوان كثير عزة – تحقيق إحسان عباس – بيروت ١٩٧١ م .
١٣٩ – ديوان كعب بن زهير = شرح ديوان كعب بن زهير ، للسكرى – القاهرة ١٩٥٠ م .
١٤٠ – ديوان لبيد بن ربيعة العامرى – تحقيق الدكتور إحسان عباس – الكويت ١٩٦٢ م .
١٤١ – ديوان مجنون ليلى – تحقيق عبد الستار فراج – القاهرة (بلا تاريخ) .
١٤٢ – ديوان أبى محجن الثقفى – تحقيق امتياز على عرشى – مجلة ثقافة الهند – سبتمبر ١٩٥٢ م .
١٤٣ – ديوان مزاحم بن الحارث العقيلى – نشر كرنكو – ليدن ١٩٢٠ م .

١٤٤ – ديوان مزرد بن ضرار الغطفانى – تحقيق خليل إبراهيم العطية – بغداد ١٩٦٢ م .
١٤٥ – ديوان ابن مقبل – تحقيق الدكتور عزة حسن – دمشق ١٩٦٢ م .
١٤٦ – ديوان النابغة الجعدى – تحقيق مارية نللينو – روما ١٩٥٣ م .
١٤٧ – ديوان النابغة الذبيانى – صنعة ابن السكيت – تحقيق الدكتور شكرى فيصل – بيروت ١٩٦٨ م .
١٤٨ – ديوان الهذليين = شرح ديوان الهذليين للسكرى – تحقيق عبد الستار فراج – القاهرة ١٩٦٥ م .
١٤٩ – ذم الخطأ فى الشعر ، لابن فارس اللغوى – تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٨٠ م .
١٥٠ – ربيع الأبرار ، للزمخشرى – مخطوطة دمشق رقم ٣٢٦٣
١٥١ – رسالة فى علم الخط ، للسيوطى (ضمن التحفة البهية والطرفة الشهية) استانبول ١٣٠٢ هـ .
١٥٢ – رسالة الملائكة ، لأبى العلاء المعرى – تحقيق محمد سليم الجندى – دمشق ١٩٤٤ م .
١٥٣ – الركام اللغوى للظواهر المندثرة فى اللغة ، للدكتور رمضان عبد التواب – المجلة العربية (السنة الثانية) العدد الأول – الرياض ١٩٧٧ م .
١٥٤ – الزينة ، لأبى حاتم الرازى – تحقيق حسين الهمدانى – القاهرة ١٩٥٧ – ١٩٥٨ م .
١٥٥ – سر صناعة الإعراب ، لابن جنى – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – القاهرة ١٩٥٤ م .
١٥٦ – سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجى – نشر عبد المتعال الصعيدى – القاهرة ١٩٥٣ م .
١٥٧ – ابن السكيت اللغوى ، لمحيى الدين توفيق إبراهيم – بغداد ١٩٦٩ م .
١٥٨ – سمط اللآلى فى شرح أمالى القالى ، لأبى عبيد البكرى – تحقيق عبد العزيز الميمنى – القاهرة ١٩٣٦ م .
١٥٩ – سيرة ابن هشام = السيرة النبوية ، لابن هشام – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – القاهرة ١٩٥٥ م .

١٦٠ – الشاء ، للأصمعى – نشر هفنر ، فى مجلة : SBWA فينا ١٨٩٦ م .
١٦١ – الشجر ، لأبى زيد الأنصارى – نشر ناجلبرج – كرشهايم ١٩٠٩ م .
١٦٢ – شجر الدر فى تداخل الكلام بالمعانى المختلفة ، لأبى الطيب اللغوى – تحقيق محمد عبد الجواد – القاهرة ١٩٥٦ م .
١٦٣ – شرح اختيارات المفضل الضبى ، للخطيب التبريزى – تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة – دمشق ١٩٧١ – ١٩٧٢ م .
١٦٤ – شرح أدب الكاتب ، للجواليقى – نشر مصطفى صادق الرافعى – القاهرة ١٣٥٠ هـ .
١٦٥ – شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك – مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة (بلا تاريخ) .
١٦٦ – شرح التصريف الملوكى ، لابن يعيش – تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة – حلب ١٩٧٣ م .
١٦٧ – شرح حماسة أبى تمام ، للمرزوقى – تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون – القاهرة ١٩٥١ – ١٩٥٣ م .
١٦٨ – شرح درة الغواص فى أوهام الخواص ، للشهاب الخفاجى – استانبول ١٢٩٩ م .
١٦٩ – شرح الشافية ، للأستراباذى – تحقيق محمد الزفزاف وآخرين – القاهرة ١٣٥٦ هـ .
١٧٠ – شرح شواهد الشافية ، لعبد القادر البغدادى – تحقيق محمد الزفزاف وآخرين – القاهرة ١٣٥٦ هـ .
١٧١ – شرح شواهد الكتاب ، للأعلم الشنتمرى – على هامش كتاب سيبويه – بولاق ١٣١٦ – ١٣١٧ هـ .
١٧٢ – شرح شواهد المغنى ، لجلال الدين السيوطى – بتصحيح الشنقيطى – القاهرة ١٣٢٢ هـ .
١٧٣ – شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، لابن الأنبارى – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٦٤ م .
١٧٤ – شرح مراح الأرواح ، لديكنقوز – القاهرة ١٩٣٧ م .
١٧٥ – شرح نهج البلاغة ، لابن أبى الحديد – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٦٠ م .

١٧٦ – شرح ابن يعيش لمفصل الزمخشري – المطبعة المنيرية بالقاهرة (بلا تاريخ) .

١٧٧ – شروح سقط الزند – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – القاهرة ١٩٤٥ م .

١٧٨ – الشعر والشعراء ، لابن قتيبة الدينورى – تحقيق أحمد شاكر – القاهرة ١٩٦٦ م .

١٧٩ – شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل ، لشهاب الدين الخفاجى – القاهرة ١٣٢٥ هـ .

١٨٠ – شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، لنشوان الحميرى – تحقيق تسترستين – ليدن ١٩٥١ – ١٩٥٣ م .

١٨١ – شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، لنشوان الحميرى – مطبعة عيسى البابى الحلبى (بلا تاريخ) .

١٨٢ – شواهد التوضيح ، لمشكلات الجامع الصحيح ، لابن مالك النحوى – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – القاهرة ١٩٥٧ م .

١٨٣ – الصاحبى فى فقه اللغة ، لابن فارس اللغوى – تحقيق السيد أحمد صقر – القاهرة ١٩٧٧ م .

١٨٤ – الصاحبى فى فقه اللغة ، لابن فارس اللغوى – تحقيق مصطفى الشويمى – بيروت ١٩٦٣ م .

١٨٥ – الصاهل والشاحج ، لأبى العلاء المعرى – تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء – القاهرة ١٩٧٥ م .

١٨٦ – الصحاح للجوهرى = تاج اللغة وصحاح العربية ، لأبى نصر الجوهرى – تحقيق أحمد عبد الغفور عطار – القاهرة ١٩٥٦ م .

١٨٧ – صفة جزيرة العرب ، للهمدانى – تحقيق محمد بن عبد الله بن بليهد النجدى – القاهرة ١٩٥٣ م .

١٨٨ – الصناعتين ، لأبى هلال العسكرى – تحقيق على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٥٢ م .

١٨٩ – طبقات فحول الشعراء ، لمحمد بن سلام الجمحى – تحقيق محمود محمد شاكر – القاهرة ١٩٥٢ م .

١٩٠ – العباب الزاخر واللباب الفاخر ، للصاغانى (حرف الهمزة) – تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين – بغداد ١٩٧٧ م .
١٩١ – عبث الوليد ، لأبى العلاء المعرى – القاهرة ١٩٧٠ م .
١٩٢ – عثرات اللسان فى اللغة ، لعبد القادر المغربى – دمشق ١٩٤٩ م .
١٩٣ – العرب فى سوريا قبل الإسلام ، لرينيه ديسو – ترجمة عبد الحميد الدواخلى – القاهرة ١٩٥٩ م .
١٩٤ – العرب قبل الإسلام ، لجرجى زيدان – القاهرة ١٩٦٦ م .
١٩٥ – العربية ، دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب ، ليوهان فك ، مع تعليقات المستشرق الألمانى شبيتالر – ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٨٠ م .
١٩٦ – العربية ولهجاتها ، للدكتور عبد الرحمن أيوب – القاهرة ١٩٦٨ م .
١٩٧ – العقد الفريد ، لابن عبد ربه – تحقيق أحمد أمين وآخرين – القاهرة ١٩٤٨ – ١٩٥٣ م .
١٩٨ – علم اللغة ، للدكتور على عبد الواحد وافى – القاهرة ١٩٥٧ م .
١٩٩ – علم اللغة ، رأى ومنهج ، للدكتور محمود السعران – القاهرة ١٩٦٢ م .
٢٠٠ – العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق القيروانى – القاهرة ١٩٠٧ م .
٢٠١ – العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدى – تحقيق الدكتور عبد الله درويش – بغداد ١٩٦٧ م .
٢٠٢ – عيون الأخبار ، لابن قتيبة الدينورى – القاهرة ١٩٢٨ – ١٩٣٠ م .
٢٠٣ – غريب الحديث ، لأبى عبيد القاسم بن سلام الهروى – حيدر آباد الدكن بالهند ١٩٦٤ –١٩٦٧ م .
٢٠٤ – غريب الحديث ، لابن قتيبة الدينورى – تحقيق الدكتور عبد الله الجبورى – بغداد ١٩٧٧ م .
٢٠٥ – الفائق فى غريب الحديث ، للزمخشرى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٤٥ – ١٩٤٨ م .
٢٠٦ – الفاضل ، لأبى العباس المبرد – تحقيق عبد العزيز الميمنى – القاهرة ١٩٥٦ م .

٢٠٧ – فحولة الشعراء ، نشر الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى – القاهرة ١٩٥٣ م .
٢٠٨ – الفرق ، للأصمعى – نشر موللر فى مجلة : SBWA – ڤينا ١٨٧٦ م .
٢٠٩ – الفروق اللغوية ، لأبى هلال العسكرى – القاهرة ١٩٥٣ م .
٢١٠ – فصل المقال ، شرح كتاب الأمثال ، لأبى عبيد البكرى – تحقيق عبد المجيد عابدين وإحسان عباس – الخرطوم ١٩٥٨ م .
٢١١ – الفصول والغايات ، لأبى العلاء المعرى – نشر محمود زناتى – القاهرة ١٩٣٨ م .
٢١٢ – فعلت وأفعلت ، لأبى حاتم السجستانى – تحقيق الدكتور خليل إبراهيم العطية – بغداد ١٩٧٩ م .
٢١٣ – فقه اللغة ، للدكتور على عبد الواحد وافى – القاهرة ١٩٥٦ م .
٢١٤ – فقه اللغة وسر العربية ، للثعالبى – مطبعة الاستقامة بالقاهرة (بلا تاريخ) .
٢١٥ – فهرس شواهد سيبويه – صنعة أحمد راتب النفاخ – بيروت ١٩٧٠ م .
٢١٦ – فهارس كتاب سيبويه ، صنع محمد عبد الخالق عضيمة – القاهرة ١٩٧٥ م .
٢١٧ – الفهرست ، لابن النديم – القاهرة ١٣٤٨ هـ .
٢١٨ – فى الأدب الجاهلى ، للدكتور طه حسين – القاهرة ١٩٤٧ م .
٢١٩ – فى أصول اللغة والنحو ، لفؤاد ترزى – بيروت ١٩٦٩ م .
٢٢٠ – فى الشعر الجاهلى ، للدكتور طه حسين – القاهرة ١٩٢٦ م .
٢٢١ – فى اللهجات العربية ، للدكتور إبراهيم أنيس – القاهرة ١٩٦٥ م .
٢٢٢ – القاموس المحيط ، للفيروزابادى – القاهرة ١٩١٣ م .
٢٢٣ – القلب والإبدال ، لابن السكيت (ضمن الكنز اللغوى فى اللسن العربى) – نشر هفنر – بيروت ١٩٠٣ م .
٢٢٤ – القوافى ، لأبى الحسن الأخفش – تحقيق أحمد راتب النفاخ – بيروت ١٩٧٤ م .
٢٢٥ – الكافى فى العروض والقوافى ، للخطيب التبريزى – نشر الحسانى حسن عبد الله – القاهرة ١٩٦٦ م .

٢٢٦ – الكامل فى اللغة والأدب ، للمبرد – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة – القاهرة ١٩٥٦ م .
٢٢٧ – الكتاب ، لسيبويه – بولاق ١٣١٦ – ١٣١٧ هـ .
٢٢٨ – الكتاب ، لسيبويه – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٦٦ – ١٩٧٧ م .
٢٢٩ – الكشاف ، للزمخشرى – القاهرة ١٩٤٨ م .
٢٣٠ – اللبأ واللبن ، لأبى زيد الأنصارى (ضمن البلغة فى شذور اللغة) – نشر لويس شيخو اليسوعى – بيروت ١٩١٤ م .
٢٣١ – لحن العامة والتطور اللغوى ، للدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٦٧ م .
٢٣٢ – لحن العوام ، لأبى بكر الزبيدى – تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٦٤ م .
٢٣٣ – لسان العرب ، لابن منظور الإفريقى – بولاق ١٣٠٠ – ١٣٠٧ هـ .
٢٣٤ – اللغة ، لفندريس – ترجمة عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص – القاهرة ١٩٥٠ م .
٢٣٥ – اللغة العبرية ، قواعد ونصوص ومقارنات ، للدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٧٧ م .
٢٣٦ – اللغة العربية فى عصور ما قبل الإسلام ، لأحمد حسين شرف الدين – القاهرة ١٩٧٥ م .
٢٣٧ – اللغات السامية ، للمستشرق الألمانى نولدكه – ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٦٣ م .
٢٣٨ – اللغات واللثغات ، لأنستاس الكرملى – مجلة المشرق (السنة السادسة) ص ٥٢٩
٢٣٩ – لغويات ، للشيخ محمد على النجار – القاهرة (بدون تاريخ) .
٢٤٠ – المأثور عن أبى العميثل الأعرابى – تحقيق كرنكو – بيروت ١٩٢٥ م .
٢٤١ – ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه ، للأصمعى – تحقيق مظفر سلطان – دمشق ١٩٥١ م .

٢٤٢ – ما تلحن فيه العوام ، لعلى بن حمزة الكسائى – تحقيق عبد العزيز الميمنى – القاهرة ١٣٤٤ هـ .

٢٤٣ – ما خالف فيه الإنسان البهيمة فى أسماء الوحوش وصفاتها ، لقطرب – نشر جاير فى مجلة : SBWA – ڤينا ١٨٨٧ م .

٢٤٤ – ما يجوز للشاعر فى الضرورة ، للقزاز القيروانى – تحقيق المنجى الكعبى – تونس ١٩٧١ م .

٢٤٥ – المباحث اللغوية فى العراق ، للدكتور مصطفى جواد – بغداد ١٩٦٥ م .

٢٤٦ – مبادىء اللغة ، للخطيب الإسكافى – القاهرة ١٣٢٥ هـ .

٢٤٧ – متخير الألفاظ ، لابن فارس – تحقيق هلال ناجى – بغداد ١٩٧٠ م .

٢٤٨ – المثنى ، لأبى الطيب اللغوى – نشر عز الدين التنوخى – دمشق ١٩٦٠ م .

٢٤٩ – مجالس ثعلب – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٦٠ م .

٢٥٠ – مجمع الأمثال ، للميدانى – القاهرة ١٣١٠ هـ .

٢٥١ – مجمل اللغة ، لابن فارس – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – القاهرة ١٩٤٧ م .

٢٥٢ – محاضرات الأدباء ، للراغب الإصفهانى – بيروت ١٩٦١ م .

٢٥٣ – محاضرات فى التاريخ والآثار – مطبوعات جمعية التاريخ والآثار – جامعة الرياض /كلية الآداب ١٩٦٩ م .

٢٥٤ – المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جنى – تحقيق على النجدى ناصف وآخرين – القاهرة ١٣٨٦ هـ .

٢٥٥ – المحكم فى نقط المصاحف ، لأبى عمرو الدانى – تحقيق الدكتور عزة حسن – دمشق ١٩٦٠ م .

٢٥٦ – المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة ، لابن سيدة الأندلسى – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – القاهرة ١٩٥٨ وما بعدها .

٢٥٧ – المحيط فى اللغة ، للصاحب بن عباد – تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين – بغداد ١٩٧٥ م .

٢٥٨ – المخصص فى اللغة ، لابن سيدة الأندلسى – بولاق ١٣١٦ – ١٣٢١ هـ .

٢٥٩ – المداخل فى غريب اللغة ، لأبى عمر الزاهد – تحقيق محمد عبد الجواد – القاهرة ١٩٥٨ م .

٢٦٠ – المدخل إلى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامية ، لعبد المجيد عابدين – القاهرة ١٩٥١ م .

٢٦١ – مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو ، للدكتور مهدى المخزومى – القاهرة ١٩٥٨ م .

٢٦٢ – المذكر والمؤنث ، للفراء – تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٧٥ م .

٢٦٣ – مراتب النحويين ، لأبى الطيب اللغوى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٥٥ م .

٢٦٤ – المرصع ، لابن الأثير – تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائى – بغداد ١٩٧١ م .

٢٦٥ – المزهر فى علوم اللغة ، لجلال الدين السيوطى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين – القاهرة ١٩٥٨ م .

٢٦٦ – مستقبل اللغة العربية المشتركة ، للدكتور إبراهيم أنيس – القاهرة ١٩٦٠ م .

٢٦٧ – المستقصى فى أمثال العرب ، للزمخشرى – حيدر آباد الدكن بالهند ١٩٦٢ م .

٢٦٨ – المسلسل فى غريب لغة العرب ، لأبى الطاهر التميمى – تحقيق محمد عبد الجواد – القاهرة ١٩٥٧ م .

٢٦٩ – مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ، للدكتور ناصر الدين الأسد – القاهرة ١٩٥٦ م .

٢٧٠ – المطر ، لأبى زيد الأنصارى (ضمن البلغة فى شذور اللغة) – نشر لويس شيخو اليسوعى – بيروت ١٩١٤ م .

٢٧١ – معانى القرآن ، للفراء – تحقيق الشيخ محمد على النجار – القاهرة ١٩٥٥ – ١٩٧٢ م .

٢٧٢ – معانى القرآن وإعرابه ، للزجاج – تحقيق عبد الجليل شلبى – بيروت ١٩٧٣ م .
٢٧٣ – المعانى الكبير ، لابن قتيبة الدينورى – حيدر آباد الدكن بالهند ١٩٤٩ م .
٢٧٤ – معجم الأدباء ، لياقوت الحموى – نشر أحمد فريد رفاعى – القاهرة ١٩٣٦ م .
٢٧٥ – المعجم العربى ، نشأته وتطوره ، للدكتور حسين نصار – القاهرة ١٩٥٦ م .
٢٧٦ – معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، لأبى عبيد البكرى – تحقيق مصطفى السقا – القاهرة ١٩٤٥ – ١٩٥١ م .
٢٧٧ – المعجمية العربية فى ضوء الألسنية السامية ، للأب مرمرجى الدومنكى – القدس ١٩٣٧ م .
٢٧٨ – المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم ، للجواليقى – نشر الشيخ أحمد شاكر – القاهرة ١٣٦١ هـ .
٢٧٩ – مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام المصرى – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – القاهرة (بلا تاريخ) .
٢٨٠ – مفاتيح العلوم ، للخوارزمى – القاهرة ١٣٤٢ هـ .
٢٨١ – مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، لطاش كبرى زاده – حيدر آباد الدكن بالهند – ١٣٢٨ – ١٣٥٦ هـ .
٢٨٢ – المفضليات ، بشرح أبى محمد القاسم بن بشار الأنبارى – تحقيق لايل – بيروت ١٩٢٠ م .
٢٨٣ – مقالة فى أسماء أعضاء الإنسان ، لابن فارس اللغوى – نشر الدكتور فيصل دبدوب – دمشق ١٩٦٧ م .
٢٨٤ – مقاييس اللغة ، لابن فارس اللغوى – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ١٣٦٦ – ١٣٧١ هـ .
٢٨٥ – المقتضب ، لأبى العباس المبرد – تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة – القاهرة ١٩٦٣ – ١٩٦٨ م .
٢٨٦ – المقدمة ، لابن خلدون – القاهرة ١٣٢٧ هـ .

٢٨٧ – مقدمة لدراسة فقه اللغة ، للدكتور محمد أحمد أبو الفرج – بيروت ١٩٦٦ م .

٢٨٨ – مقدمتان فى علوم القرآن : مقدمة كتاب المبانى ، ومقدمة ابن عطية – نشر آرثر جفرى – القاهرة ١٩٥٤ م .

٢٨٩ – المقصور والممدود ، لأبى البركات بن الأنبارى – نشر الدكتور عطية عامر – ستوكهلم ١٩٦٦ م .

٢٩٠ – المقصور والممدود ، لنفطويه – نشر الدكتور حسن شاذلى فرهود – مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض (المجلد الرابع) ١٩٧٥ – ١٩٧٦ م .

٢٩١ – المقصور والممدود ، لابن ولاد – نشر بولس برونله – ليدن ١٩٠٠ م .

٢٩٢ – الممتع فى التصريف ، لابن عصفور – تحقيق فخر الدين قباوة – حلب ١٩٧٠ م .

٢٩٣ – الممدود والمقصور ، لأبى الطيب الوشاء – تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٧٩ م .

٢٩٤ – مميزات لغات العرب ، لحفنى ناصف – القاهرة ١٩٥٧ م .

٢٩٥ – من أسرار اللغة ، للدكتور إبراهيم أنيس – القاهرة ١٩٦٦ م .

٢٩٦ – المنجد فى اللغة ، لكراع النمل – تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر وضاحى عبد الباقى – القاهرة ١٩٧٦ م .

٢٩٧ – المنصف ، لابن جنى ، بشرح التصريف للمازنى – تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين – القاهرة ١٩٥٤ م .

٢٩٨ – المنقوص والممدود ، للفراء – تحقيق عبد العزيز الميمنى – القاهرة ١٩٦٧ م .

٢٩٩ – الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، للمرزبانى – تحقيق على محمد البجاوى – القاهرة ١٩٦٥ م .

٣٠٠ – مولد اللغة ، للشيخ أحمد رضا العاملى – بيروت ١٩٥٦ م .

٣٠١ – النبات ، لأبى حنيفة الدينورى – نشر لوين – ليدن ١٩٥٣/ڤيسبادن ١٩٧٤ م .

٣٠٢ – النبات والشجر ، للأصمعى (ضمن البلغة فى شذور اللغة) – نشر

هفنر ، ولويس شيخو اليسوعي – بيروت ١٩١٤ م .
٣٠٣ – نثر الدرر ، للوزير أبى سعد الآبى – مخطوطة كوبر يللى رقم ١٤٠٣
٣٠٤ – النثر الفنى فى القرن الرابع ، للدكتور زكى مبارك – القاهرة ١٩٥٧ م .
٣٠٥ – النخلة ، لأبى حاتم السجستانى – تحقيق المستشرق لاغومينا – روما ١٨٩١ م .
٣٠٦ – نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، لأبى البركات بن الأنبارى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٦٧ م .
٣٠٧ – نسب الخيل فى الجاهلية والإسلام وأخبارها ، لابن الكلبى – نشر ليفى دلا ڤيدا – ليدن ١٩٢٨ م .
٣٠٨ – نشوء اللغة ونموها واكتهالها ، للأب أنستاس مارى الكرملى – القاهرة ١٩٣٨ م .
٣٠٩ – نصوص من اللغات السامية ، مع الشرح والتحليل والمقارنة ، صنعة الدكتور رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٧٩ م .
٣١٠ – النقائض = نقائض جرير والفرزدق – تحقيق بيڤان – ليدن ١٩٠٥ – ١٩٠٧ م .
٣١١ – نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر – تحقيق بونيباكر – ليدن ١٩٥٦ م .
٣١٢ – النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير – تحقيق محمود الطناحى – القاهرة ١٩٦٣ – ١٩٦٥ م .
٣١٣ – النوادر فى اللغة ، لأبى زيد الأنصارى – نشر سعيد الشرتونى – بيروت ١٨٩٤ م .
٣١٤ – نور القبس المختصر من المقتبس ، للمرزبانى – اختصار الحافظ اليغمورى – تحقيق رودلف زلهايم – ڤيسبادن ١٩٦٤ م .
٣١٥ – الهمز ، لأبى زيد الأنصارى – نشر لويس شيخو اليسوعى – بيروت ١٩١١ م .
٣١٦ – الوحوش ، للأصمعى – نشر جاير فى مجلة : SBWA –ڤينا ١٨٨٨ م .
٣١٧ – الوساطة بين المتنبى وخصومه ، لعلى بن عبد العزيز الجرجانى – تحقيق على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٩٤٥ م .

٢ - المراجع الأجنبية

1 — Abdel-Tawab, Das Kitāb al-Ġarīb al-Muṣannaf von Abu Ubaid ʿund seine Bedeutung für die national-arabische lexikographie, Diss. München 1962.

2 — A. Bloch, Vers und Sprache im Altarabischen, Basel 1946.

3 - C. Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen, Bd. I-II, Berlin 1908-1913.

4 - C. Brockelmann, Semitische Sprachwissenschaft, Leipzig 1906 .

5 - C. Brockelmann, Syrische Grammatik, Leipzig 1955.

6 — W. Gesenius, Hebräische Grammatik, vollig umgearbeitet von E. Kautzsch, 28. Auflage, Leipzig 1909.

7 — C.H. Gordon, Ugaritic Manual, Roma 1955.

8 — A. Grohmann, From the world of Arabic Papyri, Cairo 1952.

9 — D. Jones, An Outline of English Phonetics, Cambridge 1947.

10 — P.E Kahle, Die Kairoer Genisa, Berlin 1962.

11 — H. Kofler, Reste altarabischer Dialekte, WZKM, Wine 1940-1942.

12 — F. Krenkow, The Beginnings of Arabic Lexikography till the time of al-Jauhari, with special refrence to the work of Ibn Duraid, JRAS, Centenary Supplement 1924.

13 — Enno Littmann, Vorislam.-arab.Inschrift, ZS, Bd. vii 1929.

14 — Lommel, Wie studiert man Sprachwissenschaft, Frank furt/M.

15 — S. Moscati, An Introduction to the comparative grammar of the semitic Languages... by S.Moscati, A. Spitaler, E.Ullendorff and W. von Soden, Wiesbaden, 1964.

16 — S. Moscati, Die altsemitischen Kulturen, Stutgart 1961.

17 — Th. Nöldeke, Einige Bemerkungen über die Sprache der alten Araber, ZA xii 171-187.

18 — Th. Nöldeke, neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, Strassburg 1910.

19 — Th. Nöldeke, Zur Grammatik des classischen Arabisch, bearbeitet und mit zusätzen versehen von A. Spitaler, Darmstadt 1963.

20 — F. Praetorius, Aethiopische Grammatik, New York 1955.

21 — C. Rabin, Ancient West Arabian, London 1951.

22 — Répertoier chronologique d'Epigraphie Arabe, Le Caire 1931.

23 - W. von Soden, Grundriss der akkadischen Grammatik, Roma 1925.

24 — A. Spitaler, Arabisch, in Linguistica Semitica Presente e Futuro, Roma 1961.

25 — K. Vollers, Volkssprache und Schriftsprache in alten Arabien, Strassburg 1906

26 — St. Wild, Das Kitab al-Ain und die arabische Lex ikographie, Wiesbaden 1965.



فهرس الموضوعات

مقدمة الطبعة الثانية (٣) .

مقدمة الطبعة الأولى (٥) .

تمهيد (١) **بين فقه اللغة وعلم اللغة** : معنى فقه اللغة – معنى علم اللغة – ما يقابلهما عند علماء الغرب – صلة كل واحد منهما بالآخر – متى ظهرت كلمة « فقه اللغة » فى العالم العربى الحديث – فقه اللغة وعلم اللغة فى الجامعات العربية (٩ – ١٢) .

(٢) **جهود علماء العربية فى فقه اللغة** : فقه اللغة للثعالبى – الصاحبى فى فقه اللغة – فكرتا : الأصول والنحت فى مقاييس اللغة – الخصائص – المزهر فى علوم اللغة – جهود المحدثين من العرب ، فى التأليف والترجمة فى موضوعات فقه اللغة وعلم اللغة (١٣ – ٢٢) .

الباب الأول : فى أولية اللغة العربية :

الفصل الأول : اللغة العربية واللغات السامية : فصيلة اللغات السامية – أول من أطلق عليها هذا الاسم – نقد تقسيم التوراة للشعوب – الأكادية وموطنها وآدابها واكتشافها وحل نقوشها – الكنعانية – الأوجارتية واكتشافها – العبرية والعهد القديم – قصيدة دبورة – السبى البابلى – الترجوم – العبرية فى العصر الهلينى – كتاب ابن سيرة وإستير والجامعة – العبرية الوسيطة والحديثة – خطابات تل العمارنة – المؤابية ونقش ميشع – الفينيقية والبونية – الآرامية ونقوشها – آرامية العهد القديم – آرامية جزيرة الفيلة – ترجوم أنكلوس – السامرية – المنداعية – السريانية – اللهجات الآرامية الحديثة – الحبشية الجعزية – الأمهرية – العربية الجنوبية والشمالية – شجرة اللغات السامية – نماذج من الخطوط السامية وأبجدياتها (٢٣ – ٣٧) .

الموطن الأصلى للساميين : المذهب الإفريقي – المذهب الأرمينى – المذهب البابلى – المذهب العربى – الأدلة على أن الجزيرة العربية هى المهد الأول للساميين (٣٨ – ٤٢) .

اللغويون العرب واللغات السامية : الخليل بن أحمد والكنعانية – أبو عبيد القاسم ابن سلام والسريانية – ابن حزم الأندلسى والعبرية والسريانية – الإمام السهيلى والسريانية – أبو حيان الأندلسى والحبشية (٤٢ – ٤٥) .

خصائص اللغات السامية : اعتمادها على الأصوات الصامتة – الثلاثى هو الأساس – غلبة أصوات الحلق والأصوات المفخمة – الحدث التام والحدث الذى لم يتم – التركيب وبعدها عنه (٤٥ – ٤٦) .

أهمية الدراسات السامية للعربية : الفائدة الحضارية والفائدة اللغوية – أمثلة لفوائد المقارنة : الثوم والفوم – ثاب وتاب – ليس – الأجوف والناقص – اطمأنّ – اسم – انفعل وافتعل فى اللهجات العربية الحديثة (٤٦ – ٤٩) .

الفصل الثانى : النقوش العربية الشمالية : الثمودية واللحيانية والصفوية – جهود المستشرق « إنو ليتمان » فى جمع هذه النقوش ودراستها – خصائص هذه النقوش – صلتها بخط المسند – أحد النقوش الصفوية وقراءته – رأى الدكتور عبد الرحمن الأنصارى فى النقوش الثمودية – نقش النمارة وقراءته – نقش زبد وقراءته – نقش حران وقراءته – نقش أم الجمال وقراءته – هذه النقوش خليط من العربية وغيرها – ما فيها من غير العربية – ما فيها من خصائص العربية ليس كافيا لمعرفة أولية العربية – رأى المستشرق شبيتالر – رأى الدكتور إبراهيم أنيس – الأمل فى حفريات المستقبل (٥٠ – ٦٣) .

الفصل الثالث : مشكلة توثيق النصوص : قضية الشك فى الشعر الجاهلى – أول من تشكك مرجليوث – الدكتور طه حسين وكتابه فى الشعر الجاهلى – ردود علماء المسلمين عليه – الدكتور ناصر الدين الأسد وضروب الشعر الجاهلى (٦٤ – ٦٨) .

الباب الثانى : فى العربية الفصحى واللهجات :

تمهيد :
الفرق بين اللغة واللهجة – نظرية الأمواج – رأى أنطوان مييه – علاقة اللغة باللهجة – خلط اللغويين العرب بينهما – أهمية دراسة اللهجات العربية القديمة – صعوبة دراسة هذه اللهجات (٦٩ – ٧٥) .

الفصل الأول : ظروف تكون العربية الفصحى وخصائصها : اللغة الفصحى واللهجات – العلاقة بينهما فى نظر : نولدكه ، وجويدى ، ونللينو ، وفيشر ، وفوللرز ، وبروكلمان ، وفتسشتاين ، ولاندبرج ، ومارسيه – الفصحى هى لغة البدو عند علماء العربية – اللغة الأدبية واللغة الشعبية – نشأة الفصحى قبل الإسلام – الظروف الدينية والسياسية والاقتصادية ، التى أدت إلى تكوّن الفصحى – صفات الفصحى العربية : لغة فوق مستوى العامة – رأى الأصمعى – القرآن الكريم وأعلى مستويات الفصاحة – رأى الباقلانى – الفصحى لا تنتمى إلى لهجة بعينها – لغة قريش تسهم فى خصائصها بنصيب كبير – الهمز وانتماؤه إلى لهجة تميم – رأى الدكتور أنيس – خلو الشعر من الخصائص اللهجية – الشواهد الشاذة وموقفنا منها – الأدب الشعبى – تنقل الشعر على ألسنة الرواة – وضع النحويين للشواهد – التصحيف والتحريف – الفصحى ليست لغة سليقة لكل العرب – رأى الدكتور أنيس – الإقواء واللحن (٧٦ – ٩٥) .

السليقة اللغوية ومصادر الاحتجاج : معنى السليقة عند القدماء والمحدثين – رأى ابن خلدون – الاحتجاج بالقرآن الكريم وقراءته الشاذة – الحديث الشريف وموقف النحويين واللغويين منه – السبب الحقيقى فى انصراف النحاة الأوائل عن الاستشهاد بالحديث – لغة بلحارث بن كعب وشواهدها – علاقتها بالسامية الأم – الاحتجاج بالشعر وطبقات الشعراء – وقوفهم بالشعر عند زمن معين وإطلاقهم المكان – النثر والقبائل التى يحتج بكلامهم –

قوائم الفارابى وابن خلدون للقبائل الفصيحة – مقاييس اللغويين للأخذ عن القبائل – منهج البصريين والكوفيين فى هذه القضية – خلطهم الفصحى باللهجات – نقد منهج الفريقين (٩٥ – ١٠٧) .

الفصل الثانى : **لولا القرآن ما كانت عربية** : القرآن الكريم محور الدراسات العربية – نشأة المعاجم قرآنية – تفسير ابن عباس للقرآن بالشعر – الشعر ديوان العرب – لولا القرآن ما روى الشعر – نشأة النحو قرآنية – أبو الأسود الدؤلى ووضع النحو – علوم البلاغة فى خدمة القرآن الكريم – مجاز القرآن لأبى عبيدة – الرسم الإملائى وضبط المصحف – الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية وأثر الإسلام فيها (١٠٨ – ١١٥) .

الفصل الثالث : **ألقاب اللهجات العربية** : تقديس اللغويين لغة قريش وازدراؤهم اللهجات الأخرى – تلقيبهم اللهجات العربية بألقاب مختلفة – المسئول عن هذه الألقاب رجل من جرم فى مجلس معاوية – اختلاف المصادر فى رواية خبر الرجل الجرمى وتحرير هذا الخبر – التوفيق بين الآراء فى نسبة اللقب الواحد إلى أكثر من قبيلة – الاستنطاء وشواهده وتفسيره – التضجع وتفسيره – لا صلة للتضجع بالإضجاع – التلتلة والسامية الأم والركام اللغوى – الرتّة بين العجلة فى الكلام واللثغة فى اللسان – العلاقة بين الرتة واللخلخانية – الشنشنة وعلاقتها بالكشكشة – الطمطمانية وشواهدها وتفسيرها – العجرفية وغموضها – العجعجة وشواهدها وتفسيرها – عكس ظاهرة العجعجة فى اللهجات الحديثة – العنعنة وعلاقتها بالمبالغة فى تحقيق الهمز – الغمغمة فى رأينا محرفة عن العجعجة – مجمع اللغة العربية يوافق على اقتراحى بحذف هذا اللقب من ألقاب اللهجات العربية – الفحفحة ليست ظاهرة عامة – الفراتية وعلاقتها بالرتّة واللخلخانية – القطعة والترخيم – الكسكسة والكشكشة وشواهدهما – الأصل فيهما – قانون الأصوات الحنكية – الامتداد الحديث

للظاهرتين – الجيم الفصيحة تطور فى نفس الاتجاه – تطور الظاهرة وشنشنة اليمن – رأى غريب لكانتينو فى تفسير الظاهرة – اللخلخانية وغموض اللقب – علاقتها بالرتّة والفراتية – الوتم والتطور الصوتى – الوكم وقانون المماثلة – الوهم وإجراء القياس لطرد الباب على وتيرة واحدة – ليس المراد حصر خصائص اللهجات العربية (١١٦ – ١٥٤) .

الباب الثالث : بين الشعر والنثر :

الفصل الأول : خصائص الكلام بين الشعر والنثر : ضرورة الفصل بين لغة الشعر ولغة النثر فى وضع القواعد – رأى المستشرق شبيتالر – كتاب « بلوخ » فى الشعر واللغة فى العربية القديمة – أنواع المقاطع وتواليها على نظام معين فى النثر والشعر – الشعر لا يقبل توالى المقاطع القصيرة – أمثلة تطبيقية – القدماء أمام هذه المشكلة (١٥٥ – ١٦٢) .

الفصل الثانى : ضرورة الشعر والخطأ فى اللغة : تكلف اللغويين والنحويين فى تعريف الضرورة وتخريجها – رأى أبى هلال العسكرى – موقف ابن جنى من بعض الضرورات – الإقواء خطأ فى النحو لا فى الموسيقى – نقاد الشعر يعكسون القضية – الدليل على وهمهم – ضرورة تسكين المتحرك وشواهدها – موقف سيبويه ومن بعده من شواهد التسكين – تغيير المبرد للشواهد – الرواة تصلح أشعار القدماء – ضرورة تحريك الساكن وشواهدها – تكلف ابن جنى فى تخريجها – ضرورة تقصير الحركات الطويلة وشواهدها – الخط العربى مبنى على الوقف – الشذوذ فى الخط القديم وتكلف القدامى فى تفسيره – ضرورة إطالة الحركات القصيرة وشواهدها – أمثلة أخرى للضرورة الشعرية – فطنة بعض اللغويين إلى أثر الضرورة فى اللغة (١٦٣ – ١٩٢) .

الفصل الثالث : أثر الوزن الشعرى فى أبنية العربية : وزن (افعالّ) والشعر العربى – المقاطع الصوتية ونقد نظرية اللغويين فى التقاء الساكنين – رأى المبرد فى جواز (افعالّ) فى بحر المتقارب ونقد رأيه – أثر الشعر فى تحول (افعالّ) إلى (افعألّ) بإقحام

الهمزة – دراسة لأمثلة هذه الظاهرة ، وربط معناها بالثلاثى فى كل مادة – وزن (افعالّ) ليس خاصا بالألوان – تطور (افعألّ) إلى (افععلّ) ومذهب تميم فى المبالغة فى تحقيق الهمز – أمثلة هذا التطور – تطور (افعألّ) إلى (افعهلّ) وتسهيل الهمز – أمثلة هذا التطور – أمثلة أخرى لأثر الوزن الشعرى فى نشوء صيغ جديدة فى العربية (١٩٣ – ٢٢٦) .

الباب الرابع : الثراء اللغوى فى العربية :

الفصل الأول : المعاجم العربية ، نظرة تاريخية : أنواع المعاجم – المخارج الصوتية والتقليبات – الترتيب الأبجدى بحسب الأصل الأول أو الأخير للكلمة – الترتيب الموضوعى – الرسائل اللغوية الصغيرة ونواة المعجم العربى – أخذ اللغة عن البدو وسياحة اللغويين فى الصحراء العربية – جهود الأصمعى فى الرسائل اللغوية : الإبل – الخيل والمؤلفات فيه – الشاء – الوحوش والمؤلفات فيها – الفرق بين الإنسان والحيوان – خلق الإنسان والمؤلفات فيه – النبات والشجر والمؤلفات فيه – كتب تنسب إلى الأصمعى وليست له – كتب الأضداد التى وصلت إلينا – شجر الدر لأبى الطيب اللغوى والمؤلفات المماثلة – كتب الإتباع – المثنى لأبى الطيب اللغوى – كتب القلب والإبدال – جهود أبى زيد الأنصارى فى الرسائل اللغوية : المطر – الهمز وسبب التأليف فيه – اللبأ واللبن – النوادر فى اللغة وما وصل إلينا منها – جهود الفراء فى الرسائل اللغوية : الأيام والليالى والشهور – تراث المقصور والممدود – تراث المذكر والمؤنث – معاجم المعانى : الغريب المصنف وأثره فى المعاجم العربية – الألفاظ الكتابية – جواهر الألفاظ – متخير الألفاظ – التلخيص فى معرفة أسماء الأشياء – مبادىء اللغة – فقه اللغة وسر العربية – المخصص فى اللغة – كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ . المعاجم العربية الكبرى عبر التاريخ : العين للخليل بن أحمد – الجيم لأبى عمرو الشيبانى – جمهرة اللغة لابن دريد – ديوان الأدب للفارابى – البارع للقالى – تهذيب اللغة للأزهرى –

المحيط فى اللغة للصاحب بن عباد – مجمل اللغة ومقاييس اللغة لابن فارس – الصحاح للجوهرى – المحكم لابن سيدة – أساس البلاغة للزمخشرى – شمس العلوم لنشوان الحميرى – التكملة للصاغانى – لسان العرب لابن منظور – المصباح المنير للفيومى – القاموس المحيط للفيروزابادى – تاج العروس لمرتضى الزبيدى – عيوب المعاجم العربية (٢٢٧ – ٢٨٩) .

الفصل الثانى : الاشتقاق وتوليد الصيغ : معنى الاشتقاق عند علماء الغرب ، واللغويين العرب – أنواع الاشتقاق – الاشتقاق العام ، وموقف البصريين والكوفيين منه – هذا النوع قياسى – غلو ابن فارس فى سماعيته – غلو ابن دريد فى اشتقاق الأعجمى من العرب – رأى ابن السراج – مذهب ابن فارس فى الأصول الاشتقاقية – الاشتقاق الأكبر وولوع ابن جنى به – الفرق بينه وبين طريقة التقاليب عند الخليل بن أحمد – أصحاب مذهب الثنائية فى العربية : أنستاس مارى الكرملى – مرمرجى الدومنكى – النظرية الثنائية فى ميزان النقد (٢٩٠ – ٣٠١) .

النحت فى اللغة : تعريف النحت – هو من ضروب الاشتقاق – السبب فى نشوء النحت – أنواع النحت – مذهب ابن فارس فى الرباعى والخماسى ، وأن بعضها منحوت – ذهب إلى هذا الخليل بن أحمد كذلك – تكلف ابن فارس فى كثير من الأمثلة – وسائل أخرى لنشوء الرباعى لم يفطن إليها القدماء – العربية تعرف النحت ولا تعرف التركيب (٣٠١ – ٣٠٧) .

الفصل الثالث : ظاهرة الترادف والاشتراك اللفظى والتضاد فى العربية :

أولا : الترادف : تعريف المترادف – اختلاف اللغويين فى جواز وقوعه فى العربية – مبالغة الأصمعى وابن خالويه فيه – معارضة ابن الأعرابى ، وثعلب ، وأبى على الفارسى ، وابن درستويه ، وابن فارس فى وقوعه – ابن درستويه يفطن إلى العوامل التى تؤدى إلى الترادف – من أنكر والترادف من الأدباء – أبو هلال العسكرى وكتابه : « الفروق اللغوية » – أبو هلال يذكر بعض المترادفات فى كتابيه : « التلخيص » و « المعجم فى

بقية الأشياء » بلا فروق – أسباب كثرة المترادف فى العربية : اللهجات – الصفات – التطور اللغوى – الاقتراض – شروط الترادف عند المحدثين – فائدة المترادف (٣٠٨ – ٣٢٤) .

ثانيا : الاشتراك اللفظى : تعريفه – وقوع الخلاف حول وجوده – ابن درستويه وأبو على الفارسى ينكران وجوده فى أصل الوضع – معانى كلمة العجوز فى العربية – عوامل نشأة المشترك اللفظى : المجاز ومعانى كلمة : « عين » – اللهجات – الاقتراض – التطور اللغوى – لا وجود للمشترك اللفظى إلا فى معاجم اللغة – أثر المشترك اللفظى فى التورية والتأليف فى المشجر والمداخل والمسلسل (٣٢٤ – ٣٣٦) .

ثالثا : التضاد : تعريفه – ابن درستويه ينكر التضاد – أصل التضاد فى العربية – شروطنا فى كلمات الأضداد – العوامل التى تؤدى إلى التضاد فى اللغة : عموم المعنى الأصلى – التفاؤل – التهكم – الخوف من الحسد – التطور اللغوى – المجاز والاستعارة – احتمال الصيغة الصرفية للمعنيين – عرض لكتابى : « ردسلوب » و « جيسى » فى الأضداد فى العربية (٣٣٦ – ٣٥٧) .

الفصل الرابع : التعريب وألفاظ الحضارة : اتصال العرب فى الجاهلية بالأمم المجاورة – أثر الاحتكاك بين الشعوب فى اللغة – أمثلة لتأثر العربية باللغات المجاورة – مذهب أبى عبيدة وأبى بكر بن الأنبارى فى إنكار وقوع المعرب فى القرآن الكريم – محاولة أبى عبيد القاسم بن سلام التوفيق بين الآراء – حملة الشيخ أحمد شاكر على الجواليقى – الاقتراض من اللغات المجاورة حقيقة واقعة – علامات المعرب – منهج العربية فى التعريب – اقتراض الألفاظ والمعانى – غلبة المعرب على العربى أحيانا – تطويع العربية للمعرب والاشتقاق منه – تعريب مصطلحات الحضارة فى العصر الحديث – رأى مجمع اللغة العربية فى التعريب – مذهبنا فى هذه القضية : تعريب اللفظ بمجرد ظهور

المستحدث الحضارى ، وقبل شيوع اسمه الأعجمى على الألسنة ! (٣٥٨ – ٣٦٨) .

الباب الخامس : من قضايا اللغة ومشكلات العربية :

الفصل الأول : قضية الإعراب : رأى جمهرة النحاة فى دلالة الإعراب على المعانى – رأى قطرب فى أن الإعراب حركات جىء بها للسرعة فى الكلام والتخلص من التقاء الساكنين – الدكتور إبراهيم أنيس يتابع قطربا على رأيه – تفصيل نظرية الدكتور أنيس – بعض المستشرقين يتشككون فى حقيقة الإعراب – فوللرز – باول كاله – فتسشتاين – نولدكه يرد على المتشككين – أدلتنا على دلالة الإعراب على المعانى : اللغات السامية كالأكادية والحبشية والأوجاريتية – تواتر قراءة القرآن الكريم بالإعراب – الرسم القرآنى – موازين الشعر العربى – أخبار اللحن – سماع العلماء من البدو – تفسير المستشرقين للحركات الإعرابية – قضية ضياع الإعراب من الفصحى وسببها – نقد رأى نولدكه فى ثبات أجزاء الجملة العربية القديمة (٣٦٩ – ٣٩٥) .

الفصل الثانى : مشكلة الخط العربى وأوهام اللغويين : صلة المشكلة بالدرس اللغوى – خلو الخط العربى من رموز الحركات وأثره فى أوهام اللغويين – تاريخ الخط العربى ومشكلة الضبط بالشكل – رموز القراءة كلها من عمل الخليل بن أحمد – جدل ابن جنى حول موضع الحركة من الحرف – وهم أبى على الفارسى فى القول بأن الحركة تحدث مع الحرف – فطنة ابن جنى إلى العلاقة بين الحركات القصيرة وحروف المد – ازدواج وظيفة الواو والياء فى الخط العربى – أثر هذا الازدواج فى أوهام القدامى فى الصرف والعروض – الخط وسيلة ناقصة للتعبير عن الصورة السمعية الحية – وجوب تأسيس القواعد على المنطوق لا على المكتوب (٣٩٦ – ٤١٢) .

الفصل الثالث : مشكلة تعليم العربية : كثرة الشكوى من ضعف الدارسين فى اللغة العربية – بعض المستشرقين يلحظ ذلك – المشكلة معقدة وجوانبها متعددة – لماذا نهتم بالعربية الفصحى ؟ ارتباط

الفصحى بالقرآن الكريم – الازدواج اللغوى أمر لا مفر منه – هل العربية لغة صعبة ؟ صعوبة إعراب الفصحى لا تنفرد به العربية – بعض الصعوبات سببه انشغال النحاة العرب بالجدل العقيم عن وصف الظاهرة اللغوية – كيف ينتقى مدرس العربية وكيف يعد ؟ ضعاف حملة الثانوية العامة هم الذين يدخلون أقسام اللغة العربية ودار العلوم – الموهوبون وذوو الاستعداد اللغوى لا يتخصصون فى العربية – المرحلة الابتدائية أهم مراحل التعليم وأخطرها – العناية بمعلم هذه المرحلة واجب وطنى – الطريق الأمثل إلى تعلم العربية – حفظ النصوص وفهمها لا حفظ القواعد – رأى ابن خلدون فى تعلم اللغة العربية – الكتاب المدرسى يجب أن يضبط بالشكل الكامل – وسائل الإعلام ودورها فى نشر الفصحى – الإذاعة والتليفزيون يقومان بدور التوجيه لا الانقياد ! (٤١٣ – ٤٢٦) .

مراجع الكتاب : ١ – المراجع العربية (٤٢٧ – ٤٤٦) .

٢ – المراجع الإفرنجية (٤٤٧ – ٤٤٨) .

فهرس الموضوعات (٤٤٩) .

* * *